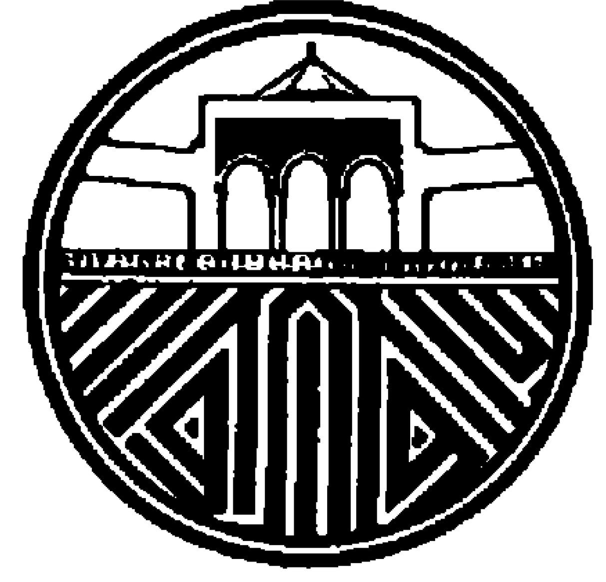


منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة: رسائل وأطروحات رقم 46

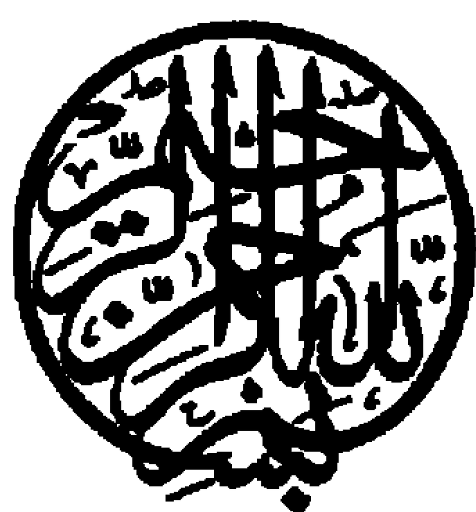
مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار

لأبي العباس أحمد بن محمد بن يعقوب الولالي

دراسة وتحقيق
عبد العزيز بوعصاب

1999

مباحث الأنوار
في أخبار بعض الأخيار



الكتـــــاب : **مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار.**

سلسلـــــة : رسائل وأطروحات.

المؤلـــــف : أحمد بن محمد بن يعقوب الولالي.

المحقـــــق : عبد العزيز بوعصّاب.

الناشـــــر : كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط.

الخطـــــوط : بلعيد حميدي.

الغـــــلاف : إعداد عمر أفا.

التصفيـــــف : أنسيف الزنايدي.

الطبـــــع : مطبعة النجاح الجديدة ــ الدار البيضاء.

ردمـــــك : ISBN 9981-59-002-9.

التصفيف الدولي : 1113-0334.

الإيداع القانوني : 1997/1763.

الطبعة الأولـى : 1999.

طبع هذا الكتاب بدعم من برنامج التعاون بين الكلية ومؤسسة كونراد أدناور

الإهداء

إلى روح سعيد...

شكر واعتراف

أتقدم بخالص شكري إلى أستاذي الجليل أحمد التوفيق الذي أشرف على هذا العمل المتواصل ورعاه بتوجيهاته النيرة، كما أجدد شكري للأستاذين الفاضلين محمد حجي وعبد اللطيف الشاذلي اللذين ناقشا هذا البحث وأبديا ملاحظاتهما السديدة في شأنه.

ولا يفوتني في الأخير أن أعبر عن تقديري لقيدوم كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط السيد عبد الواحد بنداود وجميع أعضاء مصلحة النشر وكل الأصدقاء الذين لم يبخلوا علي بتشجيعاتهم الحافزة.

الرموز المستعملة

خ س : الخزانة الحسنية

خ ع : الخزانة العامة

س : مخطوطة الخزانة الحسنية رقم 5617

ق : مخطوطة الخزانة العامة رقم 342 ق

ك : مخطوطة الخزانة العامة رقم 2305 ك

(٥) : بداية الصفحة في المخطوطة رقم 342 ق

وقد وضعنا أرقام صفحات الأصل على الجانب الأيمن للمتن.

التقديم

يعتبر نص **«مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار»** من التآليف التي تحتوي على مادة أصلية تصلح للمؤرخ. فطبعه خدمة جلى لمؤرخي الفكر (العلوم والتعليم والتصوف) ولمؤرخي المجتمع والسياسة أيضا. فمؤلفه أبو العباس آلولالي من بيئة صنهاجية حديثة العهد بالإستقرار في عصره إذا قيست بغيرها في جهات ملوية ثم فزاز. والرجل من تلاميذ الزاوية الدلائية ومن آلمؤثرين بأستاذها الفرد أبي علي اليوسي، وهو شاهد من شهود كارثة هذه الزاوية بهدمها على يد أمير الوقت لأسباب سياسية، وهو بعد كل هذا ممن ربط حبله ببعض شيوخ التصوف في ذلك العصر. وأشهرهم محمد بن عبد الله السوسي الذي اشتهر بمراكش ومر بزاوية الدلاء عام **1069**هـ والولالي طالب بها.

حاول محقق الكتاب الأستاذ عبد العزيز بوعصاب أن يجد في دراسته التقديمية للنص علاقة بين الرجل وعصره والباعث له على التأليف، أي أنه اجتهد في أن يجد للنص معنى في سياقه، ولا شك أن أطروحته محفزة للتدبر والتفكير.

بيد أن عمله في التحقيق هو الخدمة الجلى للباحثين، بمقارنة الرصينة بين ثلاث نسخ آستنسخت أقدمها سنة وفاة المؤلف، ووصفت ثانيتها بأنها نسخة أميرية.

وهكذا تقع بين أيدينا باقة أخرى من التراجم بعضها انفرد به الكتاب وهو مصدرها، كما انفرد بأخبار اعتمد فيها الرواية الشفاهية، وتزيد قيمة كل ما ذكرناه بانتماء المؤلف إلى جهة قل فيها التعليم والتأليف إلى غاية القرن العاشر. فتكون للنص قيمة بلونه ونَفَسِهِ تضاف إلى قيمته بمادته وموضوعه.

وبنشره، تضيف كلية الآداب إلى رصيدها أثراً قيِّماً في هذا المجال، ويسهم عبد العزيز بوعصاب في بناء مواد التاريخ الذي نتحفز لإعادة كتابته أكمل ما يمكن.

الرباط **6** ذو الحجة **1417** موافق **14** أبريل **1997**

ذ. أحمد التوفيق

مقدمة التحقيق

يعد كتاب «**مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار**» من كتب التراجم والمناقب، ويضم بين ثناياه معلومات وإشارات تغري باستثمارها أكثر من مختص. أفضت بنا عملية البحث والتحري إلى العثور على ثلاث نسخ منه فقط، ومن بينها نسخة واحدة منقولة عن الأصل، وهذا ما قرب من الموضوعية وجعلنا نمضي في عملنا بكثير من الاِطمئنان سالكين في ذلك المنهج العلمي في تحقيق التراث.

عاش مؤلِّف الكتاب أبو العباس أحمد الولالي في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وبداية الثاني عشر الهجري، إذ كانت وفاته عام 1128هـ/1717م. نشأ بأعالي ملوية في منطقة جبلية غلبت العجمة على لسان رجالها. ولم تكن عائلة الولالي غير مشهورة في مجتمعها القبلي، إذ عرف عدد من أفرادها بالولاية والنسك والتفقه في الدين، دخل الزاوية الدلائية طالبا وفيها تخرج عالما وفقيها، وفي هذه الزاوية كان تعلقه بأستاذه الحسن اليوسي كبيراً، فبه تأثر أسلوباً وتكوينا. أما صحبته للشيخ محمد بن عبد الله السوسي، فلم تزده إلا تشبعا بالثقافة الإسلامية والأخذ بتصوف أهل السنة.

توسعت آفاق البحث والمعرفة لديه، إذ استوت عنده ـ بعد تخرجه ـ مشاركة واسعة. وبالإضافة إلى اضطلاعه بالتدريس بمدرسة مكناس، فإن كتبه وتآليفه تنوعت وتعددت. في عام 1109هـ/1697م ألف كتاب «**مباحث الأنوار...**» وقسمه إلى ثلاثة مباحث، خصص المبحث الأول ـ وهو القسم الأكبر من الكتاب ـ لترجمة شيخه محمد بن عبد الله السوسي، بينما تعرض في القسمين الآخرين لعدد من أفراد أسرته وكبار عصره من العلماء والصلحاء. لقد جعل لكتابه إطاراً زمنيا وبشريا واضح المعالم : فكل من ترجم لهم عاشوا في القرن الحادي عشر الهجري، وله معهم علاقات خاصة ومتميزة.

وبالإضافة إلى ما لهذا الكتاب من أثر في نفوس قارئيه، فإن أول ما يدركه المتمعن في نص «**مباحث الأنوار**» هو أن صاحبه مشغول بإظهار مكانة رجال عرفوا بصلاحهم وعلمهم. فهم الفئة القليلة التي سطعت أنوارها بما لها من مكارم الأخلاق وجلائل الأعمال، فوجب تخليد أسمائها وصونها من آفة النسيان. إن الموضوع محدد بطبيعة هدفه ومصادره، ومع ذلك فإن القارئ النبيه لا ينكر ما لهذا المتن من قيمة تاريخية وما يمكن أن يستخرج منه من معلومات متنوعة.

لامست معلوماته وإشاراته جوانب من التاريخ الفكري والإجتماعي والسياسي للبلاد. فقدم إسهاما يعز نظيره في إلقاء الضوء على بعض الأحداث والوقائع المنفردة. ولعل في هذا ما يظهر القيمة المصدرية للكتاب وكذا الإقبال الذي حظي به من لدن المهتمين بالعلوم الانسانية وبالخصوص مؤرخي الفكر والمجتمع. ومن هذه الزاوية انفرد بتقديم مادة تاريخية غزيرة حول عدد من الصلحاء والعلماء وعن جهات معينة من البلاد.

كان من بين هؤلاء المترجم لهم من أولَاهُ المترجم عناية خاصة. وتلك هي حالة محمد بن عبد الله السوسي، إذ المعلومات التي أمكن استخراجها عن ثقافته وطريقته الصوفية وخصائص طائفته لا نجدها في مصدر آخر.

تكلم في المبحث الثاني عن أفراد أسرته الولالية وارتباطهم بزاوية الدلاء ورجالها، فجاءت سيرهم وكراماتهم عاكسة لمظاهر من البنية القبلية والثقافية والسياسية في المنطقة التي انتسبوا إليها، وهو ما يسمح للباحث باستخلاص أفكار تدخل في السياق العام لتاريخ المغرب في القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادي ويحفزه على طرح الكثير من الأسئلة.

إن المجتمع الذي نشأ فيه أحمد الولالي مجتمع قبلي عرف حياة الإنتجاع ومارس الزراعة والرعي ولم يكن على درجة تامة من المساواة. تأثر بالعوامل الطبيعية من قحط وأوبئة ومجاعات ثم بالظرفية السياسية للبلاد. فمن أجل الحفاظ على التوازنات داخله، تعصب الناس وتنافسوا ودخلوا في تحالفات واتفاقيات لتقاسم المجال والمنافع. وفي واقع الندرة والقصور في السلطة الزمنية، لم يمنع تشبث الناس بالدين الإسلامي من التعلق بعدد من الممارسات كالإعتقاد في الأعمال العجيبة والأرواح الخفية وتبجيل الأولياء.

وبالرغم من كل هذا، فإن الحركة الفكرية انبعثت في جهات معينة من البلاد وبقي مضمونها تقليدياً واتباعيا في كل شيء.

إن قراءة نص «**مباحث الأنوار**» الذي يعتبر أحد عيون التراث المغربي، تسعف في إبداء مجموعة من الملاحظات والإستنتاجات المؤقتة والرد على عدد من الأطروحات المتسرعة، وهي بذلك تلتقي بقراءة كان المستشرق جاك بيرك قد خص بها القرن 17م من خلال اليوسي وإنتاجه الفكري. لم يكن نص «**مباحث الأنوار**» من المصادر التي رجع إليها هذا الكاتب، وما أمكن لنا استنتاجه من قراءة هذا النص يلتقي مع تحليلات بيرك وربما كان مكملا لها. إن حياة التلميذ ونشاطه استمرار لمسيرة الأستاذ. لا تطمح هذه الدراسة التقديمية أن تكون أكثر من عمل تربوي يؤهل صاحبه للتفكير والكتابة في أطروحة متناسقة، ويبقى العمل المهم في نظرنا هو إخراج هذا المخطوط إلى جمهور القراء.

كان أول عمل قمنا به هو البحث عن نسخ من الكتاب ثم مقابلتها قصد إخراج النص سليما شكلا ومضموناً. وعموما، فإن هذه المقابلة لم تطرح لنا مشاكل كثيرة.

ـ اعتبرنا نسخة الخزانة الحسنية التي رمزنا لها بحرف «س» هي الأصل، وذلك لأقدميتها وجودتها. فهي منقولة عن مبيضة بخط المؤلف.

ـ لاحظنا أن نسخة الخزانة العامة المرموز لها بحرف «ق» هي أجود النسخ إخراجاً، ولذلك أثبتنا أرقام صفحاتها بهامش النص المحقق وأشرنا بعلامة إلى بداية كل صفحة.

ـ حافظنا على سلامة النص الأصلي، ولم نتدخل إلا لتصحيح ما بدا لنا هو الصواب أو استدراكه من نسخ أخرى وأشرنا إلى ذلك في الهامش.

ـ ربما جاء عدد من الهوامش والتعليقات مثقلا، وكان ذلك حرصا منا في تقريب النص إلى القارئ وتسهيل قراءته.

القِسمُ الأوّلُ

الدراسة

الفصل الأوّل

الموضوع والمنهج

الفصل الأول
الموضوع والمنهج

أولا ـ وصف المخطوطات

1 ـ نسخة الخزانة الحسنية :

رمزنا لها بـ«س» ورقمها بالخزانة الحسنية : 56117. اعتمدناها كأصل لتأكدنا من أقدميتها، فهي منقولة عن مبيضة بخط المؤلف نفسه. كان الإنتهاء من نسخها عام 1128هـ/1117م. وهي سنة وفاة المؤلف أبي العباس أحمد الولالي. ففي آخر هذه النسخة جاء ما يلي : «وكان الفراغ من نسخه من مبيضة بخط مؤلفه رحمه الله تعالى وقت الضحى يوم الخميس أول يوم من شهر الله المعظم رمضان عام ثمانية وعشرين بعد المائة والألف..».

لم تحمل هذه النسخة اسم ناسخها، ولكنها تامة لا تنقصها أية ورقة. إلا أن بها خروما كثيرة، وقد يحسب الناظر إليها لأول وهلة أنها نسخة متلاشية. وذلك لتآكل أطرافها وكذا غلافها المصنوع من الجلد. لكن المتن، لحسن الحظ، بقي سالما ـ ربما لأنها عولجت في الوقت المناسب ـ فلم تندثر منه بفعل التآكل سوى كلمات في الأطراف، وخاصة في الأوراق الأخيرة من النسخة. فهي حقا نسخة قديمة وورقها يتساقط بفعل الرطوبة حتى بعد علاجها الجزئي. وهذا ما جعل القيم على الخزانة يمنع تداولها بين القراء، ومع ذلك فإننا تمكنا من الحصول عليها واستفدنا منها باعتبارها أصلا للنسخ الأخرى التي اعتمدناها.

ورقها من النوع الذي كان متداولا في تلك المرحلة، ومقياسها (22،5 سم 15،5 سم) وعدد صفحاتها 403. مسطرتها 13 في الصفحة، وفي كل سطر ما بين 11 و12 كلمة. كتبت بخط مغربي جيد وواضح ومسترسل، فلا نجد اختلافا

في الخط من بداية النسخة إلى آخرها. كتبت بالمداد الأسود العادي المعروف عند النساخ التقليديين، تتخلله كلمات مكتوبة بلون أحمر عندما يتعلق الأمر بالأعلام البشرية أو عند الإنتقال من فكرة لأخرى، في حين يكتب الحرف الأول من الكلمة بلون أحمر للدلالة على ابتداء الجملة أو المعنى، أو بوضع خط أحمر فوق هذا الحرف عندما يتعلق الأمر بالفواصل.

تحمل هذه النسخة، مثلها مثل النسختين الأخريين، اسم المؤلف وعنوان الكتاب، وقد كتب هذا الإسم مسبوقا بتحلية، من قبل الناسخ وسط الصفحة وفي أعلاها بشكل بارز ومتميز عن المتن[1].

ليست هذه النسخة خالية من الطرر، ولكنها قليلة في الجملة، ومعظمها أصابها الخرم أو المحو فصعب علينا قراءتها أو تعدرت. ومع ذلك، فلابد من الإشارة إلى أن هذه الطرر من نوعين : إما كلمات أو جمل سقطت أثناء النسخ من الأصل وأضيفت بالحاشية، وفي هذه الحالة يكتب فوقها «صح» ويمد خط فوق المكان الذي سقطت منه تلك الكلمة، وإما شروح واستدراكات وقعت غالبا من قبل الناسخ، وفي هذه الحالة يكتب فوقها «ط». ولكنها شروح وطرر بسيطة ولا تحمل فائدة كبرى، فهي عبارة عن توقيفات. مثل : «على نبينا وعليهم الصلاة والسلام».

وقد كان الناسخ، شأنه شأن كثير من النساخ، حريصا على وضع التعقيبة في أسفل آخر كل ورقة، وذلك حتى يطمئن القارئ على تسلسل المضمون.

2 ـ نسختا الخزانة العامة :

توجد بالخزانة العامة بالرباط نسختان خطيتان لكتاب **مباحث الأنوار**.

أ ـ نسخة تحمل رقم 342ق :

رمزنا لها بـ«ق». جاء في غلافها ما مكننا من أخذ فكرة عن تنقل ملكية هذه النسخة. فلقد كانت في ملكية خزانة الجامع الأعظم بتازة، إذ كان الأمير علي بن محمد بن عبد الله العلوي قد حبسها نيابة عن والده على هذا الجامع، وذلك في ثالث رمضان عام 1184هـ/1770م حسب شهادة الشاهد الذي وقع هذا التحبيس على الغلاف الداخلي للنسخة.

(1) انظر صورة للورقة الأولى من المخطوط «**مباحث الأنوار**» في آخر الملحق.

وهي أحسن النسخ المتوفرة وأتمها. ولذلك أثبتنا أرقام صفحاتها في النص المحقق. بقي ورقها وخطها محتفظين بنصاعتهما. أعانتنا كثيرا في قراءة النسختين الأخريين. وهي وإن جاءت خالية من تاريخ النسخ، فهي قد حملت من الرموز ما جعلنا نرجح أنها نسخت في وقت متزامن نسبيا مع نسخة الخزانة الحسنية الذي هو عام 1128هـ.

حملت هذه النسخة اسم ناسخها محمد بن الحسن التزروفتي، ولم تسعفنا المصادر في التعرف عليه، ولكن يظهر أن أفراد هذه الأسرة كانوا معروفين بامتهانهم للنساخة، فكثير من الكتب التي احتفظت بها الخزانة الحمزاوية هي من نسخ أحمد التزروفتي وبلقاسم بن عبد الرحمن التزروفتي[2]. وبمقارنة بسيطة لهذه النخسة مع نسخة الخزانة الحسنية التي نسخت عام 1128هـ، ظهر أنها قاربتها في الشكل والخط والإخراج. فمقياسها (20 سم × 14،5) وعدد صفحاتها 403، مسطرتها 11 وفي كل سطر 13 كلمة في المتوسط، ما عدا الشطر الذي ابتدأ من صفحة 83 إلى صفحة 141 حيث نجد في كل صفحة ما بين 16و 17 سطرا. كما وجد بياض في صفحة 83 حيث لم يكتب في هذه الصفحة سوى ستة أسطر انتقل الناسخ بعدها إلى الصفحة الموالية. وخطها مغربي واضح كتب بمداد أسود مع إدخال اللون الأحمر للغرض نفسه الذي حددناه بالنسبة لنسخة الخزانة الحسنية.

فبناء على هذه المواصفات، يمكن القول إن تاريخ هذه النسخة يعود إلى ما بعد عام 1128هـ بقليل وأن ناسخها إذا لم يكن هو نفسه ناسخ نسخة الخزانة الحسنية، فإنه قد نقل عن هذه الأخيرة.

أما طررها فهي قليلة وبسيطة، وغالبها تصويب لكلمات سقطت أو تعليقات قصيرة رمز لها الناسخ بـ«قف». وقد ظهر أن الطرر التي جاءت لغاية التوضيح قليلة جدا، وكتبت بخط ومداد يختلفان عما في المتن.

ب ـ نسخة تحمل رقم 2305ك :

رمزنا لها بـ«ك». جاءت ضمن مجموع ومرقمة من 179 إلى 213 أي 135 ورقة من مقياس (25،60 سم × 19 سم)، وفي كل صفحة 20 سطرا وفي

(2) راجع : محمد المنوني، «الخزانة الحمزاوية»، **مجلة تطوان**، عدد 8، ص. 152.

كل سطر ما بين 9 و12 كلمة. وهي نسخة كثيرة الخروم أصابها بتر خاصة أوراقها الأخيرة التي بتر أطرافها أو أنصافها. خطها مغربي أقل جودة من الخط الذي كتبت به النسختان السابقتان. وكتبت فيها أسماء الأعلام بلون أحمر أو أزرق، وكلما كان الِانتقال من فكرة إلى أخرى كتبت الكلمة الأولى من الجملة أو الفكرة بلون مخالف.

نسخت عام 1172هـ/1758م على يد السيد محمد بن عبد السلام بن محمد الوزير، وجاء في آخر هذه النسخة أنها : «قوبلت بأصلها المنقول عنه فماثلته من أصل عتيق». لكننا لا ندري من قام بهذه المقابلة هل الناسخ أم المعلق عليها، إذ هي نسخة منقحة ومصححة، راجعها صاحبها واستدرك كثيرا من الأخطاء أو الكلمات الساقطة، فكانت طرر هذه النسخة أكثر عددا وفائدة. إلا أن هذه الفائدة كثيرا ما فوتها علينا الخرم الذي أصابها أو التمزق الذي ذهب بأجزاء منها. ونشير إلى أن أسماء الأعلام التي كتبت على هامشها بحروف واضحة وكبيرة هي مخالفة لخط الناسخ وليست جزءا من المتن.

ثانيا ـ المؤلف

1 ـ مصادر دراسة حياة أحمد الولالي :

وردت ترجمة أبي العباس أحمد الولالي في عدد من المصادر. فهو شخصية فكرية ودينية غير مجهولة في عصرها ولا فيما بعده. فالمصادر التي أمكننا الوقوف عليها واستغلالها في استخراج معلومات عن حياة هذا الرجل يمكن تقسيمها إلى مصادر قديمة، تدخل في ما يسمى بكتب التراجم والمناقب، وإلى مراجع حديثة. ولن نعمل هنا على إدراج كل المصادر التي أشارت إلى الولالي، بل سنقتصر فقط على التي أمكننا الِاستفادة منها ونحصرها في الآتي :

المصادر القديمة :

ـ **«منحة الجبار ونزهة الأبرار وبهجة الأسرار»**[3]، للعربي بن محمد بصري المكناسي المتوفى عام 1148هـ/1735م. ألف هذا الكتاب عام 1128هـ، وذكر فيه صاحبه معلومات عن حياة الولالي العلمية بمكناس ومنهجه في التدريس.

(3) توجد منه نسخة خطية بالخزانة الحسنية تحت رقم 491ز.

ـ **«نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني»** ـ الكبير ـ و**«الإكليل والتاج»**[4]، لمحمد بن الطيب القادري. عرف فيهما مؤلفهما بالولالي اعتمادا على **«مباحث الأنوار»** وعلى مصادر شفوية.

ـ **«فهرسة العميري»**[5] لأبي القاسم بن سعيد بن أبي القاسم العميري المتوفى عام 1178هـ/1764م.

ـ **«طبقات الحظيكي»** لمحمد بن أحمد بن عبد الله السوسي الجزولي المتوفى عام 1189هـ/1775م.

ـ **«البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية»**، لسليمان الحوات. وصف الولالي بالعلامة المعقولي ونقل عنه كثيرا من أخبار الزاوية الدلائية.

ـ **«دوحة البستان ونزهة الإخوان في مناقب الشيخ علي بن عبد الرحمن»**[6]، للزبادي أحمد المنالي، جعل الولالي من تلامذة علي بن عبد الرحمن الدرعي، ولم يشر إلى شيخه محمد بن عبد الله السوسي.

أما في العصر الحديث فقد وردت ترجمته عند مجموعة من المغاربة والمشارقة والمستشرقين، نذكر منهم :

ـ عبد الرحمن بن زيدان في كتابه **«إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس»**[7]. وقد أفادنا بالخصوص في التعرف إلى عدد من تلامذة الولالي وإلى مشيخته وحالته العلمية والعملية.

ـ العباس بن إبراهيم التعارجي في كتابه **«الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام»**. وقد لاحظنا عنده اضطرابا في تحديد اسم الولالي. خاصة في الجزء السادس ترجمة 721 عندما سماه بمحمد بن أحمد الولالي.

ـ عبد السلام بن سودة في **«دليل مؤرخ المغرب الأقصى»** حيث ذكر أن وفاة الولالي كانت سنة 1118هـ/1706 وهذا غير صحيح.

---

(4) نسخة خ س، رقم 1897، ص. 26.

(5) نسخة خ س، رقم 560، ص. 351.

(6) اعتمدنا نسخة الخزانة العامة رقم 393د.

(7) عبد الرحمن ابن زيدان، **الإتحاف**، ج 1، ص. 340 ؛ ج 5، ص. 324، 400، 426، 544.

ـ محمد حجي في «**الزاوية الدلائية**»[8] وذلك عند التعريف بالعلماء الذين تخرجوا في الزاوية الدلائية.

ـ إسماعيل باشا البغدادي في «**هدية العارفين**»[9] وذكره باسم «الدلائي أبو العباس أحمد».

ـ ليڤي پروڤنسال، «**مؤرخو الشرفاء**» ذكر مؤلفاته واعتبر كتابه «**مباحث الأنوار**» مفقودا.

إن المعلومات التي أمدتنا بها المصادر القديمة على تواضع عددها، تكاد تنحصر فيما تعلق بالإنتاج الفكري للمؤلف، وفي تحليات من النوع السائد في عصرها فهو «العالم العلامة المشارك القدوة الدراكة الفهامة»[10]، وحتى المراجع والتراجم الحديثة والمعاصرة لم تشذ عن هذه القاعدة، وإن كانت قد أفادتنا في جوانب محدودة من حياة هذا الرجل. فلا المصادر ولا المراجع لم تبتعد عن النظرة الخارجية للشخصية المترجم لها، إذ رأت منها الجانب الظاهري والملامح البارزة فقط.

إن دراسة عامة وشاملة للمؤلف في تفاعله مع وسطه وبيئته تبقى أمرا ضروريا ما دام أنه لم يحظ بهذه الدراسة بعد. فكيف يمكن ولوج الجوانب العامة والخاصة من حياة الرجل ؟ لا شك في أن ولوجها اعتمادا على المصادر والمراجع السابق ذكرها يكون أمرا مستعصيا ومستغلقا، فهي لا تسمح لنا بالنفوذ إلى ما يهم أسرته وتربيته وتفاعله مع مجتمعه الكبير والصغير إلا بقدر محدود جدا. أمام هذه الحالة، تكون أهمية ما خلفه الولالي من تراث مكتوب، خاصة كتابه «**مباحث الأنوار**» كبيرة وعظيمة، ففي هذا الكتاب ما عساه أن يسد لنا بعض الثغرات الكبرى في جوانب معينة من حياة المؤلف.

2 ـ نسب الولالي وأسرته بأعالي ملوية :

جاءت سلسلة نسب أحمد الولالي مثبتة في كل المصادر التي ترجمت له. فحسب هذه المصادر، وكما أشار إليه هو بنفسه في ديباجة كتابه «**مباحث الأنوار**»، فإن أعلى ما نجده في هذه السلسلة يقف عند جد أبيه. فهو أحمد بن محمد بن محمد بن يعقوب الولالي، نسبة إلى قبيلة بني ولال وهي من فروع قبيلة آيت عطا الكبرى.

(8) محمد حجي، **الزاوية الدلائية**، المطبعة الوطنية، 1964، ص. 122.

(9) المجلد الخامس، طبعة دار الفكر، 1982، ص. 170.

(10) محمد القادري، **التقاط الدرر**، طبعة دار الآفاق بيروت، 1983، ص. 311، ترجمة 472.

يلاحظ أن كل هذه الأسماء الواردة في سلسلة نسبه هي من الأسماء الشائعة في عصرها، وأنها خالية من كل عجمة. فهل يعد هذا كافيا ـ إلى جانب ما قدمه الولالي من التعليلات ـ لنطمئن إلى عروبة هذه الأسرة ؟

لا نعتقد ذلك، وإن كانت الحكمة تقول : الناس مصدقون في أنسابهم. فما ورد من إشارات منذ العصر الموحدي، تفيد أن الناس كانوا جادين في إزالة العجمة من أسمائهم[11] فادعاء النسب العربي من لدن أحمد الولالي يدخل في قضية عرفها المغرب قديما. فقد يكون ذلك رغبة في اندماج الأصلي بالطارئ، أو يكون رغبة[12] وجدت تبريرا لها في ما أصبح للأشراف من سمو في المجتمع المغربي[13].

وصلت هذه الأسرة البربرية الضاربة بأصلها في أعماق الصحراء إلى أعالي ملوية في حدود منتصف القرن العاشر الهجري. كان جدها يعقوب قد هجر حياة البداوة بالصحراء وهرب بدينه إلى «حيث يستقيم»[14]. فحل بجبال ملوية حيث «مجمع الصالحين»[15]. وفي هذه المنطقة كانت نازلة قبيلة بني ولال «الجبلية»[16].

لم يكن يعقوب الولالي رجلا عاديا في سلوكه، فهو الرجل الذي صدف عن الدنيا وأهلها، واختار طريق المسكنة والصلاح[17]. هذا الصلاح الذي صار متوارثا في ذريته. إلا أن الظهور به لن يكون سوى لابنه محمد[18].

جمع محمد بن يعقوب بين العلم والصلاح. فبإشارة من أبيه ارتاد جملة من المراكز العلمية في أعماق البادية[19]. وبعد أن غدا حاملا لبضاعة علمية، عاد بإشارة

---

(11) راجع مقدمة تحقيق كتاب **التشوف**، لأحمد التوفيق، ضمن : ابن الزيات، **التشوف إلى رجال التصوف**، ط. الدار البيضاء، 1984.

(12) راجع علي صدقي، «النسب والتاريخ وابن خلدون»، **مجلة كلية الآداب** بالرباط، عدد 11، سنة 1985، ص. 71.

(13) راجع : محمد القبلي، «مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين»، **مجلة كلية الآداب** بالرباط، عدد 3ـ4، سنة 1978.

(14) أحمد الولالي، «**مباحث الأنوار**»، مخطوط خ ع، رقم 342ق.

(15) **المصدر نفسه**، ص. 207.

(16) **المصدر نفسه**، ص. 201.

(17) **المصدر نفسه**، ص. 209 وما بعدها.

(18) **المصدر نفسه**، ص. 210، 220، 221.

(19) **المصدر نفسه**، ص. 213، 214.

من شيخه[20] إلى بلدته ليعمل على تعميق الدين والشرع بها وليشغل وظائف اجتماعية شاغرة[21]. كان قد أخذ أيضا الطريقة الصوفية عن أبي عمرو القسطلي[22] وأبي بكر الدلائي، وصاحب محمد بن أبي بكر الدلائي، وصارت له كرامات ومناقب عرفها له الناس وتناقلوها.

خلف محمد بن يعقوب عدة أبناء[23]، وممن ظهر منهم محمد الصغير والد أحمد الولالي. فما هي مميزات هذا الوالد ؟

لم يكن من عوام برابرة ملوية. فالمعلومات التي أمكن استخراجها من متن «**مباحث الأنوار**» تسمح لنا، على الأقل، بتتبع هذه الشخصية في جوانب من تكوينها وأدوارها.

فهو عالم وصوفي مشهور[24] في وسطه، لا نعرف سنده في العلم الظاهر، ولكن نعرف جملة من العلوم الدينية والشرعية واللغوية[25] التي كان له فيها حظ من التحصيل والإدراك. وهي علوم لا تجعل صاحبها يرقى إلى مستوى المشاركة، ومع ذلك تجعله متميزا في مجتمعه وقومه الذين كانت الأمية تطغى عليهم.

أما الجانب الروحي من شخصيته فيظهر في أنه نشأ في العبادة وخالط الصالحين منذ صغره[26]. وهو كلما اشتد عوده ونضج فكره قوى هجره الدنيا والاشتغال بأمورها، وعكف على العبادة ومراعاة الشريعة. فعلاقة الصحبة والتلمذة التي ربطته بشيخه محمد بن أبي بكر الدلائي جعلته يبقى في خدمته ولا يتشوف إلى تنظيم طريقة أو تأسيس زاوية خاصة به، بل إنه قنع بدور المريد والتابع لا غير.

هكذا أعطى الصلاح والعلم لمحمد بن محمد بن يعقوب، ولآبائه من قبله، مكانة واحتراما أهلاه ليضطلع في مجتمعه بوظائف متعددة. ففي مجتمع الندرة في

---

(20) **المصدر نفسه**، ص. 220.

(21) **المصدر نفسه**، ص. 221.

(22) محمد المهدي الفاسي، **تحفة أهل الصديقية**، مخطوط خ ع، رقم 76ج، ص. 55 ؛ سليمان الحوات، **البدور الضاوية**، مخطوط خ ع، رقم 261د، ورقة 35/ب.

(23) **مباحث الأنوار**، ص. 273.

(24) **المصدر نفسه**، ص. 273، 288، 291، 295.

(25) **المصدر نفسه**، ص. 272.

(26) **المصدر نفسه**، ص. 258.

أسباب العيش والتوتر الناتج عن عدم الإستقرار، حيث الرجال والقطيع في تنقل بين الجبال والسهول، كانت أدواره وأدوار أبيه دينية واجتماعية وسياسية، فهو الإمام المتولى «إمامة مسجد قريته احتسابا»[27] وهو الذي إليه يسارع عند اشتداد النزاعات ووقوع الكوارث، وإليه يلجأ لجمع شمل القبائل وربطها بإمارة الدلاء على الخصوص[28].

فبناء على ما سبق، يظهر أن أسرة أحمد الولالي دخلت أعالي ملوية وغدت مندمجة في قبيلة بني ولال قبل النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي. وبالرغم من أن التنقل ظاهرة اشتركت فيها كل قبائل منطقة الأطلس المتوسط، فإن قبيلة بني ولال وضمنها أسرة الولالي لم تغادر موقعها الجبلي قبل الثلث الأخير من القرن السابع عشر الميلادي. أما من الناحية الصوفية فإن أفراد هذه الأسرة لم يعملوا على تأسيس زاوية[29] وطريقة صوفية متميزة، بل ظلوا تابعين لشيوخ وزوايا أخرى. في حين لم يكن للصلاح الذي صار متوارثا في هذه الأسرة قاعدة ثابتة تحدد نظام التوارث. وذلك أنه كان في هذه الأسرة من نزع إلى توريث الإبن الأكبر، ومع ذلك فإن الإختيار للظهور بالولاية والصلاح كان أمرا ربانيا قد يدركه الأب الصالح عن طريق الرؤيا والكشف، وذلك قبل أن تنجلي الصفات المميزة لهذا الشخص المختار[30].

أما إذا نظرنا إلى أفراد هذه الأسرة من الوجهة العلمية، فقد كان لعدد من أفرادها، وخاصة الذين عرفوا منها بالصلاح، حظ لا بأس به من العلم. فهم كانوا قادرين على فهم القرآن وحاملين لما يحتاج إليه من الشريعة. أما حظها من الثروة، فإن هذه العائلة لم يكن لها سند مادي كبير، ولكن صار لها ما تبتغيه[31] عندما أضحى أفرادها شيوخا مشهورين لا في قبيلتهم فحسب، بل إن إشعاعهم قد امتد حتى خارجها. فهل كان لكل هذه العناصر انعكاس على حياة أحمد الولالي ؟

---

(27) المصدر نفسه، ص. 295.

(28) L. Mezzine, Contribution à l'histoire du Tafilalt, p. 62.

(29) «مباحث الأنوار»، ص. 285، 295.

(30) المصدر نفسه، ص. 273.

(31) المصدر نفسه، ص. 226، 300.

3 ـ مراحل حياة أحمد الولالي :

من خلال ما تجمع لدينا من معلومات، أمكن تقسيم حياة المؤلف إلى ثلاث مراحل كبرى :

أ ـ مرحلة النشأة والتربية الأولى بأعالي ملوية :

في بلاد جبلية ذات ظروف طبيعية قاسية[32]، سادها عدم الأمن، وعاشت التوتر في الداخل وواجهت الضغط من الخارج، كان فيها الرجال والقطيع في حركة تنقل عمودي، نشأ أحمد الولالي، وبقي طيلة أطوار حياته متعلقا بوسطه حاملا همومه، راجيا له الخلاص من محنه.

لا نعرف بالضبط سنة ميلاده. فالمصادر التي ترجمت له أشارت فقط إلى سنة وفاته التي حدثت عام 1128هـ/1717م. إلا أن مؤشرات تدعونا إلى القول بأن ولادته كانت في أواسط القرن الحادي عشر الهجري. ففي حدود 1069هـ كان الولالي طالبا في الزاوية الدلائية.

كانت بداية تعليم أحمد الولالي في قريته، وهي قرية بعيدة عن الحواضر، تقع في منطقة جبلية تعتبر فيها اللغة العربية غير مفهومة إلّا من القلة القليلة من المتعلمين[33]، وفيها ابتدأ بحفظ القرآن، وبعد حفظه انتقل إلى حفظ المتون المشهورة، ومن جملتها ختم «**خليل**» باللوح وختم «**الرسالة**»[34]. لا ندري على من ختم هذه المتون، هل على أبيه أم على فقيه القرية ؟ إلا أن قراءته للنحو كانت على يد أبيه[35]. وهذا ما يرجح أن أباه هو الذي تولى تعليمه تلك المتون في قريته.

أولى محمد بن محمد بن يعقوب الولالي عناية كبيرة لتعليم أبنائه، وشملت هذه العناية بالخصوص ابنه أحمد الذي دعا له بالعلم الظاهر[36]. قد تكون هذه العناية والتشجيع راجعين إلى اهتمامات الرجل ومستواه المادي. فهو الذي كفاه الله هم الرزق حتى وجد ما يجازي به ابنه على حفظ **خليل والرسالة**[37]. فهل كانت كل

(32) المصدر نفسه، ص. 207.
(33) المصدر نفسه، ص. 233.
(34) المصدر نفسه، ص. 323.
(35) المصدر نفسه، ص. 296.
(36) المصدر نفسه، ص. 304.
(37) المصدر نفسه، ص. 305.

العائلات تستغني عن أبنائها في أمور الدنيا وتبعث بهم على الأقل إلى الكتاب، خاصة في هذا الوسط الذي اتسم بالتنقل وسيادة حياة الرعي وبالتفاوت الاِجتماعي ؟[38].

إن أحمد الولالي الذي لم ينشأ في أسرة فقيرة وعامية، بل خرج من دار علم وصلاح وشيء من اليسر، ولم يتعرض لحوادث تصدمه في صغره، وجد نفس العناية والتقدير عندما حل بالزاوية الدلائية لمتابعة التحصيل. ولكن مع ذلك فإن النجاح في حفظ القرآن والمتون والمعارف العلمية هي أشياء فردية حتى وإن اشترك الجميع في تلقيها.

ب ـ مرحلة الدراسة والتلقي بالزاوية الدلائية :

بحلول أحمد الولالي بالزاوية الدلائية، بدأت مرحلة هامة من حياته. ولئن كان هذا الدخول لا يغير شيئا من الإطار الطبيعي والبشري الذي نشأ فيه، فإنه كان بداية نحو آفاق واسعة وجديدة. إنه دخل المركز الذي التقى فيه رجال علم من الشمال بآخرين من الجنوب، فتأتى له أن يغرف لا من معين العلم فحسب، بل أمكنه أن يوسع آفاق الصحبة ويمتلئ قلبه بالأنوار وتطمئن نفسه بها. فمتى كان دخوله الزاوية الدلائية ؟

لا نستطيع تعيين سنة مضبوطة، فالمعلومات المتعلقة بهذه النقطة لا تعدو أن تكون إشارات ومؤشرات. ومع ذلك، فهي إشارات تسمح لنا بالقول إن هذا القدوم حدث بعد سنة 1060هـ وقبل 1069هـ. فالولالي يذكر أن بداية دراسته بالزاوية الدلائية كانت على يد شيخه الحسن اليوسي، وهذا الأخير لم يحل بهذه الزاوية إلا في سنة 1060هـ/ 1650م[39] وعندما مر محمد بن عبد الله السوسي بزاوية الدلاء في حدود 1069هـ/ 1658م، كان الولالي لم يتبحر بعد في كل العلوم[40]. من هنا يصح الاِعتقاد بأن أحمد الولالي كان يوجد بالزاوية الدلائية في أواسط العشرة السادسة من القرن الحادي عشر الهجري.

---

(38) المصدر نفسه، ص. 294.

(39) م. حجي، الزاوية الدلائية، ص. 98.

(40) «مباحث الأنوار»، ص. 84.

قدم إلى الزاوية الدلائية وهو حديث السن[41]، وكل ما تعلق باله به كان هو طلب العلم، فهو ما زال بعيدا عن الدخول في التصوف، ويظهر من خلال إشاراته أن ظروف إقامته المعنوية والمادية كانت ميسورة، وأنه تمكن من ربط علاقات واسعة لا بالأسرة الدلائية فحسب، بل كانت علاقاته ذات مستويين : علاقة جمعته بكثير من رفاقه في العلم[42] ممن كانوا قد وفدوا على هذه الزاوية من آفاق بعيدة، فكانت الصداقة التي ربطته بهم توسيعا لآفاقه المختلفة، ثم علاقة ربطته بأشياخه في العلم، وخاصة أستاذه الحسن اليوسي، فكانت هذه العلاقة الأخيرة توسيعا لمداركه.

إن الإقامة الطويلة لأحمد الولالي بالزاوية الدلائية، والتي دامت ما يناهز خمس عشرة سنة، جعلتنا لا ننظر إلى شخصيته في جانبها التكويني فقط، بل نرى فيها شهادة قريبة جدا للملاحظ واكب تجربة زاوية تطورت إلى إمارة صنهاجية مدت نفوذها على القسم الأكبر من البلاد، واستمرت في حكمه مدة من الزمن عرفت فيها كثيرا من الانتصارات والإخفاقات. فذكرياته عن هذه الزاوية هي امتداد لذكريات آبائه. ومع ذلك نشعر أن الرجل وإن بقي مشدودا إلى إرث أسرته العاطفي والروحي، فهو قد تخلص إلى حد ما من هذا الثقل ووسع من دائرة أشياخه وأصحابه.

شيوخه في العلم :

خصص أحمد الولالي قسما مهما من كتابه «**مباحث الأنوار**» لشيخه في الطريقة، أما المعلومات التي زودنا بها في هذا الكتاب حول شيوخه في العلم لم ترد إلا عرضا، إذ هي معلومات محدودة ومقتضبة. أما الذين ترجموا له فإنهم أجمعوا على تتلمذه للشيخ الحسن اليوسي دون ذكر سواه، إلا ما كان من الحضيكي الذي ذكر بأنه تتلمذ على محمد بن عبد القادر الفاسي[43]. ونحن إذ لا نستطيع نفي هذا القول، لا نعرف متى كان هذا التتلمذ وفي أية جهة كان.

أمام عدم تصريح الولالي بكل شيوخه الذين أخذ عنهم جملة من العلوم التي جعلته يحتل المكانة العلمية التي عرف بها، وأمام سكوت المراجع عن هذه النقطة،

---

(41) **المصدر والصفحة نفسهما.**

(42) ذكر أحمد الولالي جماعة من رفاقه في العلم، ومن أخصهم : محمد بن عبد الرحمن الصومعي، راجع : أ. الولالي، **مباحث**، ص. 180.

(43) م. الحضيكي، **طبقات**، مخطوط خ ع، رقم 1124د، ورقة 39/ب.

نكون مضطرين إلى سلوك طريق الإستنتاج، مستعينين في ذلك بالمصادر والمراجع التي أمكن الإطلاع عليها.

ذكر الولالي جملة من الأساتذة الذين كانوا يدرسون بالزاوية الدلائية، منهم الحسن بن مسعود اليوسي[44]، ومحمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي[45] والشرقي بن أبي بكر الدلائي[46]، وأحمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي[47]. وهؤلاء كلهم تولوا التدريس في المرحلة التي كان فيها الولالي طالبا بالزاوية الدلائية، ومع ذلك فهم ليسوا كل علماء الزاوية الدلائية في هذه المرحلة[48]، وذلك ما يؤكده الولالي نفسه حين يقول : «والعلماء يومئذ بالزاوية متوافرون من أهلها وغيرهم»[49]. وقد كان من هؤلاء الأساتذة من له تخصص في تدريس مواد دون سواها[50]. فعلى من حصل الولالي كل فروع المعرفة التي كان يشرئب إليها ؟

إذا كان اليوسي قد حجب بشهرته غيره من أساتذة الولالي في العلم، فإننا نرجح أنه قد حصل على بضاعته المتنوعة من أساتذة عدة، إنهم يشكلون مجموع أساتذة الزاوية الدلائية في عهد محمد الحاج الدلائي[51]. ذلك أن الطموح العلمي للطالب المجد ونهمه للتحصيل جعلاه حريصا على الأخذ عمن هو قائم بالتدريس بالزاوية أو عمن هو عابر فقط، بل إن التلقي عنده لم يرتبط بمكان محدود[52].

ومهما يكن من تعدد أساتذة الولالي، فإن اليوسي كان هو أستاذه الرئيسي في العلم وعمدته في الأخذ. وقد نجد تفسير ذلك إما في كونه كان أكثر ملازمة لمجالسه، وإما في كون اليوسي شغل ما كان يعرف «بشيخ الجماعة»، أي أنه صار شيخا لكل العلماء الأحياء في عصره. وسواء صح هذا الإفتراض أم لا، فإن أساتذة الولالي كانوا من كبار أساتذة العصر.

---

(44) مباحث الأنوار، ص. 35.

(45) المصدر نفسه، ص. 55.

(46) المصدر نفسه، ص. 57.

(47) المصدر نفسه، ص. 157.

(48) م. حجي، الزاوية الدلائية، ص. 81، وما بعدها.

(49) «مباحث الأنوار»، ص. 55.

(50) م. حجي، الزاوية الدلائية، ص. 85.

(51) المصدر نفسه، ص. 71 وما بعدها.

(52) «مباحث الأنوار»، ص. 84.

دخل الولالي الزاوية الدلائية وعنايته قد اتجهت إلى علوم معينة، مثل الفقه والأصلين والبيان والمنطق[53]. وبتقدم الدراسة انفتحت بصيرته على علوم أخرى[54]. فدرس التوقيت وعلم الإسطرلاب، والعروض والحساب، سالكا في ذلك مبدأ التدرج في التحصيل.

كانت هذه المواد هي التي أمكن استخلاصها من متن «**مباحث الأنوار**»، أما إذا اعتبرنا ما تعاطاه الطلبة بالزاوية الدلائية من علوم، فإن القائمة تكبر لتشمل كل ما كان يتعاطى من علوم في الإسلام. هكذا يظهر أن الولالي لم تكن له رحلات وتنقلات عبر المراكز الثقافية الموجودة في عصره. وإنما كان احتكاكه بأحد هذه المراكز الذي له مميزاته الثقافية وأصالته وألمعية أساتذته. وفي هذا المركز الذي خرج منه عالما، كانت فرصة اتصاله الروحي.

شيوخ الولالي في التصوف :

دخل أحمد الولالي الزاوية الدلائية وكل طموحاته واهتماماته كانت قد اتجهت نحو تحصيل العلم الظاهر، ومن هنا كان ارتباطه بشيخه الحسن اليوسي ارتباطا وثيقا. أما المعرفة الباطنية فيظهر أنها لم تكن واردة عنده. فهل يعود ذلك إلى حداثة سنه أم إلى جهله بهذه المعرفة والتربية ؟

لا نستطيع إقصاء الفرضية الأولى، إذ يقول الولالي : «وكنت حديث السن ضعيف الرأي»[55]، كما أن استبعاد الفرضية الثانية غير ممكن أيضا، ذلك أن نشأته في وسط أسرة عرفت بصلاحها، جعلته يفتح عينيه على هذه التربية منذ صغره. فهي ليست عالما غريبا بالنسبة إليه، فالاتجاه التعبدي والتنسكي جزء من وسطه الصغير الذي فيه رأى النور. وحتى عندما بدأ بحفظ المتون بمسقط رأسه، لا نستبعد وقوفه في هذه المرحلة على بعض كتب القوم التي كانت خزانة والده المتواضعة تحتفظ بها[56].

هكذا يكون وقوفه وتعرفه إلى أحوال العباد والزهاد بدأ منذ صغره، وهذه عوامل ترجع إلى بيئته وإرثه، ومع ذلك لا نستبعد أيضا وجود عوامل نفسية

(53) المصدر والصفحة نفسهما.

(54) المصدر والصفحة نفسهما.

(55) المصدر والصفحة نفسهما.

(56) المصدر نفسه، ص. 228.

واستعدادات شخصية للدخول في هذا العالم المورث. فهو الذي لم يصرح بزيارته للأولياء والصلحاء الأموات في طفولته قد شب على زيارة الأحياء منهم.

لم يكن انجذاب أحمد الولالي نحو عالم الباطن شيئا فجائيا، فالرجل له استعداد كما يظهر من إشارات كتابه «**مباحث الأنوار**». ولكن لماذا لم يأخذ الطريقة من الدار نفسها التي منها أخذها أبوه ؟

قد يكون ذلك مرتبطا بالتطور الذي آلت إليه الدار الدلائية الصنهاجية، وقد يكون راجعا لأسباب أخرى هيأته لتلقي الطريقة من هذا العابر الجديد للزاوية الدلائية. فالولالي عندما دخل هذه الزاوية لم يجد شيخ العلم هو نفسه شيخ الطريقة. فمحمد الحاج الدلائي لم يكن رجل صلاح، بقدر ما صار رجل سياسة.

كان هذا العابر للزاوية الدلائية هو الشيخ محمد بن عبد الله السوسي الذي ظهرت ولايته للناس بمراكش. ففي هذه المدينة أخذ عنه الطريقة وارتبط به كثير من الرجال. إلا أنه لم يلبث أن خرج منها قاصدا الديار المقدسة، وفي طريقه إلى تلك الديار مر بالزاوية الدلائية وأقام بها أياما معدودة.

وقد كان لدخول هذا الشيخ الزاوية الدلائية، وما سبق ورافق ذلك الدخول من أصداء وأجواء احتفالية[57]، ما قوى في الولالي العزم على الإرتباط بهذا الشيخ. إن هيبة الشيخ وإحاطته بالعلوم الظاهرية والباطنية، جعلتا الشاب ينجذب ويرتبط «بالقاطرة»، فطلب الصحبة والورد[58] فأعطيا له، بل إن صدق نية الطالب ونجابته مما جعل الشيخ يبدي إعجابه بمريده الجديد، ويجعله من أصحابه المقربين[59]. فازدادت صحبة التابع وبدأ التزامه بطريق الشيخ.

ارتبط الولالي بهذه الشخصية الصوفية، وصارت العلاقة بينهما علاقة لا تنفصم. فشيخه محمد بن عبد الله السوسي قطب من أقطاب الزمان أدركته العناية الإلهية فوصل إلى درجات عليا من القرب من الخالق، فهو الذي يحتاج إليه عند الإضطرار[60]. فما هي المكانة الصوفية التي غدت لصاحبه أحمد الولالي ؟

(57) **المصدر نفسه**، ص. 115.
(58) **المصدر نفسه**، ص. 84.
(59) **المصدر نفسه**، ص. 85.
(60) عبر أحمد الولالي عن هذا المعنى في مواضيع متفرقة من كتابه **مباحث الأنوار**.

لا نعرف درجته في سلم التصوف، فكل الذين ترجموا له حرصوا على أن يحلوه بالعلم والمعرفة ولم يشيروا إلى حالته الباطنية، إلا القليل منهم الذي أشار إلى «أنه أدرك في آخر عمره ما يدركه الأولياء»[61] فمترجموه رأوا فيه عالما مدرسا ومؤلفا قبل أن يروا فيه سالكا وآخذا بطريقة. فهو لم يظهر في زمانه بما ظهر به الأولياء، فلم يدع سرا ولم تشاهد له كرامات، كما أنه لم يهرب من الحياة اليومية، بل ظل مشتغلا بالعلم والدين والدنيا[62].

كانت تلك هي حالة كثير من العلماء الذين جمعوا بين العلم والتصوف، والذين عرف بعدد منهم في كتابه «**مباحث الأنوار**». فمن خلال متن هذا الكتاب يظهر أن الولالي كان عارفا بعلم التصوف وعاملا به.

ظهر ذلك في مناقشته لكثير من أقوال الصوفية. حيث برز تمكنه من توظيف مصطلحات ومفاهيم هذا العلم. ومع ذلك فشروحاته مثل تصوفه، لا تتوغل في الإستبطان والإشراق. فهو العالم المتصوف الأكثر تدينا ومراعاة للسنة.

فبناء على ما سبق أمكن ملاحظة جانبين أساسيين دخلا في تكوين شخصية أحمد الولالي : جانب معرفي تمثل في مجموع العلوم التي حصلها من أساتذته، وجانب تربوي بالمعنى الصوفي وهو الذي تلقاه عن شيخه في الطريقة. فهل كان لهذين الجانبين أثر في عمله وإنتاجه ؟

ج ـ مرحلة التدريس والإنتاج :

ـ أحمد الولالي أستاذا بمدينة مكناس :

في سنة 1668م هدم المولى الرشيد زاوية الدلاء. وبهذه المأساة انتهت مرحلة التكوين العلمي لمؤلفنا، وبدأت معها مرحلة ليست قصيرة خرج فيها الولالي من الزاوية الدلائية وعاد إلى البادية قبل أن يلتحق بمكناس لتقلد منصب الأستاذية. والمعلومات عن هذه المرحلة الفاصلة ما بين خروجه من الزاوية الدلائية والتحاقه بمكناس تكاد تكون منعدمة. لا نعرف ما هي الوظيفة التي شغلها في هذه المدة، وهل توقف عن تلقي العلم والبحث عن رجاله ؟ وكل ما أمكن استخراجه من

(61) م. القادري، **الإكليل والتاج**، مخطوط خ س، رقم 897، ص. 26.
(62) «**مباحث الأنوار**»، ص. 344.

إشارات انطلاقا من متن «**مباحث الأنوار**»، يوحي بل ويسمح برؤية الرجل في تنقل بين مدينة فاس وبلدته. فهل كان تنقلا لطلب العلم أم التماسا للبركة ؟

إن السعي وراء البركة بدأ عنده وهو لا زال طالبا بالزاوية البكرية، إذ تردد كثيرا على الشيخ علي بن عبد الرحمن الدرعي(63)، وربط الصلة بشيخ الزاوية الناصرية محمد بن ناصر(64) بواسطة أستاذه الحسن اليوسي. أما تردده على فاس وصلحائها فقد بدأ قبل عام 1080هـ/1669م. فاتصل بالشيخ أحمد اليمني(65) وصاحب كما اتصل بأحمد بن عبد الله معن وعبد القادر الفاسي(66)، وتعرف إلى محمد بن عبد القادر الفاسي(67) وغيره من صلحاء المدينة.

هكذا نرى أن ذهاب الولالي إلى فاس لم يكن للدراسة أو طلب إجازة(68)، وإنما للتبرك وصحبة أوليائها وعلمائها. فهو عندما خرج من الزاوية كانت قد استقامت عنده مشاركة واسعة في كثير من فروع العلم وغدا كامل الشخصية. ولكن تردده على فاس وثق صلاته بمجموعة من العلماء والصلحاء الكبار الذين لم يكونوا من علماء الزاوية الدلائية، بل كانوا مَن وسط حضري متميز. فباختلاطه بهؤلاء الكبار، وفي الوقت الذي لم تبق فيه من الزاوية الدلائية سوى الذكريات، حصل على الشهرة الكافية التي أهلته للدخول في التاريخ الفكري والروحي للبلاد. فشهرته كانت وراء تحقيق ما استبعد حصوله قبل ذلك(69). إنه انخرط في الجهاز التعليمي للدولة الناشئة(70). ومع ذلك فإننا لا ندري هل كان هذا الإنخراط رغبة دفينة عنده وهل كان استبعاده(71) لذلك من قبل مجرد تعبير عن التقية والورع الذي طبع مواقف بعض العلماء في هذه المرحلة.

لا نتوفر على معلومات دقيقة عن تاريخ استدعائه من قبل السلطان مولاي إسماعيل لتقلد منصب الأستاذية بمسجد القصر أو غيره من مساجد مدينة مكناس.

(63) **المصدر نفسه**، ص. 343.

(64) **المصدر نفسه**، ص. 336.

(65) **المصدر نفسه**، ص. 347.

(66) **المصدر نفسه**، ص. 370 وما بعدها.

(67) **المصدر نفسه**، ص. 376.

(68) اتصل أحمد الولالي بالشيخ عبد القادر الفاسي وطلب منه الدعاء والتبرك فقط. **المصدر نفسه**، ص. 336.

(70) م. الزبادي، **دوحة البستان**، مخطوط خ ع، رقم 390د، ص. 206.

(71) «**مباحث الأنوار**»، ص. 359.

فمن خلال الإشارات الواردة في متن «**مباحث الأنوار**»، وكذا بعض المصادر الأخرى[72]، أمكن الخروج ببعض الملاحظات تحدد بصفة تقريبية تاريخ هذا الانخراط. ففي حدود العشرة الثامنة من القرن الحادي عشر الهجري، كان يتردد على الشيخ أحمد اليمني بفاس، فهو الذي بشره بأنه سيدخل مدينة مكناس «على حال معين»[73]. كما أن مدينة مكناس في تلك الآونة كانت تتجهز لتلعب الدور المنوط بها كعاصمة للحكم الجديد. إذ أن أهم المساجد التي أسست بها لغاية استقبال الطلبة والإشعاع الفكري، كان هو مسجد لالا عودة الذي كان الفراغ من بنائه سنة 1090هـ[74] وفي سنة 1094هـ كان المولى إسماعيل قد خرج في حركة لآيت إدراسن[75]، وصادف ذلك وجود الولالي خارج القبيلة لأسباب[76] شخصية، ومعنى هذا أنه كان لا زال بأعالي ملوية في هذا التاريخ. فبناء على كل ما سلف من ملاحظات، يمكن القول إن الولالي لم يدخل مدينة مكناس إلا بعد 1094هـ/1682م.

هكذا لم تسعفنا المصادر في تقديم سنة محددة لدخول الولالي واستقراره بمدينة مكناس، ولكنها سمحت لنا على الأقل بملامسة الظروف التي تم استدعاؤه فيها. إن قضية الثقافة في هذه المدة طرحت في الإطار العام للدولة الصاعدة. فالدولة التي صار لها جيش نظامي كان عليها أيضا أن تسعى لإقامة جهاز تعليمي مرتبط بها. ولهذا الغرض بدأت تختار علماءها وتوكل لهم مهمة التدريس. لا نعرف بالضبط مقاييس ذلك الاختيار، ولكن اختيار علماء مدرسين من أصل بدوي وخاصة من غير الفاسيين أمر له دلالته.

استفاد الولالي من هذه الظرفية ومن التوجيهات السياسية للحكم، فنال من تشجيعه وارتبط به، فهل كان خروجه من الهامشية وارتباطه بالحكم دلالة على خضوع قبيلته ؟

---

(72) اعتمدنا **المنزع اللطيف في التلميح بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف**، مخطوط خ ع، رقم 595ج

(73) «**مباحث الأنوار**»، ص. 203.

(74) ع. ابن زيدان، **المنزع اللطيف**، مخطوط خ ع، 595ج، ص. 334.

(75) الزياني، **البستان**، مخطوط، خ ع، 1577د، ص. 35.

(76) «**مباحث الأنوار**»، ص. 202.

إذا كان هذا التساؤل مشروعا باعتبار المقاومة التي أبدتها قبيلته لهذه السلطة الجديدة[77]، فإن ما يهمنا هنا هو المساهمة الفكرية لهذه الشخصية. فهل يعتبر الولالي إضافة كمية لهيئة العلماء بالبلاد أم كانت له مساهمة متميزة ؟

جاء الولالي في الوقت الذي أصبحت فيه المؤلفات الدراسية عبارة عن شروح وشروح للشروح إلى الحد الذي صار فيه من اللازم إيجاد مختصرات ومنظومات مما طرح من جديد ضرورة شرحها. أما المواد الدراسية فلم تخرج في جملتها عن علوم شرعية وعقلية وأدبية[78] فما هي المواد التي اختص الولالي بتدريسها أو هل كانت له طريقة متميزة في تبليغها ؟

إن المواد التي اشتغل الولالي بتدريسها والتي أمكن الوقوف عليها عند من ترجموا له وفي فهارس تلامذته هي : «**تسهيل ابن مالك**»[79] و«**منظومته في علم الكلام**»[80]، و«**شرح الكبرى**» و«**الصغرى**» للسنوسي[81]، و«**شرح المختصر**» لسعد الدين التفتزاني، و«**شرح المحلى في الأصول**» للسبكي. وأضاف صاحب «**إعلام الناس بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**» عند ترجمته للأمير محمد بن السلطان مولاي إسماعيل الذي كان من تلامذة الولالي، أن هذا الأمير تلقى عن شيخه الولالي : «علم البديع والبيان والمعاني وأصول الفروع وأصول الدين وقواعد التصوف وعلم المنطق»[82]. قد تكون هذه هي كل المواد التي لقنها، وقد يكون له اضطلاع بتدريس مواد أخرى لم نقف على ذكر لها، ومع ذلك فإن ما نسب له وما وقفنا عليه من مواد، يشهد على تعدد مشارب ثقافته وينبئ بمدى انعكاس التكوين الذي تلقاه بالزاوية الدلائية عليه. فهو من خريجي هذه الزاوية ومن تلامذة اليوسي. فالعلوم التي كانت قد ازدهرت بتلك الجهة هي الأدب واللغة في المقام الأول، ثم العلوم الصوفية والدينية، وهي المواد التي تفوق الولالي فيها وعمل على تدريسها لطلبته.

---

(77) أ. الزياني، **البستان**، ص. 24؛ س. الحوات، **السليمانية**، ص. 134 ؛ م. القادري، **النشر**، ج 2، ص. 168.

(78) م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 2، ص. 88 وما بعدها.

(79) ع. ابن زيدان، **الإتحاف**، ج 5، ص. 325.

(80) **المصدر نفسه**، ج 5، ص. 345 ؛ أ. العميري، **فهرسته**، مخطوط خ س، رقم 560، ص. 351.

(81) م. المكناسي، **منحة الجبار**، مخطوط خ س، رقم 941ز آخر المخطوط.

(82) ع. ابن إبراهيم، **أعلام**، ج 6، ص. 8.

كانت تلك هي المواد التي درسها، أما طريقة تبليغه إياها، فلا نعتقد في إمكانية إدخاله جديدا على ما كان معهودا من طرق في ذلك العصر، إذ اقتصر العمل التعليمي على توضيح ما قرره الأقدمون، وإذا حصل تمايز بين المدرسين، فهو كان يقع بالنسبة للقدرات الفردية في شرح ما أبهمته المختصرات وتقريب ما غرقت فيه الشروح[83] إلى الأذهان. وفي هذا المجال فاق الولالي أضرابه من العلماء بمدرسة مكناس. إذ يقول أحد تلامذته : «أخبرت أن الشيخ بدأ «**الصغرى**» فذهبت مسرعا فوجدته يقرئ في الصفات قبل وصول البراهين، ولكنه إذا أخذ في تقرير الصفة ساق البرهان هنالك، فكنت أجد في نفسي كأن المانع الذي كان بيني وبين تحديد الدلائل يزول من قلبي في الوقت...»[84].

يمكن أن نستشف من هذه القولة معالم طريقة الولالي في التلقين. فهي طريقة تقتضي من صاحبها أن يتبع المتن جملة جملة ثم البدء في بحث المسائل وتقليب وجهات النظر فيها عن طريق الأمثلة والإتيان بالدلائل والبراهين. فالبرهان عنده هو الحجة أو الِاستشهاد، وهي غالبا ما تكون عنده نقلية، فلذلك كثرت عنده النقول، ولم يستعمل الرأي في حل المشاكل إلا نادرا، ومع ذلك فهو يعرف كيف يوظف هذه النقول والِاستشهادات[85].

هكذا دفعت الشهرة بالولالي إلى الحظوة، لكن هذه الأخيرة أخذت أهميتها من المواد التي درسها، وهي مواد جمعت بين ما هو ديني وعقائدي وعقلي. وهو إن اعتمد كتبا معهودة ومواضيع معتادة، فإن قدرته تدخلت لتصحيح ما اعتبر خطأ، ولحل المسائل واستحضار الدلائل. فهذه هي المميزات التي ركز عليها تلامذته.

ـ تلامذة الولالي :

نجد أنفسنا أمام صعوبة التعرف إلى جميع الشخصيات التي درست على أحمد الولالي جملة من العلوم أو حضرت عددا من جلساته العلمية. فما أمكننا الوصول إليه هي أسماء قليلة :

(83) م. المكناسي، **منحة الجبار**، آخر المخطوط.

(84) أحمد الولالي، مقدمة شرح **الجوهر المكنون**، مخطوط خ س، 2174.

(85) راجع منهجية الكتابة في هذا القسم من الدراسة.

1 ـ عبد القادر بن العربي المنبهي المدغري المعروف بابن شقرون[86]، وهو فقيه مشارك وصاحب تآليف. كانت وفاته بمكناس بعد عام 1140هـ/1727م.

2 ـ عبد الوهاب الشيخ أبو محمد بن أحمد بن محمد بن عمران[87]، وهو ممن تصدر للتدريس والِانقطاع للعبادة. توفي بمكناس بعد عام 1143هـ/1731م.

3 ـ العربي بن محمد بصري[88] من فقهاء مكناس، عرف بعلمه وصلاحه واشتغل بالتدريس والتأليف وهو صاحب تأليف «**منحة الجبار**». توفي بمكناس عام 1148هـ/1735م.

4 ـ أبو القاسم سعيد بن أبي القاسم العميري[89]، من قضاة مكناس. توفي عام 1178هـ/1764م.

5 ـ محمد بن السلطان مولاي إسماعيل المعروف بمحمد العالم[90]. توفي عام 1118هـ/1706م.

لا تمثل هذه اللائحة في نظرنا سوى القلة من تلامذة الولالي، فالمصادر التي ترجمت له لم تسمح لنا بالوقوف إلا على هؤلاء الخمسة وربما كان هذا العدد واقعيا لأن الولالي كان مربيا بالقصر السلطاني، ومع ذلك فإن هذا لم يعقه عن ممارسة التدريس خارج مدرسة القصر، ويصح الِافتراض أن ما عرفته مكناس وجامعها الأعظم[91] من إقبال لتلقي العلم، ما يجعلنا نعتقد أن تلامذة الولالي كانوا وفرة، وأنه أجاز الكثير منهم[92]. فماذا يمكن أن نستنتجه من هذه القائمة الصغيرة ؟

إنها مجموعة من العلماء عرفوا بنشاطهم الفكري والتعبدي. كان بينهم من له أصل قروي ولكن غالبهم كان من أصل حضري وشكل النخبة المثقفة لمدينة مكناس في القرن الثامن عشر الميلادي. كما أن تكوينهم وما اشتهروا به من معارف لا يتعارض مع تكوين شيخهم. فهم شخصيات لمعت في «التيولوجية» والأنساب. فمن بين

(86) ع. ابن زيدان، **إتحاف**، ج 5، ص. 324.

(87) **المصدر نفسه**، ص. 400.

(88) **المصدر نفسه**، ص. 425 ؛ المكناسي، **منحة الجبار**، آخر المخطوط.

(89) **المصدر نفسه**، ج 5، ص. 426.

(90) ع. ابن إبراهيم، **إعلام**، ج 6، ص. 8.

(91) ع. ابن زيدان، **المنزع اللطيف**، ص. 334.

(92) ع. ابن إبراهيم، **أعلام**، ج 6، ص. 8 ؛ أ. الولالي، كتاب **مواهب الفتاح**، مخطوط خ س، رقم 3650.

هؤلاء الخمسة لا نجد سوى واحد منهم هو الذي تولى خطة القضاء. أما الباقي فإن التدريس والصلاح أخذ بكل اهتمامهم.

ـ تآليفه :

أشارت كل المصادر والمراجع التي ترجمت للولالي إلى إنتاجه الفكري ووصفته بالغزارة والجودة والتنوع. ويظهر أن عملية التصنيف عنده بدأت وسارت موازية لعملية التدريس[93]. فهو لم يتوقف عن التدريس لينقطع «للتأليف». كما يظهر أن الرغبة في هذا العمل وإن كانت نابعة عند صاحبها من إحساسه الخاص، إلا أنه يشير بأن أحد من عاشره من الأمراء كان كثير الإلحاح عليه بالكتابة والتأليف فهو يصرح بذلك قائلا : «ثم إن بعض أشراف[94] الوقت أطلعني على نظم الأخضري جمع فيه جل مهمات ذلك التلخيص، وسماه «**الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون**» والتمس مني شرحا، إذ لم يظهر له شرح يفتح مغلقه ويبين مجمله... فأسعفته..»[95].

أما منهجيته في التأليف فتبرز من طبيعة العمل نفسه الذي هو في واقع الأمر لا يعدو أن يكون في غالبيته شروحا وحواشي لا تقتضي من صاحبها جمعا للمادة ولا تفكيرا فيها. ومع ذلك عندما نتصفح أعماله نجد عنده تنظيما وتبويبا لها، وتسلسلا في العرض وسهولة في التعبير، وتوضيحا للغرض من التأليف. من هنا كانت للولالي خصوصيته في الكتابة تنوعت حسب طبيعة العلم الذي كتب فيه.

كان الولالي مدركا لطبيعة كل عمل قام به. فهو شديد الحرص على توضيح الغرض منه[96] والتأكيد على أهمية المادة التي اشتغل بشرحها أو الكتابة فيها. فشروحه كانت تروم «فتح ما هو مغلق» وإظهار الفوائد التي يكون الإختصار قد أخل بها، أو جمع وتبسيط ما عومته الشروحات المطولة، «فيكون للمتن شرحا وللشرح بسطا وفتحا»[97]. ففي الحالتين كلتيهما يبقى الغرض هو إزالة الغموض وتقريب المسائل إلى

(93) م. المكناسي، **منحة الجبار**، آخر المخطوط.

(94) هو محمد بن السلطان مولاي إسماعيل العلوي الذي كان من تلامذة أحمد الولالي. راجع : ع. ابن إبراهيم، **الإعلام**، ج 6، ص. 8.

(95) أ. الولالي، مقدمة شرح، **الجوهر المكنون**، وخطبة كتاب **مواهب الفتاح**.

(96) راجع مقدمة شرح **الجوهر المكنون**، مصدر سابق.

(97) راجع مدخل **مواهب الفتاح**، مصدر سابق.

الأذهان. وهذا عمل قد يحتاج كما يقول : «إلى مزيد من الكلام أو إضافة أشياء أخرى»[98] فالإضافة عنده تكون لتصحيح ما اعتبره خطأ، والمزيد من الكلام تعني إزالة صعوبة المعنى، فكلامه ليس لغوا.

وحتى يمكن إبداء مزيد من الملاحظات، يجمل أن نقدم لائحة إنتاجه المكتوب، ولا نظنها مستقصية لأسماء مصنفات الولالي في مختلف العلوم، ولكنها غاية ما أمكننا الوقوف عليه بعد البحث والتحري.

اسم الكتاب	تاريخ التأليف	موضوعه	ملاحظات
1 ـ «**شرح الجوهر المكنون في صدق الثلاثة فنون**».	1108هـ	علم البيان	ـ توجد منه نسخة خطية بالخزانة الحسنية تحت رقم 2174. وكذلك نسخة خ ع رقم 326د. وهو شرح لنظم الأخضري المعروف بالسلم.
2 ـ «**مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح**»	؟	علم البيان	ـ يوجد الجزء الأول منه بالخزانة الحسنية تحت رقم 3650. لا زال مخطوطا. وهو شرح «**لتلخيص المفتاح**» للقزويني.
3 ـ «**أشرف المقاصد في شرح المقاصد**»	؟	علم الكلام	ـ طبع الجزء الأول منه على الحجر بمصر، وتوجد منه نسخة خطية بالخزانة الحسنية رقم : 2594. وهو شرح لـ«**مقاصد الصائبين في أصول الدين**» للتفتزاني.
4 ـ «**نزهة الأنظار في روضة الأزهار**»	؟	التوقيت	ـ منه نسخة خطية بالخزانة الحسنية رقم 6006. وهو شرح لـ«**روضة الأزهار**» للجادري.
5 ـ «**نصيحة الصفا في قواعد الخلفا**»	قبل 1106هـ	السياسة	ـ توجد منه نسخة خطية بالخزانة الحسنية رقم 3914 وأخرى بالخزانة العامة رقم 383ك.

(98) راجع مقدمة شرح **الجوهر المكنون**، مصدر سابق.

6 ـ «**شرح التلخيص**»	1108هـ	البلاغة	ـ الخزانة الحسنية رقم 759. مخطوط وهو شرح لكتاب في البلاغة للخطيب القزويني.
7 ـ «**شرح مختصر سعد الدين على التلخيص**».	؟	البلاغة	ـ الخزانة الحسنية رقم 2401.
8 ـ «**شرح خطبة سعد الدين التفتزاني على التلخيص**»	؟	خطبة	ـ وهو شرح مستقل لخطبة سعد الدين التي أتت في أول كتاب «**تلخيص المفتاح**». الخزانة الحسنية رقم 6210.
9 ـ «**شرح لامية الأفعال لابن مالك**»	؟	التصريف	ـ ذكره له صاحب كتاب «**مؤرخو الشرفاء**» وصاحب «**التقاط الدرر**» ولم نقف عليه.
10 ـ «**شرح مختصر السنوسي في المنطق «السلم»**»	؟	المنطق	ـ توجد نسخة منه في الخزانة الحمزاوية تحت رقم 254 ضمن مجموع. راجع في ذلك مقال الأستاذ المنوني حول «الخزانة الحمزاوية» في **مجلة تطوان**، ع 8، وكذلك مخطوط خ ع 341د.
11 ـ «**حاشية على شرح المحلى على جامع الجوامع**».	؟	الأصول	ـ ذكره صاحب «**مؤرخو الشرفاء**»
12 ـ «**شرح رسالة الجرجاني**»	؟	البلاغة	״ ״ ״ ״
13 ـ «**شرح الجمل للخوانجي**»	؟	اللغة	״ ״ ״ ״
14 ـ «**شرح لاميته في المنطق**»	؟	المنطق	ـ توجد نسخة منها في الخزانة الحمزاوية. راجع المنوني **مجلة تطوان** عدد 8، ص. 152
15 ـ «**مباحث الأنوار**»	1109هـ	المناقب	ـ نسخة الخزانة العامة 342ق. 2305ك. ونسخة الخزانة الحسنية رقم 5617.
16 ـ «**قصيدة في التوحيد**»	؟	التوحيد	ـ ذكرها له صاحب «**الإكليل والتاج**»، ص. 27.

انطلاقا من هذا الجدول الذي جمع معظم إنتاج الولالي أمكن إبداء الملاحظات التالية :

1 ـ كتب الولالي في أصناف متنوعة من المعرفة. فمن مضامين هذه التآليف يتجلى أن واضعها لغوي وبياني ومتكلم ومنطقي ومؤقت وسياسي. ومن بين هذه المعارف جميعها، كانت اللغة والمنطق في مركز اهتماماته. وهو إن كان قد كتب في علوم أخرى لها صلة بالعقيدة والتصوف، فإننا نراه لم يخص علم الفقه بأي تأليف. فهل هذا يعني أن الفقه لم يكن عنده يشكل فائدة كبرى، أم أن ذلك يعكس القسمات الواضحة لمدرسة الدلاء وعطاء المدرسة اليوسية ؟ فكيفما كان الأمر، فإن مؤلفاته تعكس تكوينه والمصادر المعتمدة عنده.

2 ـ بقيت أغلب أعماله محفوظة ووصلتنا وأمكن الوقوف عليها، إلا أنها لا زالت مخطوطة ولم تحظ لحد الآن باهتمام الباحثين.

3 ـ ما تميزت به كتبه وشروحه هو وحدة الموضوع، فكل كتاب يختص بموضوع دون سواه.

4 ـ يعد أغلب هذه التآليف شروحا لكتب ومختصرات مألوفة ومشهورة في عصره، وغالبها كتب تعليمية تناولها غيره بالشرح. ففي ميدان العقيدة مثلا اعتنى العلماء المغاربة بشرح «**السلم**» للأخضري و«**مختصر السنوسي**» الذي شرحه أستاذه الحسن اليوسي[99]. فالولالي لم يخرج عن التقليد الذي كان في عصره. فالشروح هي الشكل الذي استقر في ذلك العصر.

5 ـ لا نعرف بالضبط متى بدأ الولالي في التصنيف، فأغلب أعماله التي أمكننا تصفحها خالية من الإشارة إلى تاريخ ومكان التأليف، إلا أننا نستطيع القول إن الكتابة بدأت عنده قبل سنة 1106هـ. واستمرت إلى ما بعد 1110هـ.

6 ـ كان يختار لتآليفه عناوين مسجوعة وأحيانا يحافظ على عناوينها الأصلية، ويشتق تلك الأسماء من معان لها علاقة بالطبيعة أو ذات نفحات روحانية صوفية.

(99) للحسن اليوسي شرحان : **حاشية على شرح كبرى السنوسي** وتوجد منه نسخة خطية بالخزانة العامة تحت رقم 2645ك، والخزانة الحسنية رقم 263، **وشرح صغرى السنوسي**، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 6654.

7 ـ كان من بين مؤلفاته ما كانت له ميزة خاصة. تلك هي حالة **«مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار»**، و**«نصيحة الصفا في قواعد الخلفا»**. ولكن مع ذلك فهو لم يخرج عن عصره عندما كتب في المناقب والسياسة.

ـ كتاب في السياسة : «نصيحة الصفا..» :

هو عبارة عن كتيب صغير، قد نتساهل في تسميتنا له بمؤلف أو كتاب[100]. فهو لا يعدو أن يكون رسالة مبوبة موجهة إلى السلطان مولاي إسماعيل. تناول فيها صاحبها قواعد الحكم في الإسلام، ووزع مواضيعها إلى خطبة وأربعة أبواب وخاتمة، وفي هذه الأبواب قواعد وأركان. فبعد أن ذكر بما «يجب على كل من وكل له أمر العباد استحضاره» انتقل إلى الكلام على مفاتيح الخلافة وخصال محرزها واستقرارها ورسوها ثم كمالها، وأخيرا خلص إلى أن الخلافة الدنيوية وسيلة للفوز بالخلافة الأخروية.

ففي هذه الأبواب كان الحديث عن توقير الصالحين وأهل البيت، والدعوة إلى إقامة الجهاد وتحصين الثغور، ثم الاهتمام بالجند ومشاورة أهل العلم وقبول الحق منهم. كما دعا إلى انتخاب الوزراء والعمال تبعا لشروط يجب أن تراعى فيهم.

لم يكن الولالي بنصيحته هذه سباقا إلى الكتابة في السياسة وإلى المولى إسماعيل بالضبط، إذ كان أستاذه الحسن اليوسي قد سبقه إلى ذلك[101]. كما أن النصيحة للسلاطين من قبل العلماء ليست شيئا جديدا في تاريخ المغرب، فهي كانت موجودة باستمرار[102]. ومع ذلك فإننا نرى من خلال مضامين هذه النصيحة، وإن كانت لم تبلغ مضامين رسائل أستاذه حجما ونوعا كيف كان عالم ارتبط بالدولة الناشئة يرى الحكم المقبول شرعا. ففي هذه النصيحة التي ربط فيها الخلافة الدنيوية بالخلافة الأخروية، لا نرى ربطا لهذه الخلافة بالحياة اليومية للناس. وهذا ما جعلنا لا نشتم من نصيحته رائحة المعارضة، وحق لنا أن نتساءل هل كان نظر الولالي في السلطة معبرا عن مواقف كل علماء المغرب تجاه الحكم في ذلك العصر ؟

---

(100) محمد المنوني، **المصادر العربية لتاريخ المغرب**، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1983.

(101) ع. الجراري، **عبقرية اليوسي**، ط. دار الثقافة، ص. 116.

(102) J. Berque, **Al Youssi, problèmes de la culture marocaine au 17e siècle**, p. 236.

ثالثا ـ خصوصية الكتابة في «مباحث الأنوار»

كان الوقوف على مكانة الولالي العلمية والصوفية مساهمة في معرفة مكوناته الفكرية، حتى إذا أقبلنا على قراءة كتابه «**مباحث الأنوار**» تمكنا من تحديد الأصول المعتمدة عنده، وازددنا معرفة بقدرته على الكتابة في كل فن. فالرجل متشبع بالثقافة الإسلامية والتصوف آخذ بالسنة، لم تنحصر كتابته في جنس معين. فمن قائمة إنتاجه المكتوب اتضح أنه يملك العدة اللازمة للكتابة في كثير من فروع المعرفة.

خصص كتابه «**مباحث الأنوار**» للحديث عن مناقب الرجال. فقدم مادة تاريخية غزيرة ومتنوعة، ولكنها مادة ذات خصوصيات. فما هي الجوانب التي يجب أن ننظر إليها حتى تنجلي لنا هذه الخصوصية ؟

1 ـ طبيعة الموضوع :

ليست الكتابة في التراجم والمناقب بالشيء الجديد بالنسبة لعصر المؤلف. فالعناية بها ظهرت في المغرب مبكرا[103]، واحتلت به مكانة خاصة. فالولالي لم يكن من المبدعين في هذا الباب. ولكن كتابه المخصص لمناقب الرجال لا يخلو من مميزات : ومنها أنه ركز على فئة معينة من الناس وعلى إقليم معين، ومن هنا كانت الاستطرادات الكثيرة التي تخللت تراجمه غنية من الناحية التاريخية. فهي معلومات وخلفيات دينية وفكرية وسياسية واجتماعية لتراجم كتابه. وهذا ما يبحث عنه المؤرخ.

ـ إن المادة التاريخية ليست مقدمة بطريقة مباشرة : فالتاريخ هنا كتب على شكل سير وكرامات، ولكن تجاوز الكرامة إلى مضمونها يمكننا من ملامسة الواقع بشكل أقرب وأشمل، فكتب المناقب هي أقرب إلى قاعدة المجتمع من كتب الإخباريين. لا ندعي إقصاء لأهمية هذا النوع الأخير من المصادر التاريخية بالنسبة لكتابة التاريخ المغربي عامة، ولا حتى بالنسبة لكتب المناقب نفسها، إذ أن المصادر الإخبارية أو الحولية قد تكون معينة على حل المشاكل التي تطرحها كتب المناقب، كما يكون لهذه الأخيرة شيء من العوض على ما لا تقدمه الحوليات التاريخية.

---

(103) ل. بروفنسال، **مؤرخو الشرفاء**، ط. الرباط، 1977، ص. 54.

كتاب «**مباحث الأنوار**» كتاب في المناقب، وبالتالي فهو خطاب متميز دخلت في إنتاجه عناصر ثقافية متنوعة، منها ما هو ديني وما هو أدبي، ومن ثم كان اتصاله بالكرامات والخوارق. وقد اعتمد المؤلف في إنتاج هذا الخطاب الرواية الشفوية ونقل ما عاينه بنفسه، ولكن اعتماد الرواية لا يخلو من عناصر التحقيق، وهذا ما يظهر من تعامله مع مصادره.

2 ـ المصادر المعتمدة :

إن هذا الرجل المتصل بطبيعة تكوينه بالكرامة والخوارق، اعتمد مصادر متنوعة. فهو إن كان لا يحيلنا على أي مصدر مكتوب ومعروف في تراجم رجاله، فإنه استقى معلوماته عنهم من المعاينة والمشاهدة وبواسطة الرواية الشفوية والمراسلة. وبما أن لهذا النص أصولا، فإن مصادره النصية كانت هي **القرآن** والحديث وكتب التصوف والعقائد. ويظهر ذلك من كثرة النقول والاستشهادات التي كثرت في كتابه.

ـ المصادر النصية :

تتمثل في كثير من الآيات القرآنية التي جاءت أحيانا على لسانه وأحيانا على لسان مترجميه أو مخاطبيه. إلا أننا نلاحظ أن بعض تعليقاته اتفق مضمونها مع ما جاء في تفسير بعض الآيات القرآنية. وهنا لم يكن في إمكاننا تحديد ما اعتمده من تفاسير، وإنما نظن أنها لا تخرج عن التفاسير التي كانت تروى في هذا العهد، مثل تفاسير ابن إسحاق والثعالبي وابن عطية وابن حيان وتفسير ابن جنوي والبيضاوي[104].

أما الحديث، فإننا لا نفاجأ إن رأينا الولالي وهو ليس من الحفاظ في هذا الباب، قد أدخل كثيرا من أقوال النبي ـ ﷺ ـ. فإدخال الحديث هو ضرورة تقتضيها طبيعة الموضوع الذي يحتاج إلى إقامة الحجة. إلا أنه صادفتنا صعوبة في تمييزها وتخريجها. فهو لا يذكرها بسندها. وعندما قمنا بمحاولة تخريجها اتضح لنا أنها ليست كلها أحاديث صحيحة. إن إدراج أحاديث ضعيفة[105] أمرٌ له دلالته في كتب الطبقات، لكننا نجده حتى في الأحاديث الصحيحة لا يلتزم دائما بنصها. أما

---

(104) م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 72 ؛ س. الحوات، **البدور الضاوية**، ص. 86.

(105) انظر : على سبيل المثال، نص **مباحث الأنوار**، ص. 111.

الأصول المعتمدة عنده في هذه المادة فهي ترتكز بالدرجة الأولى على الكتب الصحاح.

أولى الولالي مكانة مهمة للتصوف في كتابه، تظهر هذه المكانة في كثرة الإستشهادات والتعليقات والنقول. الشيء الذي يدل على أن المؤلف كان على اطلاع واسع بما كتب في هذا الميدان أو ما تناقله الناس من أقوال الصوفية والأولياء. ومع ذلك لا نجده يصرح بمصادره إلا نادرا، فالنقول تأتي عنده مدمجة في الخطاب. ومن هنا، كانت صعوبة رد هذه النقول إلى أصولها، لأن التراث في هذا المجال واسع جدا[106]. ومع ذلك أمكن رد الكثير من هذه النقول إلى أصولها، ومن ثم تحديد ما يمكن أن يكون قد شكل الإطار المرجعي للولالي في هذه المادة، مع ما يمكن أن تحمله كلمة تحديد من مجازفة. فما قرأه الولالي أو وقف عليه لا يتأتى حصره، وكل ما نعمل على إظهاره هي تلك المؤلفات التي كان لها تأثير كبير في عصره وقبله والتي أمكن استخراجها من كتابه هذا وهي :

ـ «**الرسالة**» لأبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري المتوفى عام 386هـ.

ـ مؤلفات ابن عطاء الله الإسكندري المتوفى عام 708هـ/1308م. أحالنا على كثير من أقواله التي هي مثبتة في مؤلفه المشهور «**بالحكم العطائية**». كما نرجح أن مؤلفات أخرى لابن عطاء الله دخلت في تكوينه.

ـ مؤلفات الإمام الغزالي المتوفى عام 505هـ/1111م خاصة : «**إحياء علوم الدين**» و«**ميزان العمل**».

ـ مؤلفات الشيخ زروق وخاصة «**وظيفتـ**»ـه و«**قواعد**»ه.

ـ أحزاب الشاذلي و«**دلائل الخيرات**» للإمام الجزولي، ثم «**الصلاة المشيشية**».

هذه هي المؤلفات التي أمكن إثباتها كأصل لما جاء عند الولالي من نقول صوفية في كتابه «**مباحث الأنوار**». إلا أن ثمة نقولا أخرى جاءت على شكل أقوال أخذها عن أشياخه وأصحابه الذين التقى بهم. فاتصاله وروايته عن جماعة من الأولياء

(106) م. مفتاح، **التيار الصوفي**، أطروحة لم تنشر، كلية الآداب بالرباط، 1981، ص. 120.

والصلحاء، أمثال شيخه محمد بن عبد الله السوسي، وأحمد اليمني وعبد القادر الفاسي، جعلاه يدخل بعض أقوالهم التي لها أصل في كتب القوم أو في سيرة الصالحين والصحابة.

هكذا نرى أن ما اعتمده الولالي من مصادر في هذا الباب لا يخرج عما كان يقبل المغاربة على دراسته وتدريسه. كما يتضح من خلال ما استشهد به من نقول أن المؤلفات المغربية قد شملت الظاهرة الصوفية، ومع ذلك فهي لا ترقى إلى مستوى الحجية عنده، فغالب حججه واستدلالاته كانت انطلاقا من مؤلفات مشرقية.

وإلى جانب ما ذكرناه نجد أن الولالي أدخل نوعا آخر من المصادر المكتوبة، وقد استعمله بشكل محدود جدا، وهو المتمثل في التقاييد والمراسلات[107] والأشعار وكتب العقائد. فهو يصرح باستعماله لشجرات الأنساب[108]، وتقاييد ابن مسعود اليوسي[109] كما ظهر عنده في مواضيع متفرقة الإستشهاد بالشعر، في حين استشهد بقولة للسنوسي، وهو الذي كان للولالي اهتمام خاص «**بعقائده**».

ـ المصادر غير المكتوبة :

الرواية الشفوية : اعتمد الولالي كثيرا من الرواة في ما نقله من أخبار، سواء تعلق الأمر بالمرحلة التي عاشها أم التي سبقته بقليل أو كثير. وكان هؤلاء الرواة ثقة في نظره. يظهر ذلك من خلال استعماله لألفاظ مثل «أخبرني ثقة علما ودينا»[110] «فروى لي التقي.. الصادق..»[111] «وأخبرني من أثق به»[112]. كما يظهر أن معظم رواته كانوا من أسرته أو من أصحابه في طريق القوم أو من الذين ربطته بهم علاقة الصحبة والمحبة. إلا أن ثقته لا تعفيه من التحري والتحقيق للتأكد من صحة الخبر أو الكرامة[113]. وفي تقديم أخباره كان أحيانا يصرح بأسماء رواته مثل «أخبرني العالم النحرير الطيب المسناوي»[114]، وأحيانا أخرى لا يصرح بذلك مثل «أخبرني ثقة

(107) «مباحث الأنوار»، ص. 135.
(108) المصدر نفسه، ص. 201.
(109) المصدر نفسه، ص. 64.
(110) المصدر نفسه، ص. 141.
(111) المصدر نفسه، ص. 17.
(112) المصدر نفسه، ص. 141.
(113) المصدر والصفحة نفسهما.
(114) المصدر نفسه، ص. 5.

من أصحابنا أنه سمع»[115]. كما يلاحظ أن في روايته مستويين، فهو إما أن يكون السامع الأصلي للرواية، وهنا تكون للخبر قوته التوثيقية، وإما أن يكون سامعا لمن روي له الخبر وهنا يستعمل التحري. وفي نقله لهذه الرواية لا يبقى دائما محايدا تجاه مضمونها، بل كثيرا ما يتدخل لتبريره. وهنا يستعمل لفظ «قلت»[116] أو «صح» مستعملا الرأي أو الاحتمال كقوله عند تفسيره لقولة شيخه محمد بن عبد الله السوسي : «يحتمل أن يريد بتدبير الرعية تدبيرهم بأنفسهم»[117]. أو يعمد إلى حجة نقلية لكي يتم له القصد وهو إقناع مخاطبيه.

ـ المعاينة والمعاصرة :

كان الولالي معاصرا ومعاينا، بل وطرفا في بعض الأحداث والوقائع وأخبار الرجال. وقد اختلفت طريقة نقله لكل ما شاهده وعاشه. فهناك ما اقتضى الموقف السكوت عنه أو الاكتفاء بالتلميح إليه، وهناك ما استوجب الإفاضة في الحديث عنه. ظهرت هذه الإفاضة بالخصوص عند تراجم من أدرك حياتهم وربطته بهم صلات.

3 ـ منهجية الكتابة :

لا نعرف متى بدأ الولالي في كتابة مؤلفه الذي انتهى منه سنة 1109هـ/1698م، ولا كم دامت المدة التي قضاها في جمع مادته. كما نسجل الشيء نفسه فيما يخص الكتب التي شكلت النموذج بالنسبة إليه وألف على منوالها. إلا أن الأسلوب الذي سار عليه في كتابه «**مباحث الأنوار**» يجعلنا نعتقد أنه لم يكن يجهل ما ألفه سابقوه أو معاصروه في موضوع التراجم والمناقب. فكتب مثل «**التشوف**» للتادلي، و«**مرآة المحاسن**» لابن حامد الفاسي، و«**المعزى في أخبار الشيخ أبي يعزى**» للصومعي و«**ممتع الأسماع**» لمحمد المهدي الفاسي المتوفى عام 1109هـ/ 1698م وغيرها، كانت متداولة في عصره. فلا شك أن الولالي الذي اهتم بأخبار شيخه وأخبار أفراد أسرته الولالية، وكذا أخبار مجموعة من الزهاد، قد

(115) **المصدر نفسه**، ص. 6.
(116) **المصدر نفسه**، ص. 268.
(117) **المصدر نفسه**، ص. 179.

وقف على أحد أو جل هذه الكتب، وهو إنْ لم يقتف خطواتها حذو النعل بالنعل، فإنها على الأقل أنارت له الأفق.

فعلى غرار ما نجده عند الكثير من المغاربة الذين كتبوا في التراجم، ابتدأ الولالي كتابه بخطبة قصيرة مسجوعة اختلط فيها النثر بالشعر، وبعد أن بين العناصر التي بنى عليها كتابه أشار إلى العنوان الذي اختاره له فقال : «**وسميته بمباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار**».

إن عنوانا كهذا يحمل نفحة روحية وأخلاقية، لا يعد غريبا ولا خروجا عما آعتيد عند المؤلفين في الطبقات، بل نجد حتى ألفاظه معتادة. فلقد ألف محمد بن الحسن الحسني المتوفى عام 776هـ/1374م كتابا سماه «**الأخبار في مناقب الأخيار**»، وألف أبو القاسم بن خجو «**ضياء النهار المجلي لغمام الأبصار في نصرة أهل السنة الفقراء الأخيار**»(118). إلا أن ما لفت نظرنا هو أن المادة عنده مقسمة إلى مباحث، وليس إلى أبواب كما هو الشأن في مؤلفاته الأخرى أو عند غيره. فهل تقسيم مادة كتابه إلى مباحث ثلاثة يعني أنه كتب في ثلاثة مواضيع مستقلة عن بعضها ؟ إن العالم الذي اشتغل أكثر من غيره بعلم الكلام والمنطق قد تكون كلمة مباحث عنده مألوفة وذات معنى خاص، أما استقلال المواضيع عن بعضها ربما ظهر ذلك من خلال عناوينها، ومن خلال الأشخاص المترجم لهم، إلا أن نظرة في العمق من شأنها أن تجعلنا ندرك الخيوط الرابطة بين هذه المواضيع المستقلة ظاهريا. فالتراجم عنده هي لأهل العلم والصلاح، والوحدة في الموضوع قائمة بطريقة غير مباشرة، ومحورها هو القطب محمد بن عبد الله السوسي.

خص الولالي كتابه لأخبار جماعة من الناس لها ارتباط بالحياة الدينية والفكرية ولم يدرج إلا عرضاً عناصر أخرى من الناس كان لها أهمية في البناء الإجتماعي. ومع ذلك فإننا نرى عنده رصدا لجانب معين من شخصية المترجمين، فالذي استهواه أكثر من غيره هو جانبها الديني والفكري. فكيف عمل على جمع أخبار أولئك الرجال ؟

تساءل صاحب «**مؤرخو الشرفاء**» : كيف يمكن للكاتب أن يعتمد على ذاكرته فقط، دون تسجيل سابق، وكيف يستحضر نقولا عن ظهر قلب(119) أجاب

(118) توجد منه نسخة خطية بالخزانة العامة رقم 1845د، ضمن مجموع.ج

(119) ل. بروفنسال، **مؤرخة الشرفاء**، ص. 57 وما بعدها.

الولالي عن هذا التساؤل المشروع وهو يتحدث قائلا : «ومن الشقاوة أني فرطت فيها اتكالا على الحفظ [...] ولكن بقي في حفظي ما سأورده..»[120]. كان الولالي قد سجل أخباره اعتمادا على الذاكرة، إذ لم تكن له مذكرات رجع إليها عند تحرير أخباره، فهذه الأخيرة كانت مخزونة في ذاكرته، ولكنه كان واعيا بالطبيعة الإنتقائية لهذه الذاكرة، فالنسيان هو آفتها، ومع ذلك فهو نسيان انتخابي. فما نقله لنا ليس كل ما روي له أو شاهده، أو حفظه. وهو بهذا لا يشكل استثناء، فظاهرة الحفظ كانت قد انتشرت عند المغاربة[121].

إن الاعتماد على الحفظ في نقل الأخبار لا يعني أن الولالي لم يرضخ للقواعد المتواطأ عليها في التأليف عند المغاربة. فلابد أن يكون قد أعد العدة لتحرير كتابه، ومن المرجح أنها لم تكن على شكل مذكرات، لكنها كانت على صيغة تحضير مسبق، فالعمل كما يقول : كانت له «مسودة» و«مبيضة»[122]. وهذا يعني أن الولالي لم يخرج عما اتبعه المغاربة في طريقة التأليف، ويظهر ذلك سواء على مستوى تعامله مع مصادره، وهذا ما أشرنا إليه عند تحديد نوعية تلك المصادر، أم على مستوى ترتيب مادته.

قسم الولالي كتابه إلى ثلاثة مباحث، وقد جاء هذا التقسيم نابعا من منطق داخلي. يظهر ذلك من فكرة المركزية أو المحور الذي بنى عليه كتابه، وهو القطب محمد بن عبد الله السوسي، وتبعا لهذا المنطق كان التفاوت في الحجم الذي أخذه كل مبحث، بل وكل ترجمة. فعدم التوازن واضح في كتابه إذ أخذت ترجمة شيخه القسم الأكبر من الكتاب. قد يكون ذلك معبرا عن قصده، إلا أنه باقتصاره على «البعض» جعل لكتابه إطارا زمنيا ومكانيا واضح المعالم، فكل مترجميه تقريبا عاشوا في القرنين الحادي عشر وبداية الثاني عشر الهجريين. وقد نلاحظ عنده اهتماما في تبين اسم المترجم له كاملا، والتعرض إلى أشياخه في علم الباطن خاصة، وذكر كراماته، أما اهتمامه بتاريخ الوفيات فهو نادر.

---

(120) «**مباحث الأنوار**»، ص. 86.

(121) Berque, Al Youssi..., p. 28

(122) انظر ما جاء في آخر نسخة الخزانة الحسنية من كتاب **مباحث الأنوار**، وهي الورقة التي أثبتناها في الملحق.

اعتمد الولالي في كتابه «مباحث الأنوار» أسلوب الإقناع، وذلك باستدراج القارئ أو المخاطب إلى ما يريد أن يصل إليه. ويكون هذا الإقناع عن طريق الحجة التي تأتي إما من القرآن والحديث لإقامة الدليل، وإما استشهادا بأقوال الصوفية والشعر والحكايات وذكر الأمثال لتأثيرها في قلوب القارئين. ولكن القارئ لهذا الكتاب قد يجد نفسه مشدودا إليه أيضا عن طريق أسلوبه في التعبير «ففي هذا الكتاب تبدو قدرة المؤلف على التعبير وحسن الأداء في أسلوب سليم خال من التكلف..»(122) إن هذه القدرة تتجلى أيضا على مستوى المصطلح وتطويعه، فكتابه زاخر بالمصطلحات الصوفية التي هي رموز لا يعرف مدلولها إلا الراسخون في علم التصوف والشاربون من منبعه. إلا أن قدرته لا تكمن في استيعابها فقط، بل في تبسيط معناها وتقريبه إلى القارئ. فهذا التبسيط هو الذي جعل طريقته في العرض تتخذ الطابع التعليمي، فيشرح ويعلل(123) بأسلوب وتعبير سهل سلس ينساق القارئ معه ولا يجد كثرة السجع والتنسيق إلا في المقدمة وعند تحلية أفاضل الأعلام الذين ترجم لهم.

إن هذا الأسلوب السهل لا ينقص من المكانة العلمية لصاحبه، فهو إن بدا لنا من جملة ما تأثر به وأخذه عن شيخه الحسن اليوسي، فإنه لا ينفي أن الرجل مالك لبضاعة لغوية كبيرة، فهو اختار الأسلوب الذي تسري به الفكرة بأكثر ما يمكن من السهولة. فالكتاب قد خص به فئة معينة، وهو مع ذلك موجه لعامة الناس، فالغرض هنا ليس البلاغة، بل إن هذا الأسلوب السهل قد يكون مؤشرا على عدد من الأمور، ففي «مباحث الأنوار» نلمس شخصية الولالي بكل أبعادها الفكرية والروحية والإجتماعية.

رابعا : ظروف التأليف

رأينا أن الولالي كان في مؤلفاته حريصا على تبيين القصد والغاية من كتابته. وهذا ما يلمس أيضا من خطبة كتابه «مباحث الأنوار» أو ما يستشف من خلال فك بعض رموزها وإشاراتها.

---

(122) م. حجي، الزاوية الدلائية، ص. 122.

(123) انظر شرح الولالي لوصية محمد بن عبد الله السوسي في مباحث الأنوار، ص. 90.

أشعرنا في خطبة كتابه بنوعية علمه وقصده : «فهذه مباحث أذكر فيها من أخبار بعض الأخيار ما تيسر، وأجمع فيها من محاسنهم ما يكون فيه أداء لبعض شكر ما لهم علينا من المنة ويكون فيه تذكرة لمن أراد أن يتذكر استمطارا لوابل رحمتهم...» هكذا يتضح أن الرجل مشغول بالبحث عن أخبار رجال «أخيار»(124) لتحقيق غايتين : إبداء الشكر لهم، وأخذ العبرة من سيرهم. ومن هنا يتجلى لنا أن الرجل ذو قضية، وقضيته تتصل بإظهار مكانة رجال عرفوا بصلاحهم وبسلوكهم مقابل ظاهرة أخرى مسكوت عنها قد تكون مناقضة للمصرح بها، خاصة وأن الرجل وجد في زمن كثرت فيه التحولات. ففكرة آخر الزمن لم تكن مستبعدة عنده. فهي الفكرة التي عبر عنها قبله بقليل شيخه الحسن اليوسي : «فالحذر مطلوب ولا سيما فيما نحن فيه من آخر الزمن الذي استولى فيه الفساد على الصلاح والهوى على الحق والبدعة على السنة، إلا من خصه الله وقليل من هم...»(125). وعن هذا القليل بحث أحمد الولالي، فاستعماله للفظة «بعض» إن كانت لا تفيدنا عدديا وكميا، فإنها تشير إلى أن أمر الصلاح مقصور على نخبة من الناس هي التي بحث عنها. قد يتأكد هذا الترجيح باستعماله لكلمة «مباحث» أيضا. إنها وإن كان لها معنى خاص : يعني المسألة التي يكون فيها البحث في فصل من الفصول، فإنها قد تعني هنا البحث عن شيء لم يعد موجودا، فكأن الصلاح قد غدا مفقودا في زمن الولالي. وهذا ما أعطى لقضيته بعدا أخلاقيا، خاصة عند ما قرن البحث بالاعتبار. فالخيارة المنعدمة تفصح عن معالم تطور جديد يكون قد طرأ لا على المستوى الأخلاقي وحده بل على المستوى العام.

وإذا نحن أردنا أن نقف على الأسباب التي حدت به إلى كتابة «**مباحث الأنوار**»، لابد أن نحاول بناء على ما تقدم، استيعاب عقلية مؤلفه، وإدخال عناصر أخرى في الحسبان.

فالكاتب رجل عالم ومتصوف من أتباع محمد بن عبد الله السوسي المشهورين والمقربين، ومن ثمة فإن الولالي مثله مثل العلماء الكبار من عصره أراد ألا يخرج عن القاعدة : إذ أن جل علماء عصره الكبار خصصوا لمؤسسي الطرق كتابا أو أكثر عرفوا فيه بأشياخهم في الطريقة(126). من هنا تبرز القضية الأولى التي شغلت

(124) راجع «خطبة» كتاب **مباحث الأنوار**.

(125) ح. اليوسي، **المحاضرات**، ص. 46.

(126) **Berque, Al Youssi..., p. 81** .

وحركت مؤلفنا والتي تنبئنا بإدراكه لأغراض ذكر «الإنسان لأشياخه»[127]. فإبراز مكانة وطريقة شيخه من بين الكبار من عصره جعله يخص القسم الأكبر من كتابه لترجمة هذا الشيخ، فعرف به وبمن ينتمي إليه. وفي ذلك تأكيد لتعلقه بطريقة انتمى إليها، ووصولا لتمجيدها.

ومن الراجح إذاً أن الولالي قد هدف إلى إظهار مكانة شيخه ومع ذلك فإن الأمر فيه وجوه : إن هذه المكانة هو إظهار لموقع ومكانة المتحدث، وتكريم شيخه هو تكريم له أيضا. فالرجل الذي أخذ الورد والوصية عن شيخه وعمل على إبراز مكانته وتخليد جليل أعماله وأفعاله في كتاب، لم يفته أن يعرف بنفسه من خلال ذكره لأسرته الولالية. وهذا التعريف لن يكون من قبيل الإقحام. فالأمر يأخذ دلالته من عدة نواح : فهو إن كان قد رمى إلى إظهار المكانة الصوفية والإجتماعية لأسرته، فإن ذلك من شأنه أن يجعل القارئ أو المخاطب يدرك أن الشخص الذي عرف بشيخه ليس من عامة الناس، وفي ذلك مزيد من المكانة والرفعة لشيخه. كما أن أحمد الولالي العالم القروي الذي حل بالمدينة وصارت له مكانة بين رجالها المعروفين إما بعلمهم أو صلاحهم أو جاههم، كان عليه أن يظهر بأنه هو أيضا له أصالته في العلم والصلاح، وأن منطقته النائية والهامشية لها رجالها الصالحون الذين لهم من المناقب والأدوار ما لغيرهم من الكبار في جهات أخرى من البلاد.

ألف الولالي كتابه «**مباحث الأنوار**» عام 1109هـ. وهذا أمر طبيعي ما دام أنه في هذه السنة كان قد دخل طور الكهولة، وأن معظم الذين التقى بهم من أهل الصلاح والعلم قد وافاهم الأجل المحتوم، وأن القليل منهم هو الذي كان ما يزال على قيد الحياة[128]. وفي هذا الوقت أيضا، كان السلطان مولاي إسماعيل قد تغلب على معظم المشاكل التي واجهت قيام حكمه. ففي عام 1094هـ/1682م كانت حركته إلى الأطلس المتوسط وملوية العليا[129]. وفي حدود هذا التاريخ تعرضت قبيلة الولالي لضربة قاسية من قبل هذا الحكم الصاعد[130]. وفي عام 1104هـ/1595م كانت حركة السلطان بهدف القضاء على آيت أومالو الذين باستيلائه عليهم كمل له

(127) ح. اليوسي، **الفهرسة**، ص. 129 و130.

(128) من الذين كانوا على قيد الحياة : أحمد اليمني وأحمد معن الأندلسي وعدد قليل من أصحاب محمد بن عبد الله السوسي.

(129) أ. الزياني، **البستان**، ص. 35.

(130) **المصدر نفسه**، والصفحة نفسها.

فتح المغرب[131]. وقبل ذلك كان المولى الرشيد قد دخل الزاوية الدلائية وهدم كيانها وأركانها، فكان ذلك فاجعة عاشها الولالي سنة 1079هـ/1668م وتركت في نفسه صدى لم ينس، وبعد هذه المأساة أسكت المولى إسماعيل آخر تحرك دلائي عام 1088هـ[132]، وصار الأطلس المتوسط قبل 1109هـ/1697م محاصرا بسلسلة من القصبات والقلاع العسكرية، وخضعت معظم قبائله للحكم الجديد، بل إن هذا الخضوع سجل على صعيد رجال الصلاح سواء في الأطلس المتوسط[133] أم في جهات أخرى. ففي عام 1107هـ/1695م استقدم المولى إسماعيل إلى قصره بمكناس أحمد بن ناصر مؤسس الطريقة الناصرية[134]. وربما دل ذلك على نوع من الضغط تجاه هذا الصلح الذي عرف بتحفظه من السلطة القائمة، إلا أنه كان مؤشرا لبداية سياسة جديدة تجاه رجال الزوايا والصلاح عامة.

في هذه الظرفية كانت كتابة «**مباحث الأنوار**» الذي جاء لإحياء ذكرى رجال عرفوا بأدوارهم المتنوعة. وكان المجال الذي لعبت فيه هذه الأدوار قرويا وحضريا، لكن ما ركز عليه الولالي كان هو المجال القروي في نموذج أسرته وأشياخها من الدلائيين. ومن هنا، فإذا كانت دعوة الولالي جاءت لمقاومة تفسخ الذاكرة ومحاربة النسيان، فإنه قد يحق لنا أن نتساءل : هل شكلت أيضا رمزا وتلميحا للدور الذي يجب أن يعطيه العاهل الذي ألف الكتاب في عهده لرجال العلم والصلاح، وذلك حتى تحصل استمرارية التاريخ ؟

ومهما تعددت الأسباب التي حدت به إلى الكتابة في هذا الموضوع، فإن التراجم عنده هي لأهل الصلاح والعلم. فهو قد ميز وانتقى وأبرز سمو بعض الفئات في المجتمع. وإلى جانب أهل الصلاح والعلم، اعتنى المؤلف بفئة اجتماعية أخرى يكون لها ما للفئة الأولى من خصائص، ولكنها متميزة منها بانتمائها إلى أهل البيت. قد يكون قصده بإدراجها في خاتمة كتابه عدم الخروج عن عصره الذي رأى ازدهار الكتابة في الأنساب الشريفة[135]، ولكن ما معنى إطالة الحديث عن فرع واحد من

(131) **المصدر نفسه**، ص. 40، 41، 32، 31.

(132) م. القادري، **نشر المثاني**، ج 2، ص. 229.

(133) «**مباحث الأنوار**»، هامش رقم 218.

(134) راجع مقدمة تحقيق الدرة الجليلية، أ. الخليقي، **الدرة**، تحقيق أحمد عمالك، رسالة جامعية لم تنشر. كلية الآداب بالرباط، 1986.

(135) **Berque, Al Youssi...**, p. 81.

فروع الشرف التي ذكرها ؟ حقيقة أن الحكم بات في يد هذا الفرع، فهل الغرض من ذكر الشرفاء العلويين هو إبراز الأهمية الإجتماعية والعلمية لهذه الأسر التي هي مؤهلة أكثر من غيرها للسياسة ؟

لقد وجد الولالي في شيخه وأتباعه وكذا أسرته الولالية وعدد من كبار عصره ما بنى عليه كتابا من ثلاثة مباحث. وهذا الكتاب المحدد بطبيعة هدفه ومصادره، أعطانا مادة تاريخية غزيرة قد يهم باستثمارها كل مهتم بتاريخ البلاد سواء من الناحية الدينية أم الفكرية أم الإجتماعية أم السياسية. صحيح أن المادة محددة كذلك من الناحية الزمنية والمكانية، بل نجد تفاوتا في الجوانب التي لامستها المعلومات المقدمة، وأن نقطا كثيرة من تاريخ المغرب في هذه المرحلة لا يكون الحديث عنها، ومع ذلك فإن ما قدمه من معلومات عن جوانب معينة من تاريخ البلاد له قيمة تاريخية لا تنكر.

خامسا : القيمة التاريخية للكتاب

اهتم الولالي بأخبار نخبة من الناس كانت لها مكانتها المتميزة في مجتمعها، إلا أن الحديث عن هؤلاء الناس هو حديث أيضا عن مجموعة من المشاغل والقضايا التي أخذت ببال مؤلفنا والتي كان لها أثرها في عصره، نعني بهذا أن الكتاب ليس مخصصا للتاريخ، ولكن التاريخ قد يدرك من خلال سير هؤلاء الرجال. فهذا الكتاب الذي ألف على غرار ما عرف عند المغاربة في موضوع المناقب والتراجم يستمد قيمته التاريخية من عدة جوانب :

ـ نوعية النص :

إن الباحث في التاريخ المغربي تعترضه صعوبة العثور على الوثائق والمستندات التاريخية الرسمية منها أو الخاصة، وذلك حتى بالنسبة للمرحلة القريبة منه زمنيا، وأن هذه الصعوبة تتضاعف عندما يتجه إلى دراسة المراحل الضاربة في الزمن، بل إن الأبواب أحيانا تقفل أمامه. فالباحث في هذه القرون الماضية من تاريخ المغرب كثيرا ما يجد نفسه يعمل فوق أرض جذباء بسبب قلة الوثائق. وفي غيبة هذه الوثائق الرسمية والخاصة تبرز أهمية الرجوع إلى أنواع أخرى من النصوص قد تتوفر أكثر من غيرها في تراثنا. ولعل كتاب **«مباحث الأنوار»** المخصص لتراجم الرجال يدخل ضمن هذا النوع من النصوص التي كانت معروفة في المغرب منذ القديم.

إن وقفة فاحصة على حركة التأليف التاريخي في المغرب في الماضي ترينا أن هذا التأليف لم يكن يخرج عن التأليف على أساس الأسر الحاكمة أو التأليف في التراجم والمناقب[136]، حقيقة أنه ابتداء من القرن السادس عشر الميلادي بدأنا نعثر على مصادر أكثر وفرة من النوع الأول[137]، ومع ذلك لم تكن كافية لسد الفراغات الكثيرة في تاريخ المغرب الحديث، وتبقى أهمية هذا النوع الثاني كذلك كبيرة نسبيا، خاصة وأن هذا العهد شهد أيضا «تصاعد أعداد من المؤلفات في التراجم والمناقب»[138]. فهذا النوع الأخير من المصادر التاريخية الذي هو متميز بطبيعة نصه وخطابه، قد لا يرقى إلى نفس القيمة التوثيقية التي هي للوثائق الرسمية والإحصائية، وذلك لاعتماده الرواية الشفوية وارتباط أصحابه بالمتخيل، لكنه لا يقل قيمة عن كتب الإخباريين، بل إن عناصر التحقيق في كتب المناقب تكون أقوى. ومن شأن ما تنفرد به من أخبار أن تلقى الضوء على بعض النقط المسكوت عنها في كتب الحوليات.

1 ـ الإنفراد بالخبر :

ترجم الولالي في «**مباحث الأنوار**» لمجموعة من الرجال كما فعل عدد من معاصريه أمثال ابن عيشون الشراط الذي نسب إليه كتاب : «**الروض العطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**» الذي ألف عام 1099هـ/ 1688م أو محمد المهدي الفاسي صاحب «**ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع**»، أو عبد السلام القادري في «**المقصد الأحمد في التعريف بسيدنا ابن عبد الله أحمد**»، وغيرهم، إلا أن «**مباحث الأنوار**» يمتاز عن هذه المصادر بكونه انفرد بذكر أخبار بعض الرجال. فنحن لا نكاد نعثر فيما ذكرنا أو لم نذكره من كتب التراجم المعاصرة للمؤلف على ترجمة «للقطب» محمد بن عبد الله السوسي ولا على أخبار عدد من مريديه، بل إن الأفيد من ذلك هو انفراده بذكر مجموعة من رجال الأرياف الذين كان الانفراد بذكرهم هو انفراد بأخبار عن جهات معينة من البلاد. فالمعلومات التي قدمها لنا الكتاب عن أعالي ملوية والأطلس المتوسط في هذه المرحلة جديدة بالإعتبار والإهتمام.

---

(136) هاشم العلوي، مقدمة تحقيق كتاب التقاط الدرر، ص. 215 وما بعدها.

(137) A. Laroui, Histoire du Maghreb, p. 22.

(138) م. المنوني، «المصادر الدفينة»، مجلة كلية الآداب بالرباط، عدد 9.

2 ـ التراجم ليست مبنية على الإختصار :

إن الكتاب الذي انفرد بمعلومات عن الرجال تكمن أهميته أيضا في ما تأخذه الترجمة عند صاحبه من معنى. فتراجمه ليست مبنية على الإختصار كما هو الشأن في كثير من معاجم التراجم، بل يمكن القول إنها عبارة عن تراجم منفردة تقدم مادة غزيرة حول بعض الشخصيات. فترجمة محمد بن عبد الله السوسي شغلت الحيز الأكبر من الكتاب، وهذا مفيد لمن أراد أن يتوسع في دراسة هذه الشخصية. نجد الشيء نفسه عندما ترجم لأفراد أسرته، حتى أننا عندما نتوجه إلى المصادر الأخرى لاستكمال بعض المعلومات عن جوانب مختلفة من حياة هذه الشخصيات لا نجد فيها إلا شذرات مقتطفة في الغالب من أصلها الذي هو «**مباحث الأنوار**».

3 ـ قدم معلومات تتعلق بجوانب متعددة من تاريخ البلاد :

ومهما يكن للعناصر السابقة من أهمية فإن المعلومات التاريخية الممكن استخراجها من الكتاب واستثمارها ذات أهمية قصوى. فالرجل الذي نشأ بأعالي ملوية، ودخل الزاوية الدلائية طالبا، وفاس مخالطا ومصاحبا، واستقر بمكناس مدرسا وكاتبا، نقل إلينا معلومات تعكس أحداث ومشاكل العصر وتحمل معنى تاريخيا وجغرافيا نبرزه في الجوانب التالية :

يوجد في هذا الكتاب كلام وإشارات عن الحياة الدينية في عصره، وهو إلى جانب اهتمامه بعدد من الرجال الذين لهم ارتباط بالشريعة الإسلامية والتصوف السني، لم يغفل الإشارة إلى مجموعة من الطقوس والعادات الشعبية، بل إن الأهمية لا تظهر في ما أمدنا به من معلومات عن عناصر هذه الحياة الدينية فقط، بل تكمن أيضا في إظهار الكيفية التي كان الرجل العالم يتعامل بها مع هذا الموضوع. فقد كان الولالي الموصوف بعلمه وورعه في زيارة مستمرة إلى الأولياء من عصره، يعتقد في المكاشفات والكرامات وغيرها من أنواع التقديس التي تدخل في باب التصوف، وهذا يعني أنه لم يكن يوجد في مجال الإعتقادات فرق بين العالم والفلاح الغير المتعلم، كما أن التفرقة بين الفقه والتصوف لم تكن قائمة بشكل صارم في حياة الكثيرين من الناس.

ويتضح أن الكتاب لا يؤرخ لتطور حركة التصوف بالمغرب، ومع ذلك قدم لنا مساهمة لها فائدتها وجدواها في إظهار أسباب وكيفية تأسيس بعض الطرق الصوفية

والزوايا والأدوار المختلفة التي اضطلعت بها. ففي ثنايا الكتاب نعثر على معلومات عن طريقة محمد بن عبد الله السوسي وطائفته، ونعني بها من ارتبط به من أتباع، وكيف كان يعمل في هذا الميدان. ونجد أيضا معلومات عن الزاوية الدلائية ووظائفها وتطورها. كما أن مساهمته في هذا المجال تنوعت، فبجانب مؤسسي الزوايا والطرق، هناك أولياء آخرون قرويون وحضريون لعبوا أدواراً محلية متنوعة.

إن المعلومات المرتبطة بالجانب الثقافي تعلقت في أغلبها بالمركز الثقافي الرئيسي بالنسبة للعصر والمتمثل في الزاوية الدلائية، ومع ذلك هناك إشارات إلى مجموعة من المراكز الضاربة في أعماق البادية وإلى المركزية التي بدأت تبحث عن نفسها تقود حركتها كل من الدولة الصاعدة وبعض المتمولين من تجار فاس[139]. كما أن هذه المعلومات أبرزت الحقل الذي انحصرت فيه الثقافة والقضايا الفكرية التي شغلت مفكري هذا العصر.

وما تميز به الكتاب من الناحية الإجتماعية والإقتصادية، هو تقديمه لمعلومات لها صلة بالحياة اليومية للقبائل والناس في منطقة جبلية نائية من الأطلس المتوسط وبالظرفية العامة للبلاد وما عاشه الناس من خوف من الطبيعة والبشر. كان مصدر الخوف هو الكوارث الطبيعية من قحط ومجاعات وأوبئة وما صاحب كل ذلك من انتشار للصوصية. كما أن هذا المجتمع الذي عرف اقتصاد القلة لم يخل من تفاوتات اجتماعية.

إن هذا الكتاب المخصص للتراجم، قد لا يشفي الغليل من الناحية السياسية، ومع ذلك يمكن استخراج عدة إشارات منه من شأنها أن تلقي الضوء على الخريطة السياسية للوقت، وعلى جملة من المشاكل السياسية المطروحة. فعلى أنقاض الحكم المحتضر في مراكش، خرجت إمارة الدلاء انطلاقا من مركز ديني ومن وسط زراعي رعوي وبربري، فسيطرت على القسم الأكبر والأهم من المغرب. وتكمن أهمية **«مباحث الأنوار»** لا في إعطائنا معلومات عن الأسس التي قامت عليها هذه السلطة وعن عملها العسكري والسياسي وعن طبيعة حكمها، بل وكيف انهارت هذه الأسس التي كانت قائمة على أرضية هشة، ولم تصمد أمام صعود العلويين الذين

---

(139) **Berque, Al Youssi, op. cit, p. 80.**

انطلقوا من قاعدتهم بتافيلالت، والذين واجهوا هم أيضا مشاكل تمثلت في صراعهم من أجل إعادة وحدة البلاد.

4 ـ إثارة القضايا وتصحيح بعض الأطروحات :

لا يمكن للقارئ النبيه أن ينكر ما قدمه الكتاب من معلومات قيمة وما لها من فائدة تاريخية، فهي إن أضافت شيئا جديدا بالنسبة لتاريخ المغرب في هذه المرحلة، فمن شأنها أيضا أن تثير في الباحث مزيدا من التساؤل والبحث في نقط وقضايا تاريخية حيوية بالنسبة للعصر. ومن هذه القضايا ما تعلق بالطبيعة السلمية للصلحاء[140] وبطبيعة المجتمعات الهامشية. فالمعلومات المستقاة من النص تمكننا من تفنيد وتصحيح بعض الأطروحات الأنطروبولوجية المتسرعة في إصدار جملة من الأحكام. فمبدأ سلمية الصلحاء لم يكن دائما محترما، وفي النص ما يشير إلى ذلك صراحة[141]. أما المجتمعات الهامشية كمجتمع الولالي الذي يقع في منطقة بعيدة عن المدن، فقد كانت له صلة بكثير من مناطق البلاد بل حتى بالمشرق العربي. ومن القضايا التي تسترعي الإنتباه وتدفع إلى المزيد من البحث هي ما عرفته الزوايا والمخزن من علاقة في هذه المرحلة وما صار لمنطقة الأطلس المتوسط من أهمية.

5 ـ القيمة المصدرية :

تنبه الأستاذ محمد حجي في كتابه عن «**الزاوية الدلائية**»، إلى الأهمية المصدرية لكتاب «**مباحث الأنوار**» وذلك أن صاحبه إن كان قد اعتمد الرواية الشفوية، فإن كثيرا من الأخبار كان معاصرا ومشاهدا لها ونقلها بموضوعية[142]، الشيء الذي جعل هذا الكتاب محط عناية المهتمين بتراجم الرجال قديما، وكذا بعض الباحثين في العصر الحاضر.

فمن الذين اعتمدوه مصدرا في تراجم ومناقب الرجال، سواء أشاروا إليه أو لم يشيروا، نجد صاحب «**البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية**» الذي أكثر من النقل عليه خاصة في ترجمة شيوخ الدلائيين، وفي ترجمة

---

(140) أثار حمودي نقاشا حول هذه النقطة في بحثه حول الإنقسامية وذلك ردا على أطروحة كَلنير. راجع : حمودي، «الإنقسامية»، **مجلة دار النيابة**، عدد 5.

(141) ترجمة محمد بن أبي بكر الدلائي ابتداء من صفحة 274 من **مباحث الأنوار**.

(142) م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 14.

الووزغتي، ومحمد بن يعقوب الولالي، ومحمد بن عبد الله السوسي، والطيب المسناوي. كما اعتمده صاحب «**نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني**»، و«**التقاط الدرر...**» في كثير ممن ترجم لهم، وكذلك صاحب «**دوحة البستان ونزهة الإخوان في مناقب الشيخ علي بن عبد الرحمن**»، وغيرهم. ومن المحدثين نقل عليه صاحب «**الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام**» أخبار كثير من الأعلام الذين انتموا إلى مراكش أو مروا بها. وقد اختلفت طريقة النقل عنه من مؤلف لآخر. فصاحب «**الإعلام**» كثيرا ما احترم النص المنقول، بينما نجد صاحب «**النشر**» كثيرا ما نقل بتصرف.

أما الباحثون المعاصرون الذين رجعوا إلى هذا الكتاب، فيظهر أن الأمر بقي مقصورا على المغاربة منهم، وقد يكون هذا راجعا لما لاحظه ليفي بروفنسال من كون هذا المخطوط كان مفقودا[143]. ظهرت آثار هذا الكتاب في أعمال محمد حجي حول الزاوية الدلائية والعربي مزين في رسالته الجامعية عن تافيلالت، وكذا بعض الأبحاث كبحث حمودي حول الإنقسامية والذي ظهر في عدة مجلات.

هكذا يكون كتاب «**مباحث الأنوار**»، مصدرا لا أصل له سوى رواته وما شاهده وعاشه صاحبه. وقد ينضاف إلى هذه الأهمية المصدرية وما للمعلومات والمشاكل التي يثيرها من جدوى، جانبٌ آخر لا يقل أهمية عن جميع الجوانب الأخرى. ذلك هو ما يمكن أن يكون لهذا الكتاب من آثار في نفوس قارئيه الذين هم في الغالب من المتصوفة. إن هذا الأثر النفسي قد يدركه كل قارئ للكتاب. وقد يصدق عليه ما قاله عبد الحي الكتاني في حق كتاب «**التشوف**» : «كتاب جليل الفائدة لا يقوم مطالعه إلا بإحساسٍ نفساني أنه ليس على شيء ويقوى إيمانه»[144].

يعتبر كتاب «**مباحث الأنوار**» أحد عيون التراث المغربي الذي يجب الِإعتناء به واستغلاله في جوانب مختلفة من تاريخ البلاد في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، ونحن إن كنا لا نجادل في أهمية هذا الكتاب، فإن ما يمكن أن نسجله من مآخذ عليه، يشفع فيه طبيعة العمل وقصده. ويتبين أن صاحبه لم يعتن بتواريخ الوفيات، وأكثر من الرموز، ونحن حاولنا أن نستدرك ذلك من خلال التهميشات، أو عندما استعنا بمصادر أخرى في مناقشتنا لمضامين الكتاب.

(143) ل. بروفنسال، **مؤرخة الشرفاء**، ص. 206.

(144) راجع مقدمة تحقيق كتاب **التشوف**، أحمد التوفيق، «مقدمة» ؛ ابن الزيات، **التشوف**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، الدار البيضاء، 1984، ص. 26.

سادسا : عملنا في التحقيق

كان أول عمل قمنا به بعد أن عزمنا على تحقيق هذا الكتاب، هو البحث عن نسخ منه للمقابلة. بدأنا بالبحث في مختلف الفهارس المعروفة، ثم ترددنا على مختلف المظان من خزانات عامة في مدن كمكناس وفاس ومراكش وتطوان، أو مكتبات خاصة بكل من فاس وتطوان وطنجة. في حين اكتفينا بالسؤال عن الخزانات التي لم تتمكن من الوصول إليها كخزانة الزاوية الحمزاوية وتمكَروت. وقد أفضت بنا عملية البحث والتحري إلى العثور على ثلاث نسخ. وكان أستاذنا الجليل محمد المنوني هو الذي قصدناه في ذلك، فكانت إرشاداته لنا مما جعلنا نوقف عملية البحث عن المزيد من النسخ.

مضينا في عملنا دون أن نتمكن من الحصول على النسخة الأم أو الأصل، ومع ذلك، فالكتاب الذي اعتبر مفقودا من قبل أحد الباحثين المستعربين[145] في أوائل هذا القرن، ظهرت منه ثلاث نسخ في السنوات الأخيرة. ولم تكتب هذه النسخ بخط المؤلف إلا أن واحدة نقلت عن مبيضته. وهذا ما شجعنا على المضي في عملية التحقيق بكثير من الإطمئنان ومكتفين بهذه النسخ الثلاث.

لم نشرع في عملنا إلا بعد أن استفدنا من أعمال سابقة في مجال تحقيق التراث أو كتب خاصة بمنهجية التحقيق[146]. وعموما كانت استفادتنا كبيرة من الدورات الدراسية التي كان أستاذنا أحمد التوفيق قد أشرف عليها لفائدة طلبة السلك الثالث سنة 1984-1985م، وأجاب عن كثير من المشاكل التي تعترض سبيل الباحث والمهم بالتحقيق. فاستأنسنا بهذا كله وأنجزنا عملنا حسب الخطوات التالية:

- مقابلة النسخ :

هدفنا بمقابلة هذه النسخ الثلاث إلى الحصول على نص كامل وموافق لما أخرجه به صاحبه شكلا ومضمونا. ولهذا الغرض حاولنا إرجاع النقول إلى أصولها، كالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وعدد من الأبيات الشعرية وأقوال الصوفية والمتكلمين. كانت هذه العملية صعبة لكون صاحب الكتاب لا يذكر مصادره التي

(145) راجع : ل. بروفنسال، **مؤرخو الشرفاء**، ص. 206.

(146) انظرها في فهرس المصادر والمراجع.

نقل عنها، وبالتالي بقيت بعض النقول التي ترجع إلى كلام الصوفية دون إرجاعها إلى أصولها، ولكننا أحلنا قدرا منها على مصادر أخرى ورد فيها ذكرها، وهي مصادر متأخرة عن مباحث الأنوار أو متقدمة عليه.

مكنتنا عملية المقارنة من تصحيح عدد من الكلمات والتعابير والأغلاط الإملائية، فأثبتنا في النص ما اعتبرناه أقرب إلى الصواب وبينا في الهامش ما جاء مصحفا في النسخ المعتمدة.

وبما أن الكتاب لا يعتمد في أخبار الرجال على مصادر سابقة له ومعروفة، فإننا لم نتمكن من مقارنة هذه الأخبار وكرامات الرجال بمصادر أصلية سابقة. بينما كانت مقارنتها بمصادر لاحقة، خاصة تلك التي نقلت عن **«مباحث الأنوار»** ممكنة، لكنها عملية طويلة وشاقة عدلنا عنها. أما في ما يتعلق بالأحاديث النبوية، فقد نبهنا على الإختلاف في الرواية ولم نقم بتغيير في نصها الذي جاءت به في المتن، علما بأن الرواية بالمعنى تصح. أما الأشعار فعملنا على تصحيحها ولم نشر إلى بحورها في الهامش.

وقد التزمنا بقواعد الرسم المعمول به حاليا مثل : تعلى = تعالى، يأيها = يا أيها، أولائك = أولئك، وحولنا الرسم القرآني إلى رسم عصري، ووضعنا النقط والفواصل والعارضتين وعلامات الإستفهام والتعجب. أما أخطاء التركيب والدلالة والقاموس فقد صححناها ونبهناإلى ذلك بالهامش. ولم نشر إلى الأخطاء التي صححناها وهي مما لا يبعث على الإلتباس ولا يخل بالمنهج العلمي المتبع في التحقيق مثل : ليلا = لئلا.

وعموما، فإن هذه المقابلة لم تطرح لنا مشاكل كثيرة، وهذا راجع في نظرنا للمستوى الثقافي لمؤلف الكتاب، وللأسلوب الذي كتب به، ولحذق النساخ واعتنائهم بهذا الكتاب. ولعل عدم الإكثار من نسخه أدى إلى الإعتناء بأصوله ونسخه الأولى، فكل النسخ التي هي بين أيدينا ليس بينها وبين تاريخ التأليف مسافة زمنية كبيرة، فهي لا تزيد عن نصف قرن بالنسبة لأبعدها. أما المشاكل التي طرحتها الخروم والبتر أو الغموض في كلمات في النسخ كلها فقد تمكنا من التغلب على أكثرها.

ـ اعتمدنا هوامش ذات أرقام متتالية وهي إما هوامش للفروق والتصحيحات وهي عملية ناتجة عن المقابلة بين النسخ ومصاحبة لها، أو هوامش للتعليقات والشروح.

كان الغرض من هذه الأخيرة توضيح ما هو مبهم في النص من مصطلحات ومفاهيم ورموز وإيحاءات، فشرحنا وعلقنا أو ناقشنا عددا منها. كما قمنا بالتعريف بالأعلام البشرية والجغرافية وأكملنا جوانب تدخل في السياق التاريخي والجغرافي لها، محاولين في كل ذلك بأن تكون تعاريفنا وتعليقاتنا مقتضبة وشاملة لكي لا يختنق بها النص. إلا أن بعض الشروح كانت طويلة، ولكنها مفيدة في نظرنا، خاصة تلك التي طرحت قضايا تاريخية.

استعنا في التعريف بالأشخاص والأماكن بالمصادر والمعاجم والخرائط. وأحيانا قمنا بالتحري الميداني، أو راجعنا أبناء المنطقة التي تنتمي إليها تلك الأعلام. ولهذه الأخيرة وضعنا خرائط تظهر ولو بصفة تقريبية مواقع مدافن المترجم لهم والأماكن والقبائل المذكورة في النص. وفي الأخير حاولنا أن تكون الفهارس شاملة وكاملة، لكننا تجنبنا الإكثار منها. فحصرناها في فهارس للمترجم لهم، وللأعلام البشرية والجغرافية، وللآيات القرآنية، والأحاديث النبوية والكتب الواردة في النص.

لقد حافظنا بأمانة على نص المؤلف ولم نغير من ترتيبه وتصميمه وجوهره، وقمنا فقط بإدخال تغيير شكلي هدفنا من ورائه إلى إبراز مضمون الكتاب وتسهيل الرجوع إلى نسخة من نسخه الخطية. من ذلك أننا قمنا بالآتي :

ـ أفردنا أسماء المترجم لهم كعناوين بارزة وسط الصفحة، ووضعناها بين معقوفتين.

ـ أشرنا بعلامة إلى الكلمة الأولى من الصفحة وكتبنا بالطرة أرقام صفحات نسخة الخزانة العامة التي رمزنا لها بـ«ق» وذلك لجودتها وسلامتها من الخروم.

الفصل الثاني

المضامين

الفصل الثاني
المضامين

مقدمة

كتاب «**مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار**»، كتاب في التراجم والمناقب. قسمه مؤلفه إلى ثلاثة مباحث. يظهر من قراءة هذه المباحث الثلاثة أن صاحبها لم يكن يهدف إلى كتابة معجم في التراجم.

خصص المبحث الأول للتعريف بشيخه محمد بن عبد الله السوسي، فذكر أصله، وخصاله، ومستنده، وكثيرا من كراماته. نقل إلينا كل ذلك بصدق ونية خالصة في مقام شيخه الذي أخذ عنه الورد، ورافقه في جزء من رحلته إلى المشرق، فسمع منه أقوالا وكلاما حاول شرحه وتبسيطه، سالكا في ذلك أسلوب الحيطة والحذر من الوقوع في ما ليس هو المراد بكلام شيخه. وفي آخر هذا المبحث، عرف بجماعة من الذين أخذوا عن شيخه، أو رافقوه في رحلته.

وفي المبحث الثاني نقف على ترجمة أبيه وجده وجد أبيه وشيوخهم من الدلائيين. فعرف بأسرته الولالية، وبالدور الذي لعبه أفرادها في أعالي ملوية، حيث أفاض الحديث عن كراماتهم وأشار إلى علاقتهم بشيوخ الدلاء الذين نسب إليهم كذلك كثيرا من الكرامات. وقد ساق في خضم هذه الكرامات أحداثا مهمة تجاوزت شخصية المترجم لهم لتتصل بما هو اجتماعي وديني وسياسي في مجتمعهم القروي، هذا المجتمع الذي كان المؤلف يعرفه عن طريق النشأة والخبرة، حتى وإن كان قد خرج منه واستقر بالمدينة.

أما المبحث الثالث فذكر فيه أخبار جماعة من الكبار الذين عرفوا بصلاحهم وعلمهم وأمكنه الإلتقاء بهم أو مراسلتهم. وفي هذا الباب كانت المعلومات متنوعة بتنوع انتماء المترجم لهم جغرافيا وروحيا وفكريا. كما أن المقام لم ينسه بأن يخصص

خاتمة كتابه لذكر من اشتهر نسبه بالمغرب، فكان الحديث بنوع من التفصيل عن الشرفاء العلويين.

قد أشرنا في فقرة سابقة إلى الأهمية التي تكتسيها المعلومات الواردة في ثنايا هذه المباحث الثلاثة من كتاب «**مباحث الأنوار**»، وقد رأينا من الضروري تقديمها، فكيف يلزمنا قراءتها وتقديمها ؟ هل نكتفي باستخراجها وترتيبها تبعا للجوانب التي لامستها، أم مناقشتها على ضوء مصادر ومراجع أخرى ؟

رأينا أن الفائدة ستكون أكبر عندما نأخذ بالإختيار الثاني. وذلك اقتناعا منا بأن عملا كهذا لابد أن تنعكس آثاره على القارئ الذي يكون بإمكانه تتبع هذه المعلومات لا في شتاتها، ولكن بشكل متكامل ومتماسك. فالغرض هو أن تلتحم الصورة التي أشار المتن إلى أطراف منها. ولذلك حاولنا في البداية أن ننفذ إلى خصائص هذه الفئة من الرجال التي اختار الولالي أن يعرف بهم.

أولًا : المترجم لهم

تعتبر الشخصيات التي بنى عليها أحمد الولالي كتابه «**مباحث الأنوار**» قليلة العدد بالنظر إلى تلك التي كانت ترجمتها رئيسية، فهي لا تتعدى اثنتي عشرة شخصية. أما التراجم الرئيسية فإن عددها قد يرتفع إلى سبع وثلاثين شخصية. كان من بين هذه الشخصيات من هو معروف في زمنه وفيما بعده بصلاحه وعلمه وذكرته كثير من المصادر، ومنهم من شكل وجها للأمجاد المغربية وبقي مخلدا في الذاكرة إلى يومنا هذا. إلا أن من بينهم من لا نجد له ذكرا في أي مصدر معروف، اللهم إلا تلك المصادر التي كان «**مباحث الأنوار**» هو أصلها. ونحن إن استثنينا مؤقتا أولئك الذين وردت ترجمتهم بصفة عرضية أو عفوية، نلاحظ أن مؤلفنا اختار تبعا لقصده فئة من الرجال قد تكون لها مميزاتها وخصائصها. قد تدرك هذه الخصائص من قراءتنا لعنوان الكتاب، ومن تقديم المؤلف لها كفئة متميزة بتكوينها وبنظرتها إلى العالم والمجتمع، كما تدرك من خصوصية هذا النص الذي وضعه رجل ينتمي بأصله إلى البادية ولم ينسه دخول المدينة واستقراره بها بيئته التي نشأ فيها، فجاء خطابه عاكسا مشاغل رجل علم وتصوف، ومشاغل المجتمع القروي الذي نشأ فيه، وملامح المجتمع الحضري الذي اتصل به، وفي هذا كله معالم عصره الذي تميز بالتحول، في أكثر من ميدان.

اشترك هؤلاء الرجال الذين عرف بهم الولالي في الصلاح والعلم. وتبعا لذلك كان اشتراكهم في الأدوار التي لعبوها في مجتمعهم. ويكون هدفنا في هذا الباب هو الوصول إلى إبراز خصائص هذه الفئة من الناس، ونعتقد بأن ذلك لن يتضح إلا من خلال الإجابة عن مجموعة من الأسئلة التي يحق لنا منذ الآن طرحها. فمحاولة الإجابة عن الانتماء الجغرافي للمترجم لهم، وعن درجتهم في التصوف والعلم والثروة والجاه قد تفضي بنا إلى إدراك مكانتهم الحقيقية في مجتمعهم. ويبدو أن هذا الطموح لن يتيسر تحقيقه إلا بعد تصنيف هؤلاء المترجم لهم حسب جملة من الحيثيات.

لم يكن صاحب الكتاب غافلا عن الحيثيات التي فرضت عليه أن يختار الترتيب الذي جاء عليه المترجم لهم في هذا الكتاب. فهي اعتبارات جعلته لا يراعي عند ذكرهم منهجا واضحا في ترتيبهم، فهو لم يعتمد لا العامل الزمني ولا الجغرافي، وإنما أخذ بما أملاه عليه غرضه وقصده، وتبعا لهذا القصد كان التفاوت في مباحث الكتاب الثلاثة. فلا غرابة أن يأخذ المبحث الأول الذي خصصه لشيخه أكثر من نصف الكتاب، بينما لم يأخذ المبحث الأخير الذي خص به الكبار من عصره سوى خمس الكتاب. أما الباقي فقد خصصه لأفراد أسرته وشيوخهم.

يتضح أن التفاوت حاصل بالنسبة لأقسام الكتاب الثلاثة، لكن تمايزا آخر يلاحظ بالنسبة للمترجم لهم. فبالرغم من أن كل الشخصيات قد حظيت من المترجم لها بتحلية تجعلنا ندرك بأن كل رجاله كانت لهم مكانة روحية وعلمية، فإن المعلومات التي أمدنا بها عن كل واحد منهم تميزت بعدم التساوي. فالحجم المخصص لكل ترجمة يتغير حسب مستويين : مستوى أملاه القصد وآخر أملاه المقام. يتضح ذلك بوضوح في المبحث الثالث الذي خصصه للكبار من عصره، إذ لم يكن غرضه هو تتبع أخبارهم وكراماتهم، لا لأن مصادر الأخبار عنهم تعوزه ـ فهناك من سبقه إلى التعريف بعدد منهم ـ بل إن المقام يقتضي فقط ذكرهم والإشارة إليهم، لأن تجاهلهم يكون مخلا حتى بالقصد نفسه.

ومهما كان قصد المؤلف في ترتيب تراجمه، فإننا نرى عنده ثلاث درجات من التراجم : تراجم رئيسية، وهي التي حددها في مدخل كتابه، وتراجم فرعية، وظهر هذا النوع عند ترجمة محمد بن عبد الله السوسي حيث كان التعريف بجماعة من أتباع هذا الأخير، وتراجم عرضية، وهي التي ساقها بطريقة عفوية، وظهر ذلك بالخصوص عندما ترجم لعلي بن عبد الرحمن الدرعي حيث عرف بمحمد

الووزغتي[147]، وعند ذكر محمد بن أبي بكر الدلائي حيث ساق تعريفا بعبد الله بن حسون[148]، وعند ترجمة أحمد اليمني عرف بعدد من الأولياء مثل عبد الله البرنوي[149] وابنه عمر وأبي بكر الدلائي[150].

هكذا نسجل أن هناك تداخلا في التراجم جعل عدد الرجال الذين وردت أسماؤهم في الكتاب تكثر والحقل الجغرافي لها يتسع بالقدر الذي وضعنا أمام صعوبة حصرهم زمانيا ومكانيا، خاصة وأن المعلومات التي وردت حول هؤلاء المترجم لهم عرضيا لا تتعدى أحيانا ذكر أسمائهم. وفي هذا الإطار استثنينا كل الذين وردت ترجمتهم بصفة عرضية، وحاولنا أن نرتب حسب جملة من الحيثيات، كل الذين كانت ترجمتهم رئيسية أو فرعية، وذلك حتى يتأتى لنا إبداء قدر من الملاحظات. كما بدا لنا أن جمع هؤلاء الرجال في جدول واحد، تكون له فائدته ما داموا يشتركون في المميزات العامة.

(147) مباحث الأنوار، ص. 337.
(148) المصدر نفسه، ص. 275.
(149) المصدر نفسه، ص. 349 وما بعدها.
(150) المصدر نفسه، ص. 348، 349.

الاســـــم	الحيثيــــة	الأصــل	سنة الوفاة ومكانها	رقم الصفحة في نسخة خ ع 342ق
ـ محمد بن عبد الله السوسي	شيخ صوفي طريقته زروقية	سوس	1079هـ. بمكة	5
ـ أبو العباس أحمد بن سعيد	فقيه، إمام من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	مراكش	1081هـ. بالمشرق	140
ـ يحيى الهشتوكي	عالم، مشارك من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	مراكش	؟ بالشام	144
ـ أبو عبد الله محمد بن سعيد السوسي المرغيثي	عالم، مؤلف، إمام من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	مراكش	1089هـ. بمراكش	146
ـ محمد بن محمد بن سعيد المرغيثي	فقيه، أديب، مؤلف من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	مراكش	1090هـ. بمراكش	146
ـ محمد بن عبد الهادي	فقيه، صالح، له تلامذة من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	جبل العلم	؟ بجبل العلم	150
ـ علي العكاري	فقيه، مشارك من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	رباط سلا	1118هـ. بمراكش	153
ـ محمد بن عبد الرحمن الصومعي	فقيه، مدرس من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	تادلا	1123هـ. بتادلا	158
ـ الطيب بن المسناوي	فقيه، مدرس من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	الدلاء	1077هـ. بالزاوية الدلائية	160
ـ إبراهيم بن عبد الله السوسي	فقيه، مشارك، ناسك من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	سوس	1096هـ. بمراكش	162
ـ أبو عبد الله محمد بن هاشم	شريف، ناسك من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	سجلماسة	؟ بسجلماسة	164
ـ أبو الحسن مولاي علي	شريف، صالح من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	؟	؟ بالزاوية الدلائية	167
ـ أبو عبد الله عبد الخالق	شريف، صالح من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	مراكش	؟ بالصومعة	167
ـ أبو العباس عبد الخالق	عالم المعقول والمنقول، ومتعبد من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	؟	؟ برباط سلا	168
ـ منصور المراكشي	عالم، متصوف من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	مراكش	؟ برباط سلا	168
ـ عمر المراكشي	فقير ومتصوف من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	مراكش	؟ بمراكش	169
ـ أبو العباس مولاي أحمد	شريف من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	مراكش	؟ بمراكش	170
ـ مولاي محمد بن عبد الله	شريف من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	مراكش	؟ بمراكش	170
ـ أحمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي	عالم من أهل الجاه والثروة، من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	الدلاء	1075هـ. بالدلاء	174

الاسم	الحيثية	الأصل	سنة الوفاة ومكانها	رقم الصفحة في نسخة خ ع 342ق
- أبو عبد الله محمد بن مسعود المراكشي	عالم مدرس من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	مراكش	1090هـ. بتنغملت	183
- محمد بن محمد بن محمد بن يعقوب الولالي	فقيه من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	أعالي ملوية	باعالي ملوية	188
- أبو محمد بن عبد الحليم	لا نعرف درجته في العلم، صالح من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	تادلا	؟ بتادلا	189
- محمد الساحلي	فارس شجاع، ناسك من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	تادلا	؟ بالمشرق	190
- أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن	متعلم، ناسك من أتباع محمد بن عبد الله السوسي	أعالي ملوية	؟ باعالي ملوية	195
- يعقوب الولالي	ولي زاهد لا يعرف له شيخ	أعالي ملوية	؟ باعالي ملوية	205
- محمد بن يعقوب الولالي	صالح، متعلم، من مريدي أبي بكر الدلائي	أعالي ملوية	1005هـ. باعالي ملوية	212
- محمد بن محمد يعقوب الولالي	صالح، متعلم، من مريدي محمد بن أبي بكر الدلائي	أعالي ملوية	حوالي 1071هـ. باعالي ملوية	271
- أبو بكر الدلائي	شيخ صوفي، مؤسس زاوية، عالم، شاذلي الطريقة	الدلاء	1021 هـ. بالدلاء	270
- محمد بن أبي بكر الدلائي	شيخ صوفي وعلمي، له تلامذة، طريقته شاذلية	الدلاء	1046 هـ. بالدلاء	273
- علي بن عبد الرحمن الدرعي	شيخ صوفي، له تلامذة، طريقته شاذلية	درعة	1090هـ. بتمجت	335
- أحمد اليمني	شيخ صوفي، عالم، له تلامذة، قادري الطريقة	المشرق	1113هـ. بفاس	347
- أحمد بن محمد بن عبد الله الاندلسي	شيخ صوفي، عالم، صاحب زاوية، طريقته شاذلية، ثري	فاس	؟ بفاس	361
- عبد القادر الفاسي	عالم، متصوف، له سند في الشاذلية	فاس	1091هـ. بفاس	369
- محمد بن عبد القادر الفاسي	عالم، متصوف، له سند في الشاذلية	فاس	1116هـ. بفاس	375
- محمد بن ناصر الدرعي	شيخ صوفي، عالم، له تلامذة، طريقته ناصرية	درعة	1085هـ. بتمگروت	377
- أحمد بن منديل السجلماسي	زاهد ؟	فاس	؟ بفاس	382
- عبد الله قليز	زاهد، مجذوب، متجول، طريقته جزولية	فاس	1093هـ. بفاس	383

ما عسى أن يسمح لنا به هذا الترتيب من ملاحظات ؟

إن نظرة إلى الوفيات تمكننا من القول بأن التراجم لم تتركز في منطقة صغيرة، فهي توزعت على منطقة شاسعة من المغرب. شملت كلا من ناحية تادلا وأعالي ملوية والدلاء ودرعة وجبل العلم ثم مراكش وفاس وسجلماسة والرباط. بل كان هناك من المغاربة من كانت وفاته بالمشرق ومن المشارقة من كانت وفاته بالمغرب. هذا إن اقتصرنا فقط على الذين كانت ترجمتهم رئيسية أو فرعية، أما إذا أدخلنا أولئك الذين وردت الإشارة لهم بصفة عرضية، فإن الرقعة الجغرافية تتسع لتطل على السودان واليمن، ولتنبئنا بالعلاقة الثقافية التي كانت قائمة بين المغرب وهذه الجهات من العالم.

بهذا تكون هذه الفئة من الرجال المغاربة قد انتمت إلى القسم الأهم من المغرب. وتأتي أهميته من كونه شكل قاعدة ومنطلقا لأهم التجارب السياسية التي عرفها المغرب في القرن السابع عشر الميلادي، ولأنه احتضن أهم المراكز الثقافية والحضرية في هذه المرحلة، وضم أجود الأراضي التي جمعت بين السهول الغنية كسهل تادلا والغرب وسايس، والجبال الأطلسية المعروفة بخصوصيات سكانها وأسلوب عيشهم. ومن هنا كانت أهمية الرجال الذين استوطنوا هذه الجهات التي عرفت مشاكل حيوية في هذا العصر. فقبائل الأطلس المتوسط عرفت بشغبها وبحركتها الإنتجاعية[151]، وبعيدا عنها كانت آيت عطا تثير مشاكل وقلاقل[152]، حتى إن مدينة كفاس لم تسلم من الإضطرابات والفتن[153]. وتأتي أهمية هذا القسم من البلاد أيضا بكونه ينفتح على باقي أطراف البلاد بل وحتى على أوربا.

ويتبين من خلال هذه الوفيات أيضاء أن عددا مهما من الأعلام كانت وفاتهم بالمدينة، وهذا لا يعني أنهم كانوا كلهم من أصل حضري، إذ نجد من بينهم من كان أصله من البادية وتوفي بالمدينة[154]. كما حصل العكس في حالة محمد بن مسعود المراكشي[155] وأبي عبد الله عبد الخالق[156]. وهذا أمر له دلالته وأهميته. ذلك أن

(151) المصدر نفسه، ص. 324.

(152) المصدر نفسه، ص. 317.

(153) المصدر نفسه، ص. 307.

(154) كانت تلك هي حالة كثير من السوسيين الذين وردوا على مراكش وتوفوا بها. انظر الجدول المستخرج من مباحث الأنوار، قسم الدراسة.

(155) مباحث الأنوار، ص. 183.

(156) المصدر نفسه، ص. 186.

الحواجز بين المدينة والبادية والتي هي موجودة على مستوى المورفولوجية، إذ كانت معظم المدن محاطة بسور[157]، فإنها لم تكن موجودة بالدرجة التي تسمح لنا بالكلام عن القطيعة بين هذين العالمين، فالِاتصال بينهما كان قائما على مستوى التبادل البشري والثقافي.

إن التوزيع الجغرافي لرجال العلم والصلاح عبر المدن والبوادي، ربما أظهر أن كل واحد منهم قد اختص بدائرة نفوذه الروحي فقد نجد من بين هؤلاء الرجال من انحصر نشاطه داخل حدود قريته وقبيلته، ولكن وجد من الشيوخ من كان حقل نشاطه ونفوذه يتسع بالدرجة التي تجعله يرتبط أو يتداخل مع منطقة إشعاع نفوذ شخصية صوفية أخرى. كانت تلك هي حالة رجال الدلاء مع محمد بن يعقوب الولالي وابنه محمد، أو حالة محمد بن ناصر الذي كان له أصحاب حتى داخل الزاوية الدلائية[158]. وحتى في المدينة كان رجال صلاحها تربطهم صحبة برجال البادية[159]. بل إن حقل نشاط الصوفي كان يتسع ليصل المشرق العربي، كما شخصته حالة محمد بن عبد الله السوسي وتلامذته أمثال يحيى الهشتوكي[160] وأحمد بن سعيد[161].

اشترك هؤلاء الرجال في الصلاح والتفقه في الدين وإقبالهم على العبادة بشكل يفوق باقي الناس. ونلاحظ أنهم ذوو سند في العلم والطريقة الصوفية، وحتى الذين لم يكن لهم سند علمي أو تكوين متين في العلم، كانوا على الأقل عارفين بما يحتاج إليه من الشريعة. وبهذا تبدو هذه الفئة التي شكلت نخبة المجتمع، متجانسة من حيث التكوين والعمل، إلا أن هذا التجانس لا يمنع من وجود تمايز بينها. قد يأتي من عدة جوانب :

كان من بين هذه الجماعة من الرجال من علت مكانته الصوفية على مكانته العلمية مثل محمد بن عبد الله السوسي وعلي بن عبد الرحمن الدرعي[162]. كما كان

(157) حتى مدينة الدلاء أصبحت محاطة بسور. راجع **مباحث الأنوار**، ص. 114.

(158) كان لليوسي وهو من علماء الزاوية الدلائية صحبة بمحمد بن ناصر. راجع **مباحث الأنوار**، ص. 377 وما بعدها.

(159) ربط أحمد الولالي علاقة صحبة بأحمد اليمني وأحمد بن عبد الله معن الأندلسي، **مباحث الأنوار**، ص. 347، 361.

(160) **المصدر نفسه**، ص. 144.

(161) **المصدر نفسه**، ص. 140.

(162) **المصدر نفسه**، ص. 335 وما بعدها.

هناك من علت مكانته العلمية على الصوفية، وقد مثل ذلك كل من عبد القادر الفاسي، ومحمد بن سعيد المرغيتي أو الطيب المسناوي وغيرهم من العلماء المتصوفة(163) الذين قصدهم الناس لطب العلم والتبرك، ولم يعرفوا باعتبارهم ملقنين للأوراد والأذكار، حتى وإن كان لهم سند في الطريقة أو عرفوا من قبل معاصريهم بما كان للأولياء من مكرمات(164).

كان من المترجم لهم من هو شيخ لطريقة أو طائفة أو مؤسس لزاوية : فمحمد بن ناصر هو شيخ للطائفة الناصرية، وأبو بكر الدلائي هو مؤسس الزاوية الدلائية، ومحمد بن عبد الله السوسي حاول أن ينشئ طريقة خاصة به. وبذلك غدا لهؤلاء الشيوخ أتباع ومريدون، حتى إن بعضهم من أمثال علي بن عبد الرحمن الدرعي ومحمد بن ناصر أثار انتباه المخزن(165) بسبب هذه الجموع من المريدين. كما كان من هؤلاء الشيوخ من اعتمد مريديه في عمله الإجتماعي والسياسي(166). ومعنى هذا أننا نجد داخل هذه الفئة من الرجال الذين ترجم لهم الكتاب، تمايزا آخر تحكمت فيه ثنائية الشيخ/المريد. فأهم نسبة من هؤلاء الرجال هي كانت من مريدي أبي بكر الدلائي وابنه محمد والشيخ محمد بن عبد الله السوسي. ومعنى هذا أيضا، أن ترتيب هؤلاء الرجال المترجم لهم حسب الدرجة الصوفية أمر ممكن، اللهم إلا الذين غلب عليهم الجذب أو كانوا من البهاليل أو سترهم علمهم. ومع ذلك، فإن هذا الترتيب لن يعطينا تراتبا معقدا. ذلك أن ما نجده في النص من مصطلحات مثل الفقير والشيخ والقطب والأصحاب وعابد، قد اتضح لنا عند تحديد الرتبة الصوفية لكل واحد من المترجم لهم، أنه إما شيخ أو تابع لشيخ. فالرتبة في سلم التصوف لا تعطي تداخلا إلى الحد الذي يجعلنا نبني هرما قصد البحث عن التناقض أو التجانس فكل ما يمكن الخروج به من تصنيف المترجم لهم حسب الرتبة الصوفية، هو أنه وجد من بينهم شيوخ اعتقد فيهم أتباعهم أنهم وصلوا درجة القطبانية.. أمثال محمد بن عبد الله السوسي، وشيوخ للطريقة كأبي بكر الدلائي وابنه محمد ومحمد بن ناصر الدرعي وأحمد اليمني وعلي بن عبد الرحمن الدرعي، ثم جملة من المريدين الذين تفاوتت درجة

(163) تلك هي حالة معظم أتباع محمد بن عبد الله السوسي الذين عرف بهم كتاب **مباحث الأنوار**.

(164) **مباحث الأنوار**، ص. 209، 211.

(165) **المصدر نفسه**، صص. 345، 378.

(166) اعتمد رجال الدلاء مريديهم من الولاليين. راجع ترجمة محمد بن يعقوب وابنه محمد في **مباحث الأنوار** هذا، ص. 213 و271.

قربهم من شيوخهم، إلا أن النص لا يستعمل في حق هؤلاء المقربين تسميات خاصة، فهم من جملة الأتباع.

يظهر أنه كان من بين هؤلاء الرجال من تصدر لمشيخة صوفية، ومنهم من قنع بدور المريد، إلا أن الكل كان طرقيا، أنه ذو سند في طريقة ما، أو منتظم في سلك زاوية، إذ ليس كل المترجم لهم شيوخا في التصوف، والذين كانوا شيوخا لم يعطوا كلهم ميلاداً لطريقة صوفية، ولم يقم كل واحد منهم بتأسيس زاوية. وحتى وإن وجد من هؤلاء الشيوخ من أقام طريقة وعرفت باسمه مثل محمد بن ناصر ومحمد بن عبد الله السوسي، فإن طريقتهم كانت استمرارا لطرق كانت أصولها موجودة من قبل. وعلى كل حال، فحتى الذين لم يعرفوا بطريقة صوفية خاصة بهم، من الدلائيين، والفاسيين والمعانيين كان لهم سند عال في الطريقة.

إن هذا السند هو الذي جعل العلاقة بين شيوخ التصوف في المغرب قائمة، فيتصلون عن طريق التزوار والتراسل والأخذ والعطاء[167]. ففي متن «**مباحث الأنوار**» نجد أشهر رجال التصوف والزوايا في مغرب القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجريين. نعثر على شيخي الدلاء، وشيخ الزاوية الناصرية، وممثلين عن الزاوية الفاسية. وبين هؤلاء الشيوخ كانت وشائج قربى موجودة. ومن بين ما تمثلت فيه هذه الوشائج، كانت السلسلة التي تصل كل واحد منهم إما بالإمام أحمد زروق أو الجزولي، وبهما إلى الإمام الشاذلي. فالطرق الصوفية بالمغرب في هذا العهد كان لها أصل في هذين المنبعين «إلا من شذ عنهما من بهلول ومجذوب أو صاحب حال»[168].

هكذا التقى هؤلاء الشيوخ في السند، وأن الاتفاق كان حاصلا بينهم في ما يرتبونه على مريديهم من أوراد وما يقرؤونه من أذكار. لقد كانت الناصرية تلقن أوراد الشاذلية، وكذلك الفاسية تلقن أوراد الشاذلية والزروقية، وكان الدلائيون يجمعون بين الجزولية والزروقية والشاذلية[169]. وكيفما كانت عوامل التقارب بين هؤلاء الشيوخ، فإنه كان معبرا عن الالتقاء في المذهب والمدرسة الصوفية.

(167) م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 56.

(168) م. الفاسي، **تحفة أهل الصديقية**، ص. 2.

(169) م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 56.

ذكرنا فقط التقارب الذي كان قائما بين رجال الزوايا الثلاث، والواقع أن هذا التقارب كان موجودا بين كل الشخصيات الصوفية التي عرف بها الكتاب : فمحمد بن عبد الله السوسي كان له اتصال بالدلائيين، وأحمد بن عبد الله معن ارتبط بصداقة مع أحمد اليمني الذي هو قادري الطريقة، إلا أن هذا التشابه والتقارب لا ينفيان أصالة كل واحد من هؤلاء الشيوخ أو المتصوفة العلماء، سواء تعلق الأمر بالعبادة وتلقين الأوراد أم المواقف. فمحمد بن ناصر لم تكن له أوراد معينة، وإنما كان يراعي حالة المريدين ويسلك معهم سبيل التدرج. بينما كان أحمد بن عبد الله معن الأندلسي يتحرى في مريديه جملة من الشروط[170]. وكانت أذكار الزاوية الدلائية تمتاز بالبساطة وموافقة لمريديها الذين هم من عامة أهل البوادي[171].

قلنا بأن من بين هؤلاء الأعلام المعرف بها من علت مكانته العلمية على الصوفية، ولم يكن ذلك إلا لغرض تربوي : أي تيسير استخراج بعض الخصائص والمميزات لهؤلاء الرجال، إذ نجد المكانة العلمية غير مفصولة واقعيا عن المكانة الصوفية. فمن بين هذه الجماعة من الرجال التي عرفت بصلاحها نجد الثلاثة الذين أشارت لهم المصادر بكونهم أحيوا العلم في المغرب بعد مماته : «فمن المقرر عند الأشياخ أن العلم أحياه في المغرب ثلاثة من الشيوخ : سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي، وسيدي محمد بن ناصر في درعة وسيدي عبد القادر الفاسي»[172]. فهؤلاء الثلاث التقت مكانتهم الفكرية بالصوفية، أي أن كل واحد منهم كان أستاذا كبيرا في العلم وشيخا في التصوف.

فبالنظر إلى الجدول المستخرج من نص «**مباحث الأنوار**»، يتضح أن كل الشخصيات كان لها حظ في العلم. فالتحلية التي خص بها الولالي تراجمه تتنوع في هذا الباب بين فقيه وعالم وعارف ومدرس. وواضح من هذه التسميات أنها لا تفصح عن درجة صاحبها في العلم، لكن هذه الدرجة قد تدرك من خلال مضمون الترجمة نفسها، أو ما اشتهر به صاحبها من نشاط فكري. وبهذا يمكن تصنيف هؤلاء الرجال إلى كبار العلماء وعلماء وفقهاء. ولن نجرؤ على إعطاء نسبة محددة ومعبر عنها عدديا بالنسبة لكل صنف، لأن ذلك قد يجانب الحقيقة والواقع. فلرب من نعته الولالي بالفقيه كان من كبار العلماء في عصره أو له من البضاعة ما لهم.

(170) Berque, Ulemas..., p. 135.

(171) راجع : م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 64.

(172) راجع : محمد أحمد الفاسي، **المورد الهني**، مخطوط خ ع رقم 1432، ورقة 2/ب.

ونقنع بهذا التصنيف الثلاثي الذي قد يكون معبرا عن عدد من الأمور، ونسجل في الآن نفسه، أن هؤلاء الرجال العلماء والصلحاء انتموا إلى البادية والمدينة، وأن كبار العلماء منهم وجدوا فيهما معا. فالتفاوت الثقافي بين الرجال كان بارزا، إذ لا يمكن أن نضع في نفس المرتبة العلمية محمد بن يعقوب الولالي وعبد القادر الفاسي. قد تكون أسبابه كامنة في ما لا يجهر النص به، ومع ذلك فإن هناك من الأسباب ما يجعلنا لا نحسم في الدرجة العلمية لكل واحد من المترجم لهم.

فمن هؤلاء الكبار الذين عاشوا بالبادية وأقاموا بها مراكز ثقافية، نجد محمد بن ناصر الذي عرف بمتانة علمه(173) واعتبر شخصية كاملة ومركزية في العالم المعاصر له(174). فأساتذته في علم الظاهر كانوا من كبار علماء المغرب آنذاك. مارس التدريس والإمامة بمسجده(175)، متبنيا الدفاع عن السنة والحرص على نشرها بين الناس(176)، شديد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(177). وكذلك كان محمد بن أبي بكر الدلائي الذي اضطلع بأمر التدريس بعد أن كانت له رحلة في طلب العلم(178). درَّس علوما نقلية وعقلية، وكان له فهم خاص في الحديث والتفسير(179) وحضر دروسه علماء وطلبة من المدن والقرى.

أما علماء المدينة فنجد على رأسهم عبد القادر الفاسي الذي عرف بأصالته(180) في التدريس، حيث كان تدريسه يعتمد التبسيط والوعظ، جامعا في ذلك بين القول والعمل، متجها بتعليمه إلى العامة والخاصة(181) وأن مدينته جعلت منه أحد مدرسيها وعلمائها الكبار(182).

هكذا اشترك هؤلاء الرجال في الصلاح والعلم، إلا أن هناك من الأسباب ما جعل درجة البعض تعلو في جانب من هذه الثنائية المشتركة. وبذلك يمكن التساؤل

(173) أ. الولالي، **مباحث الأنوار**، ص. 377.

(174) راجع : **Berque, Al Youssi...**, p. 41.

(175) راجع : أ. الولالي، **مباحث الأنوار**، ص. 377، وهامش رقم 349.

(176) عمالك : مقدمة تحقيق **الدرة الجليلة، مرجع سابق**، ص. 43.

(177) **مباحث الأنوار**، ص. 378.

(178) **المصدر نفسه**، ص. 274.

(179) راجع : م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 78، 79.

(180) **Berque, Ulemas...**, p. 142.

(181) **مباحث الأنوار**، ص. 369.

(182) (J) **Berque, Ulemas...**, p. 158.

عما إذا لم يكن هذا التفاوت بين الرجال في العلم والصلاح عاكسا من جهة أخرى تفاوتهم الإجتماعي والمادي ؟ ذلك أننا نلاحظ من خلال أخبار هؤلاء الرجال أن الصلاح والعلم كانا أحيانا يخرجان من نفس البيوت. ظهر ذلك جليا في عائلة الدلائيين والفاسيين والمعانيين والولاليين وحتى الناصريين[183]. وهذه عائلات كان منها من انتمت إلى مجتمع زراعي ورعوي، ومنها من انتمت إلى مجتمع حضري وحرفي، وشكل أفرادها في مجتمعهم عناصر بشرية بارزة على مستوى الجاه والثروة. قد يكون الظهور بالجاه سابقاً عن اكتساب الثروة، وربما أن هذه الأخيرة لم تكن مطلوبة من قبل كل أهل الصلاح والعلم. إذ كان من هؤلاء الرجال من له جاه دون ثروة كبيرة[184]. وكيفما كان الحال، فإن الجاه والعناية بالشريعة اشترك فيهما كل هؤلاء الرجال، ومن ثم فإن الدور الصوفي والعلمي لعدد منهم اقترن أحيانا بتراكم الثروة. ذلك أننا نجد من بين هؤلاء الذين عرفوا بصلاحهم وعلمهم من كانت ثروته تليدة[185]، ومنهم من صار له الثراء عندما اشتهر بالعلم والصلاح[186].

لم يكن العلم والصلاح وحدهما سببا في ما عرف به هؤلاء المترجم لهم من مكانة اجتماعية. لقد كان من بينهم من عرف بنسبه الشريف[187]، وفي هذا العامل الأخير ما يكفي صاحبه أو مدعيه من الاحترام والجاه. فالشرف صار في هذه المرحلة مطلوبا، ومن أسباب الترقية الإجتماعية.

إن هذه الفئة من الرجال التي ترجم لها أحمد الولالي ليست بعينة ممثلة لكل فئات المجتمع المغربي في القرن السابع عشر الميلادي. ولكنها فئة فاعلة ومؤثرة في مجتمعها لما عرفت به باعتبارها عناصر بارزة فرضت هيبتها واحترامها على الجمهور العريض كما فرضته على الجهاز الحاكم. إنها مثلت السلطة الروحية والعلمية التي احتاجت لها السلطة الزمنية وطلبها مجتمعها لما قدمت له من مثل عليا وحثته بسلوكها، وبما لعبت من أدوار متنوعة في وسطه. وبالرغم من أن النص يقدمها

(183) لم يكن محمد بن ناصر صاحب ثروة، ولكن خلفه أحمد الخليفة صار له كل ما يريد. راجع : أ. عمالك مقدم تحقيق **الدرة الجديدة، مرجع سابق.**

(184) راجع ترجمة عبد القادر الفاسي في **مباحث الأنوار**، ص. 369.

(185) كانت تلك هي حالة أبي بكر الدلائي وابنه محمد وأحمد بن عبد الله معن. راجع ترجمتهم في **مباحث الأنوار**، ص. 274 و338.

(186) انظر جدول المترجم لهم المستخلص من **مباحث الأنوار** في هذا القسم.

(187) انظر جدول المترجم لهم المستخلص من **مباحث الأنوار** في هذا القسم.

باعتبارها فئة عالمة وعليا، فإننا نرى مع ذلك، أنها ربطت حياتها بعامة الناس كما ربطتها بخاصتهم. فسواء في البادية أو في المدينة لم تكن بين رجال التصوف الآخذ بالسنة، وبين العامة العامية مسافة بعيدة.

ويبدو أنها فئة غير ممثلة لكل فئات المجتمع المغربي، ولم تكن ممثلة لكل التيارات الصوفية الموجودة بالمغرب في تلك المرحلة. فالنخبة التي اختار الولالي أن يترجم لها متميزة بتكوينها وسلوكها، إذ تنتمي إلى ما يدعى بالتصوف العالم، وهو التصوف الذي كان موافقا للسنة وموافقا أيضا للفقهاء، والذي ظهر أنه لم يكن مقصورا على بعض الطوائف المنتمية إلى الحواضر. فالجانب العلمي لكثير من رجال الصلاح بالبادية كان بارزا من خلال حالة محمد بن ناصر والدلائيين ومريديهم من الأسرة الولالية التي سكنت منطقة جبلية نائية، بل إن الجانب العلمي لأفراد هذه الأسرة الأخيرة هو الذي أهلهم لربط علاقات لا بشيوخهم من الدلائيين فحسب، وإنما ربطوا صلات بعلماء من مناطق مختلفة، وعملوا على إدخال الثقافة الإسلامية للبادية المغربية، خاصة البربرية منها.

وهكذا نرى أن هذه الفئة من الرجال لا تشكل عينة بالنسبة للجمهور العريض ورجال التصوف بالمغرب، ولكنها كانت ممثلة على المستوى الجغرافي والحضري. وهذا ما يجعل نتائج البحث في هذا الإتجاه مهمة.

كان من هؤلاء الأعلام المترجم لهم من انتمى إلى مجتمع البادية ومنهم من انتمى إلى مجتمع المدينة، وسواء كانوا من البادية أم المدينة فهم علماء وصلحاء. ولذلك لا يحق لنا الحديث عن تصوف خاص بالبادية وآخر بالمدينة. فشيوخ التصوف بالبادية وكثير من أتباعهم كانوا متعلمين ومثقفين ثقافة عصرهم، وليسوا كلهم أميين. بل نرى أنه حتى بعض من كبر منهم أميا، حاول أن يستدرك في كبره ما فاته من المبادئ الأساسية للعلم[188]، وأن الذين توفرت لهم منه أسباب الحصول عليه درسوا ما كان زملاؤهم في الحواضر يدرسونه من كتب نحو وفقه وحديث وتصوف وتوحيد[189]. فالمدينة والبادية تبادلتا المدرسين والطلبة في هذا العهد، ولم تعد البادية تتلقى فقط. ففي حالة أحمد الولالي نفسه، وشيخه الحسن اليوسي، وأساتذة الزاوية الدلائية الذين دخلوا فاس وغيرها من المدن المغربية، ما يقدم الدليل على

(188) راجع ترجمة يعقوب الولالي في **مباحث الأنوار** ص. 205.

(189) **المصدر نفسه**، ص. 228، 295.

التبادل والتكامل الثقافيين. كما أن معرفة اللغة العربية لم تكن عامل تعويق لانتشار الثقافة العربية الإسلامية في الوسط البربري، فمن متن «**مباحث الأنوار**» يظهر أن أغلب متصوفة البربر كانوا مزدوجي اللسان، وحتى من غلبت العجمة على لسانه كمحمد بن يعقوب الولالي، فإنه كان متفقها في النحو واللغة.

إن التبادل والتكامل والتشابه بين رجال الصلاح والعلم في البادية والمدينة، كل ذلك إن ظهر في الميدان الثقافي والروحي، فهو أيضا كان موجودا في ميادين أخرى. ومنها التبجيل الذي حظوا به والوظائف التي شغلوها في مجتمعهم. وقبل أن نعمل على إبراز هذه الجوانب نقدم نموذجا لهؤلاء الصلحاء عمل المؤلف على إعطائه عناية خاصة.

ثانيا : ترجمة محمد بن عبد الله السوسي

لا ريب أن مسلسل تأسيس الطرق الصوفية وظهور الأولياء معروف بكيفية عامة، لكن جميع أعلام هذا التاريخ لم يحظوا بدرجة واحدة من العناية، ومن ذلك أن محمد بن عبد الله السوسي لم يحظ من المترجمين لا بتعريف شامل، ولا بدراسة وافية. فالوقوف عند هذه الشخصية يحقق غاية منهجية ومعرفية. فبما أن ترجمته أخذت جزءا مهما من الكتاب كان علينا أن نفرد له فقرة خاصة به، كما أن التعرض لخصائص هذا الرجل ومميزات طريقته ومريديه هو مساهمة في التعريف بظاهرة الولاية في المغرب بصفة عامة.

1 ـ مصادر التعريف :

اتضح من البحث عن مصادر ترجمة محمد بن عبد الله السوسي، أنه لم يكن مجهولا في عصره ولا في القرون اللاحقة. ذلك أن مجموعة من المصادر عرفت به، وتكلمت عن صلاحه وورعه. وإذا كان من غير المتيسر إحصاء جميع هذه المصادر، فإن أقدمها حسب ظننا هو ـ «**صفوة من انتشر**»[190] ـ لليفراني و«**نشر المثاني**»[191] و«**التقاط الدرر**»[192] للقادري. إلاأن تعرض هذه المصادر لذكر هذه

(190) م. اليفراني، **صفوة**، ص. 125.

(191) م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 176.

(192) م. القادري، **التقاط الدرر**، ص. 174.

الشخصية لا يعني أنها أغنت عن الرجوع إلى الأصل الذي هو «**مباحث الأنوار**»، لا لكون معلوماتها أقل غزارة ومضمونها أقل شمولية فقط، فهذا أمر اشتركت فيه جميع المصادر التي عرفت به، بل نجدها إما قد اعتمدت «**مباحث الأنوار**» أصلا لها، أو نقلت عن مصادر أخرى كان هو أصلها.

وبناء على هذه الملاحظات، يمكن القول إن أول من عرف بمحمد بن عبد الله السوسي، كان هو صاحبه ومريده أحمد الولالي في كتابه «**مباحث الأنوار**»، وأن كتابه يعتبر أصلا لكل من تكلم عن هذه الشخصية. وربما كان في هذا ما يعطي القيمة المصدرية لكتاب الولالي باعتباره أصلا فريدا في ترجمة محمد بن عبد الله السوسي، إلا أن قيمته تبرز أيضا في كونه قد أحاط بجوانب هامة من حياة هذا الرجل.

2 ـ نسبه :

ذكره تلميذه الولالي مرفوعا إلى نسب أبيه وأصله، فهو محمد بن عبد الله السوسي من بلدة بسوس تسمى تمليت[193]، وهي واحة تقع على المجرى الأسفل لوادي تمنارت. وتضم هذه الواحة قرى صغيرة وكثيرة[194]، ونحن لا نعرف في أية قرية منها ازداد ولا في أية سنة كانت ولادته. وهذه صعوبة صادفتنا تضاف إلى غموض آخر سجلناه في ما يخص نسبته إلى أبيه. فنص «**مباحث الأنوار**» لم يعرف بعبد الله السوسي، فذكره لمحمد منسوبا إلى أبيه عبد الله السوسي لا يعتبر عنصرا كافيا لتمييز عبد الله السوسي عن كثير من السوسيين العلماء والصلحاء الذين حملوا اسم عبد الله. فهل هو عبد الله بن يعقوب الرسموكي[195] أو عبد الله بن سعيد الحاحي ؟ أو أبو محمد عبد الله بن يعقوب السوسي نزيل مدشر عبيد الله[196] ؟ فهؤلاء كلهم عرفوا بعلمهم وصلاحهم بسوس.

هناك مؤشرات تجعلنا نميل إلى القول بأن الأمر يتعلق بعبد الله بن يعقوب السوسي المتوفى عام 1052هـ والذي قرأ في تمنارت، الذي هو بلده، حتى حدود عام

---

(193) أ. الولالي، **مباحث الأنوار**، ص. 5.

(194) م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 2، ص. 617.

(195) م. اليفراني، **صفوة**، ص. 125.

(196) م. القاسي، **تحفة أهل الصديقية**، ص. 55 ؛ ع. ابن إبراهيم، **الإعلام**، ج 6، ص. 288.

ألف هجرية، ثم تصدر للتدريس بمسجد تزموت[197]. وهذا الأخير ليس هو عبد الله بن يعقوب نزيل مدشر عبيد الله الذي توفي في حياة شيخه أبي عمرو القسطلي المتوفى عام 974هـ. فمن جملة هذه المؤشرات أن عبد الله بن يعقوب كان له عدة أبناء[198]، ومن بينهم من حمل اسم محمد وإبراهيم[199]. إلا أن صاحب «**المعسول**» الذي ذكرهما أشار بأن محمد (بسكون الميم الأولى) قد توفي بسوس عام 1082هـ، كما كانت به وفاة أخيه إبراهيم. وهذا يخالف ما أثبته متن «**مباحث الأنوار**». فوفاة إبراهيم ابن عبد الله السوسي كانت بمراكش[200]، ومحمد بن عبد الله كانت بمكة عام 1079هـ. وإذا كان صاحب «**المعسول**» لم يذكر المصادر التي نقل عنها، فإنه لا يمكن نفي ما قاله، لأن ذلك يتفق مع مصادر أخرى.

يبقى أننا نرجح أن عبد الله السوسي كان له أولاد كثر، وأن منهم من حمل اسم محمد (بسكون الميم الأولى وتشديد الثانية)، ومنهم من حمل اسم محمد (برفع الميم الأولى). فكان الأول هو الذي عرف به المختار السوسي في «**المعسول**» والأستاذ محمد حجي في كتابه عن «**الحركة الفكرية أيام السعديين**»[201]، بينما لم يظهر الأخير عندهما بسبب عدم ظهور أمره بسوس.

وكل ما سبق من افتراضات حول نسبة محمد السوسي إلى أبيه عبد الله ربما جانب الحقيقة والواقع وفي كل الأحوال أن وفاة عبد الله بن يعقوب السوسي كانت عام 1052هـ. وقد اتفق على هذه السنة كل المصادر التي ترجمت له. وهي السنة التي انتقل بعدها محمد بن عبد الله السوسي إلى مراكش[202]. فكل المعطيات المستخرجة من متن **مباحث الأنوار** تسمح بتأكيد هذا القول. فمرحلة تبتله، وانقطاعه عن الخلق، وظهور الفتح وخروجه للناس، كانت بمراكش وبعد موت أبيه، ولا يمكن أن تكون قد حدثت قبل عام 1052هـ، وذلك لقلة مكوثه بهذه المدينة[203] التي خرج منها في حدود عام 1069هـ. فبناء على ما سبق من

(197) م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 2، ص. 584.
(198) **المصدر نفسه والصفحة نفسها**.
(199) م. السوسي، **المعسول**، ج 5، ص. 5 وما بعدها.
(200) **مباحث الأنوار**، ص. 6.
(201) م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 2، ص. 584.
(202) **مباحث الأنوار**، ص. 15.
(203) **المصدر نفسه**، ص. 44.

ملاحظات ومعطيات، يمكن الإطمئنان إلى أن عبد الله بن يعقوب المتوفى عام 1052هـ كان أبا لمحمد بن عبد الله السوسي.

3 ـ ثقافته :

لم تكن إثارة قضية نسب محمد بن عبد الله السوسي دون فائدة. لأن الحسم فيها من شأنه أن يساعد في تفسير جوانب متعددة من حياة ابنه محمد. فهذا الأخير تربى في وسط أسرة غلب عليها طابع العلم والزهد والورع. فأبوه عبد الله كان من العلماء الصوفية المشهورين بالمغرب وبسوس خاصة. فقد وصفه الأستاذ حجي بالذكاء والدين المتين والسيرة الحسنية[204]، فسعى إلى صقل مواهبه الفكرية[205]، ولكنه تخلى عنه عندما رأى أن الإبن مجتذب إلى ناحية أخرى[206]، فالإتجاه إلى الصلاح ظهر عنده منذ صغره[207]. ومهما كان الجانب الذي غلب على تكوين وشخصية الرجل، فإن خصوصيات أسرته كان لها تأثير على تكوينه. فهو لم يترك العلم ويأخذ بالنسك وحده، فقد كان له من العلم ما بهر به مريديه[208].

شكلت سوس قاعدة تكوينه العلمي، ولا نعرف من شيوخه في العلم سوى والده، فعليه حصل جملة من العلوم. وهي علوم لا تخرج عن المصادر الأساسية للإسلام من **قرآن وتفسيره**، وحديث وسيرة[209]، أو علوم تعلقت بالأصول أو بقواعد المعاملات الفقهية[210]، أو ما تعلق منها بجانب العبادات، مع ما كان يقتضيه الأمر من تكوين في اللغة العربية التي هي الأداة الأساسية لهذه الثقافة. ظهرت آثار هذا التكوين في قدرته على التعبير والإيجاز وفي مواقفه وجداله[211].

لم تخرج ثقافة محمد بن عبد الله السوسي على ما عرفه عصره من معارف، فهي ثقافة كل من أراد أن يظهر بالعلم في وقته. لكن الرجل كان قد اختار هذه الثقافة

---

(204) م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 2، ص. 583.

(205) أ. الولالي، **مباحث الأنوار**، ص. 3.

(206) **المصدر والصفحة نفسهما.**

(207) **المصدر نفسه**، ص. 4.

(208) **المصدر نفسه**، ص. 24.

(209) **المصدر نفسه**، ص. 4.

(210) **المصدر نفسه والصفحة نفسهما.**

(211) راجع قولته التي عرضها تلميذه على علماء آخرين. **مباحث الأنوار**، ص. 87.

أيضا للمشي في الطريق الموصل إلى العلم بالله. فالرجل درس الشريعة ولكنه كان يتطلع إلى «الحقيقة». والوصول إلى هذه الأخيرة لا يكون إلا بالتبتل والتعبد، وما يتطلبه الأمر من «مجاهدة»[212] وملازمة للأذْكار. وقد قطع صاحبنا هذا الطريق الشاق بنجاح، حيث فتح الله له «فتحا جذبيا»[213].

4 ــ ظهوره بالولاية :

كان دخول محمد بن عبد الله السوسي مدينة مراكش بعد تلقيه العلم بسوس. ونحن لا ندري سبب ارتحاله، ولكن نعرف أن نشاطه التعبدي بدأ قبل هذا الإنتقال، وأن محور مراكش سوس كان معروفا من لدن السوسيين العلماء. فخروجه من سوس لم يكن تحت ضغط أو حاجة في تلقي العلم.

وصف الولالي الجو الذي ظهر فيه أمر محمد بن عبد الله السوسي. فذكر أن ذلك وقع بمسجد[214] بمراكش. ولكن ماذا يعني ظهوره لانتفاع العباد ؟ لا شك أنها إشارة إلى ظاهرة الولاية التي هي قديمة في المغرب. فصاحب «**التشوف**» أرجعها إلى بداية الفتح الإسلامي[215]. فبهذا الظهور صار محمد بن عبد الله السوسي واحدا من رجال التصوف بالمغرب، وجزءا من حركته التي عرفت مدا وجزرا عبر حقب تاريخها. وقد رأينا بأنه ملك من المؤهلات ما جعله قادرا على اقتحام هذا الطريق.

لم يكن تكوينه يحمل استثناء فهو قد نزع إلى الزهد منذ صغره وكرع في آن واحد في منابع علوم الدين، فتفقه في السنة والشريعة، وأخذ منهما ما جعله مهيأً للريادة الروحية. وفي هذا الإتجاه كانت له وجهة نظره في العالم والمجتمع، إذ كان يرى أن الموقف الذي يجب سلوكه هو التستر والإبتعاد عن الخلق[216]، ومن ثم رفضه الخوض في الواقع المادي. إلا أنه رأى أن الحل لا يكمن في هجرة هذا العالم، بل المشاركة من خلال العبادة في تغييره. فمن متن «**مباحث الأنوار**» يظهر أن ظهوره كان استجابة لنداء خفي[217].

(212) **مباحث الأنوار**، ص. 8 وهامشها رقم 18.

(213) **المصدر والصفحة نفسهما**.

(214) **المصدر نفسه**، ص. 16.

(215) راجع : م. زنيبر، «حفريات عن شخصية يعقوب المنصور»، **مجلة كلية الآداب بالرباط**، عدد 9،

(216) **مباحث الأنوار**، ص. 16.

(217) **المصدر نفسه**، ص. 17.

هكذا بدأ الناس يلقون إليه بزمامهم آملين أن يصلهم بما وصله من نورانية[218] وبركة، وآملين في الوقت نفسه أن يجدوا خلاصا من مشاكل زمانهم. وإذا كان البعض من هؤلاء الناس قد سلم بتلقائية وعفوية بهذه الولاية، فإن البعض الآخر تساءل عن سرها أو مصدرها[219].

ويبدأ التساؤل عادة حول ما يسمى عند أهل الاصطلاح بالسلسلة أو السند[220]، وذلك تأكيدا للشرعية، وإثباتا بأن الدعوة ليست افتراء أو بدعة. وهكذا عندما سئل محمد بن عبد الله السوسي عن شيخه في الطريقة أو الأخذ[221]، لم يحظ سائله منه بجواب قاطع. وعندما تكرر السؤال والإلحاح، جاء الجواب معبرا عن إنكار فضل أي ولي في ما وصله من سر. فأمره تلقاه مباشرة من النبي وبواسطة الصحابي عمر بن الخطاب[222]. فكيف نفهم نحن هذا ؟

فمهما كانت الأسباب التي دعتنا إلى طرح هذا السؤال، فإن ما تجدر الإشارة إليه هو أن محمد بن عبد الله السوسي لم يدع جديدا أو غريبا عندما قال بأن أخذه كان مباشرة عن النبي[223] ﷺ. فرجال التصوف يتفقون على أن الفتح لا يكون دائما على يد شيخ وقتي[224]، ومحمد بن عبد الله السوسي الذي وصل إلى «مقامه» عن طريق **الجذب والسلوك**، كان من هذا الصنف من الأولياء. لكن هذا لا يمنع من أن يكون لطريقته أصول أو منهج عام تأخذ عنه وهو الذكر أو الورد[225]. فمن أين استقاه ؟

إن الجواب عن هذا السؤال قد لا يتضح للوهلة الأولى، لأن عناصره متداخلة. وقد تكون الظرفية التي لازمت ظهور محمد بن عبد الله السوسي معينة على توضيح معالم طريقته.

---

(218) **المصدر نفسه والصفحة نفسهما.**
(219) **المصدر نفسه**، ص. 32.
(220) أ. خشم، **أحمد زروق والزروقية**، ص. 140.
(221) **مباحث الأنوار**، ص. 69.
(222) **المصدر نفسه**، ص. 35.
(223) **المصدر والصفحة نفسهما.**
(224) محمد الفاسي، **تحفة أهل الصديقية**، ص. 14
(225) أ. ابن عطية، **سلسلة الأنوار**، ص. 11.

5 ـ الظرفية العامة التي ظهر فيها محمد بن عبد الله السوسي بالولاية :

كان ظهور محمد بن عبد الله السوسي بالولاية معبرا عن التحول الذي وقع في مسيرته التنسكية. وقد نرى فيه أيضا تحولا في موقف تأرجح ما بين الرفض للمشيخة والتصدر إليها. فاقتناعه بهذا التصدر ربما وجد تفسيرا في وضعية المغرب عامة، ووضعية مجتمع مراكش خاصة. ذلك أن المجتمع المغربي مثله مثل الحركة الصوفية كان يمر منذ بداية القرن الحادي عشر الهجري بأزمة عامة.

تظهر مظاهر هذه الأزمة المركبة من خلال رفض محمد بن عبد الله السوسي للتلمذة والأخذ عن الأولياء الأحياء في عصره ومن خلال رفضه للواقع السياسي[226]. وأصول الأزمة الدينية ترجع على ما يبدو إلى أزمة العمل الصوفي في بداية القرن السابع عشر الميلادي. وهي الأزمة التي كان محمد بن عبد الله السوسي قد فتح أعينه عليها. فبعد وفاة أحمد المنصور عام 1013هـ/1603م بدأ عهد الفتنة بالمغرب، وصار لكل الزوايا والطرق الصوفية الرئيسية بالبلاد قاعدة مادية وبشرية ودخلت المغامرات السياسية. ففي عدد من جهات المغرب كانت إمارات دينية تعمل على نشر نفوذها السياسي. وحتى في بلدته التي رأى النور فيها كانت إمارة دينية مثل تازروالت قد أصبح لها نفوذ سياسي كبير. هكذا تفتتت الوحدة السياسية للمغرب لصالح الرؤساء الدينيين الذين أقاموا إمارات كان منها ما صغر وما كبر[227]، ولم يبق للسعديين عند ظهور أمر محمد بن عبد الله السوسي بمراكش من الحكم إلا الإسم، إذ كانت خلافاتهم الداخلية قد امتصت كل قواهم، ولم يتمكنوا قط من إعادة الأمور إلى نصابها. وفي هذه الوضعية السياسية ما يذكر بزمن الشيخ الجزولي.

ومما لا ريب فيه أن هذه الأزمة السياسية تجد جذورها في مصير المخزن السعدي[228]، إلا أنه لابد من اعتبار أن هذا العهد كان قد عرف ظرفية قاسية ترجع في بعض جوانبها إلى أسباب طبيعية، إذ توالى فيها القحط والمجاعات والأوبئة، وكثر النهب وعم الفساد. ففي هذه الظرفية التي أصبحت السلطة المركزية عاجزة عن مراقبة حتى مقر وجودها، وبالأحرى الأقاليم القريبة منها[229]، صار الأمن مهددا، ولم

(226) **مباحث الأنوار**، ص. 41، 42.

(227) G. Drague, **Esquisse...**, p. 68.

(228) ع. القدوري، «**مقدمة**» تحقيق كتاب ابن أبي محلي، **الإصليت...**، رسالة جامعية لم تنشر، كلية الآداب بالرباط، 1984، ص. 25.

(229) **مباحث الأنوار**، ص. 26.

يبق للناس إلا الإلتفاف حول دعاة عرفوا بالنصيحة والموعظة والحزم أيضا، فلا غرابة أن تشبه محمد بن عبد الله السوسي بعمر بن الخطاب(230). فهذا المجتمع الذي اضطرب الوضع فيه سياسيا واجتماعيا، هو مجتمع ندر فيه رجال أكفاء لا في ميدان السياسة فحسب، بل حتى عندما تعلق الأمر بالجانب الروحي. من هنا كان التفاف الناس حول محمد بن عبد الله السوسي، وخاصة علماء مراكش وأعيانها أمثال الفقيه ابن سعيد المرغيثي وابنه محمد(231)، معبرا عن أحوال ذلك المجتمع المراكشي الذي قل فيه الصالحون المخلصون، ومترجما عن رغبة السكان في تجاوز الوضع القائم.

ساهمت هذه الظروف مجتمعة في تهييء محمد بن عبد الله السوسي للظهور بالولاية، ومع ذلك فهو الرجل الذي كان عارفا بأسرار العبادات أكثر من غيره، وله القدرة على اكتناه الغيب وبرء الأمراض، له حظ في استجابة الدعوة. لقد التقت قدراته الذاتية بشروط موضوعية مما جعل منه مرشدا في الطريق الروحي. وليتضح ذلك بمزيد من البيان لابد أن نتساءل ما هي المكونات الدينية لطريقته ؟

6 ـ أصول طريقة محمد بن عبد الله السوسي ومكوناتها :

إن اختيار محمد بن عبد الله السوسي الظهور للناس بدل التستر، لا يعتبر تحولا في مسيرته التعبدية فقط، بل يعد أيضا اختيارا منه للخروج من الإهتمام بالنفس إلى مرحلة التنظيم وتوسيع القاعدة البشرية لذلك الصلاح، بمعنى تكوين طائفة خاصة به ؛ وقد تم له ذلك بعدد من الأتباع الذين التفوا حوله ووضع لهم منهجا للعمل والإلتقاء. وهذا المنهج أو البناء الفكري هو ما اصطلح على تسميته بالطريقة الصوفية. ويظهر من سلوك هذا الرجل وتكوينه أن كل الأدلة كانت متوفرة عنده ليقترح و يقدم لأتباعه طريقة صوفية يجتمعون في إطارها. فكل تجمع بشري لابد فيه من طرح قضايا. فعلى أي شيء اجتمعت وارتبطت به تلك الأعداد من الخلائق ؟

إن الطرقية في المغرب لم تظهر مع محمد بن عبد الله السوسي، فكثير من الطرق الصوفية كانت معروفة قبله. فأية طريقة اختارها ؟ وهل اجتهد في تركيبة جديدة تؤدي إلى الغرض المقصود ؟

(230) المصدر نفسه، ص. 34.

(231) المصدر نفسه، ص. 19.

لن نناقش هنا ما يعرف عند الصوفية «بالسر» الذي يعتبر فرديا وخاصا بكل ولي. ولكن سنحاول إظهار الأصول التي أخذت عنها طريقته التي سماها : «طريقة عمرية»[232]، تشبيها أو انتسابا إلى الصحابي عمر بن الخطاب. ففي هذه النقطة، لم يخلف لنا محمد بن عبد الله السوسي إنتاجا فكريا مكتوبا يمكن اعتماده، إلا ما كان من وصيته وأقواله التي ضاع منها الكثير، ونقل لنا منها صاحبه أحمد الولالي القليل. فباعتماد هذه النقول الواردة في متن «**مباحث الأنوار**»، مع وضعها في سياقها التاريخي، يمكن الخروج بملاحظات عن أصول ومكونات هذه الطريقة.

كانت الحركة الصوفية بالمغرب في زمن محمد بن عبد الله السوسي، قد عرفت تطورا كبيرا، فاتضحت خطوطها واكتملت رسومها وحدودها[233]، حتى قال صاحب «**تحفة أهل الصديقية**» : «ولما كان غالب طرق أهل الله في هاتين المائتين العاشرة والحادية عشر يرجع إلى شخصين : الإمام العالم الكامل القطب أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الجزولي... والشيخ المحقق... أحمد البرنوسي الملقب بزروق»[234]. وهكذا صار في كل جهات المغرب أولياء وزوايا عرفوا بطريقة صوفية لها سند في هذين المنبعين، «إلا من شذ عنهما»[235]. وحتى الذي قال : إن «الطرق بعدد أنفاس الخلائق»[236] فإن هذا يعني أنهم لم يؤسسوا طريقة صوفية خاصة ومتميزة فكريا وروحيا، بل نهلوا والتقوا في المنهج العام الذي اتصل بهذين الشيخين أو بمن عرف قبلهما من أئمة في الطريق. وفي هذا الجانب كانت إشارات محمد بن عبد الله السوسي غير صريحة.

سئل الشيخ محمد بن عبد الله السوسي عن ورده فلم يفصح، واكتفى بأن قال : «اقرأ الورد الفلاني فهو الذي عندهم»[237]. وعندما سئل عن الطريقة قال : إنها : «طريقة عمرية»[238]. وعن أصولها أجاب بأن «الكتاب يأمرني وينهاني والسنة

(232) **المصدر نفسه**، ص. 34.
(233) عبد العزيز ابن عبد الله، «الصوفيون بالمغرب»، مجلة **العربي**، عدد 248، سنة 1979.
(234) م. الفاسي، ص. 26.
(235) **المرجع والصفحة نفسهما**.
(236) ابن عطية، **سلسلة الأنوار**، ص. 14.
(327) **مباحث الأنوار**، ص. 84.
(238) **المصدر نفسه**، ص. 32 وما بعدها.

تربيني»[239]. لقد ظهرت آثار الكتاب والسنة في سلوكه، ومع ذلك فإن معرفته بكتب القوم وبسلوك رجال التصوف كانت مؤكدة. فهو في تعامله مع ملوك الوقت كان على طريق أبي الحسن الشاذلي[240]، وفي المذهب مع مالك[241].

هكذا تكون الإشارات المتفرقة التي وردت في متن «**مباحث الأنوار**» في ما يخص طريقة محمد السوسي وأصولها غير صريحة وعامة، ولكنها تحمل من المعنى ما يشير إلى أن صاحبها كانت له طريقة في الذكر والعبادة، وفيها ما يحمل على الاعتقاد بما قاله صاحبه الولالي بكون معارفه ومستنده لها أصل في الزروقية[242]. كما أنها إشارات قد تتكامل مع ما جاء في وصيته من تعاليم. ففي هذه الوصية[243] كان الحديث عن أمور أهمها :

- مخالفة النفس اللوامة والاشتغال بالذكر.
- التمييز بين الحق والباطل.
- الاستقامة.
- الاستعانة في الدعاء بالوالد الصالح.
- ترك الفضول أي الزائد عن الحاجة.
- الاستغفار.
- كثرة الصلاة على النبي.
- أكل الحلال.

إنها أسس ليس في الإمكان ردها إلى أصول خاصة. ولكن يمكننا القول إنها تلتقي مع تعاليم عامة موجودة ومعروفة. منها ما نجد الإلحاح عليه في الزروقية أو الشاذلية. كما أن مضامينها تتفق مع ما جاء عند الغزالي أو في عقائد السنوسي.

وربما كان في هذا ما يفهمنا لماذا رفض محمد بن عبد الله السوسي أن يكون لأي ولي فضل عليه ؟ لا شك في أن الرفض لم يكن للمنهاج العام، أي الطريقة

(239) المصدر والصفحة نفسهما.
(240) المصدر نفسه، ص. 84.
(241) المصدر نفسه، ص. 132.
(242) المصدر نفسه، ص. 7.
(243) المصدر نفسه، ص. 88 وما بعدها.

ورجالها، وإنما قصد بذلك «المدد» الذي وصله بدون واسطة أحد منهم. فهو في هذه الحالة مثل الأولياء الكبار[244]، وحتى إن اعتبرنا ذلك إشارة إلى استقلاله عن أية طريقة سابقة، وحبا في إنشاء طريقة خاصة به مستعينا بمصادر مختلفة، وهذا رأي يصبح أكثر قبولا عندما نقرأ وصيته، إلا أنه لابد في كل الأحوال من الخيط الرابط، وهو ما يطلق عليه الصوفية اسم السلسلة. وهنا إن كانت المصادر لم تسعفنا في تتبع هذه السلسلة، فإن صاحبه أحمد الولالي أشار إلى أن الرجل كان له أخذ في الزروقية «فأبوه علمه الزروقية لأنه كان له فيها أخذ متصل بأبيه وأبي أبيه إلى واضعها الشيخ زروق»[245].

هكذا نرى أن ما سماه ابن عبد الله السوسي «بالطريقة العمرية»، لم تكن لتخرج عن غيرها من الطرق الصوفية التي اختارت من مذاهب الجماعة المذهب المالكي، وتصوف أهل السنة. وفي هذا المعنى الأخير كانت تقاليده ومواقفه.

كان في تصوفه متشبثا بالشريعة، مقتديا بالرسول ﷺ والصحابة الكرام. ظهر ذلك في ملبسه ومأكله[246]. وكانت عبادته تقوم على الإكثار من الصلاة وتلاوة القرآن والمأثور من الأدعية والأذكار. لم يكن له شيء في لبس الخرقة والمرقعات، وما اشتهر به هو الزهادة في متاع الدنيا[247]. وهو إن قال وظهر بالكرامات فهي كانت لها وظيفة تربوية عنده، ولم يظهر بالمخارق والشطحات. كان شديد المحبة في الرسول وأهل البيت[248]. تمحورت دعوته حول الوعظ، كالأخذ بقواعد الإسلام والحرص على تطبيق حدود الشرع، واتجه بها، سواء في المغرب أم المشرق، إلى مختلف الفئات من أمراء وحكام وفقهاء وعلماء ومجموع العوام.

7 ـ مريدو محمد بن عبد الله السوسي :

إنهم تلك الجماعة من الناس السالكين لذلك الطريق الذي رسمه لهم شيخهم والذين شكلوا ما يمكن أن نسميه بالطائفة السوسية نسبة إلى شيخها.

---

(244) المصدر نفسه، ص. 34.
(245) المصدر نفسه، ص. 7.
(246) المصدر نفسه، ص. 70.
(247) المصدر نفسه، ص. 122.
(248) المصدر نفسه، ص. 28.

كانت بداية تصدر محمد بن عبد الله السوسي لإرشاد الناس بمراكش، ففيها أخذ عنه «طلبة العلم وأولاد الفقراء الذين هم أصعب الناس وأبعدهم عن طريق الفقر»[249]. ومن مراكش أيضا تطايرت شهرته وانتشرت في الآفاق، حتى إذا حان وقت خروجه منها، كانت شهرته تسبقه. ففي طريقه من مراكش إلى أعالي ملوية، مرورا بتادلا وزاوية الدلاء، كانت الناس تتقاطر عليه طالبة الأخذ عنه أو التبرك به[250].

نزل وهو في طريقه إلى المشرق بمدينة الدلاء، وفي وصف أحمد الولالي لهذا الدخول والخروج من تلك المدينة، ما يعرب عن المكانة التي كانت لهذا الرجل، لا عند أصحابه فقط، ولكن عند خاصة الناس وعامتهم[251]. ففي زاوية الدلاء أخذ عنه كثير من أبناء هذه الزاوية وعلمائها وطلبتها، وعندما خرج منها كانت الوفود تعترض طريقه[252]. فالرجل صارت له قوة جذب كبيرة، حتى إن بعض من كان يرافقه، ساورته الشكوك في أمر هذه الجاذبية التي كان لها فعل السحر على الناس[253].

يظهر أن هذا الجذب كان يمارس على عامة الناس. فالشيخ محمد بن عبد الله السوسي لم يخرج من المغرب حتى دخلت جموع غفيرة من الناس في أتباعه. قد يكون من غير المتيسر تقديرهم عدديا، إلا أن أحمد الولالي قدر ما يوجد منهم بالمغرب بما يقارب ثمانين ألفا[254]. وهذا رقم ربما كان مبنيا على معطيات غير ظاهرة للعيان، إلا أنه معبر عن كثرة أتباع محمد بن محمد بن عبد الله السوسي[255].

ومهما كان عدد أصحابه، فإن من عرف به الولالي منهم قليل ولكنه معبر. فمن ارتبط «بعهد» كان يحمل جملة من الخصائص، وهي خصائص حددها الإطار الجغرافي والتكوين الثقافي والانتماء الاجتماعي.

(249) **المصدر نفسه**، ص. 16.
(250) **المصدر نفسه**، ص. 47.
(251) **المصدر نفسه**، ص. 117.
(252) **المصدر نفسه**، ص. 52 و119.
(253) **المصدر نفسه**، ص. 120.
(254) **المصدر نفسه**، ص. 140.
(255) م. الفاسي، ص. 4.

ولما كانت خصائص هؤلاء الأتباع هي نفس خصائص من عرف بصلاحه وعلمه وعرف به الولالي في كتابه «**مباحث الأنوار**»، فإن ما أمكن الخروج به من ملاحظات عن أولئك المترجم لهم في الفصل السابق، ومنهم أصحاب محمد بن عبد الله السوسي، قد يصدق على أتباع هذا الأخير. ومع ذلك ومساهمة في التعريف بطائفته، يمكن إجمال هذه الخصائص المميزة لمريديه في النقط التالية :

- فهم انتموا إلى منطقة شاسعة من المغرب، وأهم نسبة منهم انتمت إلى مدينة مراكش.
- لا يلاحظ عليهم غلبة عنصر على آخر : التقت العناصر المصمودية بالعناصر الصنهاجية، والعربية بالبربرية.
- تشير أسماء عدد من هؤلاء المريدين، وإن كانوا قد سكنوا المدينة وتوفوا بها، إلى انتمائهم القروي. وهي أسماء مثل : السوسي والهشتوكي والعكاري.
- لا نلاحظ تراتبية صوفية بين أتباعه : فهم كلهم أصحاب ومريدون، ذلك أن محمد بن عبد الله السوسي لم يستعمل في حق أتباعه نعوتات أو تسميات خاصة. مع العلم أنه كان منهم من هو مخصوص بالمحبة من شيخه. وهذا ربما دل على أن طريقته لم تتجاوز بعد مستواها الفكري.
- كان من بين هؤلاء المريدين من هو من كبار العلماء، أمثال : محمد بن سعيد المرغيثي، ويحيى الهشتوكي والطيب المسناوي وغيرهم.
- ندر من بين أتباع السوسي المعروف بهم في «**مباحث الأنوار**» من لم يكن متعلما.
- فعند هؤلاء الرجال الذين لم تجمعهم وحدة المجال والأصل، كانت الوحدة الفكرية والإجتماعية قائمة بينهم. فمن الناحية الإجتماعية، كانت حالة اليسر بادية على أكبر عدد منهم، أما من حيث ثقافتهم وتكوينهم العلمي فإن هؤلاء الرجال كانوا قادرين أكثر من غيرهم على فهم منطلقات دعوة شيخهم محمد السوسي التي ارتكزت أصولها على كثير من المجردات. وهذا ما جعلنا نرى في طريقة السوسي طريقة النخبة من الناس. ولكنها نخبة لها كثير من المؤهلات للتأثير في غيرها من العناصر البشرية.
- ومهما كان الأمر، فإن هؤلاء المريدين شكلوا أنوية للإشعاع، وأسهموا في التعريف بشيخهم، ولم تنقطع محبتهم له حتى بعد موته. فالعلاقة التي جمعتهم بشيخهم، والتي كانت تبدأ بالمجالسة، ثم الإعتقاد في مقام الشيخ وأخذ

«العهد» و«الصحبة»، كانت علاقة مبنية على المحبة التراتبية : فالشيخ مخصوص بالمحبة في رسول الله والمريد مخصوص بالمحبة في شيخه. فالعلاقة بين الشيخ وأتباعه ليست علاقة زبونية منفعية تتبخر وتنتهي بموت أحد الطرفين، بل إنها محبة أزلية.

كانت هذه العناصر البشرية التي اجتمعت حول محمد بن عبد الله السوسي ذات خصوصية. فهم رجال اشتركوا في العلم والصلاح وعبروا بسلوكهم عن حركة صوفية خالصة وصادقة في تصوفها. ومن الناحية العلمية، فلعل الجانب العلمي، ما أهلهم وأهل شيخهم لربط صلات ثقافية وروحية بصلحاء وأولياء آخرين وبكافة الفئات الاجتماعية. وكان خروج محمد بن عبد الله السوسي من المغرب إلى المشرق، يشير إلى البعد المكاني والزماني الذي أراد أن يعطيه لدعوته وطريقته التي سعى أن تكون في مستوى الكبار، إذ الخط الذي سلك يذكر بالخط نفسه الذي سلكه صوفية كبار قبله ـ أمثال الإمام الشاذلي وزروق ـ أما التطور الذي آلت إليه هذه الطائفة بعد موت شيخها محمد بن عبد الله السوسي فلا نكاد نعرف عنه شيئا، فالذين أمكن لهم من مريديه تأسيس زاوية واكتساب أتباع، لا ندري بالضبط هل كانت طريقتهم الصوفية امتدادا لطريقة شيخهم ؟

ثالثا : بنية متأزمة

ترجم أحمد الولالي لعدد من أفراد أسرته الذين سكنوا أعالي ملوية. فجاءت مناقبهم وكراماتهم عاكسة لمظاهر من البنية القبلية والاقتصادية والاجتماعية في تلك المنطقة من الأطلس المتوسط.

انتمت أسرة الولالي إلى قبيلة بني ولال، ومن خلال الإشارات الواردة حول هذه القبيلة وعلاقتها بالقبائل البربرية الأخرى بالمنطقة، أمكن أخذ فكرة عن البنية القبلية هناك. كانت قبيلة بني ولال تدعي نسبا مشتركا، فهي تنتسب إلى آيت عطا الصحراوية[256]. وفي أعالي ملوية نجد التقسيمات القبلية المعروفة في قبائل بربرية أخرى بمنطقة الأطلس المتوسط أو خارجه، فقبيلة الولالي تتكون من أفخاذ[257]، وقرى، ولا ندري هل كانت عندها مستويات أخرى من التنظيم.

(256) **مباحث الأنوار**، ص. 201.

(257) **المصدر نفسه**، ص. 270.

كانت القرية تتكون من منازل مجتمعة وتتوفر على مسجدها ورجالها القادرين على حمل السلاح[258]، كما كانت لها مجالسها التي تتداول في أمر دنياها[259]. وداخل القرية كان التضامن قائما بين أعضائها، بل إن ذلك التضامن كان ملحوظا على مستوى القبيلة كلها. فعندما عقد محمد بن يعقوب عهداً[260] مع أبي بكر الدلائي كان ذلك باسم قبيلتيهما، وبالتالي فإن أواصر التضامن التي كانت قائمة بين قبيلة بني ولال وقبيلة مجاط كانت موجودة أيضا بين بني ولال فيما بينها، كما أن الولي محمد بن يعقوب كان له إشعاع في وسط مجموع هذه القبيلة الولالية. وهكذا يظهر أن القرية التي كونت أدنى وحدة في التنظيم القبلي، أنها لم تكن تشكل في أعالي ملوية وحدة اقتصادية كما رأت فيها ذلك إحدى الدراسات[261]. فهي وحدة تنظيم وليست وحدة إنتاج. فالخلية الأساسية للإنتاج كانت هي الأسرة. ففي قرية الولالي عاشت أسرته في مسكن واحد تحت إدارة الأب، وكان الأبناء يشاركون في الأشغال اليومية من حرث وحصد. إلا أن دورة الأسرة الولالية كانت قصيرة، فهي لا تتعدى الجيل الواحد لتنشطر بموت الأب أو بزواج الأبناء. فقد تحدث أحمد الولالي عن عمه الذي كانت له تجارة وعبيد في حياة أبيه الذي كره له ذلك[262]، ومع ذلك لا ندري هل كانت أسرة الولالي حالة نموذجية في مجتمع بني ولال، لكنها تسمح لنا بالقول إن الأسرة التي تتكون من عدة إخوة وأبناء أعمام يشتركون في الإنتاج لم تكن هي وحدها السائدة في المجتمع القبلي[263]. أما التضامن فلم يكن متلاشيا بين أعضائها حتى في حالة انشطارها.

في هذه المنطقة المحصورة فيما بين أم الربيع والحوض الأعلى لوادي كيكو، وفيما بين منخفض تكَراكَرة وحوض ملوية العليا، وجدت قبائل كثيرة العدد قد انتمت إلى اتحادية آيت إدراسن، وهي قبائل بربرية صنهاجية شكلت قوة بشرية هائلة في تلك المرحلة، وفي تلك الجهة كانت قد استقرت منذ زمن قديم دون أن تعرف تحركا كبيرا[264]. إلا أنه ابتداء من القرن الحادي عشر الهجري غدت هذه القبائل

(258) **المصدر نفسه**، ص. 314.

(259) **المصدر نفسه**، ص. 209.

(260) **المصدر نفسه**، ص. 231.

(261) هـ. العلوي، مقدمة تحقيق **التقاط الدرر**، ص. 55.

(262) **مباحث الأنوار**، ص. 224.

(263) أ. التوفيق، **إينولتان**، ص. 128.

(264) راجع : ع. الفاسي، **الأقنوم في مبادئ العلوم**، مخطوط خ ع رقم 15د.

جد متحركة. هكذات بدأت قبائل تكبر وأخرى تتقلص، بل إن قبائل جديدة ظهرت وأخرى اختفت[265]. فمن خلال تنقل أسرة الولالي في المسكن ندرك حالة التحرك. فهذه الأسرة كثيرا ماأخرجت من قريتها التي عمرت بعد خروجها منها من لدن أقوام آخرين[266]. فإلى أي شيء يعزى هذا التحرك ؟

لا شك في أن التنقل العمودي بين أزغار وأعالي الجبال وكذا التعصب بين القبائل والفرق والقرى[267] عوامل كانت تدخل ضمن البنية القبلية لسكان هذه الجبال الأطلسية. ومن ثم فإن سبب التحرك والتنقل الذي عرفته القبائل في المرحلة التي اهتم بها النص، كان يتعلق بشيء آخر. إن خروج وارتحال قرية الولالي من مكانها كان بسبب ما وقع عليها من الظلم والعدوان[268]، فما لحقها كان له علاقة بما حدث في جهات أخرى خارج الجبل[269]. ذلك أن العداوة المستحكمة بين عرب معقل وآيت عطا جعل هذه الأخيرة تتوسع نحو الشمال والشرق بهدف اجتياز الممرات الأطلسية. وامتد مفعول هذا الزحف إلى نواحي ملوية العليا، فعندما ترجم الولالي لوالده ذكر أن قرية هذا الأخير، وهي موجودة بأعالي ملوية، تعرضت لهجوم وغارات قبائل آيت عطا التي كانت تمارس على تلك المنطقة ضغوطا مكثفة، ولا شك أن ذلك الهجوم لم يكن استثنائيا حيث يقول لنا الولالي متحدثا عن قبائل أيت عطا «فمن عادتها الحرابة»[270].

هكذا صارت قبائل الأطلس المتوسط ضحية الضغط الخارجي، لكنه غدا في نهاية القرن الحادي عشر الهجري ضغطا مزدوجا. فالقبائل البربرية بالأطلس المتوسط التي تلقت الضغط من الخلف حاولت أن تتقدم نحو السهل، لكن الدولة العلوية الصاعدة صدتها وأرجعتها إلى الجبل. وتجاه هذه التدخلات الآتية من الخارج والمهددة للتوازن المحلي ردت عليها القبائل البربرية بدفعة حربية وعنيفة.

---

(265) Berque, Al Youssi..., ..., p. 7.

(266) **مباحث الأنوار**، ص. 332 وما بعدها.

(267) **المصدر نفسه**، ص. 125.

(268) **المصدر نفسه**، ص. 124 وما بعدها.

(269) G. S. Colin, **Origines arabes des grands mouvements populations berbères dans le Moyen Atlas**, p. 265-268.

(270) **مباحث الأنوار**، ص. 175 و309.

إن الأطلس المتوسط الذي لم يلعب دورا سياسيا في تاريخ المغرب حتى القرن الحادي عشر الهجري كانت له أهمية اقتصادية كبرى ؛ فعبره كان يمر الطريق التجاري الرابط بين فاس وسجلماسة، وعلى أطرافه الشمالية طريق فاس ـ أغمات، ورغم قساوة الظروف الطبيعية به، فإن سكانه مارسوا الزراعة وتشبثوا بالرعي.

كان لسكان أعالي ملوية ارتباط بالزراعة. فهم قد امتهنوها قبل أن يحلوا بهذه الجهة. ذلك أن مصادر متأخرة أشارت إلى أن اليدراسنيين قد اشتغلوا بالزراعة والغرس بعدما انتقلوا من الصحراء واستقروا بضفاف وادي زيز وغريس[271]. أما عند استقرارهم بأعالي ملوية، فإن الزراعة شكلت جزءا من نشاطهم الفلاحي الذي عليه تعصبوا وتقاتلوا أحيانا[272]. كان العمل الزراعي يتم في إطار حوزات مجاورة للقرية أو بعيدة عنها[273]، وهي ذات نطاق مفتوح في الغالب[274]. أما التقنيات الزراعية فهي عتيقة تمثلت في الفأس والمحراث الخشبي والمنجل، في حين ظلت الطاقة البشرية هي المصدر الأساسي في الإنتاج : فالأسر التي يبدو عليها شيء من اليسر كانت تستعين بالخماسة واستخدام العبيد.

لم يكن الرعي في هذه المناطق الجبلية نشاطا أو مصدرا للعيش مكملا للزراعة. فهو رئيسي وأكثر أهمية من الزراعة. ونظرا لأهميته كانت القبائل تطلب مجالا واسعا للتنقل. فتنقلاتها لم تكن تقتصر على نجعة ضيقة[275]. كما كانت رؤوس الماشية تشكل الثروة الحقيقية[276] إلا أن مصادر الثروة لم تكن تقتصر على الماشية، فهي شملت أيضا ملكية الأراضي والمال والذهب.

كانت هذه الثروة أساس التفاوت الاجتماعي، فالمجتمع الذي انتمى إليه الولالي لم يكن مجتمعا على درجة تامة من المساواة، بل كان مجتمعا تفاوت أهله في الثروة تفاوتا نسبيا، إذ هو مجتمع عرف الملكية الخاصة. إلا أن أسباب امتلاك هذه الثروة وأسسها لم تكن مضمونة وثابتة، إذ كان الانزلاق من الغنى إلى الفقر سهلا[277]، خاصة إذا

---

(271) انظر ترجمة يوسف العياشي، أ. العياشي، **الإحياء والإنتعاش**، مصدر خ ع رقم 1433، ص. 7.

(272) **مباحث الأنوار**، ص. 263.

(273) **المصدر نفسه**، ص. 236 وما بعدها.

(274) **المصدر نفسه**، ص. 263.

(275) **المصدر والصفحة نفسهما.**

(276) **المصدر نفسه**، ص. 241.

(277) **المصدر والصفحة نفسهما.**

ما تعلقت هذه الثروة بالماشية. فالهرم الِاجتماعي في مجتمع القبائل ليس صلبا، اللهم ما كان من وضعية العبيد المقننة والتي لا تتغير إلا بالعتق الذي كان دائما ممكنا[278]. ومن الحق القول إن الثروة لم تكن وحدها هي سبب الترقي الِاجتماعي، بل كثيرا ما غدا المرابطون مالكين لجاه كبير في هذا المجتمع القروي.

وبالإضافة إلى ما ذكرناه فإن هنالك عاملا آخر كان يتحكم في الزراعة والرعي والثروة. وهو العامل الطبيعي من قحط ومجاعات وأوبئة. فالقحط كان له وقع كبير حتى على المناطق الجبلية لاعتمادها على المحصول الفلاحي. والماء كان هو المحدد للكميات المنتجة، وكل نقص فيه بسبب انحباس المطر أو تأخره في النزول[279]، كان يؤدي إلى النقص في التغذية والمساس بصحة الإنسان وأمنه. ذلك أن الِاضطرابات الِاجتماعية المتمثلة في السرقة والعنف وقطع الطرق، التي أشار إليها النص، اقترنت في غالب الأحيان بوقت المجاعة والغلاء. وبمعنى آخر فإن القحط كان يذهب بالبشر والحيوان والثروة. ومن هنا نرى أن الوسط الجبلي عانى هو الآخر من نقص في الماء والغذاء ومن مصائب الوباء[280].

التقت إشارات متن «**مباحث الأنوار**» بما جاء عند الإخباريين عن سنوات من الجفاف والمجاعة والوباء. فوفاة محمد بن يعقوب كانت بطاعون عام 1005هـ ـ 1007هـ، ومحمد بن محمد بن يعقوب عام 1071هـ/ 1660م، ومحمد بن مسعود المراكشي مات بطاعون عام 1090هـ/ 1679م وهي سنة وفاة علي بن عبد الرحمن الدرعي. فهذه كلها سنوات تشير إلى الأزمات الخطيرة التي عرفها المغرب، وإن الوفاة بسبب المجاعة والأوبئة لم تقتصر على هؤلاء الأربعة من المترجم لهم بل إن عدداً آخر منهم مات أيام المسغبة التي مست المدن والبوادي على السواء. وفي سياق حديث الولالي عنهم يظهر أن الجفاف والقحط والغلاء والمجاعة كانت تمهد الطريق للوباء. فهذا الأخير في ارتباط مع كل ذلك وعاقبة له. وقد أشرنا سابقاً إلى أن المناطق الجبلية لم تنج منه، إلا أنه كان يظهر في المناطق السهلية قبل أن يدخل المناطق الجبلية. فعندما زار أبو بكر الدلائي شيخه القسطلي بمدينة مراكش كان الوباء قد انتشر بهذه المدينة، بينما لم تكن المنطقة الجبلية قد شهدته. كما يستفاد أن الوباء كان

(278) المصدر نفسه، ص. 295.

(279) المصدر نفسه، ص. 298.

(280) المصدر نفسه، ص. 295.

شديدا بالمناطق السهلية والساحلية، فالولالي يذكر أن جماعة من قبيلة بالجبل نزلوا إلى السواحل فماتوا جميعا[281].

كان بعض الناس يظنون أن سبب هذا الوباء «رجس يصاب به الإنسان على يد الجن»[282]، وكان آخرون يرون أنه آت من : «فساد المزاج من فساد الهواء وخبثه»[283]. لكن دورة الطاعون كانت معروفة جيدا[284]، وأن الإرتحال إلى المناطق الجافة كان هو الوقاية[285]. إلا أن مواقف الناس تجاه هذا الإرتحال لم تكن واحدة، إذ كثيرا ما خرج الناس فارين منه، بينما كانت مواقف عدد منهم قائمة على فهم خاص ومحدود للسنة[286]، فعندما أصاب الوباء محمد بن يعقوب «مكث صابرا محتسبا»[287]، وكان يريد من ذلك أن يساعد الناس أخلاقيا على الصبر أمام هول تلك الكارثة.

كان لهذه الأزمات انعكاس على المجتمع القبلي الذي عاشت داخله أسرة الولالي، فلا غرابة أن نجد اللصوصية والعنف والإنتقام[288] والإقتتال بين القبائل، كل ذلك يزداد إبان المجاعات والقحط[289]، بل إن ذلك كان سببا حتى في هجرة القبائل[290]. إن المجتمع القبلي في أوقات المجاعة شهد الكثير من العنف، لكنه كان عنفا مؤقتا ويدخل ضمن البنية العامة لقبائل الأطلس المتوسط الذي كان الإنتاج به قليلا. فمن أجل البقاء والحفاظ على التوازنات تعصب الناس وتنافسوا[291] ودخلوا في تحالفات واتفاقيات لتقاسم المجال والمنافع.

(281) المصدر نفسه، ص. 262.

(282) المصدر نفسه، ص. 268.

(283) المصدر والصفحة نفسهما.

(284) Rosenberger et Triki, «Famines et épidémies au Maroc au 16°-17° siècles» ?, H.T., vol. 15, 1974. p. 42-44.

(285) مباحث الأنوار، ص. 266.

(286) .Rosenberger et Triki, «Famines et épidémies...», p. 45

(287) مباحث الأنوار، ص. 266.

(288) المصدر نفسه، ص. 192.

(289) المصدر نفسه، ص. 128.

(290) المصدر نفسه، ص. 245.

(291) المصدر نفسه، ص. 127.

رابعا : عناصر الحياة الدينية

أبرزنا في فقرة سابقة المميزات المشتركة للمترجم لهم، إذ شكلوا فئة اجتماعية متميزة بسلوكها وتكوينها، ولها تأثير على كافة الفئات الإجتماعية، وما نستخرجه من إشارات ومعلومات، ضمنية أو صريحة، من متن «**مباحث الأنوار**»، يسمح برؤيتها كفئة اجتماعية نالت بسبب ما لعبته من أدوار متنوعة كثيرا من التقديس والتبجيل. وإن بمناقشة هذه المعلومات المستخرجة من كتاب «**مباحث الأنوار**» على ضوء مصادر أخرى، نقف على تنوع هذا التبجيل، وعلى جملة من التنظيمات التي اقتضاها التخصص في الحياة الدينية، وكذا الوظائف التي استجابت لها هذه المقدسات.

أ ـ المقدسات

لامست معلومات «**مباحث الأنوار**» المجتمع القروي والحضري معا، ومن خلال تلك المعلومات اتضح أن المدينة لم تكن وحدها متشبثة بالعقيدة الإسلامية. فحتى المناطق البعيدة عن الحواضر والتي سكنتها قبائل بربرية أو عربية[292]، لم تعد غارقة في عبادات وثنية أو ذات مصادر أخرى سابقة للإسلام[293]. فالتوحيد كان منطلق العبادة في المدينة والبادية. كما أن شعائر الإسلام تغلغلت عند الناس حتى في الجبال ذات الظروف الطبيعية القاسية. ويمكن أن نجد مناطق أقل تدينا كالتي ساد فيها الترحال في الصحراء[294]، ولكن ذلك لا يعني أنها لم تكن عارفة بالدين الإسلامي، وإنما أسلوب عيشها جعل أسباب التشبث بشعائر هذا الدين أمرا صعبا.

إن التشبث بالدين الإسلامي كان عاما عند المغاربة في هذا العهد، ولكن هذا لا ينفي أن الناس، سواء في المدينة أم البادية، كانوا متعلقين بعدد من الممارسات. فالاعتقاد في وجود «بركة» عند شيخ، أو في أرواح غير مرئية، أو في أعمال عجيبة كالسحر هو اعتقاد تساوى فيه عالم من فاس كأحمد اليمني[295] أو عامي أمي من أعالي ملوية[296].

(292) المصدر نفسه، ص. 230.
(293) المصدر نفسه، ص. 312.
(294) المصدر نفسه، ص. 206.
(295) المصدر نفسه، ص. 375.
(296) المصدر نفسه، ص. 292.

1 ـ تبجيل الأشخاص :

لم يكن التفاف الناس حول المدركين من البشر، الذين اختلفت تسميتهم في النص بين شيخ وولي وقطب وعارف، خاصا بمجتمع البادية كما رأى ذلك كَلنير[297]. فالإيمان بقدرة أشخاص من البشر على الإستجابة لمجموعة من المشاغل النابعة من وسطهم الإجتماعي، جعل الناس يتعلقون بمن اشتهر صلاحه من هؤلاء المدركين سواء في المدينة، أو في مناطق قروية نائية جدا كالصحراء والسودان[298].

فالمدينة التي ابتعدت نسبيا عن البنيات البدوية ـ إذ ظلت لمدة طويلة إسقاطا للنظام القبلي[299] ـ صار لها أجهزة لضبط الإستقرار، لكن هذا الإستقرار كثيرا ما هددته الفوضى في هذه المرحلة. فالمدينة كانت تنتج نفس العلاقات الموجودة في البادية. ففي مدينة فاس التي كان لها عمالها، كثيرا ما كانت أحياؤها تقتتل فيما بينها، بل إنها تعرضت مرارا لهجوم القبائل المجاورة[300] لها خاصة في أوقات المجاعة. وهكذا يظهر أن مصادر خوف المدينة وإن كانت خارجية أحيانا، فإن هذه المدينة نفسها كانت تنتج هذا الخوف بسبب حروبها الداخلية. فالمحافظة على تقليد العنف داخل المدينة جعل سكانها يعيشون في قلق وخوف دائمين.

هكذا سواء في المدينة أم البادية كانت الحاجة عظيمة إلى مثل هؤلاء الرجال الصلحاء الذين وجدوا بكثرة في المجتمعين معا. ولا شك أن دور الولي كان نابعا من حاجات وخصوصية كل من الوسطين ومتكيفا معه، ولكن الحاجة إليه في الوسط القروي أكثر إلحاحا من المدينة. ففي البادية، وخاصة في الظروف التي يسوقها النص : ظروف الإضطراب والقصور في السلطة الزمنية، كان الصالح مقصودا في ذاته، يتقي الناس عقابه وسخطه، ويحتاجون إلى بركته وكراماته[301].

---

(297) راجع : مقال إرنست كلنير، «السلطة السياسية والوظائف الدينية في البوادي المغربية»، مترجم، **مجلة كلية الآداب** بالرباط، عدد 11.

(298) **مباحث الأنوار**، ص. 230 وما بعدها.

(299) م. مفتاح، **التيار الصوفي**، ج 1، ص. 94.

(300) م. القادري، **نشر المثاني**، ج 2، ص. 64.

(301) أ. التوفيق، **إينولتان**، ج 2، ص. 78. كما يدرك ذلك من مضامين كرامات محمد بن يعقوب، انظر ترجمته في نص **مباحث الأنوار** ابتداء من ص. 212.

كانت الحاجة إلى مثل هذه الكرامات محسوسة حتى في المدينة. وبما أن مشاغل الناس اختلفت حسب الوسطين، فإن مضامين هذه الكرامات التي ساقها الولالي، جاءت عاكسةَ تنوع هذه الإنشغالات. فمضمون كرامات أحمد اليمني الذي استقر بمدينة فاس، تعلق أساسا بالتفاوت الإجتماعي، وبمشاكل حضارية ومدنية، بينما كرامات محمد بن يعقوب الولالي الذي عاش في وسط قروي فلاحي، تظهر أن الناس في البادية كانوا يعانون الخوف من القوة الطبيعية ومن القوات الخفية الشريرة. ومع ذلك، كانت كثير من الهموم مشتركة بين الوسطين. فالمدينة نفسها عانت من نفس مشاكل البادية، أو كان لمشاكل البادية انعكاس عليها. لقد تعلقت معظم كرامات «**مباحث الأنوار**» بالمجتمع الفلاحي الذي انتابته الكوارث الطبيعية كالجفاف والمجاعات والأوبئة، لكن الناس حتى في المدينة قصدوا الأولياء لطلب الإستسقاء[302].

تميزت علاقات الناس بهؤلاء الصلحاء بالإحترام والتبجيل والتقدير، إلا أن هذا التبجيل لم يكن أمرا متفقا عليه من لدن الجميع، فلقد وجد من العلماء من أنكر تقديس الأولياء[303]، أو لم يعتقد في تنبؤاتهم[304].

لم يقصد الناس في حاجاتهم الأولياء الأحياء فحسب، إذ نرى أن بعض الأمكنة صار مقدسا مزارا في مناسبات خاصة أو طارئة. وكانت هذه الأمكنة أضرحة أولياء معروفين أو مجهولين، وكان لعدد منها، كضريح مولاي إدريس وأبي يعزى وابن مشيش، شهرة كبيرة، وقصدها الناس من مناطق متباعدة[305].

اشترك في زيارة الأضرحة العالم والعامي. إن عالما شهيرا كالحسن اليوسي قصد ضريح يحيى بن يوسف[306] كما زار ضريح عبد السلام بن مشيش[307]. وكانت هذه الزيارات أو شد الرحال من قبل جماعات أو أفراد من الناس إلى من اشتهر مرقده، إما لغرض الإستشفاء أو قضاء حاجات. ولهذا صارت الأضرحة أماكن مقصودة ومحترمة، تظهر بركة صاحبها في الإستجابة للطلب وفيما يمكن أن يحصل للمتهاون بحرمتها من مكروه[308].

(302) م. القادري، نشر، ص. 292–293.

(303) مباحث الأنوار، ص. 67.

(304) المصدر نفسه، ص. 281.

(305) المصدر نفسه، ص. 209.

(306) المصدر نفسه، ص. 210.

(307) Berque, Al Youssi..., ..., p. 80-90.

(308) مباحث الأنوار، ص. 334.

هكذا بجل الناس الأولياء الأحياء أو الأموات منهم، لكنه يصعب أن نميز من بجله الناس لصلاحه أو لعلمه. فالصلاح غالبا ما اختلط بالعلم في هذه الفئة من الرجال التي ترجم لها الولالي. ومع ذلك نرى أن الذين اشتهروا بعلمهم كاليوسي وعبد القادر الفاسي، كانوا مبجلين ومحترمين، لا من قبل تلامذتهم فحسب، ولكن أيضا من قبل أولي الأمر في البلاد وأهل الصلاح والولاية أنفسهم[309]، وبالأحرى عامة الناس. قد يصح القول إن أهمية العالم تبرز في المدينة أكثر من البادية، وربما كان ذلك مفسرا لاستقرار كثير من علماء البادية بالمدينة، ولكن احترامه أو الحاجة إليه كانت مطلوبة حتى في البادية. وفي المجتمعين معا لا نعتقد أن الصلاح والعلم كانا دائما منفصلين، ففي حالة عالم كاليوسي وعبد القادر الفاسي، لا ندري أي جانب كان معاصروهما يشخصونه فيهما أكثر، فقد توفيا وعليهما أمارة الصلاح والولاية. أما البركة التي نسبت للأولياء والصلحاء فهي قد أعطيت أيضا وباتفاق هؤلاء الأولياء للشرفاء[310] ولو لم يكونوا بالضرورة صلحاء، ولذلك كانوا مميزين عن عامة الناس وبعض خاصتهم من العلماء ومقدمين عليهم في التظاهرات الإجتماعية.

2 ـ اعتقاد في الأرواح :

كان الجان من بين ما اعتقده الناس من كائنات غير بشرية. فهم يعتقدون بأنها تطرق أماكن خاصة، مثل منابع المياه وأماكن الوضوء أو الإستحمام. وأنها تكون سببا في ما يصيب الناس من أذى، فهي دائمة التربص بهم، خاصة في حالة ضعفهم أو اضطرابهم[311]. فكل الأمراض والأوبئة التي كانت خبرة الناس العقلية قاصرة على فهم أسبابها كانت تعزى للجن[312].

مثل الجان في اعتقاد كثير من الناس القوة الشريرة التي لا تفلح في محاربتها إلا قوة مضادة وقاهرة. وقد أوكلت هذه القوة إلى نوع خاص من البشر، إذ وجد من الناس من أقرأ الجن أو شاهدهم وهم يطرقون أماكن معينة[313]، ومنهم من كانت له قدرة على التحكم فيهم. وفي «**مباحث الأنوار**» نجد أصنافا من هؤلاء البشر الذين

(309) المصدر نفسه، ص. 307-326.
(310) المصدر نفسه، ص. 85.
(311) أ. التوفيق، إينولتان، ص. 77.
(312) مباحث الأنوار، ص. 267.
(313) المصدر نفسه، ص. 215.

قصدهم الناس للإستشفاء من أمراضهم التي ظنوا أن سببها الجن. وكانت وسائل علاجهم لها تتم بما يقدمونه للزائر من حروز وتمائم. وكثيرا ما كان شفاء المريض سببا في تصديق هذه الوقائع، ففي حالة محمد بن يعقوب الذي قصد الشيخ أحمد بن علي[314] للإستشفاء مما أصابه، ما يشهد بما لهذا الشيخ من قوة وقدرة على قهر هذه الأرواح الشريرة.

ب ـ الخريطة الدينية :

لا نطمح إلى استخراج خريطة شاملة لكل العناصر الدينية، ولكن ما يمكن أن يسهم في بناء الخريطة الدينية للبلاد في هذه المرحلة. فما يتضمنه متن **مباحث الأنوار** من إشارات يظهر أن الناس في البادية والمدينة قصدوا أماكن خاصة للعبادة أو الدعاء وهي : المساجد والأضرحة والزوايا.

كانت المساجد موجودة في المدينة والبادية على السواء. وهي في المدينة معروفة ومتميزة ببنائها الضخم وهندسة معمارها وبخصوصية موضعها، كمسجد المواسين بمراكش[315] والمسجد الأعظم بمدينة الدلاء[316]. أما في البادية فكانت المساجد موجودة حتى في المناطق الجبلية البعيدة عن المدن وفي القرى الصغيرة.

لم تختلف وظائف مساجد المدن عن مساجد القرى، إلا بعدد ونوعية من يغشاها للصلاة أو التثقيف. فنوع الوظائف يبقى تقريبا نفسه. فبإزاء المسجد كان يوجد مكان خاص لتعليم الأطفال الكتابة والقراءة وتحفيظهم **القرآن الكريم**. وكان لكل مسجد من يقوم بوظيفة الخطابة والإمامة والآذان. ففي مسجد قرية أحمد الولالي كان أبوه محمد يتولى إمامة مسجد قريته احتسابا[317]. ونحن لا نعرف هل كانت لمساجد باقي القرى موارد حبسية أو غيرها تنفق منها على من يتولى هذه المهام، ولكن وجود مدرر بقرية الولالي انحصت مهامه في الآذان وإقراء الصبيان تطلب إنفاقا عليه، فهل تم ذلك بواسطة مساهمات الجماعة ؟

في قرية الولالي لم يكن المسجد معدا للصلاة والتعليم فقط، فهو شكل كذلك

---

(314) المصدر نفسه، ص. 217.

(315) المصدر نفسه، ص. 148.

(316) المصدر نفسه، ص. 231.

(317) المصدر نفسه، ص. 295.

مكانا يجتمع فيه رجال القرية لمداولة أمور دنياهم(318) ولا نظن أن مساجد المدينة اختلفت كثيرا عن مساجد البادية في هذه النقطة، إلا أن مساجد المدينة الكبرى يظهر أن أئمتها كانوا من العلماء الكبار في عصرهم. ففي مراكش كان العالم الكبير محمد بن سعيد المرغيثي يتولى إمامة مسجد المواسين ويعقد به حلقات دراسية(319).

لم تخل مدينة أو قرية من وجود ضريح ولي أو أكثر من ضريح. ومع ذلك نرى أن بعض المواقع غدا مجمعا لأضرحة الصلحاء. فحول ضريح سيدي يحيى بن يوسف بأعالي ملوية تجمع كثير من الأضرحة(320). وإن أسباب هذا التجمع غير واضحة، ولكننا ندرك من خلال هجر يعقوب الولالي لحياة الترحال والصحراء، أن هذه الجبال كانت توفر ظروفا أنسب للنشاط الروحي، فهي أكثر أمنا وربما كان سكانها أقوى انسجاما وسماعا للوعظ والإرشاد، أو أن حياة نصف الترحال كان ينتج عنها مشاكل تطلب الفصل فيها وجود الأولياء بتلك الكثافة.

ومهما كانت أسباب تجمع هذه الأضرحة في تلك المنطقة الجبلية، فإن مثل هذا التجمع لوحظ في مناطق أخرى غير جبلية، إذ في بلاد حاحة تجمع رجال رَكَراكَة(321)، وفي مدينة مراكش وجد الرجال السبعة. فالأمر إذا لا يقتصر على منطقة جبلية وصنهاجية.

أما الزوايا فكانت موجودة أيضا بالمدينة والبادية على السواء، وقد تعددت خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين حتى صار عددها يفوق عدد المساجد(322).

كانت هذه الزوايا ممثلة لجميع الطرق الصوفية الكبرى المعروفة بالمغرب في القرن الحادي عشر الهجري. وكان البعض منها لا زال في طور النشأة، والبعض الآخر كان يعرف مرحلة النشاط والتحول. ففي فاس نجد زاوية عائلة معن بالمخفية التي أسسها محمد معن الأندلسي(323) المتوفى عام 1062هـ/ 1652م، وزاوية عائلة

---

(318) **المصدر نفسه**، ص. 319.

(319) **المصدر نفسه**، ص. 148.

(320) **المصدر نفسه**، ص. 207.

(321) **المصدر نفسه**، ص. 46 وهامش رقم 60 من النص المحقق.

(322) م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 56.

(323) **مباحث الأنوار**، ص. 361.

الفاسيين بالقلقليين التي أسسها سنة 1027هـ/ 1617م يوسف الفاسي[324]. وفي البادية كانت الإشارة إلى الزاوية الناصرية التي تشق الطريق نحو الإشعاع وتأسيس الفروع، بينما نجد الزاوية الدلائية قد بلغت شأوا كبيرا مع محمد بن أبي بكر الدلائي وتطورا جديدا مع ابنه محمد الحاج.

كان شيوخ هذه الزوايا رجال علم ودين متين، رجال وساطة وتعليم وقد أشار نص «**مباحث الأنوار**» إلى عدد منهم إشارة خفيفة، بينما توسع في الحديث عن رجال الدلاء وزاويتهم والأدوار التي لعبتها. وبما أن أدوار الزوايا هي أدوار رجالها، فقد عملنا على إدراجها في باب لاحق مكتفين هنا بالإشارة إلى ما يتعلق بتأسيس هذه الزاوية وملمحين إلى وظائفها.

كان تأسيس الزاوية الدلائية من قبل أبي بكر الدلائي حوالي 974هـ[325]. ويظهر أن شيخه أبا عمرو القسطلي هو الذي أشار عليه بتأسيس الزاوية بالدلاء وأمره بإطعام الطعام بها. فالمصادر التي ترجمت لأبي بكر الدلائي أشارت إلى أن تردده على أبي عمرو القسطلي كان في حدود 965هـ[326]. ومعنى هذا أن تأسيس الزاوية الدلائية اقترن بنشأة الدولة السعدية، وأن نموها وازدهارها كان في حضن المخزن السعدي الذي بقيت تابعة له ولم يظهر جنوحها إلى الاستقلال والسياسة إلا بعد أن لم يبق لهذا المخزن من سلطة سوى الإسم. ولكن، ألا يمكن القول إن عوامل هذا الاستقلال كانت تنمو وتتراكم تحت رعاية هذه السلطة نفسها ؟

كانت منطلقات هذه الزاوية دينية واجتماعية بالأساس، إذ كان أبو بكر وابنه محمد شغوفين بعلم الظاهر مثل شغفهما بعلم الباطن، فالزاوية التي اعتبرت مركزا دينيا صارت أيضا مركزا علميا مرموقا ومقصودا من مختلف جهات البلاد[327]، بل إن الكرم[328] شكل أحد عناصر أصالة هذه الزاوية. ولم يكن تراكم ثرواتها وليد وظائفها، ومع ذلك فإن النفوذ الروحي[329] اجتذب الهيبة والبركة والزيارات والهدايا التي زادت ثرواتها ازدهارا وتوسعا.

(324) **المصدر نفسه**، ص. 368، 370 وهامش رقم 343.

(325) م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 30.

(326) م. الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص. 129.

(327) أ. الولالي، **مباحث الأنوار**، ص. 340.

(328) **المصدر نفسه**، ص. 339.

(329) **المصدر والصفحة نفسهما**.

ج ـ وظائف المقدسات :

إن كل ما بجله الناس في البادية والمدينة كانت له وظيفة دينية واجتماعية وسياسية :

1 ـ الوظيفة الدينية :

لم تختلف كثيرا الوظيفة الدينية للصوفي الآخذ بالسنة عن العالم. فمن خلال متن «**مباحث الأنوار**» نرى أن الرجال الذين اشتركوا في العلم والصلاح قد اشتركوا أيضا في وظيفة الإرشاد الديني والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ففي أعالي ملوية كان الولي محمد بن يعقوب يقوم بالدور الوعظي نفسه الذي قام به عبد القادر الفاسي بمدينة فاس. فالوظيفة الدينية للصوفي في البادية لا تختلف كثيرا عن وظيفة العالم الصالح في المدينة، إلا أنه يحق القول إن ممارسة هذه الوظيفة في المدن كانت أيسر منها في البادية. ذلك أن سكان المدن ربما كانوا أكثر معرفة وفهما ومراعاة للتعاليم الدينية، بينما كانت شروط هذه المعرفة غير متوفرة لعامة الناس في البوادي.

ففي المدينة اتصل الناس بالعلماء والصلحاء في أمر دينهم ودنياهم[330]. وفي البادية كان للصلحاء فضل كبير في محاربة البدع والشوائب التي لا أساس لها في السنة. ففي ملوية العليا قام محمد بن يعقوب الولالي وابنه محمد بمهمة تسنين الجمهور المسلم والهامشي. فحاربا عوائد فاسدة في النكاح[331]، وحببا للناس العلم[332].

هكذا تساوى العالم والمتصوف السني في وظيفة الوعظ سواء كانا في المدينة أم البادية. وما أشارت إليه إحدى الدراسات[333] من كون الأولياء كانوا في وسط القبيلة عوضا عن علماء الإسلام الشرعي، يجعلنا نتساءل إن كان للناس في البادية إسلام شرعي وآخر غير شرعي. ونحن نعتقد أن الإسلام كما يفهمه الفقهاء والصلحاء ـ وهو الإسلام الذي يراعي حدود الشرع، الذي مثله العالم والصالح على حد سواء ـ هو الذي كان عند الناس في البادية وفي المجال نفسه الذي اهتمت به تلك الدراسة.

---

(330) المصدر نفسه، ص. 353.

(331) المصدر نفسه، ص. 221، 222.

(332) المصدر والصفحة نفسهما.

(333) Drouin, **Un cycle oral hagiographique dans le Moyen Atlas**, p. 148.

والحقيقة أنه وجد تداخل بين عمل العالم والصالح، وفي هذه النقطة نتفق مع تلك الدراسة، لكن عملهما لم يكن هو نشر الإسلام[334]، فالناس في جبال ملوية كما أشار «**مباحث الأنوار**» خرجوا لصلاة الصبح[335] وغيرها من أوقات الصلاة.

فمن أجل محاربة البدعة وكل الممارسات التي لا أصل لها في السنة، قامت دعوة دينية في البادية قادها رجال العلم والصلاح، أمثال محمد بن يعقوب، ومحمد بن أبي بكر الدلائي، ومحمد بن ناصر. وهم ممن كان لهم أصل في الطريقة وتعاليم مطابقة للسنة، لكن وجود طرق صوفية بالبادية أو القرية لا يعني أن سكان القرية أو القبيلة كانوا كلهم طرقيين، فمن دعوة وعمل محمد بن يعقوب لا نجد إشارة إلى دعوة الناس لأخذ الطريقة، بل وجد من أبنائه من لم ينتم إلى طريقته، فالطرق ليست مغلقة ولا مستحوذة.

إن العلماء والأولياء قد اشتركوا في وظيفة إرشاد الناس ودعوتهم إلى التعلق بالسنة، كما اشتركوا في إبداء النصيحة للأمير، فمحمد بن عبد الله السوسي لم يخرج من المغرب حتى وعظ الأمير محمد الحاج الدلائي[336]، وعبد القادر الفاسي كان لا يتوان في إبداء النصيحة للسلطان مولاي إسماعيل[337]. وبالرغم من أدوارهم المشتركة هذه قد يبدو تمايز واضح بين هؤلاء الرجال المشتغلين بالعلم والصلاح. فمن علت كفة علمه على صلاحه كان يجتهد في الدين تفسيرا وتدريسا، ومن علت كفة صلاحه على علمه كان يجتهد في العبادة أكثر من غيره.

2 ـ الوظيفة الإجتماعية :

كانت الأضرحة المزارة من قبل عامة الناس وخاصتهم، محل استشفاء من أمراضهم وأمراض مواشيهم، ومحل حماية واحتماء من غدر الغادرين[338]، وملجأ لقضاء حاجات وتيسير أمور، يلجأ الناس إليها لأداء اليمين[339] ولا ترتكب بإزائها المناكر والفواحش.

---

(334) .Un cycle oral..., p. 149
(335) مباحث الأنوار، ص. 312.
(336) المصدر نفسه، ص. 115 وما بعدها.
(337) المصدر نفسه، ص. 370 وما بعدها.
(338) المصدر نفسه، ص. 325.
(339) المصدر نفسه، ص. 333.

أما وظائف الزوايا فقد تعددت، فمن خلال إشارات الولالي فهي قد شكلت مراكز ثقافية كبرى في المدن والقرى. ففي مدينة فاس انتقل التعليم من القرويين إلى الزاوية الفاسية وزاوية المخفية، وفي البادية ظهرت الزاوية الناصرية والدلائية كمركزين ثقافيين كبيرين ومتميزين. كما كانت هذه الزوايا مكان تجمع الرجال وتراكم الثروة وإعادة توزيعها.

لا تختلف أدوار الزوايا بالمدن عن أدوارها بالبادية، وهي عامة قد تدرك من خلال أدوار رجالها، وفي متن «**مباحث الأنوار**» ما يسعفنا في إبراز دور زاوية الدلاء أكثر من غيرها من الزوايا بالمغرب.

كان أبو بكر الدلائي وخلفه محمد بن أبي بكر من كبار العلماء بالمغرب. اضطلعا بالتدريس في زاويتهما التي حج إليها العلماء للتدريس والطلبة للأخذ والفقراء للمجاورة. ولعل في المكانة العلمية لهذين الشيخين وكرمهما ما جعل هذه الزاوية تحتل درجة مرموقة في عصرها وذكرى عظيمة في ما بعده. ففي مجتمع يعيش اقتصاد القلة، تنتابه المجاعات الدورية، كانت زاوية الدلاء تحاول بما توزعه من طعام، أن تلطف من حدة التقلبات المناخية، ومن اختلال في التوازنات الاجتماعية. ومع ذلك، فهو وظيف مارسته في كل الأوقات، وليس مشروطا بأوقات الأزمات والاضطرابات، بل عد وظيفة ملازمة للزاوية يكون الإخلال بها إخلالا بأحد أركان الصلاح.

لم تكن وظيفة إطعام الطعام، كما هو شأن نشر العلم، خاصة بالزاوية الدلائية، بل شاركها هذا العمل كثير من الزوايا المعاصرة لها. ففي زاوية المخفية كان أحمد معن الأندلسي يطعم الناس مما رزقه الله[340]، بل إن محمد بن يعقوب الولالي الذي لم يقم زاوية «كان أكثر إطعاما ممن اشتهر بالزاوية»[341]. إلا أن هذه الوظيفة أخذت معلما خاصا عند زاوية الدلاء[342]. فهي تعود إلى ما قبل تأسيس زاويتهم بالدلاء. وكان أبو بكر الدلائي أكثر محبة لها، حتى كان ينفق ثروته الواسعة في إكرام الوافدين على زاويته. فما رواه أحمد الولالي في هذه النقطة يشهد على أن أبا بكر عرف بكرمه في حياة أبيه وقبل أن يأمره شيخه أبو عمرو القسطلي بإنشاء الزاوية والإطعام بها[343]. أما محمد

(340) **المصدر نفسه**، ص. 364.

(341) **المصدر نفسه**، ص. 285 وما بعدها.

(342) **المصدر نفسه**، ص. 339.

(343) م. حجي، **الزاوية الدلائية**، صص. 45–46.

بن أبي بكر فقد اقتفى سير أبيه في هذا المجال. فإطعام الطعام بالزاوية الدلائية وظيف لم ينقطع حتى عندما صار شيخها محمد الحاج الدلائي أميرا.

كانت هذه الزاوية محكمة صلح في الغالب، تنظر في الصراعات والخلافات التي حدثت بين الأفراد والجماعات والقبائل الموجودة حولها. وهي كلما كانت قوية أمكنها أن تلعب هذا الدور القضائي الهام، إلا أنه كان يحدث أن تنتهك حرمة هذه الزاوية وحرمة رجالها وقاطنيها(344).

كانت ثروة الزاوية الدلائية ثروة تليدة، ولا ندري هل توصلت من المخزن السعدي بإقطاعات وهبات. فالخدمات التي قامت بها تطلبت مكافآت. وهذا ما يجعلنا لا نستبعد أن الزاوية توصلت بهدايا وزيارات مجازاة لها عن التحكيم ونشر العلم. وهذه موارد طبيعية لا نعتقد أنها شكلت في حالة زاوية الدلاء القاعدة الأساسية لتسيير شؤونها. فالزاوية كانت لها قاعدة مادية تمثلت في امتلاكها أملاكا واسعة، إلا أن استثمارها بخدمات مجانية مع ما حصلت عليه من هدايا وزيارات ساهم في تراكم وتعاظم ثروتها المادية.

يصعب في الواقع أن نفرق بين دور الزاوية ودور الولي أو الشيخ الصوفي من حيث الوظيفة الاجتماعية، لكن بما أن الولي يمارس أدواره الاجتماعية في محيطه دون أن يؤسس زاوية، فإنه يجدر الحديث عن وظيفة الأولياء الاجتماعية تبعا لخصوصية مجال نشاطهم.

كان الكلام في كتاب «**مباحث الأنوار**» عن رجال من مجتمع البادية كالدلائيين والولاليين، ومن مجتمع المدينة كأفراد الأسرة الفاسية والمعانية، ومن خلال الإشارات التي تعلقت بهؤلاء الرجال أمكنت الإطلالة على عالم البادية والمدينة. فهؤلاء الرجال شخصيات صوفية وعلمية ونموذج للصلحاء الذين كانوا مطلوبين ومرغوبين فيهم داخل مجتمعهم، لهم النفوذ الديني والمعنوي وليسوا بمعزل عن الحياة الاجتماعية للسكان. ظهر دورهم كحراس للبنيات الداخلية للقبائل والمدن، وكانوا أشخاصا مهابين انتدبوا للصلح والتحكيم معوضين للغياب المخزني أو النقص في حضوره أو عجزه(345)، وهم أصحاب «بركة» قصدهم الناس في مآرب عديدة.

---

(344) **مباحث الأنوار**، ص. 258.

(345) أ. التوفيق، **إينولتان**، ج 2، ص. 92.

يكمن إسهام «**مباحث الأنوار**» في الإطلالة على الوظيفة الإجتماعية للأولياء في المجتمعين معا، ولكنه إسهام يظهر بالأساس في التعريف بهذه الوظيفة داخل المجتمع القروي. ففي هذا المجتمع كان للولي بروز على المستوى المحلي وآخر على المستوى الإقليمي.

لا شك في أن الأولياء كانوا عناصر بارزة في مجتمعهم القبلي. وكانت إشارة النص خفيفة إلى الثنائية التي تقاسمت النفوذ داخل القبيلة أو القرية، ونعني بها وجود الشيوخ الدينيين إلى جانب الشيوخ الزمنيين[346]، ومع ذلك نرى تدخل الأولياء في حياة الجماعة أكثر بروزا. ظهر ذلك عندما تدخلوا على مستوى قريتهم وقبيلتهم، وكان ذلك هو المستوى الأصغر لتدخلهم، أما المستوى الأكبر فهو الذي مارسوه على صعيد مجموعة من القبائل البربرية. وهو ما يوضحه دور شيوخ الزاوية الدلائية ومرابطي الأسرة الولالية.

كان دور مرابطي الأسرة الولالية، وهم من مريدي شيوخ الدلاء، يقع أساسا على المستوى الأصغر للتدخل، فنفوذهم تجلى على الخصوص في قريتهم وقبيلتهم. ففي قريته كان الولي محمد بن يعقوب، وابنه محمد من بعده، ضامنا لحياة الإستقرار والأمن، دافع عن قريته ضد الخرق الأجنبي لها، وزجر اللصوص والظالمين[347]. وفي هذا الوسط القروي الذي كان يعاني من قصور وخصاص في كل شيء شغل كذلك وظيفة الطبيب والقاضي والمرشد الديني والإجتماعي والمكاشف والحامي من الشر كيفما كان مصدره[348].

استجابت وارتبطت هذه الوظائف بالمجتمع الذي كان الولي يعتبر نفسه مسؤولا عنه، ونتيجة لذلك ارتبط نفوذه أساسا بهذا المجتمع. إلا أن هذه الأدوار التي مورست فوق تراب هذا المجتمع الصغير، كانت مطلوبة كذلك من خارجه. ونعني به كل القبيلة التي انتمى إليها الولي محمد بن يعقوب الولالي ثم ابنه محمد. ففي قبيلة بني ولال كان لهما اعتبار وتقدير كشيخين روحيين مهابين. ففي أوقات الإضطراب تدخل الولاليان في الخلافات الأسروية أو القبلية فارضين نفسيهما حكما أو وسيطا،

(346) أ. الولالي، **مباحث الأنوار**، ص. 210.

(347) يدرك ذلك من خلال مضامين كرامات محمد بن يعقوب الولالي وابنه محمد الولالي. انظر ترجمتها في **مباحث الأنوار** هذا.

(348) أ. الولالي، **مباحث الأنوار**، ص. 291.

ما دام أنهما يمثلان في أعين الناس المصداقية والقداسة. فأسلوب الحياة الذي كان سائدا في قبيلتهما والمتمثل في حركة الشتاء والصيف، تطلب منهما اللجوء إلى تحالفات مع الجيران لضمان حرية التنقل ولتوسيع شهرتهما ونفوذهما.

وفي قبيلة مجاط بأعالي ملوية ظهر نفوذ أفراد الأسرة الدلائية. وارتبط نفوذهم بما كان لهذه الأسرة من مكانة روحية ومادية. وتبعا لهذه المكانة قام الدلائيون في قريتهم وقبيلتهم بأدوار شبيهة بالتي قام بها أفراد الأسرة الولالية. وهي أدوار سابقة للتي اضطلعوا بها خارج القبيلة المجاطية وهمت عامة قبائل الأطلس المتوسط.

في منطقة الأطلس المتوسط، وفي ظروف غياب السلطة المركزية أو قصورها، تحاربت القبائل ونهبت وخربت، وكان ذلك مضرا بالمعاملات التجارية وبحياة الناس عامة. وحتى في الوقت الذي كان فيه للسعديين عمال على أعالي ملوية، فإن هؤلاء مثلوا الِاستبداد والِابتزاز[349]. فاتجه الناس إلى من عرف بصلاحه وفضيلته، وكان أبو بكر الدلائي وابنه محمد من شخصت فيهما هذه الفضيلة. فكان ظهورهما استجابة إلى ضرورة اجتماعية أملتها عليهما اعتبارات عدة. وكانت أدوارهما الِاجتماعية في وسط القبائل البربرية الصنهاجية بالأطلس المتوسط هي أدوار زاويتهما التي تأسست بالدلاء.

مثل الصلحاء في وسط القبائل والمدن، النظام والأمن. وكانوا ضد الجور والعنف وانتدبوا للتحكيم في النزاعات التي ظهرت في مناسبات عديدة. وكانت الروابط التي تجمع بين الصلحاء تسهل عملهم الِاجتماعي والأخلاقي. فمحمد بن يعقوب تعاون مع أبي بكر الدلائي وذلك بما أوتي من هيبة وإجابة في الدعوى. ومن بعدهما تعاون أبناؤهم في التغلب على كثير من المشاكل. وإذا كان الأولياء قد عملوا سلميا على ممارسة وظائفهم، فإنه وأمام الخطر تدخلوا والسلاح في يدهم.

3 ـ الوظائف السياسية :

إن الدور السياسي لرجال الصلاح والعلم ليس بجديد : يعود في المغرب إلى أيام المرينيين، وبرز بوضوح عندما حملوا السعديين إلى الحكم[350]. بل إن تاريخ المغرب عرف مراحل استطاع فيها الصلحاء الوصول إلى إقامة سلطة زمنية. فمن

(349) المصدر نفسه، ص. 245 وما بعدها.

(350) Drouin, Un cycle oral..., p. 9.

خلال الدلائيين نرى كيف أن حركة صوفية تحولت إلى قوة سياسية عاشت ردحا من الزمن، إن اعتبر قصيرا، فهو واضح الدلالة على ما كان للصلحاء من سلطة على الناس.

ومع ذلك، رأى كلنير أن من السمات المميزة للصالح كونه مسالما(351). والواقع أن هذه الميزة لا تنطبق على كل من ترجم لهم الولالي. وليست منطبقة على كل أهل الصلاح الذين لم يكونوا دائما مسالمين ومحايدين. فالذين ترجم لهم الولالي كان منهم من انتمى إلى البادية والآخر إلى المدينة، كما أن عملهم السياسي تحكمت فيه الظرفية العامة للبلاد. ومن ثم كانت الأمثلة التي أشار إليها «**مباحث الأنوار**» والمتعلقة بالعمل السياسي للصلحاء معبرة عن الأزمة السياسية وغياب السلطة المركزية في منطقة لم تكن دائما مراقبة من طرف المخزن، أو أمثلة لامست حالة الإنتقال وتثبيت السلطة المركزية. وفي كل الأحوال يظهر أن سلمية وحياد الصلحاء لم يكونوا دائما محترمين.

سمحت ظروف أن يلعب الصالح دورا سياسيا. فمحمد بن أبي بكر الدلائي استغل الوضعية الجغرافية والأهمية الإستراتيجية للمنطقة وبسط نفوذه السياسي على منطقة الأطلس المتوسط. وهو في ذلك لم يعتمد الوسائل السلمية فحسب، بل شارك بنفسه في الحرب التي خاضتها قبيلته مجاط مع قبيلة آيت إسحاق. حقيقة أن في حركة محمد بن أبي بكر بروز لمستويين : فعندما كان دوره لا زال محليا بدت الطبيعة السلمية من بين خصائص ولايته، لكنه عندما انتقلت حركته إلى المستوى الإقليمي تزحزحت الطبيعة السلمية إلى المرتبة الثانية.

إذا كان تأسيس زاوية الدلاء اقترن بحادثة عنف(352)، فإن الخروج عن مبدأ السلمية والحياد لم يكن خاصا بأولياء البادية وفي ظروف الأزمة السياسية فقط. فمدينة فاس لم يتمكن المولى رشيد من دخولها إلا بمساعدة زعيم زاوية المخفية(353). كما أن الزاوية الفاسية هي التي سهلت دخول المولى إسماعيل هذه المدينة(354)، وعندما

(351) ارنست كلنير، «السلطة السياسية والوظيفة الدينية في البوادي المغربية»، **مجلة كلية الآداب بالرباط**، عدد 11، صص. 181–182.

(352) راجع حمودي، مقال سابق، ص. 46.

(353) N. Cigar, **Société et vie politique à Fes**, p. 148.

(354) **المصدر نفسه**، ص. 116.

اتجهت هذه المدينة بنظرها إلى أحمد بن محرز ساند أحمد اليمني وأحمد بن عبد الله معن المولى إسماعيل(355).

هكذا كانت المشاركة في الحروب وحمل السلاح معبرين عن عدم سلمية الأولياء، كما كانت مواقفهم معبرة عن عدم حيادهم واهتمامهم بسياسة الحاكمين : فمحمد بن ناصر عبر عن رأيه في قضية خاصة(356) ومحمد بن عبد الله السوسي عبر عن موقفه من الحكم عندما ضايقه سلطان مراكش(357). وعلي بن عبد الرحمن الدرعي توترت علاقته بالمولى الرشيد(358). فالحركة السياسية للأولياء لم تكن منسجمة، إذ عبر عنها كل واحد بالطريقة التي سمحت له بها الظروف. إلا أن الولي «لا يكون مسالما لما يراه منكرا إلا إذا لم يكن بإمكانه غير المسالمة»(359).

خامسا : انتعاش الحياة العلمية

إن المتتبع لمراحل حياة الولالي وحياة رجالاته الذين عرف بهم في كتابه **«مباحث الأنوار»**، يمكنه الإطلالة على جوانب من واقع الحياة الثقافية في المناطق القروية والحضرية. ففي ظروف الأزمة العامة التي عمت البلاد بعد وفاة أحمد المنصور السعدي، عرفت المراكز الثقافية التقليدية التي كانت مزدهرة في عهد هذا السلطان تقهقرا وركودا، بينما انبعثت الحياة الثقافية في جهات من البادية المغربية. إلا أن مضمون هذه الثقافة وكذا القضايا المرتبطة بها من فرص التعليم ومناهجه، لا يختلف كل ذلك في شيء عما كان معهودا في العصور السابقة.

رأينا في فقرة سابقة، أن الشخصيات العلمية التي ترجم لها الولالي انتمت إلى مراكز ثقافية حضرية وقروية، وأن هذه المراكز تعددت وتنوعت من مراكز صغيرة ضاربة في أعماق البادية، إلى مراكز كبيرة استقطبت العديد من العلماء والطلبة. وكانت بعض الإشارات المتعلقة بهؤلاء الرجال معبرة عن تقهقر المراكز الحضرية التقليدية وتراجع الحركة الثقافية نحو البادية. فمدينة فاس التي كانت في طليعة المراكز

(355) انظر ترجمة أحمد اليمني وأحمد معن بـ**مباحث الأنوار**، صص. 347، 361.

(356) انظر ترجمة محمد بن ناصر بـ**مباحث الأنوار** هذا، ص. 377.

(357) انظر **المصدر نفسه**، ص. 41 وما بعدها.

(358) **المصدر نفسه**، ص. 346.

(359) أحمد التوفيق، **إينولتان**، ج 2، ص. 93.

الثقافية بالبلاد لمدة طويلة، لم يجد بها الولالي عندما تردد عليها في الثلث الأخير من القرن الحادي عشر الهجري سوى مجموعة من العلماء تجمعهم رابطة الدم أو التلقي، فأفراد الأسرة الفاسية والمعانية شكلوا طبقة علمية جديدة بهذه المدينة، لكن إسهاماتهم في الحياة الثقافية والفكرية كانت محدودة، فأهم الإسهامات الفكرية للمدينة هي لأجيال ما قبل الفتنة(360). ففي زمن عبد القادر الفاسي كانت مدينة فاس قد نزلت عن درجة الزعامة العلمية.

إن فقدان مدينة فاس لزعامتها العلمية بالبلاد لوحظ في الواقع أيام السعديين، بحيث كانت هذه الزعامة قد مالت لفائدة مراكش العاصمة(361).إلا أن ذلك لم يؤد بفاس إلى فقدان مكانتها العلمية. فالتقهقر لم يلحقها إلا بعد أن دب في المركز الذي نافسها. فعندما حل محمد بن عبد الله السوسي في أواسط القرن الحادي عشر الهجري بمدينة مراكش لم يجد بها سوى جماعة صغيرة من العلماء عامة من أصل قروي. فمحمد بن سعيد المرغيثي وأحمد بن سعيد المراكشي أكنسوس كانا يعقدان حلقات دراسية بمساجد المدينة، لكن دون أن يكون لهما إشعاع كبير. فمراكش كانت قد دخلت في النسيان مع أواخر العهد السعدي(362).

لا شك في أن التقهقر الثقافي في هذين المركزين الحضريين العتيقين هو انعكاس للوضعية التي اضطربت اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا في كل البلاد. لكن الفتنة والأزمات الخانقة كان وقعها أشد في المدن من البوادي. ففي مدينة كفاس غدت الظروف غير مساعدة لكل أنواع الإنتاج، فخرج الكثير من علمائها وسكانها فارين بأنفسهم إلى البادية التي كانت الإقامة بها أيسر حالا من المدن(363). فتدهور المدن في القرن الحادي عشر الهجري كان ظاهرا للعيان(364). ومع ذلك، فإن الثقافة بمدينة فاس قد احتفظت بنوع من الإستمرار، إلا أن عدم الأمن الذي كان متلاحقا ومستمرا بها، لم يكن مواتيا لانتشار العلم والمنافسة(365) في تحصيله وتبليغه.

---

(360) Berque, **Al Youssi**..., 78.

(361) م. حجي، **الحركة الفكرية**، صج 2، ص. 346.

(362) Berque, **Al Youssi**..., p. 76.

(363) السقاط، **الشعر الدلائي**، مطبعة المعارف، 1985، ص. 443.

(364) Rosenberger et Triki, **Famines et épidémies au Maroc**..., p. 74.

(365) Berque, **Al Youssi**..., p. 78.

كان تراجع المراكز الثقافية نحو البادية دليلا على طغيان البداوة على حياة الحضر في هذا العصر. ولكن من الحق القول إن بوادر هذا التراجع كانت قد ظهرت قبل انهيار الدولة السعدية وتقهقر المراكز الحضرية التقليدية[366]. ففي المراكز التي تنقل عبرها محمد بن يعقوب الولالي في نهاية القرن العاشر الهجري في زيز[367] ودرعة[368]، عاش علماء منقطعون وشيوخ متبتلون لهم نصيب قليل أو كثير من العلم. وحوالي منتصف القرن الحادي عشر الهجري، كانت مراكز قروية أخرى تعرف نشاطا علميا. فمراكز علمية مثل **تمكروت**[369]، **وو زغت**[370]، **وتمجت**[371]، **وتنغملت**[372]، **والصومعة**[373]، صارت معروفة ومطروقة من قبل العلماء والطلبة.

كان لكل هذه المراكز العلمية بالبادية فضل في تركيز التعاليم الإسلامية ونشر اللغة العربية في المناطق التي انتمت إليها. وفي هذه المراكز التقى الطلبة من جهات مختلفة حول مجموعة من الأساتذة، وحول المتون المتداولة بين رجال العلم من قديم، وفيها تخرج وانبعث كثير من الشخصيات التي كان لها باع طويل في العلم والعبادة. إلا أن المركز الذي انفرد بالزعامة العلمية بعد أن كسفت شمس المعرفة في المراكز الحضرية كان هو زاوية الدلاء.

أشار الولالي إلى جملة من العوامل التي ساعدت على ازدهار الثقافة **بـزاوية الدلاء**[374]، فعندما دخلها وجدها حافلة عامرة بطلاب العلم الذين وفدوا عليها من مختلف جهات المغرب : إذ في هذه الجهة وجد العلماء والطلبة الطمأنينة وكرم الضيافة. وبهؤلاء العلماء الذين تواجدوا بهذه الزاوية سواء من أبنائها أم من غيرهم[375] انفردت هذه الزاوية بالزعامة العلمية[376]. فعلماؤها كانوا متضلعين في

---

(366) م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 2، ص. 339.

(367) أ. الولالي، **مباحث الأنوار**، ص. 212.

(368) **المصدر نفسه**، ص. 335.

(369) **المصدر نفسه**، ص. 336.

(370) **المصدر نفسه**، ص. 337.

(371) **المصدر نفسه**، ص. 335.

(372) **المصدر نفسه**، ص. 336.

(373) **المصدر نفسه**، ص. 167.

(374) انظر «وظائف الزاوية الدلائية» في هذا القسم من الدراسة.

(375) **مباحث الأنوار**، ص. 35، 143، 160، 227، 235.

(376) م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 2، ص. 499.

كافة أنواع العلوم المعروفة في عصرهم : فالشرقي بن أبي بكر الدلائي عالم القراءات والتجويد، والطيب بن المسناوي ظهرت براعته في الفقه والأدب، وقبلهما كان لمحمد بن أبي بكر الدلائي فهم خاص في الحديث والتفسير. وعندما تطعم هذا المركز بالشيخ الحسن اليوسي حوالي 1060هـ صار الطلبة يفدون على هذا المركز حتى من تامكَروت[377].

كان من بين طلبة هذه الزاوية من ذكرهم الولالي في كتابه «**مباحث الأنوار**»[378]. فأشار إلى ظروف عيشهم وإقامتهم بتلك الزاوية التي كانت إقامة ميسورة، وذلك بتوفرهم على مساكن للإيواء، إذ كانت المدرسة التي بإزاء جامع الخطبة[379] تتوفر على ألف وأربعمائة مسكن[380]، وفي الغرفة الواحدة يقيم طالبان أو أكثر، وقد كان هؤلاء الطلبة يلجون هذا المركز وهم على قدر معلوم من التحصيل والحفظ للمتون المشهورة إلا من فاته ذلك لعارض[381]، وفيه تخرجوا وشغلوا وظائف علمية في مراكز أخرى كالصومعة ووزغت وتنغملت ورباط سلا وغيرها. فمدرسة الدلاء كانت تتواصل ثقافيا مع مراكز علمية أخرى بالبلاد. وذلك بما كانت تخرجه من علماء أو بمن طرأ عليها منهم. إذ في زاوية الدلاء تخرج عدد من المحدثين والتيولوجيين واللغويين والمناطقة ورجال الأدب، وصاروا شيوخ علم بفاس ومكناس في عهد المولى إسماعيل[382]. حتى إن تدمير الزاوية من قبل المولى الرشيد لا يعد دمارا وقضاء على رجال العلم بهذا المركز، بل يمكن القول إنهم انتقلوا وواصلوا نشاطهم في جهات أخرى.

هكذا نرى أن المرحلة التي تميزت بركود اقتصادي واضطراب اجتماعي وسياسي عرفت انتعاشا ثقافيا ابتداء من أواسط القرن الحادي عشر الهجري. ففي وقت قيام الدولة العلوية كانت أسماء علمية كبيرة قد برزت، وذلك أمثال الحسن اليوسي وعبد القادر الفاسي ومحمد بن ناصر ومحمد بن سعيد المرغيثي، وهم علماء

---

(377) Berque, Al Youssi..., p. 44.

(378) **مباحث الأنوار**، ص. 36، 37.

(379) **المصدر نفسه**، ص. 55.

(380) **تقايد تاريخية**، ص. 11.

(381) **مباحث الأنوار**، ص. 37.

(382) M. Lakhdar, La vie littéraire au Maroc..., p. 49.

عرفوا بتصدرهم للتدريس والتأليف، إلا أن تدريسهم مثل تآليفهم بقي تقليديا اللهم ما كان لعدد منهم من اجتهاد في العلوم العقلية. فمن قائمة الكتب الدراسية المستخرجة من «**مباحث الأنوار**»[383]، ومن المواد التي دَرَسها وأَقْرَأَهَا أحمد الولالي[384] نأخذ فكرة عن طابع الثقافة المغربية في هذا العهد.

خاض علماء القرن الحادي عشر الهجري في موضوعات قديمة ومعروفة عند المسلمين. فهي ذات صلة بعلوم الدين والفقه والتصوف واللغة والفلسفة والمنطق والتقنية. إلا أن هيمنة الدين واللغة كانت بارزة. فمن بين ثلاثين مؤلفا تعليميا ذكرها نص «**مباحث الأنوار**» نجد ما يفوق الثلثين منها قد حازتهما هاتان المادتان. وأن هذه المؤلفات كانت عبارة عن مختصرات أو مختصرات المختصرات أو شروح وحواش على هذه المختصرات.

إن قائمة الكتب المستخرجة من متن «**مباحث الأنوار**»، وكذا الشخصيات التي ارتبطت بالحياة العلمية، كل ذلك يظهر لنا البعد الزماني والمكاني والقضايا المرتبطة بهذه الثقافة والمثقفين. فالتفاعل الثقافي كان موجودا وظاهرا على مستوى تبادل الكتب الدراسية أو الرجال. فالتواصل بين المشرق والمغرب كان هو القاعدة. إذ نجد أقطابا فكرية مغربية انتقلت إلى المشرق، وعلماء وصوفية شرقيين استقروا بالمغرب، في حين كان للمؤلفات المشرقية منزلة في البرامج التعليمية بالمغرب.

أما المستوى الذي كانت تدور في فلكه الحياة الثقافية، فكان هو تكريس العمل الفكري للدفاع عن العقائد السنية[385]، وهذا عمل انبرت له كل الشخصيات البارزة في العلم والتصوف. ظهر ذلك في عمل أحمد الولالي نفسه أو شيخه محمد بن عبد الله السوسي أو عبد القادر الفاسي. فالمسائل الفكرية التي شغلت بال المثقفين في هذا العصر لا تخرج عن المواضيع التي عرفت في العصر الذي قبله، وندر منها ما له صلة بالحياة اليومية للناس. فقد انكب العلماء على الوعظ والإرشاد والنهي عن المنكر والحض على الجهاد وذم ومحاربة شرب الدخان[386].

---

(383) انظر فهرس الكتب المستخرجة من **مباحث الأنوار**.

(384) **مباحث الأنوار**، ص. 84.

(385) راجع : «وظائف العلماء الدينية» في هذا القسم من الدراسة.

(386) **مباحث الأنوار**، ص. 221.

هكذا يظهر أن النمط الثقافي كان مطابقا ومسايرا لنمط الإنتاج ووسائله. فالسواد الأعظم من الناس كان خارجا عن هذه الثقافة الكتابية. وفي واقع الندرة لم يغير ظهور عالم كبير كاليوسي لا من محتوى ولا من بداغوجية التعليم الذي ظل تقليديا واتباعيا في برامجه ونخبويا في تلقينه.

سادسا : انهيار الدلائيين وصعود العلويين

إن كتاب «**مباحث الأنوار**» الذي كثرت مواضيعه من الناحية الدينية والثقافية لا يخلو من إشارات سياسية، إذ نجد فيه معلومات قيمة بالنسبة للسلطة التي سيطرت في حدود منتصف القرن الحادي عشر الهجري على جزء مهم وكبير من المغرب. إلا أن هذا الحكم لم يعمر طويلا، فسرعان ما انتهى على يد أسرة شريفة كانت تافيلالت منطلقا لها في عملية توحيدها للبلاد.

أ ـ سلطة الدلاء :

عاصر أحمد الولالي وشاهد عن كثب التجربة السياسية للزاوية الدلائية، فأتت إشاراته متنوعة ومفيدة، وهي لا تسعفنا كثيرا في الإجابة عن كل الأسئلة التي أوحت لنا بطرحها، ومع ذلك تعتبر عناصر أساسية أمكن استثمارها في إظهار أسس حكم الدلاء وطبيعته ومصيره.

1 ـ أبو بكر الدلائي وابنه محمد :

لم يكن لأبي بكر الدلائي وابنه محمد اشتغال واضح بالسياسة، فأهم ما عرفا به كان الزهد والإنصراف إلى العبادة والتدريس وتربية المريدين. وهذه أمور لا شك في أنها كانت وراء السمعة والنفوذ الذين صارا لهما في منطقة إشعاعهما، ولكنها ربما حملت أيضا معالم سياسية مبكرة.

أقام أبو بكر الدلائي زاويته في ذلك الجزء من الأطلس المتوسط. فغدت مركزا دينيا وثقافيا مشهورا في الوقت الذي عجزت فيه السلطة السعدية عن ممارسة وظائفها. فالسعديون الذين تصدع كيان دولتهم وانقسمت، لم يعد بإمكانهم مراقبة حتى الجهات القريبة من مقر حكمهم.

في هذا الجزء من الأطلس المتوسط صارت القبائل متروكة لأمرها[387]. ومع ذوي النفوذ فيها كان أبو بكر الدلائي يربط حبل الِإتصال والتلاحم. إن مريديه يفصح اسمهم عن أصلهم : فمنهم محمد بن يعقوب الولالي والحسن السجدلتي[388] والووزغتي[389]. ونرى أن العهد الذي جمع بين أبي بكر الدلائي ومحمد بن يعقوب لم يكن موضوعه فقط صحبة الشيخ لمريده، بل عهد ربط قبيلة مجاط بقبيلة بني ولال[390].

منذ ذلك الوقت صارت شخصية أبي بكر مقصودة من لدن قبيلته وسائر قبائل الأطلس المتوسط، وفيها مارس أبو بكر وظائف اجتماعية عدة[391]. وهو في ذلك ليس بعنيف ولا بمندفع، فهو قد اكتفى عندما طغت عليه جماعة من قبيلته بأن شكاهم إلى الولي محمد بن يعقوب[392]. أما محمد بن أبي بكر الدلائي فكانت تربيته قد اختلفت نوعا ما عن تربية أبيه، لكن أدواره في مجتمعه بقيت هي نفس أدوار سلفه.

إن محمد بن أبي بكر الذي ارتاد مدارس فاس وتضلع في الفقه والحديث[393]، أبدى حذرا تجاه الصلاح. ظهر ذلك في مناقشاته مع أبيه[394] أو عندما زار الولي عبد الله بن حسون[395]، إلا أن رجل الشريعة هذا سرعان ما ارتبط برجال الصلاح، بل صارت له هو نفسه كرامات ومكاشفات[396]، ولربما أن هذا ما كان مجتمعه يطلبه منه.

في هذا المجتمع القبلي المعروف بحركته الِإنتجاعية وما يترتب عليها من نزاعات، وما قد ينتج أيضا من صراعات داخلية بسبب السقي أو الحرث، كان كل ذلك

---

(387) **المصدر نفسه**، ص. 263 وما بعدها.
(388) **المصدر نفسه**، ص. 212.
(389) **المصدر نفسه**، ص. 337.
(390) **المصدر نفسه**، ص. 231.
(391) **Berque, Ulemas, Fondateur, Insurgés du Maghreb**, p. 88-89.
(392) **مباحث الأنوار**، ص. 264.
(393) **المصدر نفسه**، ص. 275.
(394) **Berque, Ulemas...**, p. 41.
(395) **مباحث الأنوار**، ص. 273.
(396) **المصدر نفسه**، ص. 258.

يدعو ـ وفي غياب السلطة المركزية الفعلية ـ إلى تدخل قوة لإقامة التوازن بين الأشخاص والفرق والقبائل والأحلاف. وكان رجال الدلاء من مثل هذه القوة وحاولوا أن يجعلوها مقبولة من قبل الجميع. ومن ثم فإن ما كان يسري ويشع عبر عدة قنوات، في تلك الجبال التي تسكنها قبائل بربرية صنهاجية، ليس فقط حظوة وشهرة رجال الدلاء الدينية. فإشعاعهم الروحي والثقافي كان إشعاعا لسلطتهم الزمنية. إلا أن هذه السلطة تأخذ قوتها وأصالتها من الوسط الذي تمارس فيه.

كانت قوة محمد بن أبي بكر الدلائي كامنة في قدرته على إلحاق العصبيات القبلية بقبيلته، ولهذا الغرض نجده عندما طغت عليه بعض القبائل البربرية خرج في زيارة لضريح **أبي وكيل** الذي «خرج» من مشهده[397] لينبئه بالمخرج. فلم تلبث قبيلته مجاط أن غلبت قبيلة آيت إسحاق في الحرب التي شارك فيها محمد بن أبي بكر[398].

واجه محمد بن أبي بكر القبائل المعترضة له عسكريا، وحتى يكون مهابا أكثر واجه البغاة والظلمة وقهر اللصوص. وفي عمله هذا لم يقتصر على دعواته المستجابة[399]، بل صار يجند الرجال ويخرج عن الحدود الضيقة لقبيلته، فغدا له نفوذ كبير على قبائل الأطلس المتوسط واتجه بنظره إلى المناطق التي توجد على أطرافه. ظهر ذلك في نقاشاته مع عدد من القوات المحلية التي كانت قائمة بتلك الأطراف، فاهتمامات الرجل لم تعد هي العلوم الدينية[400] فقط. ففي أي اتجاه أمكن لخلفه محمد الحاج أن يستثمر هذه الأسس ؟

2 ـ أقام محمد الحاج الدلائي إمارة الدلاء :

نلمس من خلال متن «**مباحث الأنوار**» أن تطورا حدث في مسيرة رجال الدلاء. فمع الشخصيتين السابقتي الذكر ـ ونعني بهما أبا بكر الدلائي وابنه محمد ـ كنا أمام تجليات لا تخرج عن مدلولها الروحي، ومع الكلام عن محمد الحاج صرنا أمام ألقاب جديدة مثل «سلطان البلد» و«الأمير محمد الحاج»[401] وأن هذا

(397) **المصدر نفسه**، ص. 277.

(398) Berque, **Ulemas...**, p. 41.

(399) **مباحث الأنوار**، ص. 260.

(400) م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 131 وما بعدها.

(401) **مباحث الأنوار**، ص. 50.

السلطان صار مهموما ومشغولا بما أقلق راحته وهدد كيان إمارته. فكيف وصل الأمر إلى هذا الحد ؟

كان عمل محمد الحاج هو بلورة ما بدأه أبوه. فمحمد بن أبي بكر مد نفوذه على منطقة الأطلس المتوسط وأعالي ملوية وصار له فيها أتباع مخلصون. وهي منطقة تطل على نقط حساسة ورئيسية بالنسبة للقبائل التي تمارس الإنتجاع. إنها تمتد نحو سهول ودير كل من تادلا وسايس، ومن أعالي ملوية تشرئب الأبصار نحو السهوب الشمالية الشرقية. إنها منطقة شاسعة وحيوية لا بالنسبة للقبائل البربرية الرعوية وحدها، ولكن أيضا بالنسبة للسلطة التي ستضطلع بحكمها.

لا شك في أن محمد بن أبي بكر كان له اهتمام بالسياسة ومقدرا للوضعية التي آلت إليها البلاد. إلا أن النزوع إلى الحكم ظهر عند ابنه محمد الحاج، وقد يعزى هذا التحول إلى عوامل ربما كان منها ما تعلق بشخصية محمد الحاج ومنها ما ارتبط بالظرفية العامة للبلاد في هذه المرحلة.

خبر محمد الحاج الحياة العسكرية في حياة أبيه الذي كون جيشا من فرسان مجاط وآيت إسحاق. وبهذه القوة العسكرية خرج محمد الحاج ليمد سيطرته على المنطقة الواسعة التي اشرأب نظر أبيه إليها. وفي كل جهة ولى وجهه إليها لاقى معارضين، إلا أنه انتصر عليهم وأخضعهم. كان انتصاره على سلطان مراكش محمد الشيخ الصغير في معركة أبي عقبة[402] عام 1048هـ/1636م. ودخل مع المجاهد العياشي في مواجهة عسكرية متكررة انتهت بآغتياله. كما انتصر على عبد الله العياشي على ضفاف وادي الطين[403] عام 1503هـ/1643م.

تمكن محمد الحاج من السيطرة على كل المدن والمراكز التي كانت تحت نفوذ العياشي. وهي مراكز مهمة كان لها دور كبير في تاريخ البلاد السياسي والإقتصادي. وبذلك صارت الخريطة السياسية لإمارة الدلاء كبيرة ومهمة.

غدت حدود إمارة الدلاء منفتحة على السواحل الأطلسية والمتوسطية، في شرقها وجنوبها الشرقي كانت قبائل أعالي ملوية والأطلس المتوسط والكبير الشرقي

(402) المصدر نفسه، ص. 307 وهامشه رقم 285.
(403) المصدر نفسه، ص. 306 وهامشه 284.

تشكل الركيزة السياسية للدلائيين[404]. وفي الوسط وجدت العاصمة التقليدية فاس والسهول الخصبة. هذه هي إذن الرقعة التي غدا محمد الحاج سلطانها وأميرها.

لا شك في أن هذه التحلية أو الصفات التي قرن بها الولالي شيخ الدلاء محمد الحاج تجد مضمونها في البيعة التي توصل بها من الجهات التي سيطر عليها وحفظت داخل صندوق بجامعة القرويين بفاس[405]. ومع ذلك، فالذي يهمنا أكثر هو ما شكل أسس وركائز تلك السلطنة أو الإمارة.

كان جيش القبائل البربرية الصنهاجية هو السند الذي عليه ارتكز محمد الحاج في مد نفوذه على تلك المنطقة الشاسعة، وأن النفوذ والسيطرة ضمنا له قاعدة اقتصادية متينة شكلت أساس قوة إمارته المالية والعسكرية، حتى إذا أصاب هذه القاعدة الاقتصادية خلل تداعت أركان تلك الإمارة.

كان الاستيلاء على فاس يعني السيطرة على مركز تجاري هام إليه انتهت التجارة الصحراوية. كما أن السيطرة على المدن الساحلية كسلا جعل إمارة الدلاء في اتصال مع المحيط الأطلسي وبالمواد الأوروبية، خاصة الأسلحة والذخيرة مقابل المواد المغربية والسودانية. ولضمان الخط التجاري الصحراوي الذي يمر عبر تافيلالت وفاس، دخل محمد الحاج في تحالفات مع قبائل صباح ودوي مني[406]. وبذلك كله صار المجال الذي يغطيه الحكم الدلائي يعرف التكامل الاقتصادي. فبناء على أهمية هذه المنطقة نفهم إشارات **«مباحث الأنوار»** التي أظهرت محمد الحاج منشغلا بمشكل المعارضين.

لا تكون الإشارة إلى جوانب كثيرة لحكم محمد الحاج في متن **«مباحث الأنوار»**، ولذلك لا نعرف كيف وزع حكم أقاليم إمارته ولا نوعية العلاقة التي كانت قائمة بينه وبين ممثليه المحليين، وكذلك بين هؤلاء ومجموع السكان في المدن والبوادي. ولكن ما جاء فيه من إشارات يسهم في توضيح طبيعة هذا الحكم.

لم يختلف الحكم الدلائي عما عرفه المغرب من أجهزة سياسية سابقة له. فهو جهاز متنقل اتخذ الحركة أسلوبا للعمل وممارسة لوظيفة التحكم. وإلى هذه الوظيفة

---

(404) **Mezzine, Contribution à l'histoire de Tafilalte**, p. 666.

(405) س. الحوات، **البدور الضاوية**، ورقة 116 /ب.

(406) **Mezzine, Contribution...**, p. 665-675.

أشار أحمد الولالي بقوله : «ربما طلع في محلة إلى جهة ملوية للإصلاح بين قبائله»[407]. كما أن وجود عناصر بشرية مرافقة للسلطان في حركته كالقاضي[408] محمد بن عبد الهادي البكري والولي محمد بن محمد بن يعقوب[409]، يكون مفسرا لعدد من الأمور. إنها ثلاثة عناصر بارزة ومتكاملة كمنت فيها طبيعة الحكم الدلائي وأصالته : قوة الجيش الضارب وعلى رأسه محمد الحاج، وقوة الشرع والقانون، وقوة روحية ومعنوية.

لم يعتمد محمد الحاج على قوته العسكرية وحدها في علاقته مع محكوميه، بل حاول أن يوفق بين القواعد الشرعية والأعراف القبلية، إذ أن وجود القاضي لا يعني شللا وتعطيلا للأعراف التي كان معمولا بها في المناطق القروية. فالقبائل ما زال لها أعيانها، والقرى لها مجالسها وعرفاؤها[410]. أما حضور المرابط فهو يشير إلى الدور الأخلاقي الذي كان للقوة الروحية في هذا الوسط القبلي. فمن أجل تجاوز الخلافات بين القبائل والفرق وضمان التحالفات بينها وبين سلطة الدلاء، كان لابد من وجود مثل هذه القوة الروحية والأخلاقية. فدور الولالي محمد بن محمد بن يعقوب ـ الذي مثل هذه القوة الروحية ـ هو امتداد لدور أبيه مع أبي بكر وابنه محمد الدلائي.

يظهر أن هذه القوة الروحية لعبت دوراً في ضمان التحالفات القبلية، وفي الأوقات الحرجة والعصيبة من الحكم، ازدادت حاجة السلطان إليهم [411]، ولعل آخر عهد محمد الحاج الدلائي معبر عمّا وصلت إليه إمارة الدلاء من اضطراب في الأركان التي قامت عليها.

إن الأسس التي قام عليها حكم الدلاء والتي حاولنا إبرازها في ما سبق، سرعان ما تفككت لينهار معها هذا الحكم. لقد أشارت إحدى الدراسات إلى أن الأمور سارت بسرعة في إمارة الدلاء، فمرحلة الإزدهار وظهور الإنحلال والدمار، كانت كلها تحت حكم رجل واحد[412]. فزوال الحكم الدلائي تنبأ به الولي علي بن عبد الرحمن

(407) مباحث الأنوار، ص. 301.
(408) المصدر نفسه، ص. 302.
(409) المصدر والصفحة نفسهما.
(410) المصدر نفسه، ص. 210.
(411) المصدر نفسه، ص. 208.
(412) راجع : Berque, Ulémas..., pp. 110-111.

الدرعي، ومحمد بن عبد الله السوسي[413]. فهل كان ذلك تنبؤا أم حسابا سياسيا ؟ وهل أسباب هذا الزوال أخلاقية أم هي ناتجة عن أسباب موضوعية ؟

أشار أحمد الولالي إلى عناصر كان لها انعكاس على ما آلت إليه الأوضاع في إمارة الدلاء. فمنها هرم السلطان وشربه للدخان[414]، وقلة اهتمامه بالأحكام[415]. لم تكن هذه العناصر في الواقع سوى مظهر وضعية متأزمة نستشف أسبابها من خلال ما ساقه الولالي من إشارات.

إن الإمارة التي سيطرت على أهم منطقة من المغرب، لم تكن لتحظى بمحبة جميع أطرافها[416]، ومع ذلك فإن هذه المحبة كان الإخلال بها حتى من قبل من شكل عصبيتها.

كان مرور الولي محمد بن عبد الله السوسي بالزاوية الدلائية في حدود 1069هـ/ 1658م، فاتصل بالأمير محمد الحاج ووعظه وطاف بسور مدينته ليؤمنها من قوم كانت هجوماتهم على الزاوية قد كثرت، ففي هذا الإخبار الذي قدمه أبو العباس الولالي عناصر مثيرة.

إن العاصمة الدلائية صارت مسورة وهي محاطة بقبائلها. فهل تسويرها دليل على ابتعاد بنياتها بل نظرها وعاطفتها عن مجتمع قبائلها ؟ ذلك أن القرية التي تحولت إلى مدينة وعاصمة صارت مهاجمة في عقر دارها ومن قبل جماعات بربرية. لا ندري إلى أي حلف أو قبيلة انتمت هذه الجماعات التي هاجمتها، ولكنها ربما كانت من غير قبائل آيت إدراسن التي منها تشكل جيش الإمارة[417]، إذ في كلام الولالي ما يرجح ما ذهبنا إليه : فكلما ابتعدنا عن أعالي ملوية في اتجاه الجنوب الشرقي كلما كانت القبائل مرتبطة أو متطلعة إلى الإرتباط بولاءات وزعامات دينية أو تحالفات قبلية أخرى[418]، كما أن الشيء نفسه كان ملاحظا عند القبائل الواقعة على الضفة اليمنى لنهر أم الربيع[419].

(413) راجع : **مباحث الأنوار**، صص. 342–43.
(414) **المصدر نفسه**، ص. 61 وهامشها 55.
(415) **المصدر نفسه**، ص. 72.
(416) Berque, **Ulémas...**, p. 88.
(417) Draque, **Esquisse...**, p. 135.
(418) **مباحث الأنوار**، ص. 127.
(419) Draque, **Esquisse...**, p. 132.

هكذا لم تكن القاعدة البشرية التي قام عليها حكم الدلاء صلبة، فهي سهلة التصدع والإنشطار، ولا تسمح بالحديث عن جبهة بربرية متراصة أو ما سماه البعض بـ«ـالوطنية البربرية»[420]. فالقبائل الصنهاجية التي سكنت الأطلس المتوسط والكبير الشرقي ـ والتي لها قرابة بصنهاجة الصحراء ـ إذا كانت قد رأت في الإمارة الدلائية شعوبية وهوية، فإن الوحدة في المصالح كانت غير قائمة بينها. فهي قبائل احتلت مواقع متغايرة، منها قبائل متقدمة في الدير، ومنها ما هو في أعالي الجبال، فمصالحها كانت متناقضة. وذلك ما جعل التحالفات التي اعتمدها الحكم الدلائي معها مؤقتة : فطول ما كان هذا الحكم قويا في السهل والأطراف، كانت التحالفات محترمة، وفي الوقت الذي صار يتعرض في هذه الأطراف لهزائم، عادت القبائل إلى حالتها المعتادة : وهي حالة حركة وصراع واضطراب. ففي الوقت الذي مر فيه محمد بن عبد الله السوسي، أي في حدود عام 1069هـ، بقبائل الأطلس المتوسط والكبير الشرقي، كانت استراتيجية الأحلاف بدأت تنهار[421]. ومع ذلك فإن الذي أزعج محمد الحاج أكثر لم يكن هو فوضى قبائله، التي أراد عدد منها أن يتخلص من سيطرة مجاط[422]. بل إن أهم مصدر للإزعاج كان قد أتاه من الإستقلاليات المحلية.

فمدينة فاس، وهي المدينة المهمة في نظر محمد الحاج[423]، لم يكن أمرها ليستقيم[424]. وإذا حدث أمر كهذا في مدينة فاس، فإن الحالة لم تكن أحسن منه في مدينة سلا[425]. كما أن عرب الغرب الذين خضعوا على مضض، عاودهم الحنين إلى زمن العياشي فانحازوا إلى الخضر غيلان الذي أخذ يوسع دائرة نفوذه خاصة عند قبائل الهبط وأعراب الخلط[426].

إن ما شكل الأسس البشرية والإقتصادية والسياسية لحكم الدلاء سار نحو التفكك. وكانت إشارات «**مباحث الأنوار**» قد لامست من قريب أو بعيد عددا من عوامل هذا التفكك. ومع ذلك يمكن اعتبار عوامل أخرى ساهمت في ما لحق الحكم

---

(420) المصدر والصفحة نفسهما.

(421) المصدر نفسه، ص. 51.

(422) المصدر نفسه، ص. 127.

(423) المصدر نفسه، ص. 307 وهامش رقم 188.

(424) Berque, Ulémas..., pp. 111-112.

(425) م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 210.

(426) Berque, Ulémas..., p. 117.

الدلائي من تدهور. لا شك في أن علاقاته التجارية مع أوربا والظرفية العامة للبلاد في هذه المرحلة التي كثرت فيها المجاعات والأوبئة، ما يعطي الوجه الآخر للمعادلة. ومع ذلك فإن نهاية إمارة الدلاء كانت عن طريق ضربة عسكرية جاءتها من بعيد، حيث كان نفوذ أسرة شريفة قد تنامى، وعلى يد صديق قديم للزاوية الدلائية[427].

ب ـ صعود العلويين وعلاقتهم بالمدن والقبائل والزوايا :

إن الكتاب الذي أفادنا في جوانب من تاريخ الدلائيين، قلت إشارته التاريخية بالنسبة للسلطة التي ألف الكتاب في عهدها، ومع ذلك، فإن خاتمته التي خصصت لمن اشتهر شرفه بالمغرب كانت مفيدة في إظهار أسس ومنطلقات حركة العلويين الموجودين بالمغرب منذ وقت بعيد. كما كان لجملة من الإشارات العارضة إسهام في الإطلالة على ملامح عملهم السياسي.

فعندما كتب أبو العباس الولالي «**مباحث الأنوار**»، كان وجود العلويين بتافيلالت قد ناهز أربعة قرون. وبهذه الجهة التي حلوا بها ولم يخرج منهم إلى غيرها إلا القليل، شكلوا قوة اجتماعية وبشرية واقتصادية وعسكرية[428].

لم يكن العلويون هم الأشراف الوحيدين بالمغرب ولا أقدمهم[429]. فالشرفاء ليسوا نادرين، بل إن فروعهم تعددت[430]. وقد نتساءل عن دواعي الأهمية التي أولاها الولالي في خاتمة كتابه للعلويين.

شكل العلويون فئة قليلة العدد بالنسبة لشرفاء آخرين بالمغرب. إلا أن شهرتهم غدت كبيرة في سجلماسة وفي كثير من المناطق التي حلوا بها عابرين[431] أم ساكنين. ولا شك أن حظوتهم تعود إلى نسبهم الشريف لا إلى ما عرف به المرابطون في هذا الوقت من تبجيل. فهم لم يؤسسوا زاوية ولم ينظموا طريقة صوفية. ففي سجلماسة اشتغلوا بالحرث والغرس والتجارة[432] ودخلوا في صراعات مع قوات أخرى

---

(427) Berque, **Ulemas**..., p. 117.

(428) خاتمة **مباحث الأنوار** ابتداء من ص. 386.

(429) **نفسها**.

(430) **نفسها**.

(431) كانت تلك هي حالة كثير من الشرفاء العلويين الذين حلوا بالزاوية الدلائية أو صاحبوا محمد بن عبد الله السوسي. راجع ترجمة محمد بن عبد الله السوسي.

(432) راجع خاتمة **مباحث الأنوار**.

نافستهم. وفي مجتمعهم هذا بتافيلالت الذي لعبوا فيه دور الحكم والحامي صار لهم تمثيل ليس فقط على المستوى العاطفي، ولكن بالنسبة لكثير من الأدوار التي تلعب على صعيد المجتمع(433). فكان لعدد من أفراد الأسرة العلوية اشتغال بالعلم والصلاح أو التجارة أو السياسة وهذه وظائف صاروا مميزين بها في مجتمعهم ومؤهلين للعب أدوار سياسية لا في مجتمعهم بتافيلالت فحسب، بل على صعيد كل البلاد.

فعندما قام أبو محلي انطلاقا من الساورة لم يكن الأمر قد تعلق في تافيلالت بقوة منافسة ومشرئبة لخوض المغامرة السياسية(434). لكن العلويين صاروا فيما بعد، وبسبب مؤهلاتهم، منافسين من قبل قوات أخرى. فسجلماسة كانت لها علاقة وطيدة بالتجارة الصحراوية، وبسبب هذه التجارة وغيرها من المؤهلات جاءتها أول منافسة من قصر تابوعصامت القريب منها(435). ثم دفع انهيار الخط التجاري الساحلي بأبي حسون السملالي نحو تافيلالت، فوجد الدلائيون في ذلك مناسبة للتدخل في هذه المنطقة.

في خضم هذه الظروف، أشار «**مباحث الأنوار**» إلى المواجهة التي وقعت بين محمد بن الشريف ومحمد الحاج الدلائي على أبواب مدينة فاس، ولا شك في أن أسباب هذه المواجهة بين تلك القوتين نابعة من التناقض بين مصالح الطرفين(436)، ولا يمكن اختزالها في استنجاد أهل فاس بالمولى محمد بن الشريف. فدخول المولى الشريف مدينة فاس(437) عام 1060هـ/ 1650م كان معبرا عن التحول الذي طرأ على موقف الأسرة العلوية التي حاولت أن تكسر الحصار الذي فرضه عليها الدلائيون.

كان المولى محمد هو زعيم الدولة العلوية التي خرجت من مراقبة التجارة الصحراوية وحظوة النسب، أما المولى الرشيد فقد كان نجاحه نسبيا في عملية توحيد البلاد، إذ كانت حركته قد خرجت من تافيلالت، لكن انطلاقته العسكرية كانت من المغرب الشرقي. ففي الوقت الذي تشوف فيه الناس إلى قادم جديد وسرى

---

(433) نفسها.

(434) Berque, **Ulemas**..., p. 114-119.

(435) اليفراني، **نزهة الحادي**، ص. 299.

(436) Mezzine, **Contribution**..., p. 655.

(437) **مباحث الأنوار**، ص. 308 وهامشها رقم 288.

الإنهيار في دعائم الحكم الدلائي[438] كان المولى الرشيد ربما قد استخلص الدرس ورأى أن التفوق الدلائي في الميدان كان سببه التفوق العسكري.

هكذا استثمر العلويون حظوتهم وقوتهم العسكرية والبشرية من أجل تحقيق مشروع توحيد البلاد، وذاك عمل شعر بضرورته حتى الرجال الذين اختاروا الطريق الروحي[439]. فبعد تدمير عاصمة الدلاء بدأت المركزية عن طريق القوة العسكرية والعمل السياسي[440].

لم تكن الصعوبات التي واجهت المخزن العلوي في عهد السلطان مولاي إسماعيل آتية فقط من المجتمع القبلي بل عانى من مصاعب حتى في المدن. فحكم المجتمع الحضري غيرالمتجانس لا يقل تعقيداً عن حكم المجتمع القبلي. فإشارات «**مباحث الأنوار**» تظهر أن الوضعية كانت بمدينة فاس مضطربة، ومواقف رجالها متخاذلة، إذ غالبية سكان المدينة انحازوا إلى أحمد بن محرز وأهل الرأي بها إلى المولى إسماعيل[441].

يظهر أن ما رغبت فيه السلطة الصاعدة من مدينة فاس كان الخضوع والمساهمة العسكرية[442] ولا شك في أن الخلاف احتد بمناسبة هذه النقطة الأخيرة، فمدينة فاس كانت تدافع عن امتيازاتها، فهي التي كانت تحرس حصونها برجال يختارون من العناصر المقاتلة[443]، في حين رافقت عملية التجنيد في عهد المولى إسماعيل تجاوزات، إذ وجد من الرجال من ابتلي بها[444]. إلا أنه وأمام قدرة المولى إسماعيل على التدخل العسكري والديبلوماسي، خمدت احتجاجات مدينة فاس التي كادت أن تتحول في بعض المناسبات إلى ثورة عنيفة[445].

إن المعارضة التي كانت في المدينة عبارة عن احتجاج صارت في القبائل عبارة عن مواجهة مسلحة عنيفة. ذكر أبو العباس الولالي أن في قريته مات في عام المقتلة

(438) راجع خاتمة **مباحث الأنوار**.

(439) **مباحث الأنوار**، ص. 43.

(440) **Laroui, L'histoire du Maghreb**, p. 48. T. 2.

(441) **مباحث الأنوار**، ص. 367. وهامشها رقم 340.

(442) **Berque, Ulemas...**, p. 236.

(443) **Berque, Ulemas...**, p. 236.

(444) **مباحث الأنوار**، ص. 365، 366.

(445) **Berque, Ulemas...**, p. 237.

أربعمائة مقاتل[446]. ونحن لا نعرف بالضبط متى كانت هذه المقتلة، ويتضح من بعض المؤشرات الممكن استغلالها من النص، أن وقوعها كان في عهد المولى إسماعيل. فمن أجل تثبيت السلطة اعتمد المخزن في مواجهة القبائل البربرية الحملات العسكرية. فما وقع لقرية الولالي وقبيلته عبر عن عملّ دولة ساعية إلى المركزية وموقف قبائل متشبثة بتقاليدها وخصوصياتها والناظرة إلى عمل المخزن بأنه عنف وتسلط. فمن أجل الإعتراف بالسلطة الجديدة والخضوع لها كان العقاب قاسيا، إلا أنه من الحق القول إن المولى إسماعيل لم يصل إلى تحقيق أهدافه بالوسائل الحربية فقط، بل بتحريك عناصر أخرى.

في الوقت الذي انتهى أمر الزاوية الدلائية كانت زوايا أخرى قائمة في البوادي والمدن. وعن علاقة المخزن بهذه الزوايا لم تكن إشارات «**مباحث الأنوار**» شاملة وكافية لإظهار كل أوجه هذه العلاقة.

إن كل زاوية كبيرة كانت أم صغيرة، لعبت دورا سياسيا في مدينة فاس[447]. لكن ما أشار إليه المتن هو الدور الذي لعبه الكبار. فقد لعبت الزاوية الفاسية والمعانية دور الوسيط والضامن للسلطة العلوية بالمدينة. فالعلويون الذين دخلوا هذه المدينة بواسطة هذه القوة الروحية[448]، نظروا إلى الزوايا بفاس كعامل مساند للسياسة المخزنية. ومن هناك بدأ الحلف بين هذه الزوايا والمخزن العلوي الذي نظر باستحسان للتوازن الذي أقامته بالمدينة، فأغدق عليها الهبات والعطاءات والخدمات. وبالرغم من كون هذه الزوايا الحضرية قد استجابت عامة للوظائف التي أراد لها المخزن أن تقوم بها، فإن المولى إسماعيل أبان عن حذره تجاهها، وذلك بخلقه لزوايا شريفة منافسة كالزاوية الوزانية.

تفيدنا إشارات «**مباحث الأنوار**» في معرفة بعض الأسباب التي حددت العلاقة بين المخزن وشيخي زاوية ووزغت[449] والزاوية الناصرية[450]. إلا أنها أسباب غير كافية في نظرنا لوضع هذه العلاقة في سياقها التاريخي.

---

(446) **مباحث الأنوار**، ص. 202.

(447) Cigar, **Société...**, p. 118.

(448) عبد السلام القادري، **التحفة القادرية**، مخطوط خ ع رقم 2321ك، ص. 327، 329.

(449) **مباحث الأنوار**، ص. 346.

(450) **مباحث الأنوار**، ص. 380.

أثار تجمع الناس حول الشيخ علي بن عبد الرحمن حنق السلطان المولى الرشيد. ففي زاويته ومجتمعه بووزغت كانت الوفود تتقاطر على علي بن عبد الرحمن من بعيد. فزاويته كانت تستقطب الكثير من الزوار والهدايا التي تقدمها لها آيت عطا. وبهذا الجانب كانت الوشاية للسلطان مولاي الرشيد، إذ يقول الواشون : «الهدايا التي تدخل عليه كل يوم وخدمة الناس له وكيفية اشتغالهم بمحبته [...] لا ترد عليك [...] والخلائق المجتمعين عليه أكثر من جيشك»(451).

كان هذا التجمع حول علي بن عبد الرحمن الدرعي سبب مصاعبه مع المولى الرشيد، لكنه كان معبرا في الآن نفسه عن ماضي هذه الزاوية وعن علاقتها الممتازة التي كان شيخها يقيمها مع أهم وأكبر اتحادية قبلية. فكل ذلك أقلق السلطان فاصطدم بشيخ زاوية ووزغت، إلا أن التوتر بينهما لم يؤد إلى حوادث مؤلمة وقاسية.

أما الخلاف الذي نشأ بين هذا السلطان نفسه وشيخ الزاوية الناصرية محمد بن ناصر، فمن أسبابه الظاهرة عدم ذكر اسم السلطان في خطبة الجمعة. وهو الحجة التي بها هم السلطان بمحمد بن ناصر وهدده بتوجيه حملة عسكرية إلى درعة(452). لكن التهديد لم يزد الشيخ إلا ثباتا. فهل كان له سند اجتماعي في اتخاذه لهذه المواقف ؟

إن العلاقة التي دشنها المولى الرشيد بالعنف والتوتر أمكنها أن تجد مخرجا آخر في عهد المولى إسماعيل. فهذا السلطان الذي حمل مشروعا فكريا وروحيا لم يظهر العداء كليا للزوايا، بل عرف كيف يستعملها لصالحه(453) ونجح في تذليل ما ظهر للمولى الرشيد شائكا. فبإدراك الطرفين لمصلحتهما تم التقارب بين هاتين الزاويتين والمولى إسماعيل. فالسلطان الذي كان يدرك حجم وشغب آيت عطا، كان يرى من الضروري مدارة هاتين الزاويتين، فاستجاب لطلباتهما بما قدمه لهما من امتيازات(454). ومع ذلك، فإن السلطان لم يتخل عن موقف الحذر واليقظة في علاقته بهاتين الزاويتين وغيرهما من الزوايا بالمغرب.

(451) محمد الزبادي، **دوحة البستان**، مخطوط خ ع رقم 390، ص. 211.

(452) أحمد عمالك، «مقدمة» تحقيق **الدرة الجليلة**، كلية الآداب بالرباط، 1986، ص. 73.

(453) **Draque, Esquisse...**, p. 81.

(454) حمودي، «الإنقسامية»، **مقال سابق**، ص. 48.

القسم الثانى

النص المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

قال الشيخ الفقيه النحرير الإمام العالم العلامة القدوة البركة الدراكة الفهامة أبو العباس سيدي أحمد بن يعقوب رحمه الله تعالى ورضي عنه. آمين.

الحمد لله رافع رتبة الأبرار من عباده، خافض منزلة من أنكر كرامات أهل وداده، الحاكم [بنزول][1] رحمته عند الأولياء، الخاتم بسعادة من هو جليس لخاصته الأصفياء. والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا ومولانا محمد الذي بنور حسن اتباعه ظهر الفرق بين الداعين إلى الله تعالى والدعاة، [وبسريان][2] حقائق الإيمان به في الأسرار، اتضحت أخلاق الكاذبين من أخلاق الصادقين وما لهم من محاسن الصّفاة، وعلى آله وصحابته الذين هم لهذه الأمة أسوة في مراتب العرفان، وبسلوك منهجهم في المعاملة يفوز الفائزون بأنوار المحبة ومنازل الإحسان.

وبعد؛ فهذه مباحث أذكر فيها من محاسنهم ما يكون فيه أداء لبعض شكر ما لهم علينا من المنة، ويكون تذكرة لمن أراد أن يتذكر استمطارا لوابل رحمتهم، واستفاضة لأبحر نعمتهم[3].

فإن الكريم يغنيك عن سؤاله   توجهك لأمداحه وذكر كماله
إذا أثنى اللسان على جواد   كفاه عن تعرضه الثناء

[ورتبته][4] على مباحث ثلاثة وخاتمة :

---

(1) غير وارد في ك.
(2) رسمها غير واضح في النسخ المعتمدة والسياق يقتضي أن تكون كما أثبتنا.
(3) ك، ق : نعمهم.
(4) ورد في النسخ المعتمدة هكذا : ورتبه. والسياق يقتضي أن يكون كما أثبتناه.

المبحث الأول : في مناقب جار الله تعالى وجار رسوله ﷺ، العارف بالله تعالى سيدنا وشيخنا ومولانا محمد بن عبد الله السوسي وفي صفته.

المبحث الثاني : في مناقب الوالد رحمه الله تعالى ومناقب شيخه ومناقب الجد وأبيه ومناقب شيخه.

المبحث الثالث : في مناقب من لقيناه من المشايخ غير الأول أو كاتبناه.

الخاتمة : في ذكر من [اشتهر][5] شرفه وكونه من أهل البيت في مغربنا. وتتضمن التحريض على حبهم. ولما نويت تفصيل الكتاب على هذه المباحث، وخاتمتها، ترجمته ـ ليطابق اسمه معناه ـ بـ«**مباحث الأنوار في أخبار بعض الأخيار**».

وهذا أوان الشروع في المقصود. وعلى الله الاتكال، وهو الغفور الودود.

---

(5) أصابها المحو في ك.

المبحث الأول
في صفة مناقب العارف بالله تعالى
سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله السوسي

كان رضي الله عنه ربعة أبيض، مائلا إلى الصفرة من أخذه بالجد وعدم ميلانه إلى الراحة والنعمة، وكان معتدل الأطراف، متماسك الجسم في نحافة، جميل الطلعة، لا يحلق من شعر رأسه كلحيته شيئا. وكان يفعل ذلك اقتداء بمولانا رسول الله ﷺ، وحبا في صفة العرب، وإنما يقص شعر رأسه* على حد شحمة الأذن، ويقص اللحية على القدر المأمور به شرعا. وأصله من سوس، من بلدة تسمى تِمِلّيتْ[6]. وكان أبوه سيدي عبد الله[7]، عالما ناسكا شديد الِاعتناء بالعلم.

أخبرني العالم النحرير الشيخ الطيب[8] بن المسناوي بن محمد بن أبي بكر الدلائي، أنه كان يعرفه وأنه كان إذا اتصل بكتاب في علم لازم مطالعته حتى يصير الكتاب بين يديه مثل الرقعة : وهي جلد يبسط للدقيق، وهذا كناية على الملازمة وشدة الِاعتناء، ومن شدة اعتنائه بالعلم كان يحرض الشيخ في زمن صغره على

---

(6) تمليت أو تيملت : واحة تقع في المجرى الأسفل لواد تمنارت، أحد روافد نهر درعة الذي ينبع من الأطلس الصغير، وإليها انتسب كثير من العلماء السوسيين الذين عرفوا باسم التمنارتي. انظر : محمد حجي، **الحركة الفكرية**، ج 2، ص. 617.

(7) لعله عبد الله بن يعقوب السملالي المتوفى عام 1052هـ/1643م. راجع : محمد اليفراني، **صفوة**، ص. 125؛ محمد الحضيكي، **طبقات**، ج 2، صص. 249–251؛ محمد المختار السوسي، **المعسول**، ج 5، صص. 5–45؛ محمد حجي، **الحركة الفكرية**، ج 2، ص. 58.

(8) ستأتي ترجمته في **مباحث الأنوار** هذا. انظر هامش 243.

الاِشتغال بالعلم على عادة رغبة الوالد في ظهور ولده بالعلوم، وكان الشيخ رضي الله تعالى عنه يميل من حينئذ إلى الاِنقطاع والتبتل للعبادة*، والتورع عن المخالطة والاِنكفاف على الشبهات. وأخبرني أخو الشيخ رضي الله عنه، وهو : السيد إبراهيم بن عبد الله[9]، وهو ممن أخذ عن الشيخ بعد ظهور أمره، وممن انتفع به الاِنتفاع التام، على ما سنذكره من جملة أصحابه عند تعرضنا لبعض الأصحاب، أن أباه كان يضربه في زمن طفوليته حرصا على تغليبه الاِشتغال بالعلم على التبتل، حتى إنه ربما ضربه ضربا أدماه به، ولم يزل دأبه معه كذلك إلى أن ظهر له أن أمره إلهي[10] وأنه ممن أوتي رشده طفلا، وأن ذلك النسك* وتلك العبادة عن صفاء باطني، وإخلاص رباني، تركه وما هو به. وعلمه **الوظيفة الزروقية**[11] لأنه كان له فيها أخذ متصل بأبيه وأبي أبيه إلى واضعها الشيخ زروق[12] رضي الله تعالى عنه، ففتح له فيها ما لم يعلم أن أحدا فتح له مثله فيها، وسيأتي ذكر ذلك عند ذكرنا لمستنده في منازله ومعارفه رضي الله تعالى عنه.

ولما تركه أبوه على حاله، اشتغل بالجد من العبادة والتبتل، مع حضوره أوقات مجالس العلم، حتى كانت له معرفة حسنة بمسائل «**الصغرى**»[13] في التوحيد،

---

(9) ستردترجمته في **مباحث الأنوار** هذا. انظر هامش 251.

(10) وردت في جميع النسخ المعتمدة هكذا : إلاهي، والصواب ما أثبتناه.

(11) يقصد بتعبير الوظيفة ما يرتب من ذكر وأدعية أو آيات من القرآن الكريم، والمقصود بها هنا تلك الصيغة التي وضعها الشيخ زروق ليقرأها أتباعه ويتخذونها وردا. راجع : محمد الفاسي، **مرآة المحاسن**، فاس،1906، صص. 55–58؛ علي فهمي خشيم، **أحمد زروق والزروقية**، طرابلس، 1975، ص. 187، وما بعدها.

(12) هو أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي، صاحب الطريقة المعروفة بالزروقية والمنتشرة في المغرب خاصة، ألف كتبا عديدة في التصوف. توفي بمسراتة من أعمال بقرة عام 899هـ. ترجم له كثير من المغاربة والمشارقة، ويعتبر مؤلفه المعروف بـ«**كناشة**» أبي العباس زروق، بمثابة الترجمة الذاتية له. توجد نسختها الخطية بالخزانة العامة تحت رقم 1385 ك. انظر : أحمد بن القاضي، **جذوة الإقتباس**، ص. 64، **ودرة الحجال**، صص. 90–91؛ أحمد باب، **نيل الإبتهاج**، ط. القاهرة، ص. 84؛ محمد ابن عسكر، **دوحة الناشر**، دار المعارف، الرباط، 1976، ص. 33؛ محمد الفاسي، **المرآة**، ص. 193؛ محمد الكتاني، **سلوة**، ج 3، ط. حجرية، 1906، ص. 183.

(13) من مؤلفات محمد السنوسي وتسمى بـ«**أم البراهين في العقائد**».

ومسائل «**الرسالة**»[14] ومسائل «**خليل**»[15]، وكان يحضر التفسير والحديث، ويقرأ السير، حتى حصل له من ذلك* جملة وافرة. واستمر رضي الله تعالى عنه على تلك الحالة من الإستغراق في التبتل إلا في أوقات يسيرة للعلم، مواصلا لأبيه، راعيا لحقوقه وخدمته بما أمكن إلى أن توفي أبوه رحمه الله، فجدد عزما أعلى، وشغلا هو في الإنقطاع عن الخلق أظهر وأجلى. وكان يأتي المقابر فيقول : أنا ميت وهؤلاء موتى، وقد انقطع عملهم وأنا بعد لم ينقطع، فيتقوى على ملازمة الأذكار والعبادة حتى فتح عليه. وأخبرني ثقة من أصحابنا أنه سمع الشيخ يقول : لما توفي أبي رحمه الله ودفنته قلت لنفسي : هذا أبي قد توفي، أليس لك مثل ما له ؟ فاشتغلت بالصحيح حتى فتح الله تعالى علي، قال : وسمعته* يقول : كنت في زمن المجاهدة[16] أضيق على نفسي من قلة الأكل حتى قواني ربي عنه، فكنت أتقوى بلطف الله تعالى وبذكره، حتى إنه ربما طال الأمر بيني وبين الطعام فأقول : متى أكلت وفي أي زمن طعمت ؟ استبعادا لزمن الطعم حتى انجلى عني، قال : وكانت تستقبلني في زمن السلوك[17] أمور عظام فأقتحمها مستعينا بالله تعالى ولا تصدني عن ما أنا بصدده فلا أستريح فيها حتى أخلفها بالوراء.

قلت : قد تقرر في مذهب القوم، أن الإنسان بعد فراغه من قطع العقبات، أعني عقبات العلم والتوبة[18] والفوادح والعوارض والبواعث والنفس والشيطان والدنيا والحمد والشكر، يبتلي بأمور متى وقف عند واحد منها انقطع، فيعرض عليه* ملك

---

(14) هي رسالة ابن أبي زيد القيرواني في فروع الفقه المالكي، اعتنى بها فقهاء المالكية غاية العناية، ولها عدة شروح منها : «**شرح المطول على الرسالة**» لعبد الواحد الونشريسي؛ و«**تحرير المقالة في نظم الرسالة**» للإمام ابن غازي.

(15) المقصود هنا هو «**مختصر خليل**» في الفقه لصاحبه خليل بن إسحاق المصري من أكبر فقهاء المالكية المتوفى عام 776هـ/1734م. حظي مؤلفه هذا بإقبال كبير في الغرب الإسلامي. وتداوله العلماء والطلبة وتعددت شروحه. انظر : ابن أ. ابن القاضي، **درة**، صص. 257-258؛ أ. بابا، **نيل**، ص. 111.

(16) في اللغة المحاربة وفي الشرع محاربة النفس الأمارة بالسوء بتحميلها ما يشق عليها مما هو مطلوب في الشرع. علي الجرجاني، «**التعريفات**»، ط. الدار التونسية للنشر 1971، ص. 108.

(17) السالك هو الذي مشى على المقامات بحاله لا بعلمه وتصوره، فكان العلم الحاصل عينا يأبى من ورود الشبهة المظلة له. علي الجرجاني (ت. 69).

(18) يقصد بها العودة إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب ثم القيام بكل حقوق الرب. علي الجرجاني (ت. 41).

الدنيا وخدمة أهلها له، وتعرض عليه منزلة من منازل التعرف ويعرض عليه التواب الأخروي، وتعرض عليه محاسن الكون كلها وغير ذلك، والمومن من لا يقف عند شيء من ذلك، بل يقول : الله، ثم يذر ذلك كله و«إلى ربك المنتهى»[19]. على ما نبه على ذلك ابن عطاء الله[20] رضي الله تعالى عنه، حيث قال : ما توجهت لك محاسن المكونات، إلا ونادتك بلسان الحال المقصود أمامك، إنما نحن فتنة فلا تكفر[21]. أو كلاما هذا معناه طال العهد به.

ونحو هذا ما روي : أن أبا يزيد جلس ليلة على صدور قدميه إلى قرب
الصباح، وهو ينظر إلى السماء لا يطرق*، وكان بإزائه رجل من أصحابه اسمه يحيى 11
يرى حاله، فلما رجع إلى حال إحساسه فالتفت إلى الرجل فقال له : يحيى ! فقال
نعم يا سيدي، ما هذا ؟ فقال له أبو يزيد : أحدثك بشيء مما تستطيقه لعله
ينفعك، إنه ألقاني في الفلك الأدنى، فدورني فيه حتى أراني ما في جوفه، ثم في الفلك
الذي يليه، ثم كذلك حتى أراني جميع ما في أجواف الأفلاك، وحتى رأيت الجنة
والنار، فقال لي : انظر أي شيء تريد حتى أعطيك، فقلت له : لا أرى في هذا شيئاً
يعجبني، فقال لي : أنت عبدي حقا، لأفعلن بك ولأفعلن، فقال ذلك الرجل : لم لم
تسأله أن تعرفه ؟ فصاح أبو يزيد وقال له : اسكت ؟ إني أغار عليه أن يعرفه غيره،
وهذه غيرة الأكابر*. 12

ورأيت في بعض الكتب، أن من أكبر ما يبتلى به السالك أن يكشف له عن ذات الروح، فيرى ما لا ينتهي في نظره ولا مثل له في شهوده، فإن لم يصحبه فضل الله ونعمته أعتقد أن ذلك من الكشف عن الذات العليمة فيسقط والعياذ بالله تعالى

---

(19) وردت عند ابن عطاء الله في حكمه وهي اقتباس من الآية : 42 سورة «النجم». انظر : **متن الحكم العطائية**.

(20) هو تاج الدين بن عطاء الله، اسمه أحمد بن محمد بن عبد الكريم، متصوف شاذلي، كانت له خصومة مذهبية مع شيخ الإسلام ابن تيمية. نشأ بالإسكندرية وتوفي بالقاهرة، وتتلمذ على محيي الدين المازوني وناصر الدين بن المنير السكندري وشرف الدين الدمياطي وغيرهم. من مؤلفاته : «**الحكم**» وهي في آداب السلوك إلى الله؛ و«**لطائف المنن**»؛ و«**مفتاح الفلاح : مصباح الرواح**» وكلها مطبوعة. انظر : خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج 1، ص. 45.

(21) ورد هذا الكلام مع تبديل في اللفظ عند ابن عطاء الله في حكمه انظر : **متن الحكم العطائية**.

من حيث لا يرى. فلعل الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ يشير في كلامه إلى مثل ذلك، ومن سبقت له العناية لم يضره شيء.

وكان الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ شديد الورع(22)، كثير التحري في المطعم في أوان مجاهدته، وكان محفوفا بلطائف الحفظ من الشبهات، مصحوبا بحواجب
النعم عما يقرب من* المحرمات، حتى إنه وقع في ابتداء أمره فلتة أكل طعام فيه 13
شبهة(23) وهو لا يعلم، فمرض مرضا شديدا فسمع هاتفا يقول للآخر : أمخضوا الرجل فإنه أكل الشبهة فرفع في الجو فمخض مخض الوطب فقاء حتى خرج ما في جوفه فعوفي من حينه. وفي مثل هذا يقول أبو العباس المرسي(24) رضي الله عنه : الورع من ورعه الله تعالى. قال أبو العباس : وكنت أقول هذا وأصحابنا يتكلمون في الورع، وكل واحد يفسره بما انتهى إليه علمه. ثم إنا خرجنا لمكان، فوقع أصحابنا في أكل ثمار من بستان ظنوها لبعض الأصحاب ممن أذن في الأكل منها، وكنت
ممنوعا من الأكل، فإذا الأمر ليس كذلك، وإذا رب البستان يصيح* ويقول : كيف 14
استحللتم أن تأكلوا ثمار بستاني من غير إذن ؟ فقلت لهم : ألم أقل لكم أن الورع من ورعه الله تعالى .

وكان الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ في ابتداء أمره عليما أخبر عنه بذلك الثقة، يتلون في الأذكار على حسب واردات الأنوار، فكان يلتزم تلاوة القرآن على حسب غلبة الوارد عليه المقتضى لالتزامه، حتى لا يسمع منه بعد الصلوات الخمس غيره، وربما اقتضى له الوارد ملازمة الصلاة على النبي ﷺ ـ حتى لا يسمع منه غيرها أزمانا. وكان ترد عليه واردات تقتضي أفعالا فيساعد على مقتضاها أبدا، حتى

---

(22) هو اجتناب الشبهات خوفا من الوقوع في المحرمات وقيل ملازمة الأعمال الجميلة. ع. الجرجاني، **التعريفات**، ص. 146.

(23) هو ما لم يتيقن كونه حراما أو حلالا (**المصدر نفسه**، ص. 72).

(24) هو أبو العباس أحمد بن عمر الخزرجي، ولد ونشأ في مرسية بالأندلس وإليها نسب، وهو من أشهر مريدي الشاذلي، صحبه في رحلته إلى المشرق وأقام معه بالإسكندرية إلى أن توفي بها عام 685هـ/86-1287م. (انظر : محمد بن مخلوف، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، ط. دار الفكر، ص. 187؛ خ. الزركلي، **الأعلام**، ج 5، ص. 39؛ **دائرة المعارف الإسلامية** : مادة «أبو العباس المرسي»).

15 إنه ربما ورد عليه وارد يقتضي حركته فيخطر بباله* أن الناس ينظرون فيقول : حجارة
حجارة حجارة، ويكرر لفظ الحجارة والناس لا يدرون ما يريد، حتى بين ذلك بعد
حين ذكر بعض وارداته، وأن مقصوده أنهم كالحجارة لا يضرون ولا ينفعون، فكيف
يلتفت إليهم وإلى نظرهم في مقتضى الوارد، حيث لا جبر يكون أدبا، حيث يفهم أن
مراد الحق تعالى ظهور مقتضاه وبروزه للعيان.

ولم يزل الشيخ على حال الإنقطاع عن الخلق والتبتل إلى الله تعالى في مدينة
مراكش، وذلك بعد موت أبيه وانتقاله من سوس إليه. وكان أهل الخير والدين من أهل
16 مراكش يتوسمون فيه الصلاح الأعظم، إلا أنهم لا يستطيعون* مخالطته من هيبته وتمنعه
من الخلق. واستمر أمره كذلك إلى أن فتح له فتحا جذبيا لم يسمع أن أحدا من
الصالحين فتح له مثل ذلك على ما نشير إليه بعد، حيث ننبه على ما صرح به من
بعض أمره ـ رضي الله تعالى عنه ـ، فاجتمع له ـ رضي الله تعالى عنه ـ البلوغ
بطريق الجذب[25] والسلوك التامين.

ولما أراد الله تعالى إحياء القلوب بنوره، وتنعيم من شاء بمخالطته وظهوره، أذن
له في الظهور لسياسة الخلق، وألزم أن يكون قدوة وإماما لكل طالب في زمنه لصراط
الحق. فحكى غير واحد أنه هدد على عدم ظهوره، إذ كان يرى أن الأمر القريب
للقبول هو التستر والخمول بأمور عظام، لم يجد معها بدا من إفشاء سره وإظهار
17 شواهد أمره، إنه في وقت الظهور ـ كما روي* ـ لم يرخص له في تأخير ساعة، بل
سد عليه أبواب مسجد أريد بيان أمره فيه، وكلمته أساطينه وصرحت له بأن ذلك
الأوان أوان الظهور لإنفاع العباد، فاستسلم لحكم الله تعالى وقام أدبا مع الله تعالى.

فروى لي التقي النقي الصادق الوفي العالم الدراكة، الشيخ علي العكاري[26]، أنه كان في ذلك الوقت، أعني وقت ظهوره في المسجد الذي كلمته أساطينه حاضرا في أول ظهوره فيه، وذلك أنه كان ماشيا حتى انتهى به المشي اتفاقيا إلى ذلك

---

(25) منها جاءت كلمة المجذوب، وهو من اصطفاه الحق لنفسه واصطفاه بحضرة أنسه وأطلع بجناب قدسه ففاز بجميع المقامات والمراتب بلا كلفة المكاسب والمتاعب. (ع. الجرجاني، **التعريفات**، ص. 107).

(26) ستأتي ترجمته في **مباحث الأنوار** هذا.

المسجد، فرأى حلقة تنعقد بالناس على رجل، فذهب لينظر ـ والسعادة تسوق
18 صاحبها إلى أسبابها* ـ فلما رآه وقع في قلبه منه ظن جميل، فجلس مع المتحلقين، فإذا كل يطلب ما أراد من ذلك الرجل، والشيخ علي العكاري حينئذ قد فاته الإشتغال بالعلم في أوان الشبيبة الأولى، وفاته حفظ القرآن وحفظ الأمهات[27]، إلا أنه تجدد له الندم على ما فات، وصار حينئذ راغبا في تعلم العلم وفي التوجه لمجاهدة نفسه بالعلم، قال : فلما رأيت الناس يطلبون من ذلك الرجل طلبت منه تيسير العلم وتيسير العمل به، وكنت في غاية الحيرة لفوات وقت الحفظ بكبر سني، ولما دعا لي رجعت بحالة أخرى وصرت كالظافر بعد الإياس، وكالغني بعد الإفلاس، قال : وفي تلك الليلة أو بعدها بقليل رأيت في المنام أكمة مخلوقة من العسل والسمن وكلت
19 إليها*، فقيل لي كل ما شئت، وتؤولت لي أنها العلم والعمل، أو أنها علم الظاهر [والباطن][28]، لا أدري أي هذين قال لطول العهد به، وكلاهما قريب من الآخر، قال : وقيل لي في السر : إن هذا أوتيته من ذلك الرجل الذي دعا لك، يعني الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ، قال : ولم تزل تلك الحلقة تعظم والناس يجتمعون حتى كادوا يقتتلون عليه، بل كادوا يقتلونه بالإزدحام.

وكان الموكل بذلك المسجد إذ ذاك هو العالم المشهور البركة إمام مراكش في ذلك الوقت الشيخ محمد [بن سعيد][29] السوسي ثم المرغيثي[30]، فلما رأى
20 الإزدحام على الشيخ أدركته الشفقة* عليه فأخذ بيده من بين الناس وأدخله خلوة له هناك، وكان يعرفه قبل تلك الساعة، ثم قال له : ما هذا؟ أهو إذن من الله تعالى ؟ فقال له الشيخ : نعم ! هو إذن، فلم يحتر ابن سعيد من أمره، فألقى إليه نفسه على كبر سنه ورفعته علما وعملا، وأتاه بولده الفقيه محمد بن محمد بن سعيد[31]، فألقاه إليه وطلبا منه الأخذ وقبول الصحبة، فأجابهما.

(27) كانت الأمهات تعني في القرون الأولى الأصول التي يرجع إليها في مختلف العلوم، وتطور مفهومها فأصبحت تعني في عصر الإنحطاط : النصوص المختصرة التي تحفظ عن ظهر قلب، ويقصد بها هنا مثل : «**ألفية**» ابن مالك في النحو والصرف ؛ و«**مختصر**» ابن الحاجب ؛ و«**مختصر**» خليل في الفقه. (انظر : م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 1، ص. 83).

(28) جاءت مكررة في ق.

(29) سقطت من ق.

(30) سترد ترجمته في **مباحث الأنوار** هذا. انظر هامش 217.

(31) سترد ترجمته في **مباحث الأنوار** هذا. انظر هامش 217.

ولم يزل الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ يتوب الناس على يده بمراكش ويأتونه
أفواجا منه ومن غيره، ويمدهم بمدد أنوار الإيمان والمحبة. وأخبرني الشيخ علي العكاري
المتقدم ـ وكان يتردد إليه بعد الملاقاة السابقة ـ أنهم كانوا يعرفون من أخذ عنه ولو لم
21 يخبرهم ذلك الآخذ عن* نفسه بتبدل حاله، وتغير لونه، وظهور جمال الباطن على
وجهه.

ثم إنا نحن شاهدنا مثل ما أخبر به في من يأخذ عنه عند ملاقاتنا له بعد،
قال : وهو من أكبر أهل التحري صدقا، وأوثق أهل المحافظة على النقائص اللسانية
بحيث لا ينكرها له أحد إلى الآن، إنا كنا نتحدث أنه لابد أن تنتهي الدورة[32]
العددية إلى أصحاب الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ، قال : وكان الشيخ ـ رضي
الله تعالى عنه ـ قليل الكلام لا يتكلم من غير نفع أو بغير إذن، حتى فهم ذلك
عنه، بل صرح به وقال : أنا لا أقوم إلا بإذن، ولا أجلس إلا بإذن، ولا أتحرك إلا
22 بإذن، ولا أتوضأ في وقت مخصوص إلا بإذن ولا أتكلم* إلا بإذن.

وكان يقول : أنا كناقة رسول الله ﷺ دعوها فإنها مأمورة. قال الشيخ علي
العكاري المذكور : ولما تقرر ذلك عند أصحابه، كان بعضهم ربما تحمله الشفقة على
من عسى أن ينكر ما يسمع من الشيخ من عجائب الأحوال، فيقول على رأس[33]
الشيخ عند ذلك اقتباسا من القرآن العظيم وتحقيقا للأسوة برسول الله ـ ﷺ ـ :
«وما ينطق عن الهوى»[34]. قال : ويسمع الشيخ ذلك من القائل ولا ينكره.

وحدثني الثقة أنه دخل عليه في خلوة فأذن له في تقبيل رجله، وقال له إنه
يعرج بي في اليقظة وفي المنام. قال : ووجدته في تلك الحالة كالراجع من سفر.
23 قلت : وهذا* العروج الروحاني لا ينكر على الأولياء، فإنه يحصل لهم بتحقق اتباعهم
لمحبوبهم المعروج به ذاتا وحسا، وهو سيدنا ونبينا ومولانا محمد ـ ﷺ ـ كما تقدم في
حكاية أبي يزيد، وأنه ألقي في الأفلاك. وحدثني الثقة : أنه ربما دخل على الشيخ

---

(32) ق : الدروة.

(33) س، ق : قدمت الألف على الراء.

(34) سورة النجم، الآية 2.

لزيارته فيجده الداخل في حال فيقول له : وجدت الشيخ أبا العباس السبتي[35]، يعني دفين مراكش، قد خرج قبيل دخولك بقليل.

وكان ممن أخذ عنه في مراكش وغيره، طلبة العلم وأولاد الفقراء الذين هم
أصعب الناس وأبعدهم عن طريق الفقر، وسيأتي ذكر جملة منهم. وحدثني صدوق
24 من أصحاب الشيخ : أن* من عادتهم معه ــ رضي الله تعالى عنه ــ وقوفهم عليه يوم
العيد للتبرك والمواصلة كعادة الناس مع الأكابر، قال : ومن عجيب ما شهدت أنني
جئته مع نفر من أصحابنا في يوم عيد، فلما قاربنا باب الخلوة أو وصلنا إليها ولم نجده
فيها، أقبل بإثرنا وهو يقول ــ وعليه أثر غبار السفر ــ سبحان الله ! هذا أول
أصحابي توفي فرفع ! وجعل يكرر هذا الكلام، قال : فهبنا أن نكلمه.

وكان الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ مهابا هيبة عظيمة، وسنشير إلى وصفه
بها وإلى أصلها، قال : وسكتنا عن ذلك الأمر، وعرفنا أن له قصة، وبقينا أياما ونحن
نسأل هل توفي أحد بمراكش أو ما يقرب منه يوم العيد، حتى جاء الخبر عن بعض
25 آفاق* مراكش بمكان بعيد على نحو اليوم أو اليومين، بأن رجلا من أصحاب الشيخ
توفي يوم العيد، فبينما هم في التهيئ لإقباره، إذ رفع في الجو واتبعوه النظر حتى لا يرونه
فرجعوا إلى منازلهم متعجبين، قال : فعرفنا أن الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ ذهب
ليحضر جنازة صاحبه.

وحدثني أيضا بعض أصحابنا ممن أثق به، أن الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ
ذهب وحده في بعض أسفاره إلى سوس، لأنه كان لا يخطر بباله خوف الخلق، وكان
يفهم منه كل أحد ممن لقيه هذا المعنى كما يفهم منه شدة التوكل في الرزق، فبينما هو
26 يمشي في بعض ثنايا جبال سوس، إذ خرج عليه جم غفير من* الرماة[36] وذلك عند

(35) اسمه الكامل : أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي المعروف بسيدي بالعباس السبتي. شخصية صوفية لعبت دورا سياسيا في مدينة سبتة وأولاها ملوك الدولة الموحدية عناية خاصة. توفي يوم الإثنين 3 جمادى الآخرة عام 601هـ/1204م. ودفن بمراكش. ترجم له وذكر كراماته وبركاتها ابن الزيات، **أخبار أبي العباس السبتي**، نشره محققا أحمد التوفيق، 1984. وترجم له الكثيرون منهم : ابن الزيات، **التشوف**، صص. 451ـ477؛ أحمد الناصري، **الإستقصا**، ج 2، ص. 261؛ العباس بن إبراهيم، **الإعلام**، ج 1، ص. 271؛ محمد بن الموقت، **السعادة الأبدية**، ط. فاس 1918، ج 2، ص. 14.

(36) لهذه الكلمة معنى اصطلاحي ومعنى عام، وهي هنا قد استعملت في هذا المعنى الأخير، فتعني الذين يترصدون السابلة في الطرقات لنهب أموالهم. وكان من أهل الساحل من يقوم بذلك، ويسمونهم بالرماة أو الراصدين. (راجع : فهرسة ابن ناصر، مخطوطة خ ع تحت رقم 406خ، ص. 19).

طلوع الشمس وإذا أشعة الشمس تكاد تخطف الأبصار بملاقاتها لصقل مدافعهم، قال : فلما رآهم وعرف أنهم إنما برزوا بقصد قطع الطريق على المارين، صاح عليهم باسم الجلالة بأن قال : الله، ولما صاح عليهم باسم الجلالة سقطوا عن آخرهم، فلم يبق منهم رام[37] ولا متحرك، فمضى الشيخ لسبيله حتى بلغ إلى قرية فقال لبعض أهلها ــ أظنه مؤذن تلك القرية ــ : اذهب إلى الموضع الفلاني، فقد خرجت فيه علي جماعة يقطعون الطريق فصحت عليهم فسقطوا، فإذا وصلت إليهم فأذن باسم
27 الله تعالى ليقوموا لعلهم يتوبون، فذهب ففعل بما أمره به* الشيخ فقاموا[38].

وحكى لي بعض أصحابنا أيضا أن الشيخ ابن سعيد المتقدم كان يداعب الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ ويقول له : الحمد لله الذي سخر لنا الأسد فصرنا نحمل عليه الأثقال وكان قبل هذا ممتنعا، والشيخ يبتسم. وكان الشيخ ابن سعيد شديد الحب في الشيخ لما ذاق بمعاشرته. ثم إنه يوما أقبل إليه هو وواحد من أهل البيت، فلما وصلوا إلى باب الخلوة اقتحم ابن سعيد على الشيخ قبل ذلك الشريف الذي معه، دلالة على الشيخ وحبا فيه، ثم دخل الشريف بعده، فلما رأى الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ تأخر الشريف، تغيظ على الشيخ ابن سعيد من عدم تقديمه
28 الشريف في الدخول، ورأى أن ذلك فيه سوء أدب مع أهل البيت، وكان الشيخ* ــ رضي الله تعالى عنه ــ شديد الحب لأهل البيت، وكان يعرف ذلك منه، وكل من لقيه يشهد بأن حبه فيهم خارج عن المعتاد، وكان لا يرى واحدا منهم إلا قام إليه وقبله بين عينيه وإن ألقاه في المرض، وكان يقول : أعرف في أهل البيت معنى[39] لا أحتاج معه إلى دليل. ودخل عليه يوما واحد منهم فسلم عليه وقال له : كلمتني السيدة فاطمة البارحة بمثل نغمتك، فكان ذلك منقبة لذلك الشريف ودليلا على تحقق نسبه بالمنصب الأرفع.

---

(37) وردت في النسخ المعتمدة : رامن، والصواب كما أثبتناه.

(38) كثيرا ما نعثر في كتب «المناقب» على مثل هذه الكرامات، وهو ما يمكن أن يدعى بأدبيات السفر. فلا غرابة أن يظهر الصوفي في وقت كانت فيه الطرق غير آمنة كقاهر للصوص وممارسي الحرابة. راجع : محمد مفتاح، **التيار الصوفي بالمغرب والأندلس**، ص. 84 (أطروحة جامعية لم تنشر، كلية الآداب بالرباط، 1981).

(39) س : بمعنى.

ثم أفضى به التغيظ على ابن سعيد أن ضربه بصفح يده، وقال له : قم عني، فقام فزعا، واتفق إطفاء المصباح حينئذ، فأحس ابن سعيد من نفسه بالسلب على ما
29 أخبر به عن نفسه، وبكى إذ لم يجد من* نفسه حراكا دينيا فخرج حتى خرج ذلك الشريف وأتى [به][40] شفيعا للشيخ وقدمه إليه باكيا، فأصابت الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ الشفقة عليه وأدركته عليه الرحمة فقربه وضربه ضربة أخرى عاد إليه بفضل الله تعالى بها ما فقده بالضربة الأولى، وزيادة عظيمة في المدد لم يكن يعتادها الشيخ ابن سعيد، فقال له الشيخ : هكذا أردتك أن تتأدب مع أهل البيت، فقام الشيخ ابن سعيد إلى المصباح حالفا أن لا يوقده غيره، فأوقده على كبر سنه، فوجد لذلك بركة عظيمة، فمن يومئذ يتأدب مع الشيخ تأدبا عظيما، ولا يتكل على المحبة
30 في سقوط الأدب، ولا يدخل على الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه* ــ ومعه واحد من أهل البيت إلا وقدمه إليه. وسيأتي بعض ما شهدنا نحن من تعظيمه لأهل البيت.

ولما فشا سر الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ في أصحابه وسرى لطف قوة الإيمان في قلوبهم من بركته، تشوفوا لمن أخذ عنه تلك الحالة العظمى، وما أستاذه في تلك المعرفة والمحبة الكبرى، إذ لم يظهر له أستاذ مشهور، وسمعوا من الشيخ أمورا عظاما تسر، وظهر لهم مصداقها في عدده وحاله. فمنها أنه قال لهم : قيل لي إن فلانا، يعني رجلا مشهورا بالأتباع في ذلك الزمان يتبعه الشقي والسعيد، وأنت بحمد الله تعالى لا يتبعك إلا سعيد. وقال لهم : ليس لأحد من أولياء الله تعالى منة علينا،
31 بل أطأ في أكناف أحيائهم ولا* يستطيعون أن يقولوا[41] أحْ[42]، وكلهم يحتاجون إلينا . ولما سمع بعض من ظهر في ذلك الوقت هذا القول، جمع بين يديه إلى الوراء[43] كالمستأسر وانحنى[44] وقال : كلنا نحتاج إليه، وقال لهم : كانت تتبعني ثمانون ألفا من الروحانيين فقيل لي أسأل الله تعالى أن يبدلهم لك تلامذة من الإنس ؟ قال : فسألت الله تعالى فاستجاب لي، وأمثال هذا مما لا يحصى كثرة كقوله : أصحابي لا يحتاجون إلى زيارة أحد من الأولياء.

---

(40) ما بين معقوفتين زيادة من **الإعلام** للتعارجي، ج 6، ص. 299، في نقله عن **مباحث الأنوار** هذا.

(41) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : يقول : والسياق يقتضي أن تكون كما أثبتناه.

(42) بفتح الألف أو ضمها والحاء المهملة، يدل على وجع الصدر يقال : أح الرجل إذا سعل (ع. الجرجاني، ت. 56).

(43) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : الورى. والصواب ما أثبتناه.

(44) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : انحنا. والصواب ما أثبتناه.

فلما قوي تشوفهم لأستاذه على عادة تطلع النفوس إلى ما تطمئن به، سألوه عن ذلك، فقال لهم : الكتاب يأمرني وينهاني، والسنة تربيني. ثم أعادوا السؤال إذ لم
32 يكتفوا بذلك لأنه عام ومرادهم ما هو أخص، فكرر الجواب مثل* الأول.

ثم إنه يوما سأله واحد من أهل البيت وهو كبير السن وشدد عليه في المسألة، وهو ممن أخذ عنه، فقال له ياسيدي : إنما نريد أن تبين لنا أصل طريقتنا، فلما أحفاه في المسألة، اهتز الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ اهتزاز المهند، فقال له : سألتني عن أمر عظيم، ثم مد يده، فقال : هذه يد عمر بن الخطاب ــ رضي الله تعالى عنه ــ، وصدق ــ رضي الله تعالى عنه ــ، فإن أحواله تدل على ذلك، كحال هيبته، بحيث إنه كانت تخضع له عظماء الملوك وكبراء العلماء وأئمة الدين، وكحال صلابته في الحق[45] ولزومه نهاية الجد، بحيث لا تراه ضاحكا ولا متراخيا، ولا جالسا جلسة
33 الإطمئنان، ولا نائما بالليل، ولا ذاكرا غير* ما فيه نفع أخروي أو دنيوي، عائد إلى الآخرة، مع رحمته للضعفاء وتوقيره للشرفاء، وعدم خوفه في الله لومة لائم، وزهده في المطعم والمشرب، فكان لا يأكل إلا طعاما خفيفا هو الحريرة مع حبات من عجين مطبوخة فيها وفي وقت واحد ما بين الليل والنهار، واختار كون ذلك الوقت قبيل صلاة الصبح بعد الفجر للتستر وللتقوى بعد الضعف الناشئ عن السهر، لأنه كان لا ينام ليلا كما ذكرنا.

هكذا شاهدناه وشاهده غيرنا دائما ــ رضي الله تعالى عنه ــ. وهذه طريقة عمرية بينها قول مولانا عمر في خلافته : «إن نمت النهار ضيعت الرعية وإن نمت ليلا
34 ضيعت* نفسي، فكيف بالنوم لي بين هاتين ؟» إلى غير ذلك مما رأيناه له وشهد له به العدو والصديق، وكل ذلك دليل حق وشاهد صدق على مطابقة خبره للواقع، وسيأتي ما يدل على أن أخذه عن سيدنا عمر بن الخطاب ــ رضي الله تعالى عنه ــ كان يقظة، وهو أعلى مما وقع لولي الله تعالى ابن هواري[46]. فإنه لما تاب إلى الله تعالى

---

(45) ق، ك : للحق.

(46) هو محمد الهواري، من بين أوائل صوفية القرن التاسع الهجري، قصد زاويته بتلمسان كثير من طلبة العلوم الدينية والفقهية وغيرها ليستمعوا إلى الشيخ الهواري. وقد أدرك ملوك العصر والأغنياء ما للشيخ الهواري من قوة فضيقوا عليه. توفي عام 843هـ/1439م. ترجم له ابن صعد في **روضة النسرين في مناقب الأربعة الصالحين**، مخطوط خ ع رقم : 1006 ك، حيث تكلم عن تكوينه وثقافته البسيطة وحياته.

وقف عليه في المنام النبي ــ ﷺ ــ، وأمر أبا بكر أن يلبسه الخرقة[47] ليكون شيخه، فاستيقظ ابن هواري ووجد الخرقة عليه عيانا، وهذه الرؤيا وإن كانت قريبة من اليقظة لكنها ليست نفسها حقيقة.

وفي الشيخ يقول بعض أصحابه إشارة لهذا المعنى حال جواره مكة المشرفة
35 والمدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، كما سيأتي في مدحه* له في شعر :

هو العمري المشهور حالا وهيبة ... هو الحسني الشوق بكري التجمل
فمن كان عبد الله يدلي بأنه ... لدى المصطفى يهنيه حسن التبتل

ولم يزل أمر الشيخ بعد ظهوره بمراكش في ازدياد حتى بلغت أخباره إلى الآفاق والبلاد، وكنا نحن إذ ذاك بالزاوية البكرية نقرأ على الشيخ العلامة الدراكة الشهير الحسن بن مسعود اليوسي[48] ــ رحمه الله تعالى ورضي عنه ــ. وكان من جملة الملازمين لمجلس درسه الفقيه الدراكة الشيخ أبو عبد الله محمد العكاري[49]، أخو الشيخ علي العكاري[50] المتقدم، وكان معه في بيته في المدرسة الناسك الأرضى والنبيه
36 المرتضى الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الصومعي[51]*، كان يقرأ على

---

(47) يرى الصوفية أن للخرقة، كما الشأن بالنسبة للضيافة والسبحة، أصلا من السنة. ويروون لبس الخرقة بسند متصل ينتهي إلى علي بن أبي طالب وأويس القرني. (راجع : أ. المجاري، **المنهاج الواضح**، ص. 159، وما بعدها).

(48) من أبرز علماء المغرب وأقطاب الفكر به في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، يلقب بأبي علي. ترك إنتاجا علميا غزيرا تناول فيه مواضيع وقضايا متنوعة تشهد على أصالته ومقدرته الفكرية وقد أبرزت الدراسات الحديثة جوانب من عبقريته. كانت ولادته حوالي عام 1040هـ/1630م ووفاته 1102هـ/1692م. (راجع : م. القادري، **التقاط الدرر**، ط. دار الآفاق بيروت 1983، ص. 258؛ أ. الناصري، **الإستقصا**، ج 4، ص. 51؛ ع. بن إبراهيم، **الإعلام**، ج 3، ص. 154؛ خ. الزركلي، **الأعلام**، ج 2، ص. 237؛ م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 2، ص. 503؛ **J. Berque, Al Youssi, (Problèmes de la culture marocaine au 17e Siècle, Paris, 1958.**).

(49) هو أبو عبد الله محمد بن محمد علي الشريف الحسني، درس بالزاوية الدلائية وأجازه الشيخ اليوسي إجازة عامة. ابتدأ بالتدريس بالزاوية الدلائية ثم قصد مع أخيه مدينة فاس ودرس بها إلى أن استقر به المقام بمدينة مراكش التي بها توفي عام 1092هـ/1682م. راجع : العكاري الحفيد، **البدور الضاوية في ذكر الشيخ وأصحابه وتلامذته وبناء الزاوية**، مخطوط خ ع رقم 188؛ م. حجي، **الزاوية الدلائية**، صص. 114-116.

(50) ترد ترجمته في **مباحث الأنوار** هذا. انظر هامش 234.

(51) سترد ترجمته في **مباحث الأنوار** هذا. انظر هامش 241.

الشيخ محمد العكاري المذكور، لأنه أكبر منه سنا وأسبق منه إلى الأخذ في العلوم، وكان يحضر معنا أحيانا مجلس الشيخ ابن مسعود، فبينما نحن كذلك، ونحن لا نرى شيئا فوق تعلم العلم، إذ ورد علينا من مراكش الشيخ علي العكاري المتقدم، قاصدا لأخذ العلم عن شيخنا المذكور، فدخل معنا فيما نحن بصدده. فكان مع أخيه في البيت فإذا هو بحالة أخرى من التحري ومجاهدة النفس والوقوف على الحدود، فكان لا يغتاب أحد بين يديه، ومع ذلك فهو يشاركنا في أخذ العلوم الآلية عن الشيخ ابن مسعود، مثل : البيان والمنطق وأصول الفقه وغيرها كالفقه وأصول الدين، وكان له
37 إدراك حسن في ذلك*، مع عدم حفظه للـ**أمهات** وعدم حفظه للـ**قرآن**، ومع عدم اعتنائه بكثرة النظر في الحواشي والشروح. فكان لا يقرأ كتابا صعبا، في فن صعب، مثل «**المحلي**»[52] إلّا وترك العود إلى إعادته زاعما أنه لا يحتاج إلى الإعادة، وهو كذلك.

ولم يكن يذكر أن ذلك من بركة الشيخ للناس، لما يعلم مما طبع عليه الطلبة من إنكار أمر الفقراء، إلا أنه ربما أثنى على الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ بمحضر أخيه ومحضر الفقيه الأرضى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الصومعي. وكانت لي مع الصومعي صداقة خاصة، فأثر ذلك الذكر في صاحبنا الشيخ محمد بن عبد الرحمن الصومعي فحلف ليصلن إلى الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ، فلما توجه إليه حين
38 تقوى عزمه على السفر إليه* وهو بمراكش شيعوه.

وكنا نحن نرى أن ملازمة العلوم التي نحن بصددها أوفق لأحوالنا، وعلى ذلك المذهب شيخنا ابن مسعود، حتى إنه لما رجع العكاريان من تشييعه لامهما على تركه ليذهب قاطعا لما هو بصدده من أخذ العلم، فاعتذرا له بأن له نية وعزما حسنا، وأن التيسير الذي هو من علامة الإذن حصل له حتى إنه خرج بلا راحلة واتفق أن صادف من تحمل له بالركوب إلى مراكش، واتفق أن صاحب من يأمن معه في الطريق، والطريق إذن كانت مخافة، فقال لهما الشيخ ابن مسعود : إن ذلك من الفتنة في العاجل، يعني فكيف يكون الأمر في الآجل ؟ وما قاله الشيخ ابن مسعود، قاله

---

(52) هو كتاب في علم الأصول لابن السبكي وقد شرحه عبد الرحمن بن جاد البناني المتوفى عام 1198هـ/1784م وطبع بمصر أكثر من مرة.

عن اجتهاد منه، ومحبة في فشو العلم، ورغبة في حصول* المراد من العلم للمسافر 40\39
المذكور، لما يرى فيه من القابلية، ولكن الاجتهاد الظاهر لا يرفع السعادة الباطنية التي جذبت ذلك المسافر إلى محلها.

فلما ذهب إلى الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ غاب عنا أمره مدة إلى أن جاء معه قادما للزاوية البكرية رافضا لسكنى مراكش، فكان صاحبنا المذكور مما حملني حين رأيت حسن حاله على معرفة الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ، والحمد لله على ذلك. وستأتي الإشارة إلى كيفية ذلك، وسبب رفضه سكنى مراكش، ورفض الإيواء إليه مع الإذن من الله تعالى أنه ـ رضي الله تعالى عنه ـ لما فشا أمره، وارتفع ذكره، وحضر له المعتبرون من علماء البلد وكبرائها واقتدوا به، وغاصت في
قلوبهم محبة مما اتصل بهم من أنواره وأمدهم به من* أسراره، وشي به إلى سلطان[53] 41
البلد، وأنه كثرت أتباعه، وعلت كلمته، فاهتم لذلك ذلك السلطان، وهم به على عادة الملوك من خوفهم ممن له الأتباع، حذرا من أن يكون ذلك سببا لمنازعتهم من جاه دنياهم. فبعث إليه من دعاه فذهب إليه الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ، حتى دخل عليه في قصره وحوله من الطلبة من يواليه، وهو الذي أغراه ولقنه ما يخاطب به الشيخ حسدا ورجاء في أن يطفي نوره، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[54].

فلما دخل على ذلك السلطان مع من معه، قال له السلطان ـ وقد هابه ـ : ما هذا الذي تدعو إليه الناس ؟ فإن كان ثم سر من أسرار الصالحين فأبده لنا حتى
نتبعك نحن* أيضا، فقال له الشيخ : وهو لا يخطر بباله خوف مخلوق ولا يخاف في 42
الله لومة لائم، إن شئت أن ترى شيئا مما للصالحين فتأدب، فإن أسرارهم لا تظهر لأهل سوء الأدب، وإنما تؤتى البيوت من أبوابها. فبهت السلطان فسكت، فلم يصبر من حضر من الطلبة حيث رأى دهشا بالسلطان من هيبة الشيخ ـ رضي الله تعالى

(53) لا ندري من هو السلطان المقصود هنا، فمحمد بن عبد الله السوسي خرج من مراكش في حدود سنة 1069هـ/1659م، وهي السنة التي قتل فيها السلطان السعدي أحمد العباس وتولى حكم مراكش عبد الكريم الشباني. وإذا كان محمد حجي ذكر بأن الوشاية بمحمد السوسي كانت إلى السعديين الذين أوقفوه عن نشاطه الصوفي، فإن المصادر لم تسعفنا في تأكيد ذلك أو نفيه. (انظر : م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 84، هامش 41).

(54) سورة **الصف**، الآية 8.

عنه ــ، وقد كان يعتقد ويرجو أن يوقع به أذى، فقال للشيخ : الكتاب والسنة ليس
فيهما إلا الأمر والنهي، والعلماء كلهم يعرفون ذلك، وليس فيهما ما يخالف ذلك مما
يدعيه الفقراء من الخوارق والغيوب، وما ليس في الكتاب والسنة باطل ؟ فقال له
43 الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ بديهة : وأين أنت من قصة* الخضر مع موسى على
نبينا وعليهما أفضل الصلاة والسلام ؟ أليست من الكتاب ؟ فأفحم ذلك الطالب.
فأمر به السلطان أن يدخل مسجدا هنالك بباب قصره ووكل به حافظا، فاستسلم
الشيخ لأمر الله تعالى. وأخبرني بعض أصحابنا أنه دخل على الشيخ حينئذ فقال له :
عرض علي أن يطبق[55] هذا القصر على أربابه فأبيت. ثم أدرك السلطان ما اقتضى له
أن يخلي سبيله فخلى سبيله.

فلما خرج الشيخ بقي يسيرا ثم أعلم أصحابه أنه أذن له في الخروج من
مراكش، وكان قبل ذلك ــ رضي الله تعالى عنه ــ أخبرهم بأنه لابد أن يجاور الحرمين
44 الشريفين زمانا، كما أخبرهم بأن شرفاء سجلماسة[56]* لابد أن يملكوا ما تحت قدميه،
يعني مراكش، وقد وقع ذلك بعد أعوام. وأخبرني صاحبنا الأبر التقي، الشيخ محمد
بن عبد الرحمن الصومعي المتقدم، أن الشيخ لما قرب زمان خروجه من مراكش، أتته
عجوز وهو في مكانه فسلمت عليه، وكانت من الصالحات، فقالت له : تهيأ للرحيل
ثم تولت عنه، فلسعة معرفة الشيخ بالله تعالى، واتساع نظره في كمال الِاختيار لله
تعالى، جوز أن يكون الأمر على خلاف ما أخبر به أصحابه من مجاورته الحرمين
الشريفين، وأن المراد بالرحيل، الرحيل إلى الله تعالى، فبكى ــ رضي الله تعالى عنه ــ
لما سمع قول العجوز، وبكاؤه من احتمال قرب الملاقاة بالرب الكريم، إما شوقاً وإما
45 تخضعا[57] ورؤية* للتقصير إذ لا يقوم أحد بحق الله تعالى، ومهابة من هول المطلع
كحال أستاذه سيدنا عمر بن الخطاب ــ رضي الله تعالى عنه ــ حين قيل له بعد أن
طعن تأنيسا وتبشيرا : أبشر يا أمير المؤمنين بصحبتك رسول الله ــ ﷺ ــ وجهادك
معه ثم توليك الخلافة على المؤمنين وعدلك فيهم، فقال لمن أثنى عليه : ليت ذلك
كفافا لا علي ولا لي، بعد أن قال : إن ذلك منٌّ من الله تعالى به تبريا من نسبة[58]

(55) ق : يضيق.

(56) هم الأشراف العلويون. قدموا من الحجاز في آخر المائة السابعة من الهجرة أي في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي. تكلم عنهم المؤلف بشيء من التفصيل في آخر كتابه **مباحث الأنوار** هذا.

(57) ك : خضوعا.

(58) س، ق : نسبت، ولعله تصحيف.

ما يمدح به لنفسه، وردا للأمور إلى أصلها، واعترافا وشكرا لنعمة الله تعالى. فلما أذن
له ـ رضي الله تعالى عنه ـ في الخروج خرج مودعا وكان ذلك وقت العصر، ولم
يؤخر لصحوة الغد المناسبة للسفر*، لأنه لا يتحرك إلا عن إذن، ولا يسعه التخلف 46
عن مقتضاه لحظة.

وكان الشيخ لما أجمع على الخروج يرى أن ذلك ابتداء الخروج من المغرب
جملة، فقال الشيخ ابن سعيد وكان غيبة سره ومن كبراء أصحابه : إني أرى أن من
الأدب أن لا أخرج [من][59] المغرب حتى أودع الصحابة الكائنين به، وهم الرجال
السبعة بحاح[60] الذين ذكر بعض العلماء أنهم قدموا على رسول الله ﷺ ـ في
حياته، وكلمهم بلغتهم، فمن أجل هذا كان الشيخ ابن سعيد يجزم بصحبتهم ويقول :
هذا الرجل نعرف أنه من كبراء أهل البصائر، وما يقوله أهل البصائر يجب الرجوع
إليه، لأن علمهم بنور إلهي[61]* لا يعتريه غلط، ولا يلتفت إلى ما يقوله بعض أهل 47
الظاهر من العلماء، وهو أن العادة تبعد صحبتهم لأن ذلك مما تتوفر الدواعي على
نقله لو كان، فلو وقع لشاع بين أهل الأثر. وكان ابن سعيد يعتمد على كلام الشيخ
لما يعلم فيه، ويجوز أن يكون هذا من الوقائع السرية التي قدر الله تعالى عدم فشوها،
وهو من الجائز.

---

(59) زيادة يقتضيها السياق.

(60) إن هذه التسمية، أي الرجال السبعة، موجودة بالبادية والمدينة، ولكن مصدرها غير معروف بدقة. والرجال السبعة بحاح تعني مجموعة من الأضرحة أو المزارات برِكراكة أو ما يعرف برجال رِكراكة. تذكر الروايات وكتب المناقب أنهم شدوا الرحال إلى النبي محمد ﷺ بمكة في أول ظهوره وكلموه باللغة البربرية فأجابهم بها وأسلموا ورجعوا إلى المغرب. وكان واسم بن عبد الله مقدمهم ورئيسهم، وأبو بكر الشماس كبيرهم سنا وصاحب مشورتهم. كانت مساكن رجراجة الأولى على عدوتي وادي نسيفة (تانسيفت) عند مصبه في المحيط الأطلسي ثم تفرقت عناصر سكانها واندمجت في القبائل، منهم بسوس ومنهم بالسراغنة أو بجهة أخرى، ولم يبق من مساكنهم الأولى إلا قبيلة واحدة مندمجة في الشياظمة وتسمى زاوية رِكراكة. كانت رِكراكة أو رجراجة ضمن دكالة قديما، وكان يطلق عليها اسم بلاد حاحة، وكلاهما من القبائل المصمودية. تقع بلاد حاحة حاليا على ساحل البحر جنوب مدينة آسفي وشمال مدينة أكادير وتتكون من عدة قبائل، ولم تعرف مساكنها منذ الموحدين سوى تغييرات بسيطة. (راجع : البيدق، **أخبار المهدي**، ص. 70؛ ع. ابن إبراهيم، **الإعلام**، ج 4، ص. 324؛ م. السوسي، **المعسول**، ج 4، ص. 10؛ ع. ابن منصور، **«قبائل المغرب»**، ج 1، ص. 324؛ **R. Montagne, Les Berbères et le Makhzen**, p. 85 ; **Dermenghem, Le culte des saints dans l'Islam maghrébin**, p. 46).

(61) ورد في النسخ المعتمدة هكذا : إلاهي، ولعل الصواب ما أثبتناه.

وكان صاحبنا الفقيه ابن عبد الرحمن المذكور، لما لقيه وتبدل حاله تبدلا
لا يقام بشكره، فشرب بملاقاته مشرب المؤمنين، وذاق ذوقهم، تمم الله تعالى عليه
نعمته وزاده توفيقا، وسنذكر بعض أموره في جملة من أذكر من الأصحاب،
48 لا يخالف للشيخ أمرا*، فتركه بمراكش ولم يتبعه إلى حيث خرج، إذ لم يأذن له في
الإتباع. وأخبرني أنه كتب إلى جهة الشيخ لما أراد الإياب إلى بلدة تادلا[62]،
واستشارةُ في أمور من جملتها أن «**بداية الهداية**»[63] للغزالي تركت بيده ولم يدر ربها،
فكتب له بعض أصحاب الشيخ عن إذنه وإملائه كلاماً رفيعاً تعلق ببالي منه يسير،
هو قوله : أما بداية هدايتك فاذهب بها ولا تتركها لأحد، وأما الأوراق فادفعها لربها
وهو فلان، واعلم بأن المراد منك مراده منك، لا مرادك منك ولا مرادك منه.

وهذا كلام رفيع، وإيجاز بديع، فيه جملة آداب الظاهر والباطن، وذلك أن
49 العبد معلوم أنه يتمنى ويريد من نفسه تعلقها بالأمور العليا* وسلوكها سبيل المقامات
الكبرى، ويريد من ربه أن يجعله في ذروة المنتهى، ويجعله من مقامه فوق جميع ذوي
الصلاح والنُّهى، وليس شيء من ذلك مرادا من العبد لا ما يريد من نفسه ولا ما يريد
من ربه، وإنما المراد منه مراد ربه منه، وهو أن يستقيم ظاهرا وباطنا، فالإستقامة
الظاهرية هي الإعتصام بحبل الأمر والإلتزام لحد النهي، والباطنية الإستسلام لقهر الحق
بأن يرضى بعد الإستقامة[64] بما يقام فيه رفيعا[65] كان أو دون ذلك، لأن الوقوف من

---

(62) معناها حزمة الزرع وسهل واسع خصب. ويظهر أن مدينة تادلا التي كانت عبارة عن حصن موحدي وذكرها كل من الإدريسي وابن سعيد الغرناطي وابن خلدون، قد اندثرت في أواخر الدولة المرينية. وتركت اسمها لإقليم يشمل السهل الهضبي الممتد بين وادي العبيد وأم الربيع حيث المنطقة الواقعة بين جبال الأطلس الوسطى والكبرى (جبال درن). وبهذا التحديد ذكرها الوزان في القرن 16م. وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي (1687م) ظهرت مدينة «قصبة تادلا» كمركز عسكري، وأصبح للكلمة إطلاق عام يعني «إقليم تادلا» وإطلاق خاص ينصرف إلى هذه المدينة. وقد كانت في منطقة تادلا قديما عدة مراكز عمرانية لعبت دورا هاما في تاريخ المغرب الديني والسياسي والإجتماعي (راجع : الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ج 1، ص. 139؛ De La Chapelle, «Un document sur la politique du Moulay Ismail dans l'Atlas», in **Archives Marocaines**, vol 28, p. 55, note 27; Massignon, **Le Maroc au début du 16e siècle**, p. 206.).

(63) أحد كتب أبي حامد الغزالي المتوفى عام 505هـ/111م. وكتابه هذا ذكرته له جميع المصادر، وهو كتاب في التصوف يكاد يكون شبيها بدليل للمبتدئ في سلوك الطريق عند رجال التصوف السني، وقد طبع مرارا (انظر ح. خليفة، **كشف الظنون**، اسطنبول، 1941، ج 1، ص. 227).

(64) ق، س : بعده للإستقامة.

(65) ك : رفعا.

العبد على حد الرضى وهو كنز رضى مولاه. وفقنا الله تعالى لما يحبه ويرضاه ؛ وجعلنا بجوده وكرمه ممن يرضى[66] برضاه.

ولما ارتحل الشيخ من ناحية مراكش أخذ لا ينزل على قوم أو يمر بهم إلا أخذ
عنه منهم من كتبت له حياة قلبه، وصاحبه في الطريق صاحبنا الفقيه ابن[67] عبد
50 الرحمن المتقدم، فأخبرني أنهم* في ليلة مقمرة كانوا نازلين وكل واحد من أصحابه
مشتغل بما يعنيه من ورده، فإذا الشيخ قد خرج من خبائه، وكان يأوي إليه وحده
ولا يدخل عليه إلا بإذن، فاستدعى من حضر معه، قال : وكنت أنا ممن استدعاه
فقال لي : تقدم إلي ؟ فلما قاربته وقد ملأت هيبته قلبي، وجدته كالمذعور المرعوب
فقال لي : جز بين يدي، فجزت بين يديه وهو ينظر إلى السماء، ولما جزت قال :
أذهب فقد أبرأتك، وفعل [مثل][68] ذلك بمن استدعاه من أصحابه فهبنا أن نسأله
عن حقيقة ما شهدنا.

ولما فرغ من عرضنا عليه عاد إلى خبائه ومكث فيه برهة من الزمن ثم خرج
51 فصاح بنا فأتيناه، ثم قال [لنا][69] : عذبتموني بالبرذون الفلاني، وكان معهم برذون*
يحملون عليه وقد بات تلك الليلة بلا علف ولا سقي كانوا نسوه، فاعترف أصحابنا
بذلك، وغلب على ظني أن الشيخ تولى بيده علفه وسقيه لما عوتب عليه، فظهر أن
الشيخ أخذ عليه من أمر تعلق به، فظن أن بعض أصحابه أصاب ما أوجب الأخذ
عليه، فعرضهم عليه ناظرا لأحوالهم من اللوح المحفوظ على ما أخبر بذلك عن نفسه
بعد، ثم كشف له عن سبب المؤاخذة، وأنه هو بيات البرذون بلا علف ولا سقي
مع كونه في رفقته. فانظر وفقك الله تعالى لهذه المعاملة ما أعلاها، وانظر لهذه العناية
ما أجلاها، وهكذا شأن الأكابر، يواخذون بما هو صورة التفريط في حق لو لم يتناوله
52 ظاهر التكليف تثبيتا لإقدامهم على مواطئ* أقدام أساتيذهم من الأنبياء، وتحقيقا
لإجرائهم مجرى ساداتهم من رسل الله تعالى الأصفياء.

فقد روى أن سبب مواخذة يعقوب على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ بمباعدة يوسف، هو أكله معه شواء عجل وعجوز بجوارهما[70] يصيبها وجدان ريح

---

(66) ق، س : يرضا.

(67) وردت في النسخ المعتمدة هكذا. بن، والصواب ما أثبتناه.

(68) سقطت من ق، ك.

(69) سقطت من ك.

(70) وردت في النسخ المعتمدة بجوارهم والسياق يقتضي ما أثبتناه.

الشواء من غير أن يصل إليها شيء منه وهما غافلان عن إعطائها منه. وكذا قيل إن سبب مؤاخذة سليمان، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ـ بسلب ملكه، هو أن امرأة عبدت صنما في داره ولم يعلم.

ولما بلغ الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ في رحيله للصَّوْمَعَةِ[71] قرية صاحبنا
الفقيه ابن[72] عبد الرحمن المذكور، تعرض له أهلها وعظموه، وأخذ عنه طائفة منهم،
53 وأقام عندهم أياما، وعجائب الدين والدنيا* تنثال على يده إلى الخلق على عادته منذ
ظهر في كل بلد، فتاب على يده وانتفع منهم جم غفير.

ومن جملة عجائب الدنيا أن رجلا أصابه داء توغل فيه وهو عضال يتناثر منه
اللحم، يسمى ذلك الداء الخنزير، فأتى به أهله حتى أدخلوه، على الشيخ ولم يشعر
بدائه حتى كشف عنه بين يديه، فتفل عليه فحملوه وبرئ[73] قريبا، فكانوا يتعجبون
من ذلك. ومنها أن عريف القرية كان هو ابن عم صاحبنا الفقيه ابن عبد الرحمن
المذكور، ولذلك العريف زرع مخزون استقله فخاف من فنائه، والزمان حينئذ مجاعة
وهو مضياف، فجعل يشتكي للشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ بأمور الدنيا ويطلب
54 البركة في الزرع، والشيخ يعرض عنه على عادته في حمل الناس على طلب الآخرة*.
فلما ألح عليه، قال لبعض أهله : أخوكم هذا دنيوي، ثم قال لذلك المشتكي : أمدد
يدك، فمد يده فصافحه، ثم قال : إذهب وادخل يدك في الزرع، ففعل. فكان
ذلك الرجل بعد ذلك يتحدث أنه رأى من البركة في ذلك الزرع ما يقتضي منه
العجب، وذلك أن بعض أبناء الملوك نزل عليه بمحلة[74] قصداً لتضعيفه بإتلاف

(71) ينسب بناؤها ليوسف بن تاشفين، وهي الآن قرية متصلة بمدينة بني ملال. كانت تعرف قديما بمدينة داي، واسم الصومعة ربما أخذته من الصومعة المتواضعة التي هي قائمة فيها، كما تسمى أيضا «الزاوية». وكانت مركزا ثقافيا مهما أنجب كثيرا من العلماء مثل عبد الرحمن بن إسماعيل الصومعي صاحب **التشوف في رجال أهل التشوف** المعروف بـ**التشوف الصغير**. وأحمد بن أبي القاسم الصومعي شيخ زاوية الصومعة أيام ازدهار الزاوية الدلائية (انظر : ح. اليوسي، **المحاضرات**، ص. 143؛ م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 2، ص. 504؛ Loubignac, «Un saint Berbère», in H.T,, T. 16, p. 15).

(72) س، ق : بن.

(73) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : برأ. والصواب ما أثبتناه.

(74) المحلة، بفتح الحاء، كلمة مشتقة من المحل الذي يحله القوم وينزلون فيه، وحيث أن الجيوش إذا عسكرت بالمحل فقد حلته، أطلق اسم «المحلة» على الجيش الضارب. (انظر : عبد الرحمان بن زيدان، **العز والصولة**، ج II).

زرعه بسبب إنفاقه عليه وعلى محلته، فجعل يقيم تلك المحلة نحو شهر ولم يكن فيه ما يقيمها عادة [إلا](75) أقل من الشهر، ولم يخسر ذلك الزرع بذلك الإنفاق، ثم أخذ منه مقدار ما خزن منه للعلف والخزانة ولم ينتقص، ثم أخذ منه ضعف المخزون أيضا، وجعل ينفق منه إلى زمان الصيف ولم ينتقص.

55 ومنها أن رجلا كانت بيده* ثآليل(76) كثيرة، وهي حبات يشوهن البدن ولا تكاد تبرأ بعد خروجها من البدن، فأتاه بيده وأمره أن يمسح، فمسح عليها فسقطت لحينها، ولم يزل ذلك الرجل إلى الآن لا يمسح عليها على بدن إلا سقطت. ثم ارتحل من هنالك.

ولما أظل دخول الزاوية البكرية(77) وقد سبق خبره إليها، والعلماء يومئذ بالزاوية متوافرون من أهلها وغيرهم، خرج لملاقاته قبل كل أحد منهم العالم النبيه النحوي الوجيه، الشيخ محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي(78)، الملقب بالمرابط مع أولاده، فلما لقيه سلم عليه، فقال الشيخ لأصحابه : المرابط غريب في هذا البلد ! فكان
56 الشيخ المرابط يفتخر بهذه الكلمة ويتناولها* على معنى أنه ليس هو على ما عليه أهله من الِانهماك في الدنيا والفرح بالملك، وكذلك كان، فإنه رحمه الله تعالى كان تعرف

---

(75) زيادة يقتضيها السياق.

(76) وردت في النسخ هكذا : تآليل، والصواب ما أثبتناه، لأن تثأل جسده تعني ظهرت عليه الثآليل، وهي بثر صغير صلب يظهر على الجلد وليس التآليل التي ربما كانت من التعبير الدارج.

(77) يشمل اسم الزاوية كافة القرية القائمة حول المسجد أو الضريح كما هو شأن الزاوية الدلائية هذه أو الناصرية وغيرهما. وقد كان للدلائيين في الواقع زاويتان : الزاوية الدلائية القديمة التي بناها أبو بكر الدلائي على ربوة في جبل «بوثور»، حيث تنفجر بالقرب منها عين جارية تخترق المسجد الذي ما زالت بقاياه ماثلة للعيان، ثم الزاوية الدلائية الحديثة التي أسسها محمد الحاج الدلائي عام **1048هـ/1638م**، وهي التي تقوم على أنقاضها اليوم زاوية أيت إسحاق في الطريق التي تربط خنيفرة وقصبة تادلا. ورثت قرية الدلاء الحديثة اسم الزاوية البكرية الدلائية أو كما يسميها بعض المؤرخين مدينة الدلاء أو مدينة محمد الحاج أو مدينة أزغار (راجع : م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 33 وما بعدها).

(78) أحد علماء وأبناء الزاوية الدلائية التي بها درس، ثم اضطلع بالتدريس والإمامة. توفي عام 1089هـ/1678م. ترجم له ح. اليوسي، **الفهرسة**، ص. 164؛ م. اليفراني، **صفوة**، ص. 179؛ ع. سليمان الحوات، **البذور الضاوية**، مخطوط خ ع تحت رقم 261 د، صص. 448–465؛ م. الكتاني، **سلوة**، ج 2، صص. 92–93؛ م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 82؛ ع. ابن زيدان، **المنزع اللطيف**، مخطوط خ ع رقم 595، ص. 331.

له أحوال المحبة من النبي ـ ﷺ ـ، وكان ملازما لإمامته في مسجدهم الأعظم[79] على رفعة قدره علما وجاها محتسبا.

ولما حج دخل على الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ، في مرضه الذي توفي فيه، فوجده قد أعد أكلات كأنه يعلم أنه يدخل عليه للعيادة، فقال له أيضا هنالك : مرحبا بالغريب في أرض الله تعالى، فكان يضيفها إلى الكلمة الأولى ويفتخر بها ويقصها علينا.

وكان دخول الشيخ الزاوية يوم الجمعة قبل صلاتها، وصلى تلك الجمعة
57 بمسجدها الأعظم الذي يخطب فيه الشيخ المرابط المذكور، وصليتها* أنا بذلك المسجد كما هو دأبي بالزاوية دائما، فبينما أنا بها إذ دخل الشيخ، ـ رضي الله تعالى عنه ـ، وتلك أول رؤية رأيته، فجعل يمشي بالمسجد، وصاحبه العالم النحرير المشارك، الشيخ أحمد بن سعيد المراكشي[80] الملقب أكنسس يرفع له سجادة من أدم أظنها من أدم بقر الوحش، حتى انتهى إلى سارية فوضعها له. فرأيت على الشيخ ومن معه حينئذ أثر الإعراض عن الدنيا والخلق، وأثر الخشوع[81] والتعلق بالحق كما هو صفة الولي[82]، ولهذا يقال، الولي هو الذي إذا رأيته ذكرك الله تعالى، أي حملك على ذكره وزين لك بشهوده الِانقطاع إليه.

ولما فرغ من الصلاة قام ليخرج، وكان أستاذ **القراءات**[83] في زمنه الشيخ

---

(79) هو المسجد الكبير الأعظم الذي ابتدأ محمد الحاج الدلائي في بنائه عام 1063هـ/1653م (انظر: س. الحوات، **البدور الضاوية**، ورقة 117/ب).

(80) ستأتي ترجمته في **مباحث الأنوار** هذا.

(81) الخشوع والخضوع والتواضع، هي بمعنى واحد. وفي اصطلاح أهل الحقيقة يكون الخشوع هو الِانقياد للحق (ع. الجرجاني، **التعريفات**، ص. 5).

(82) فعيل بمعنى الفاعل، وهو من توالت طاعته من غير أن يتخللها عصيان، أو بمعنى المفعول، فهو من يتوالى عليه إحسان الله وأفعاله، والولي هو العارف بالله وصفاته بحسب ما يمكن المواظب على الطاعة المجتنب عن المعاصي المعرض عن الِانهماك في اللذات والشهوات (انظر : القشيري، **الرسالة القشيرية**، باب الولاية، دار الكتاب، ص. 117؛ ع. الجرجاني، **التعريفات**، ص. 148).

(83) هي القراءات المتواترة على يد القراء السبعة، وزاد بعضهم عددها عشرا أو أربع عشرة. والقراءة المنتشرة في المغرب، هي قراءة نافع بن عبد الرحمن المدني إمام قراء أهل المدينة، بروايتي ورش وقالون من طرق متعددة، أي بواسطة عدد كبير من تلاميذ ورش وقالون. (راجع : ح. اليوسني، **الفهرسة**، ص. 96؛ م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 1، ص. 66، هامش 5).

58 الشرقي بن أبي بكر الدلائي[84] قريبا منه، فلما قام بادر إليه وأخذ* بيده ليقبلها، فلما انحنى لها نزع الشيخ يده، فلم يتمكن من تقبيل يد الشيخ لما سبق له من حرمان الاِنتفاع بأنوار الشيخ، ــ رضي الله تعالى عنه ــ على ما سنذكر ما يدل على ذلك بعد. فخرج الشيخ وتبعه الناس وتبعه معهم، وكان الشيخ، ــ رضي الله تعالى عنه ــ مطبوعا على اتباع أحوال رسول الله ــ ﷺ ــ في جميع أموره، فرأيته يمشي منكفئاً ولا يلتفت كما هو السنة، ثم إنه انفصل عنا وذهب ليلقى سلطان البلد قبل أن يأتيه، وهو السلطان الحاج محمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي[85].

وذهبنا نحن إلى دار الشيخ العلامة ابن مسعود لنقف عليه على عادتنا من
59 كوننا نقف عليه في نحو ذلك اليوم، وكنا نقرأ عليه كما* ذكرنا فيما تقدم، فلما بلغنا داره وجدناه بالباب أو خرج إلينا، فوقفنا معه ساعة وإذا صاحبنا الشيخ محمد بن عبد الرحمن الصومعي وقد كان دخل يومئذ مع الشيخ راجعا من سفره إليه، قد أتى إلى الشيخ ابن مسعود ليسلم عليه أداء لحق ما كان يقرأ عليه، فلما رأيته رأيت حالة لا أعرفها فيه، وتبدل عني حتى كأن ذاته ذات أخرى، وظهرت عليه أنوار التعلق بالله تعالى، فصافحني ماسكا بيدي ولم يكلمني حتى سلم على الشيخ ابن مسعود، فرأى فيه الشيخ ابن مسعود مثل ما رأينا. فانفصل عن كلام الشيخ ابن مسعود فسلمت عليه وسلم علي، وقد وعظني حاله، فسألته عن حال الشيخ، ــ رضي الله

(84) من علماء الزاوية الدلائية، وبها كانت دراسته. اختص بتدريس علم القراءات والتجويد. ألف في السيرة والبلاغة وترك آثارا أدبية. توفي بالدلاء عام 1079هـ/1668م (راجع : م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 361؛ س. الحوات، **البدور الضاوية**، ورقة 104/أ؛ م. الكتاني، **سلوة**، ج 2، ص. 94؛ م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 85).

(85) عُرف بمحمد الحاج الدلائي، ولد عام 997هـ/1588–1589م حسب الزياني في كتابه **الترجمان المعرب**، بينما جعل مؤرخون آخرون ولادته عام 1000هـ/ 1591– 1952م. كان شخصية سياسية ودينية لعبت دورا في تاريخ الزاوية الدلائية، وبهذه الزاوية درس ثم توجه إلى الحج عام 1041هـ/1631–1632م، كما ظهر له ميل إلى السياسة والحرب في حياة أبيه. وبعد موت هذا الأخير عام 1046هـ/1636م، ظهر لابنه محمد هذا نزوع إلى الاِستقلال عن مراكش، فأسس مدينة الدلاء وأصبح زعيما سياسيا ودينيا للقبائل البربرية بالأطلس المتوسط، وشرع في أعماله التوسعية، فدان له وسط المغرب وغربه وشماله. انتهت زعامته على يد مولاي الرشيد بمعركة «بطن الرمان» سنة 1079هـ/ 1668م. توفي بتلمسان بعد أن بقي فيها نحوا من عامين، وذلك عام 1082هـ/1672م (راجع : م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 196؛ س. الحوات، **البدور الضاوية**، ورقة 109/ب؛ الزياني، **الترجمان**، مخطوط، خ ع رقم 658 د، ص. 362؛ **البستان**، ورقة 5/أ؛ م. حجي، **الزاوية الدلائية**، صص. 149–235).

60 تعالى عنه ـ، فقال* بقوة أحس بها من قلبه : هذا جناح عظيم يرفع الله تعالى به
الدرجة دنيا وأخرى، هذه عبارته. وكان قبل ذلك رأى رؤيا، وهو أنه دخل مدينة
عظيمة العمارة وأنا معه، فتأولت له بأنه يجمعنا ولي كبير، وعارف(86) عظيم. والحمد
لله الذي صدق رؤيته في اجتماعنا في ذلك الولي.

فلما قال ذلك القول، حرك من نشاطي للقاء الشيخ، ـ رضي الله تعالى
عنه ـ، فذهبنا إلى موضع نزوله لنتعرض له، وقد كانوا نصبوا له خباءه بين المدينة
وسورها، فذهبنا إلى ذلك الموضع، وبنفس وصولنا له أقبل الشيخ ـ رضي الله تعالى
عنه ـ، إلى خبائه، وقد لقي أمير البلد وانفصل عنه، ووعظه بمواعظ لا يستطيعها
61 غيره، وأصلح بين أولاد الشيخ أبي يعزى(87) وهم بين يدي الأمير، وكان الأمير* أعجزه
أمرهم، وكل ذلك فيما بين وقفة يسيرة بدار الشيخ ابن مسعود، وذهابنا لمحله.

وأخبرنا من حضر أن أمير البلد لما وصل الشيخ إليه، ذل له وخضع، وقال له الشيخ : أنت من ذرية من قد علمت، وقد أسرفت على نفسك، وكنت ممن يلازم شرب الدخان(88)، أما تخشى أن تكون ممن يلقاه الشيطان فيقبله في جبهته ثم يقول له مرحبا بوجه لا يفلح أبدا. وكان الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ شديد الكراهة للدخان وأهله، ـ ثم قال له الأمير : هؤلاء أولاد الشيخ أبي يعزى(89) عادوا في دماء

---

(86) العارف من أشهده الرب عليه. وللعارف شروط ثلاثة : الرضى عن الله، الانحياش إلى الله، الفرار مما لا يرضي الله (ع. الجرجاني، **التعريفات**، ص. 229).

(87) هو يلنور بن ميمون الدكالي الهزميري، المشهور عند عامة المغرب بمولاي بوعزا. وأبو يعزى من ولده يعزى. ومعنى أعزى : العزيز، وايلا النور معناه : ذو النور أو ذو الحظ. هو من أشهر من وقع الإجماع على مكانتهم في التصوف بالمغرب. قبره مزارة كبرى في الأطلس المتوسط غير بعيد كثيرا عن مدينة وادي زام. خصص أبو العباس العزفي لأخباره ومناقبه تأليفا عنوانه : «**دعامة اليقين في زعامة المتقين**» توجد منه نسختان بالخزانة الحسنية تحت رقم 11759 ورقم 9447 والخزانة العامة ق : 341. كما ألف فيه أحمد بن قاسم الصومعي كتابا ضخما سماه : «**المعزى في أخبار أبي يعزى**»، توجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة، رقم 591 د، وذكره ابن الزيات في كتاب «**التشوف**»، ترجمة 77، تحقيق أحمد التوفيق. ولا تخلو كتب المناقب والتراجم المغربية من ذكره مثل : أحمد بن قنفذ، **أنس الفقير**، ط. الرباط، ص. 50؛ م. الفاسي، **مرآة المحاسن**، ص. 199؛ م. الكتاني، **السلوة**، ج 1، ص. 172؛ ع. ابن إبراهيم، **الإعلام**، ج 1، ص. 406. كما ترجم له بعض المشارقة وتناولته بعض الدراسات الحديثة. توفي عام 572هـ/1176م.

(88) انتشرت عادة شرب الدخان في العالم، بما فيه الأقطار الإسلامية. ولعلها دخلت المغرب عن طريق السودان، كما أورد ذلك م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 2، ص. 246.

(89) كتب في النسخ المعتمدة تارة بالألف المقصورة وأخرى من دونها. وقد عملنا على كتابتها بالألف المقصورة.

بعضهم بعضا، وأعوزنا صلحهم، فالتفت الشيخ إليهم فقال لهم : لا يغرنكم إن
كنتم أولاد أبي يعزى، فقد قال الله تعالى لنوح، على نبينا وعليه* أفضل الصلاة 62
والسلام، عن ابنه ﴿**يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ**﴾[90]. والله
لتتركن ما أنتم عليه أو ليأتيكم العذاب من حيث لا تشعرون.

فألقى الله تعالى من هيبة الشيخ رعبا في قلوبهم، وأنشأ في أفئدتهم ببركة موعظته رحمة، فبكوا وتساقطوا الدماء والأموال واصطلحوا، وكانوا يقولون : إنهم أخبرهم مخبر قبل ذلك أنهم لا يصطلحون إلا على يد رجل عظيم الولاية، يأتيهم من ناحية بعيدة. فمن يومئذ إلى الآن ما وقع بينهم مثل ذلك الشر، بل إذا تحرك بينهم أطفاه الله تعالى بقدرته. وبين وقت الصلح وهذا الوقت نحو من أربعين سنة[91].

فلما أقبل الشيخ من جهة الأمير وجد معنا جمعا غفيرا من الناس ينتظرونه
فوقف لهم، وفيهم العلماء وأهل البيت والطلبة* والعامة، فازدحموا في السلام عليه ثم 63
جعل يعظهم، فقال : أيها الناس، من أتانا تائبا لله تعالى فنحن له فيما يريد، ومن لم
يتب فنحن عنه[92] بمعزل، فمن كان لا يصلي فليتب لله تعالى وليقبل على صلاته،
ومن عليه فوائت فليقضها، ومن كان مصرا على ذنب فليقلع عنه. ثم التفت فقال
بقوة يشهد بحقيقتها كل منصف : ربما يقال كيف يعم مددنا هؤلاء الجماهير من
الناس ؟ إن عندي ما أعطي ما أعطي، وكرر لفظ ما أعطي حتى أموت، وعندي ما
أعطي بعد الموت إلى يوم القيامة، قد ملأت إلى الرقبة. وأشار ـ رضي الله تعالى
عنه ـ إلى رقبته بيده والناس لا يتكلم منهم أحد وكأنها على رؤوسهم الطير،
بعلمائهم وغيرهم، وأظن أني سمعت بعد ذلك أن رجلا أخبر عن نفسه من حضر أنه
قال في نفسه* : كيف يستطيع هذا الرجل أن يحيط بهؤلاء ؟ فكان سبب هذا القول 64
أن الشيخ كشف له عن ذلك، فقال هذا القول والله أعلم بما كان سببا له. ثم تقرب
إليه شيخنا ابن مسعود، فقال من هذا ؟ فعرفه به أصحابه، فأخذ بيده، واعتزل به ثم
انفصل. ورأيت فيما قيد الشيخ ابن مسعود أن من جملة من لقي من الصالحين هو،
وأنه صافحه ودعا له.

---

(90) سورة **هود**، الآية 46.

(91) أي حوالي 1069هـ، وهي السنة التي نرجح أن محمد بن عبد الله السوسي دخل فيها الزاوية الدلائية.

(92) ك، ق : له.

قلت : وكلام الشيخ هذا، رضي الله تعالى عنه، صريح في أنه من أهل المدد في الحياة وبعد الممات، وقد سمعه منه أصحابه غير ما مرة. أخبرني الفقيه الوجيه، محمد بن مسعود المراكشي[93] وسيأتي ذكره من أصحابه، أنه سمعه يقول : بعثني الله لأسقي حيا وميتا. وهذا المعنى أعني المدد في الحياة وبعد الممات، أخبرني أهل
65 البصائر أنه لم يثبت إلا لأفراد من الأولياء مثل أبي يعزى* وأبي مديان[94] وأبي العباس السبتي[95] والجيلالي[96] رضي الله تعالى عنهم.

ولما أخبر الصالح العارف بالله تعالى، الشيخ علي بن عبد الرحمن[97] رحمه الله تعالى ورضي عنه ـ وسيأتي ذكره من جملة من لقيت من المشايخ ـ بذلك عن الشيخ سلّمه له وأخبر بأنه ليس إلا لأفراد من الأولياء، وإلا فأكثرهم لا يبقى له بعد الموت إلا التبرك بمحبته والدعاء عند قبره والتوسل به، ولذلك يقول بعض الصالحين : من لم يحي بحي لم يحي أبدا ولو زار ألف ميت، يريد هذا المعنى.

ثم دخل الشيخ، رضي الله تعالى عنه، خباءه وذهب من ذهب من الناس وبقي من بقي، وكنت فيمن بقي هناك، ولزمني خاطر[98] في قلبي، فكأنه يقال لي، يفوتك هذا الرجل فلا تلقى مثله أبدا فحملني ذلك على طلب التوصل إليه ومنعتني
66 هيبته، فجئت لصاحبي* الشيخ [محمد][99] بن عبد الرحمن الصومعي ليستأذنه علي، فوجدته لا طاقة له على ذلك، ثم إن صاحبه الأقرب، ورفقيه الأنجب، الفقيه المشارك الشيخ أحمد بن سعيد أكنسس المتقدم، رآني متحيرا، وكان ذا بصيرة، فقال : أنا

---

(93) ستأتي ترجمته في **مباحث الأنوار** هذا.

(94) هو شعيب بن الحسين الأنصاري. أصله من الأندلس. كبير المشايخ والأب الروحي لكثير من الشيوخ الصوفيين في المغرب خلال القرن الخامس الهجري. درس بفاس وأخذ عن الشيخ أبي الحسن بن حرزهم وأبي يعزى، ودرس أيضا على أبي الحسن علي بن غالب. بدأ طريقه إلى الله في فاس، حيث كان يتعبد بخلوة خارج المدينة، ثم تجول في العالم الإسلامي، فزار بجاية ومصر وبغداد، وبها اتصل بالشيخ عبد القادر الجيلاني. توفي عام 494هـ/1198م (انظر : ع. التادلي، **التشوف**، الدار البيضاء، 1984، ص. 316؛ ابن قنفذ، **أنس الفقير**، الرباط، ص. 11؛ أ. الناصري، **الإستقصا**، ج 2، ص. 212).

(95) انظر هامش رقم 35.

(96) انظر هامش رقم 483.

(97) ستأتي ترجمته في **مباحث الأنوار** هذا.

(98) يجمع على خواطر، وهو ما يرد على القلب من الخطاب وهو أربعة أقسام : رباني وملكي ونفساني وشيطاني (ع. الجرجاني، **التعريفات**، ص. 51).

(99) سقطت من ق، س.

أوصلك إليه، فذهب بي إليه. وقد سمعت صاحبنا ابن عبد الرحمن المذكور يقول : إن الشيخ قال : كنت لا أترك يدي يقبلها أحد، فقيل لي لا يقبل يدك مذنب إلا تاب، ولا كافر إلا أسلم. وأنا عندي أمور تلازم نفسي هي أثقل علي في طريق التقوى[100] من كل شيء، فلما لقيته قبلت يده بنية أن يريحني الله تعالى من تلك الأمور، فلما قبلت يده ـ رضي الله تعالى عنه ـ كان ذلك آخر العهد بتلك الأمور
67 إلى الآن، وكأنها أوساخ غسلت بالماء عن إناء الزجاج* والحمد لله على فضله العام وامتنانه التام.

ولما سمع الأستاذ الشرقي بن أبي بكر الدلائي[101] أمثال هذه المقالات، ولم يدر أن عبارات القوم على الأحوال الرفيعة لأنفسهم توجد منهم عند تمكنهم من مراتب المعرفة بالله تعالى إما لفيضان وجد[102] أو لهداية[103] مريد[104]، أنكر ذلك فقال : إن مما يقال وشاع وسمع وذاع الدعوى قبيحة وإن كانت صحيحة. ولم يعرف أن ذلك في الدعوى بلا دليل ولا فائدة، ولم يتوصل إلى أن الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ إنما كانت دعواه بدليل وشاهد[105] أدركه من ذاق شيئاً من أسراره، ولفائدة هداية المريد بين ذوي الصدق من أنواره. وحين أنكر ما يقول الشيخ وخاطب به بعض
68 الناس فنقله لي ذلك البعض، عرفت السر من نزع الشيخ يده حين أهوى* في المسجد لتقبيلها، وأن ذلك لكونه من المنكرين وكونه ممن لم يسبق له إصابة أنواره وذوق أسراره ـ رضي الله تعالى عنه ـ.

ولما قبلت يده بالنية السابقة، قلت له يا سيدي : إني أتيتك وقد أُسرفت على

---

(100) التقوى في اللغة بمعنى الاتقاء، وعند أهل الحقيقة هو الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وهو صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك. (**المرجع نفسه**، ص. 38).

(101) انظر هامش رقم 51.

(102) ما يصادف القلب ويرد عليه بلا تكلف وتصنع، وقيل هو برق يَلمع ثم يَخمد سريعا (انظر : ع. الجرجاني، **التعريفات**، ص. 145).

(103) الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب، وقد يقال هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب (**المرجع نفسه**، ص. 149).

(104) هو المجرد عن الإرادة. قال الشيخ محيي الدين بن العربي في **الفتوحات المكية** : «المريد من انقطع إلى الله عن نظر واستبصار، وتجرد عن إرادته [...] فلا يريد إلا الحق» (**المصدر نفسه**، ص. 110).

(105) في اللغة عبارة عن الحاضر، وفي اصطلاح القوم عبارة عما كان حاضرا في قلب الإنسان وغلب عليه ذكره. فما كان الغالب عليه العلم، فهو شاهد العلم؛ وإن كان الغالب عليه الموجد، فهو شاهد الوجد؛ وإن كان الغالب عليه الحق، فهو شاهد الحق (**المصدر نفسه**، ص. 71).

نفسي، إذ تركتها تخوض حيث شاءت في بحار الذنوب حتى غرقت، فأريد من الله ثم منك الإنقاذ منها، فقال لي ـ رضي الله تعالى عنه ـ : تب لله تعالى، فقلت له أردت من الله ثم منك أن تقبلني، فقال لي ـ رضي الله تعالى عنه ـ : قبلتك قبلتك، ثلاث مرات، وكان لذلك التكرار عنده سر مخصوص، إذ كان لا ينطق إلا عن إذن، فانفصلت عنه وقمت، ولم أدر الآن هل قمت بعد أن دعا لي حينئذ بشيء أم لا، وكان ذلك بين المغرب والعشاء بعد عشية الجمعة ليلة السبت، فوقفنا بخارج الخباء
69 ثم* سمعنا صيحة الشيخ بالجلالة، بأن قال يـالله، وكانت تلك الصيحة صيحة عظيمة حالية[106] قلبية اهتزت لها القلوب وكاد الخباء يطير بها من فوق الرؤوس، وجليسه تلك الساعة الفقيه النحرير المتبحر، الشيخ الطيب بن المسناوي بن محمد بن أبي بكر الدلائي[107]، فلما خرج سألته عن سبب تلك الصيحة العظيمة، فقال لي : كان الشيخ يتحدث عن أمور القوم، فقال : أما نحن فليس لأحد من أولياء الله تعالى منة علينا، وإنما أمرنا هذا من النبي ـ ﷺ ـ مباشرة، قال : فقلت له هو روح قدس الجميع، قال : فلما ذكرت له هذه الكلمة، اهتز فصاح كما سمعت.

ثم ذهبت إلى المدرسة فوجدت في قلبي معنى غريبا، وصفاء باطنيا عجيبا،
70 مع أني لم تزايلني حين توجهت لملاقاته ـ رضي* الله تعالى عنه ـ وساوس، ولا كان عندي صدق الفقراء، وإنما كنت على حد حال الطلبة من الظن مع بقاء الوساوس والإحتمالات، ولما ذقت من فضل الله تعالى ما لا يفهم بالتفسير، ولا يحيط به التعبير، أدركت بالدليل القلبي والمعنى اللبي حقيقة حال الشيخ وانتهائه من العرفان والمحبة، وهكذا شأن الأكابر منهم لمن قلدهم إبداء البرهان والإشهاد بالعيان. فبت من بركة الشيخ تلك الليل بيات الملوك في أمر هو منتهى مرام أهل السلوك بلا سلوك. فلما أصبحت وارتفع النهار أتيت الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ فوجدت طعاما أتى به الناس إليه فأعطاه لمن يأكله، وكان لا يأكل طعام أحد وإنما يأكل طعاما خفيفا
71 استصحب معه ما يصنع منه، وكان بعض أصحابه يصنعه* له ويأكل قليلا منه بعد طلوع الفجر كما تقدم، فبينما هو جالس والناس يتبركون به ويخرجون، إذ دخل عليه بعض أولاد السيد أبي يعزى الذين أصلح بينهم بالأمس، فسقط ذلك الداخل على

---

(106) من الحال : مفهوم صوفي يقصد به «ما يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب». ومن خصائصه أنه لا يدوم بل يزول، ع. الجرجاني، **التعريفات**، ص. 162.

(107) ستأتي ترجمته في «**مباحث الأنوار**»، هذا.

رجل الشيخ يقبلها وهو أشدهم إباية للصلح وأبعدهم عن قبوله، فقال له الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ : بحمد الله تعالى الذي ألان قلبك لا بجميلك، وقد كنت بالأمس أصعب أصحابك. ولم يزل الناس يزدحمون عليه وكأنما على رؤوسهم الطير، فتعجب من ذلك الأستاذ الشرقي بن أبي بكر المتقدم، فسمعته يقول حيث لا يسمعه الشيخ، انقلبت الدنيا على هذا الرجل.

72 ثم إن سلطان البلد الذي وقف عليه بالأمس كأنه بدا له أن يقرب الشيخ إليه بإنزاله في دار قريبة منه ليزوره عن قريب بحيث لا يراه* الناس، فساعده الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ على مراده لذلك ولحفظ أمتعة أصحابه، لأن البلد كانت كالسائبة إذ ذاك للسارق وغيره لقلة اهتمام السلطان بالأحكام، وليقل اجتماع الناس عليه لإضرارهم إياه بالكثرة. وأخبرني بعض من يحضر حال زيارة الأمير الشيخ في تلك الدار، أن الشيخ كان يقف له إذا جاء. وكان بعض الناس أنكر ذلك كما أنكر الوقوف عليه يوم قدومه، فقال [ما](108) للمنسوب إلى الله تعالى والوقوف على الملوك. ثم إن الشيخ استشعر ذلك الإنكار من طريق الكشف أو من غيره فقال : إني أرى أن الأدب مع الله تعالى تعظيم من ولاه من الملوك بما لا يخالف الشرع.

73 قلت : الوقوف على الملوك والوقوف لهم من جملة المداراة لهم*، إما لما يرجع لأمر الناس أو لأمر الواقف أو لأمر الأمير، قصدا لتأديبه ورده عن بعض المناكر التي هي أعظم من الوقوف، وكل مداراة أدب مع الله تعالى فلا وجه لإنكار مثل ذلك. والصالحون اختلفت أحوالهم في هذا المعنى، فمنهم من لا يخالطهم بوجه كأبي العباس المرسي، حتى كان إذا ذكر له أن كبير القرية أو أمير البلد يريد أن يقف عليه خرج من تحت الليل لئلا يلقاه، وإذا استشفع به لأمير قال للطالب أنا أطلب الله تعالى لك ولا أطلب لك الأمير، ومنهم من يخالطهم كأبي الحسن الشاذلي(109)، حتى

(108) سقطت من ك.

(109) هو أبو الحسن الشاذلي، يتصل نسبه بالمولى إدريس بن عبد الله دفين زرهون. ولد بقرية من قبيلة غمارة قرب سبتة عام 593هـ/96ـ1197م، وتتلمذ للشيخ عبد السلام بن مشيش دفين جبل العلم. وقد انتقل من المغرب إلى تونس، ونزل بمصر، وحج عدة مرات، ودخل العراق. أخذ عنه خلق كثير بالمغرب والمشرق، وكانت طريقته في التصوف بسيطة تشتمل على مجموعة من الأذكار جمعها في أحزاب. ترجم له الشيخ أحمد بن عباد الشافعي في تأليف سماه : **المفاخر العلية في المآثر الشاذلية**، تحدث فيه عن مناقبه وكراماته وفضائله. توجد منه نسخة مخطوطة بالخزانة الحسنية تحت رقم 5499، وطبع على الحجر بالقاهرة سنة 1293هـ/ 1876م كما يشار إليه في جل الكتب التي اهتمت بمناقب الصلحاء ومنها : **مرآة المحاسن ومتع الأسماع**.

كان ربما أخذ بركاب الملك لقصد مداراته لحوائج المسلمين. ومن له قوة لا يشغله
معها كبير ولا صغير ولا مأمور ولا أمير، فالمخالطة[110] مع الإذن من الله* تعالى أولى 74
بحاله لما فيها من منافع المسلمين، وهي حالة الأنبياء، ومن خاف على دينه أو دين
أتباعه من مخالطتهم فالأولى به العكس، والشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ على طريق
أبي الحسن الشاذلي، وناهيك به طريقا. وقد أخبرني بعض أصحابنا ممن أثق به أن
الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال : كنت ساجدا يوما فنوديت فقيل لي أنت
عندنا بمنزلة أبي الحسن الشاذلي.

وفي اليوم الثاني الذي تحول فيه الشيخ إلى الدار التي أراد الأمير دخولها،
ذهبت في عشيتها إلى المسجد الأعظم بالزاوية، وكانوا يقرؤون حزبا من القرآن فيها
صباحا وحزبا مساء، فلما دخلته وجدتهم يقرؤون الحزب على عادتهم، فلما سمعته،
سمعته كأنه حينئذ ينزل، فارتفع باطني عند سماعه عن المعتاد، وأجاب في تلاوة القرآن
لما هو منه المراد، فعرفت أسرار*[111] الصالحين كيف تسري حين أفاض ذكر الله ما 75
أفاض على ذكري وذلك من بركة هذا العارف الأعظم، ومن فيضان نوره البادي
الأفخم، تمم الله تعالى علينا نعمه ظاهرا وباطنا، وحشرنا في الدنيا والآخرة مع [الرفيق
الذي يكون برحمة الله تعالى][112] فائزا وآمنا. وذكرت هذا ونحوه مما حصل في أول
ملاقاته للإشارة إلى عظيم بركة هذا الشيخ، وإلا فذكر مثلي لمثل هذا ليس من الأمر
السديد، وقد حصل لنا حينئذ وفيما بعده من بركته ما لا يذكر، بل يجب في الباطن
أن يشكر.

ولما استقر الشيخ في تلك الدار، جعل الناس يتوصلون إليه بما أمكن،
ويتوسلون به إلى الله تعالى في مآربهم. وفيها أتاه الشيخ محمد بن مسعود المراكشي
وتاب على يده، وكان* قبل ذلك، مع اشتغاله بتعلم العلم بالزاوية البكرية حتى كان 76

(110) اختلفت مواقف المتصوفة من مخالطة الملوك ورجال الحكم عامة. وقد ثبت ما جاء في النص عن موقف أبي العباس المرسي وأبي الحسن الشاذلي. فالأول اتخذ موقفا متشددا ومغالى فيه، قد يدل على نوع من التحفظ من السلطة. فالموقف العادي عند الصوفي المتمسك بتعاليم السنة هو «الزهد في ملاقاة السلطان إلا لضرورة المسلمين بدفعها عنهم». وهذا ما سلكه أبو الحسن الشاذلي (راجع : G. Drague, *Esquisse*..., p. 190).

(111) السر هو لطيفة مودعة في القلب كالروح من البدن، وهو محل المشاهدة، كما أن الروح محل المحبة والقلب محل المعرفة (ع. الجرجاني، **التعريفات**، ص. 68).

(112) سقطت ما بين معقوفين من ق، ك.

ممن يؤخذ عنه «**خليل**» و«**الألفية**»[113] وغيرهما، مخالطا لبعض أولاد الولاة يأكل ما يأكل ويفعل ما يفعل، ولم يظهر له تحري في اكتساب، ولا في أكل ولا شراب، حتى قدم الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ الزاوية أتاه فطلب منه أن يقبل له الصحبة[114] وأول ما لقيه فطلب منه قبولها في تلك الدار، فقال له : يا سيدي ! إني أريد رضاك، فقال له الشيخ : اطلب رضى الله تعالى، فقال له ابن مسعود المذكور : رضى الله تعالى في رضاك، فضربه الشيخ بيده وتبدل حاله في الوقت وأقلع عن كل ما كان فيه منهمكا، فتجددت له حال التوبة[115] وغلب عليه وارد[116] في الحين ورد عليه بنفس ضرب الشيخ إياه.

77 وأخبرني عن نفسه أنه كانت عليه ثياب* من شبهة أو حرام اكتسبها ممن صاحبه من أولاد الولاة، فلم يجد بدا من قطعها من ذلك الوارد، وكان في حال استغراق في الوجد حتى حصل منه شطحات ولم يمنعه من ذلك ما هو بصدده قبل من حال الطلب، ولم يزل في شطحاته حتى أطفاه الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ. وسيأتي ذكره من جملة أصحابه.

وفي تلك الدار أيضا جلس بعد صلاة العصر وأصحابه متخضعون[117] كأنما على رؤوسهم الطير، والناس كذلك من غيرهم وفيهم العلماء والعامة[118]، فبينما هو

(113) هي «**الألفية**» المشهورة لمحمد بن مالك الطائي الأندلسي، وهي في النحو. ولد ابن مالك بجيَّان بالأندلس، وانتقل إلى دمشق، وتوفي بها عام 672هـ/ 1274م. دخلت «**ألفيت**»ـه إلى المغرب أوائل المائة الثامنة وتعددت شروحها (انظر : الصفدي، **الوافي**، ج 1، ص. 204؛ **دائرة المعارف الإسلامية**، مادة : «ابن مالك»؛ خ. الزركلي، **الإعلام**، ج 7، ص. 111).

(114) الصحبة على ثلاثة أقسام : صحبة من فوقك، وهي في الحقيقة خدمة؛ وصحبة من دونك، وهي تقضي على المتبوع بالشفقة والرحمة؛ وصحبة الأكفاء والنظراء، وهي مبنية على الإيثار والفتوة (القشيري، «باب الصحبة»، **الرسالة**).

(115) هو الرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب (ع. الجرجاني، **تعريفات**، ص. 41).

(116) كا ما يرد على القلب من المعاني من غير تعمد من العبد (**المصدر نفسه**، ص. 145).

(117) ك : منخضعون.

(118) هناك تقابل بين مدلول كلمة «العامة»، ومدلول كلمة «الخاصة». والتمييز بين المفهومين ما زال غير مدقق. لذا اختلف المضمون باختلاف الزوايا التي تناولته. فمفهوم «العامة» يطلق أحياناً على السواد الأعظم من الناس، في حين يطلق مفهوم «الخاصة» على النخبة «أصحاب الحل والعقد» المقربين إلى السلطة؛ وأحيانا أخرى، كا هو الشأن هنا، يعني مفهوم «العامة» غير العلماء، أي الجهال (**دائرة المعارف الإسلامية**، مادة : عامة وخاصة؛ J. Berque, Al Youssi..., p. 52).

كذلك إذ دخل عليه الشيخ الشرقي المتقدم، ومعه بعض أصحابه ممن يجود عليه القراءات السبع، فلما جلسا بين يديه وسلما عليه، قال للشيخ صاحبه يا سيدي ! إن الأنبياء إنما ظهروا بالمعجزات، فكذلك الأولياء لا يظهرون إلا
78 بالكرامات[119]، فنريد منك أن تظهر لنا* شيئاً من الكرامات. ففهم منه الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ قصده التعنيت، وظهر له أنه سيء الأدب، فقال له بشدة : قم ! فلما قال له ذلك فزع هو وشيخه الشرقي ففرا هاربين كأنما طلبا بالسيف لأخذ الثأر، فقام جميع من في المجلس فزعا غير أصحابه ــ رضي الله تعالى عنه ــ.

ومن جملة من حضر الفقيه النبيه بهلول البعصامي[120] ثم الفلالي وليس من أصحاب الشيخ، فأخبرني عن نفسه ــ وكان ضريرا ــ أنه ألقى في قلبه عند سماعه صوت الشيخ رعب عظيم فقام فزعا، وكان يخيل إليه أن بإزائه من يصيبه بصفع، فكان فزع غير أصحابه فزعا عظيما حتى فر الشيخ الشرقي وصاحبه فرار من طلب
79 بالثأر، وثبات أصحابه إظهارا للكرامة المطلوبة في طي* النهي عن سوء الأدب.

ثم رجع الشيخ الشرقي وصاحبه ذليلين خاضعين طالبين للسماحة فسامحهما، ثم قال للشيخ الشرقي : لم [لا][121] تؤدب أصحابك كما أدبت أصحابي ؟ قلت : أدب الظاهر عنوان أدب الباطن. فالشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ سقى أصحابه بماء الإيمان، وسقى قلوبهم ملابس التقوى والرضوان فتأدبوا، وأين هؤلاء ممن يقرأ على شيخه بلا تأمل ولا فهم ولا تعمق ؟ وليس في أستاذه حالة تغذيه ولا من شيخه همة تعليه ؟ ثم قال لصاحبه : لا يكون لك هذا إلا خيرا، وكنت أنا أنظر لوجه صاحب الشيخ الشرقي عليه صفرة كأنما خرج عليه الأسد.

وفي تلك الدار أيضا دخلنا على الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ وكنا معه إلى أن صلى بنا العشاء الأخيرة، فلما فرغ من صلاته وقع في قلبه ما يعلمه الله تعالى،
80 فالتفت إلى الناس* ثم قال : من أراد أن يتقرب إلي فليأتني بواحد من أهل البيت.

---

(119) هي ظهور أمر خارج على العادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة. فما لا يكون مقارنا بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجا، وما يكون مقرونا بدعوى النبوة يكون معجزة (ع. الجرجاني، **التعريفات**، ص. 97).

(120) فقيه من مكناس ومن العلماء الذين درسوا بها أيام المولى إسماعيل. كان معاصرا لأحمد بن محمد الولالي وعنهما أخذ العميري (انظر : أ. العميري، **الفهرسة**، مخطوط الخزانة الحسنية تحت رقم 560، ص. 343).

(121) ق، ك : لم.

فذهب الناس إلى الشرفاء فتخطفوهم وأتوا بما وجدوا منهم، ومن الناس من حمل الشريف إليه لما قارب الدخول على ظهره رغبة في رضى الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ، فجعل الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ لا يدخل عليه بواحد من أهل البيت إلا قام إليه وقبله بين عينيه وأجلسه معه، ثم جعل يتحدث معهم ونحن حوله. ثم تمنيت في نفسي حينئذ أن يكون الشيخ يخبرني بشيء مما يرجى خيره. فبنفس ما خطر ذلك ببالي لم ألبث[122] أن التفت إلي فقال لي : تعال ؟ فدنوت منه، ثم دعا صاحبه الفقيه الأنجب الشيخ أحمد بن مسعود المراكشي ثم الكنسوسي، فقال له وقد وضع يده على رأسي : ألم أقل لك إن هذا الطالب عزيز عندي ؟ فقال له : نعم
يا سيدي، وأنا عزيز عندي ثم قال له : ألم أقل لك* إني رجوت له الخير ؟ فقال له : 81
نعم يا سيدي، ثم قال لي ــ رضي الله تعالى عنه ــ : إقرأ قوله تعالى : ﴿**أَلم ذَٰلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ**﴾[123]. فجعلت أقرؤه وذهب عني حفظه من هيبة الشيخ، إذ صارت يده على رأسي كيد أسد يريد البطش بي، فلما رآني دهشا قرأ، فقال : ﴿**أَلم ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَٰئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ**﴾[124].

ثم قال ــ رضي الله تعالى عنه ــ : جعل الله تعالى فينا هذه الأوصاف، ثم قال لي أيضا اقرأ : ﴿**قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُومِنُونَ**﴾ فكان دأبي كما كان أولا، فقرأ : ﴿**قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ،
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَاعِلُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ*** 82
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ٱبْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[125]. ثم قال أيضا : جعل الله تعالى فينا هذه الأوصاف، ثم قال لي : كلما أحببت يقضى لك.

(122) رسمها غير واضح في النسخ المعتمدة والسياق يقتضي أن تكون كما أثبتناه.
(123) سورة البقرة، الآية 1.
(124) سورة البقرة، الآية 1–5.
(125) سورة المومنون، الآية 1–11.

وكنت حينئذ حديث السن ضعيف الرأي، أغلب ما تغلبت به همتي التبحر
83 في علوم حضرت عندي تلك الساعة مع التعلق بأذيال ذلك الشيخ المعظم*، فقلت له يا سيدي : إني أريد العلم الفلاني والعلم الفلاني، لعلوم كنت أريد مثل الفقه والأصلين والبيان والمنطق، فقال لي ـ رضي الله تعالى عنه ـ، لا، بل الحسن بك أن
84 تتعلم من كل علم. فمن بركته* ـ رضي الله تعالى عنه ـ منذ قال لي ذلك، فتح لي في تلك العلوم التي سميت وفي غيرها من جميع ما يتعاطى في الإسلام، وإذا لم يحضر من له خبرة بفن من الفنون في بلد أنا فيه، قيض الله تعالى معلما يلقاني فآخذ عنه ذلك العلم، مثل : التوقيت، وعلم الإسطرلاب، والعروض وصنعة الجدول، والحساب وغير ذلك. ثم وصاني بكتب السير ورجحانها(126) على كتب التصوف، قال : لأن فيها سيرة الصحابة وفي كتب التصوف سيرة الأولياء، فكم بينهما ! ثم قلت له : وأريد أيضا أن تعلمني الورد(127) الذي علمته أصحابك، فقال لي : نعم، اِقرأ الورد الفلاني فهو الذي عندهم. ثم قلت : وأريد أن تأذن لي في الوصية التي كتبتها لأصحابك، وقد كنت علمت أن صاحبه الفقيه الصومعي المتقدم كتب له وصايا بخط يده، فقال لي : نعم، ثم قال لي : أتعرف أدب المتعلم وأدب المعلم ؟ أما أدب المتعلم، فهو الذي إذا فهم مسألة لم يتخط لأخرى حتى يعرض تلك على نفسه، فإن وجد نفسه قد تخلقت بتلك المسألة حمد الله تعالى على علمها وعلى التخلق بها(128)، وإن لم يتخلق بها تاب إلى الله تعالى وألزم نفسه التخلق بها، ثم يحمد الله تعالى على
85 العلم* بها وعلى التخلق بها أيضا. وكذا المعلم إذا قرر مسألة وقف حتى يعرضها على نفسه، فإن تخلق بها حمد الله تعالى على العلم والتخلق، وإلا تاب وتخلق بها، فيحمد الله تعالى على الأمرين معا حتى يصير الإنسان حامدا لله تعالى على كل مسألة. قال : فبهذا يكون العلم علما نافعا، وإلا كان حرفة لصاحبه والعياذ بالله تعالى. قلت : وكلام الشيخ هذا هو فصل الخطاب في ما يلزم طالب العلم وفيما به الِانتفاع بالعلم لطالبه، والله تعالى يوفقنا لمرضاته بمنه وكرمه.

ثم تأخرت عنه إلى طرف المجلس وأنا فرح مسرور كأنما قضيت لي جميع حوائج الدنيا والآخرة. ثم قال : الشرفاء لا ننظر نحن إلى مساوئهم ولا نرى فيهم إلا

(126) ق، س : ورجحها.

(127) الورد : في اللغة، هو السرب؛ وفي الِاصطلاح، ما يرتبه العبد على نفسه أو الشيخ على تلامذته من أذكار (راجع : ابن عجيبة، **إيقاظ الهمم في شرح الحكم**، ط. فاس، ص. 160).

(128) يتوافق هذا الكلام مع ما جاء عند أبي حامد الغزالي في كتابه **ميزان العمل**، ص. 99.

الجميل. فجعل يحدثهم وهم في غاية الرفعة بين يديه على جميع من حضر من العلماء
وغيرهم. فلما ذهبت ساعة من الليل وآن وقت إيوائهم إلى مضاجعهم، قال : انظروا
86 باب القصر للشرفاء هل فتح ليرجعوا لمكانهم*، فذهب ذاهب إلى الباب ثم رجع
فقال : قد أغلق الباب، فقال ــ رضي الله تعالى عنه ــ وهو يداعبهم : ذلك الذي
نريد، أن يغلق علينا معهم الباب لا أن يغلق عنا دونهم. فأمر بفتحه فرجعوا لمنازلهم.

ولما عين لي ــ رضي الله تعالى عنه ــ الورد وأذن لي في الوصية، شرعت في
الورد ونظرت الوصية، فإذا هي عند صاحبنا الفقيه الصومعي بخط الشيخ ــ رضي
الله تعالى عنه ــ وأعطاها لي بنفسها، ومن الشقاوة أني فرطت فيها اتكالا على الحفظ
حتى ذهبت عني كتابة الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ ولكن بقي في حفظي منها
ما سأورده قريبا.

ولما وصى بها الشيخ صاحبه الصومعي وفشت في أيدي الفقراء[129]، ذهبوا بها
إلى الشيخ ابن سعيد المرغيثي المتقدم ليشرحها لهم ويبين لهم مراد الشيخ منها.
فأخذها متأدبا في أخذها، متخضعا في تناولها، وبقيت عنده مدة ثم ردها وقال لهم :
كلام الأولياء لا يفهمه غيرهم وليس لنا إلا العجز عن فهم مرادهم، فهم أولى أن
87 يشرحوا كلامهم*.

ونحن بعد ذلك بزمن لقينا العارف القدوة المتبرك به الشيخ علي بن عبد الرحمن
الدرعي[130]. وقلنا له إن الشيخ كتب لنا كلاما إذا عرضناه على أنفسنا وجدناها
بعيدة عن التخلق بمعناه، فقال لنا : من جملة المراد منها ومن جملة فائدتها هضم
النفس، بأن يجعلها الإنسان كالميزان، فإذا أحس من نفسه بفرح بعمل أو بدعوى
أنه ممن كمل، عرضها على نفسه، فيعلم أنه ما دام لم يتصف بما قال الشيخ فهو عن
المرام بمعزل، وفي أردية[131] القصور متجول. ثم قال : هذا لكم كنز مبذول، وشرب
معلول. وينبغي لي إيراد ما بقي في حفظي الآن من تلك الوصية المباركة لعل مؤمنا

(129) من الفقر، وهو شعار الأولياء، وحلية الأصفياء، واختيار الحق سبحانه لخواصه من الأتقياء والأنبياء، والفقراء صفوة الله (م. القشيري، **الرسالة**، «باب الفقر»).

(130) ترد ترجمته في «**مباحث الأنوار**» هذا. انظر هامش رقم 283.

(131) س، ق : أودية.

تنفعه، أو طالبا لمراتب اليقين[132] ترفعه، مع التعرض بالإشارة الإيجازية إلى ما توهمت بلوغ فهمي القاصر ووهمي الفاتر إليه من معانيها، فإن كلام العارفين لكونه كلاما جامعا، يجوز حمله على ما يحتمله مما يطابق الحق والدين، ويوافق سبيل المتقين، ولكن مع التبري من دعوى أن ذلك مراد الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ، وهذه هي
88 الوصية المباركة* :

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما. ينبغي لمن وفق للخير وألهم لرشده، وأعين على مراعاة أحواله، أن يميز بين مراده ومراد نفسه ومراد ربه منه، وكذلك مراد كل إنسان لقيه وخاض معه، فإذا عرف ذلك قرب الخير إليه كقربه من نفسه حتى كأنه يراه بعينه بمنزلة من راقب الفجر ووجه وجهه للجهة التي يطلع منها وليس بعد الفجر إلا الشمس، فإذا طلعت الشمس زال الشك واللبس. ولا يستعان على ذلك بالوالد إلا إذا كان صالحا، [ومما يستعان به على ذلك ترك فضول الكلام، وفضول النظر، وفضول الطعام والشراب، ومما يستعان به على ذلك][133] مواصلة الأبرار، وملازمة الاستغفار، والصلاة على النبي المختار ـ ﷺ ـ، وكذا كل ذكر[134] يجمع على الله وينفي عن القلب سواه، كلا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وكذلك التمييز بين حب الله تعالى وحب غيره، وبين حب حبيبه ﷺ وحب غيره، وكذلك تلاوة القرآن مع التدبر، وربما سماعه من الغير أقوى تأثيرا في القلب، والأصل العظيم لذلك كله أكل الحلال*، ولكن إياك والتوغل في طلبه، لأنه يدخل 89
عليك وسواسا عظيما. والحزن لا تفارقه ولا تصاحبه، فإن البقاء مع أحدهما يفسد القلب، فإذا كنت محزونا فاستعمل الفرح والسرور، وإذا كنت فرحا فاستعمل الحزن. وعليك بمطالعة كتب المحبين، ثم إذا نظرت مراتبهم في محبوبهم، فقل في نفسك هذا الذي بلغ حب المخلوق للمخلوق، فكيف ينبغي أن يكون حب المخلوق للخالق ؟ وعليك بملازمة الدعاء والتضرع إلى الله تعالى، فإنه لا يصفو القلب إلا بالدعاء.

---

(132) اليقين في اللغة نقيض الشك، وفي الاصطلاح الصوفي هو ما سماه البعض برؤية العيان وبنور الإيمان، وبالعلم المستودع في القلوب، مشيرا أنه غير مكتسب. وقال سهل : اليقين ابتداء المكاشفة، وقال بعضهم اليقين هو المكاشفة.
انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج 9، ص. 236؛ ع. الجرجاني، **التعريفات**، ص. 239؛ دائرة المعارف الإسلامية، مادة : **يقين**.

(133) سقط ما بين معقفتين من ق، ك.

(134) الذكر هو العمدة في طريق التصوف ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر، والذكر على ضربين : ذكر اللسان وذكر القلب... (انظر: ع. القشيري، **الرسالة**، باب الذكر، ص. 101).

هذا تمام ما بقي في خلدي من الوصية المباركة، وقد بقي منها كلام لم أحفظه الآن لطول العهد به، ولم أبدل من ألفاظ ما حفظت إلا قليلا مما انجلى عني لفظه وبقي معناه، والتزمت الإتيان بألفاظ ما حفظت تبركا بألفاظ الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ. وينبغي لي كما وعدت به في ما تقدم أن أحاذيها بما أراه يحتمله لفظه، مع أني بريء من دعوى أن ذلك مراد الشيخ، وكيف وألفاظ الأولياء لا يفهمها على حقيقتها غيرهم*. 90

فقوله ـ رضي الله تعالى عنه ـ : ينبغي لمن وفق للخير وألهم لرشده وأعين على مراعاة أحواله : إنما خص الموفق للخير بما سيرد بعد، لأنه هو الطالب بحاله لما يرد بعد، وهو الراغب لما يوصل إلى المقصود، فهو الذي يخاطب بذلك وينفع فيه دون المعرض المنهمك، فإن خطابه بذلك غير مفيد، وتعليم العلم لغير الراغب وإرسال الرسائل للمعرض عن مقتضاها تضييع للعمر وتعريض العلم للإهانة، فلا يخاطب بما ذكر ولا يواجه بتعليمه.

وقوله ـ رضي الله تعالى عنه ـ : «أن يميز بين الحق والباطل، ويميز بين مراده ومراد نفسه ومراد ربه منه، وكذلك مراد كل إنسان لقيه وخاض معه، فإذا عرف ذلك قرب الخير إليه كقربه من نفسه، حتى كأنه يراه بعينه بمنزلة من راقب الفجر ووجه وجهه للجهة التي يطلع منها وليس بعد الفجر إلا الشمس، فإذا طلعت الشمس زال الشك واللبس : الحق هو الله تعالى والباطل ما سواه. قال ـ ﷺ ـ : أصدق* 91
كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد[135] : «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[136].

ومن الحق ما حققه الحق تعالى، وقد حقق الدين والسنة، فضدهما وهو الكفر والمعصية والبدعة باطل، وحقق النعيم الأخروي وحياة الآخرة ودوامها، فضد ذلك وهو النعيم الدنيوي والحياة الدنيوية باطل لعدم دوامها. والتمييز بين الحق والباطل يكون

(135) هو لبيد بن ربيعة بن مالك. أبو عقيل العامري أحد الشعراء الكبار في الجاهلية ومن أصحاب المعلقات. وفد على النبي محمد ﷺ ويعد من الصحابة ومن المؤلفة قلوبهم. سكن الكوفة وعمر طويلا. جمع بعض شعره في ديوان صغير طبع وترجم إلى الألمانية. توفي عام 41هـ/661م. م. الزركلي، **الأعلام**، ج 5، ص. 240.

(136) شطر من بيت شعري للبيد وقد يذكر في باب أبيات الحكمة والتمثيل، وقد ذكره اليوسي في هذا الباب :
ألا كل شيء ما خلا الله باطـــــل وكل نعيم لا محالــــــة زائـــــل
كما ورد هذا البيت الشعري للبيد في الحديث أيضا. أخرجه مسلم في كتاب **الشعر** عن ابي هريرة وأخرجه البخاري وابن ماجة والإمام أحمد.

اعتقادا، ويكون إدراكا صريحا وعملا بمقتضى الحقيقة الباطلية، والتمييز بينهما بمجرد الإعتقاد والإقرار يشترك فيه جميع الموحدين ممن يقر بالإسلام وإن كانوا عصاة، وليس موجبا للقرب من الخير الذي هو كمال المعرفة(137) بالله والكشف(138) عن حقائق التوحيد حتى تكون ذوقا(139) موجبا لعبادة الحق كأنه يرى، وإن كان صاحبه أقرب بالنسبة للكافر، وإنما الذي يوجب القرب من الخير المذكور، التمييز، بالإدراك الصريح
الموجب للعمل، فإذا أدرك أن الله تعالى هو الحق، وأن بيده خير* الدنيا والآخرة، لجأ 92
إليه بموافقة ما يرضيه وبالإستناد إليه رافضا لما سواه ومبطلا لما أبطله، فلا يسعى في رضى غيره، ولا يجتهد إلا في طاعته، ولا يعتمد في أموره إلا عليه، ولا يستعين إلا به.

ويتحقق ذلك بالتمييز بين مراد ربه، أي ما يرضاه ربه منه، وبين مراد نفسه، وكذلك إدراك مراد المخالط له من أبناء جنسه، لأن بمعرفة مراد ربه منه وأنه هو الإستقامة في الظاهر بالوقوف على حد الأمر والنهي في الجوارح الظاهرة وفي الباطن بترك الإختيار معه. قال تعالى : ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ**﴾(140) معرفة مصاحبة للإتصاف بتلك الإستقامة تحصل ثمرة الإستقامة. وهي قرب الوصول إلى الله تعالى بكامل الإيمان به، وبمعرفة مراد نفسه الذي هو تحصيل كل شهوة للنفس معرفة أوجبت منابذة اتباع النفس(141) في ذلك، وبمعرفة

(137) كثيرا ما تأتي كلمتا العلم والمعرفة مقرونتين : فالعلم هو نقيض الجهل وزوال الخفاء، والمعرفة تعني إدراك الشيء على ما هو عليه، وقد يراد بها كذلك معرفة الله، وهذا هو المقصود بها هنا، إلا أن هذه التعريفات تبقى غامضة والتدقيق فيها صعب، لأن مضامنها تتداخل.
انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج 9، ص. 236؛ ع. الجرجاني، **التعريفات**، صص. 239–284؛ **دائرة المعارف الإسلامية** مادة : «علم معرفة».

(138) في اللغة رفع الحجاب وفي الإصطلاح هو الإطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجودا أو شهودا، غ. الجرجاني، **التعريفات**، ص. 97.

(139) الذوق في معرفة الله عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق في قلوب أوليائه ليفرقوا به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب أو غيره (**المصدر نفسه**، ص. 112).

(140) سورة **القصص**، جزء من آية 68.

(141) تختلط كلمتا «النفس» و«الروح» كثيرا في الفكر الإسلامي، وصار من العسير التمييز بينهما، وقد تطلق كلمة الروح على الجزء الخالد المتعالي من الإنسان، وربط معنى كلمة النفس بالجزء الدنيوي والعالم المادي منه. النفس مظهر سلبي في الإنسان لأنها جماع الميول الفردية أو الأنانية، ويعرفها القشيري بأنها صفات العبد المعيبة والمذموم في خلقه وفعله، فهي مأوى الشرور ومنبع الأخلاق الذميمة.
انظر: ع. القشيري، **الرسالة** «باب النفس»؛ **الجرجاني، التعريفات**، ص. 141؛ ع. الخشم، **أحمد زروق والزروقية**، ص. 240.

مراد المخالط، فإن كان حقا صحت له مخالطته، وإن كان باطلا وجبت منابذته، لأن
93 المرء على دين خليله يكون عاملا بمقتضى الحقية والباطلية، إذ مقتضى* الحقية الإعتبار
لها، وقد اعتبرت بالإمتثال، ومقتضى الباطلية الإلغاء لها، وقد حصل بالإبطال. وإذا
حصلت للمرء معرفة هذه الإستقامة حصولا عمليا كما يقال، فكان يعرف الحق أي
يعمل به، وتلك المعرفة هي التمييز بين الحق والباطل، وبين المرادات، التمييز بين
المرادات أوجبت له تلك المعرفة المعية الإختصاصية لأنه صار بها من المحسنين
والمحسن له، ذلك حسبما اقتضى ذلك وعده تعالى الصادق، قال تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾(142).

فإذا حصلت معية النصرة على النفس، فهي في حكم المغلوبة المنهزمة
المضمحلة الرعونات، والرعونات هي الحجاب الأعظم، وإن كان كذلك فهو بصدد
إفاضة أحوال المعرفة الخاصة بحيث صارت تلك الأفاضل قريبة منه كقربه من نفسه،
94 وإنما قلنا كقربه من نفسه مبالغة في القرب، لأن أقرب الأشياء إلى* الإنسان كما قيل
نفسه، وإن كان لا يدرك حقيقتها، إذ هي جزء منه، فهو حينئذ بمنزلة من راقب
الفجر ووجه وجهه لجهته، لأنه أتى الأمر من بابه، واستقبل ما يرد منه المراد. ومعلوم
أن مراقبة الفجر، إنما تكون عند قرب طلوعه، والشيء القريب الحصول لابد عادة
من أن يحصل قريبا، وإذا حصلت تلك الإفاضة التي هي ورود أحوال المعرفة الخاصة
التي هي للمطمئنين، وهي المشبهة بالفجر، وترادفت تلك الأحوال، فليس بعد ورودها
إلا التمكن من المعرفة الخاصة التي هي لعباد الله تعالى الخلص، وهي المشبهة
بالشمس، فإذا طلعت تلك الشمس، زال الشك واللبس، أي زالت الأمور التي
تناسب الشك وتناسب التباس من له القدر، إذ المؤمن الحقيقي لا يخاف غير الله
تعالى لعلمه أن له القدر ولا يحب سواه إلا بحبه، ولا يعتمد على غيره، ولا يطلب
سواه، ولا يهتم برزق، ولا يستأنس بخلق، بخلاف غير الحقيقي، فهو يخاف
[الأغيار](143) والضُّلال من المخلوقين كما يخاف الصبي ويعتمد في الأرزاق أسباب
95 المتسببين* العادية، ويرجو الحوادث ويعتمد على من ليس معه بلا بث، وإنما قلنا زالت
الأمور التي تناسب الشك وتناسب التباس من له القدر، لأن الشك والإلتباس
الحقيقي كفر، وكلامنا في مراتب المومن، ولا شك معه، ولا لبس، ولكن معه ما
يناسبه مما ذكرنا.

(142) سورة **العنكبوت**، الآية 69.

(143) رسمها غير واضح في النسخ المعتمدة ولعل الصواب ما أثبتناه.

وقوله ــ رضي الله تعالى عنه ــ : ولا يستعان على ذلك بالوالد إلا إذا كان صالحا : الوالد الصالح يكتسب الولد منه بمعاشرته التخلق بحاله، لأن من تحقق[144] بحالة، لم يخل حاضره منها. ودعاؤه لولده يكون مخلصا وعلى حد الإضطرار، فهو أسرع إجابة وأقرب للقبول[145]، ثم لا يدل ولده إلا على ما له فيه نفع أخروي. وغير الصالح إنما يكتسب منه حال الدنيا، ودعاؤه غالباً محفوف بالشهوة ابتداء وانتهاء، فهو أبعد من القبول وأبطأ إجابة، ثم لا يدل ولده غالباً إلا على ما فيه ضرره[146] الديني، فلذلك لا يستعان في غالب الأمر على مراد أهل الطريق بالوالد إلا إذا كان صالحا.
وأما كون طاعة الوالدين* مما يقرب من الله تعالى، والمعصية مما يبعد، فليس ذلك من 96
الإستعانة بالوالد على المراد، بل من الإستعانة بترك معصية الله تعالى على المراد، إذ معصية الوالدين معصية الله تعالى لتوصيته بطاعتهما وإن كانا فاسقين.

وقوله ــ رضي الله تعالى عنه ــ : ومما يستعان به على ذلك ترك فضول الكلام، وفضول النظر، وفضول الطعام والشراب : مما أجمع الناس عليه، أن فضول الكلام، أي الزائد على قدر الحاجة منه، مما يقسي القلب ويجر إلى معاصي اللسان، مثل الغيبة التي هي خراب القلب من الهدى وإهداء الحسنات إن كانت للمغتاب. وإن ترك فضول الكلام يوجب لين القلب واستقامته، والقلب سلطان الجوارح، إذا استقام استقامت، وإذا اعوج اعوجت، ولأجل أن فضول الكلام تتضمن الإعوجاج وعدم الإستقامة وعدمه بالعكس، ورد أن الجوارح إذا أصبحت أنشدت اللسان الله تعالى في الإستقامة لإضراره بها غاية. ولأجل ذلك قيل : إذا رأيت وهنا في بدنك، وحرمانا
في رزقك، وقساوة في قلبك، فاعلم أنك تكلمت بما لا* يعنيك. ومن هذا اهتم أرباب 97
الدين بترك فضول الكلام ويعاقبون أنفسهم على عدم الترك. فقد مر واحد منهم بغرفة قديمة فقال : هذه غرفة قديمة، فعاقب نفسه على هذا القول بصيام سنة.

ودخل في الكلام حديث النفس، فإن إرسال النفس في حديثها وتركها تتحدث بالفضول، مما يقسي القلب أيضا، والحديثان متلازمان غالبا، فمتى دام انقطاع أحدهما انقطع الآخر. وبالجملة، فطلب الإستقامة بالصيام والقيام وغير ذلك من أنواع المجاهدات، مع ارتكاب فضول الكلام، بمنزلة إيقاد المصباح مع إفراغ الماء

---

(144) ك : تخلق.

(145) ق، س : للقلوب.

(146) ك : ضرورة.

عليه. وقد سمعت بعض العارفين يقول : ربما ورد علي وارد يشد على قلبي ويكاد منه أن يتفطر وأموت، ثم نبهت لدواء يبرده. فقلت له وما هو ذلك الدواء ؟ فقال : ذكر الدنيا وفضولها.

فقد ظهر أن فضول الكلام أوفق شيء للنفوس، حتى لو أقسم حالف أن
98 أقوى الطرق في قهر النفس* واستقامتها إنما هو ترك فضول الكلام ما حنث، لأن انتعاش النفس إنما هو بخوضها كيف شاءت في الأحاديث، وإنما ينجلي غمها باتساعها في الأخبار الفضولية، ولذلك جوز للقاضي التحدث لذهاب الضجر ليتيسر له الحكم بين الخصوم، فإذا قطع عن النفس ذلك التحدث ماتت.

ومن جملة خصائص ترك فضول الكلام، أن دوامه من الأعمال التي لا يعرض لها الرياء وقصد السمعة، لأنه على تقدير كون الترك في حالة وفي زمان معين رياء لعارض لا يتيسر دوامه، رياء لما فيه من موت النفس، وفيه يتفاوت المجاهدون لأنفسهم. أعاننا الله تعالى على كل ما يوصل إلى رضاه الأعظم، بلا محنة ولا وحلة[147]. ثم إن ترك فضول الكلام يتضمن ترك جميع المحرمات اللسانية، مثل الغيبة والكذب والزور والفحشاء والنميمة والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وغير ذلك، لأن الإنسان إذا ترك ما هو خلاف الأولى فهو للمنهي المحرم أترك. فهذه أوجز عبارة في إفادة ترك المحرمات اللسانية[148].

99 وأما فضول النظر فيوجب شهود الشهوات* والغالب اتصاف القلب باشتهائها لما جرت به العادة من شدة ميلان القلب للمشهود بخلاف الغائب، ولذلك يقال : ليس الخبر كالعيان. والقلب المشتهى مكبل بشهواته، فلا يكون منه ارتحال لطريق الإستقامة الموجبة للمعرفة المنافية للميل لغير الله تعالى. ولذلك يقال : العين سبب الحين قال :

---

(147) ك : حلة.

(148) يمكن أن يندرج هذا كله تحت حديث : «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» وهو حديث حسن أخرجه الترمذي عن أبي هريرة في كتاب **الزهد** وابن ماجة في كتاب **الفتن** ورواه غيرهما. كما فسره كثير من الشراح، فراجع : 1 ـ محمد بن عبد الله، **شرح الجرداني على الأربعين...**، مكتبة مضوي؛ 2 ـ أحمد بن حجر الهيثمي، **فتح المبين لشرح الأربعين**، ط. بيروت، 1978؛ 3 ـ ابن فرج عبد الرحمن، **جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا لابن رجب**.

وأَنْتَ مَتَـــى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِـــداً لِقَلْـبِكَ يَوْمــاً أَتْعَبَــتْكَ آلْمَنَاظِـــرُ
رَأَيْتَ آلـــذِي لَا كُلُّـــهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْـهِ وَلَا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِــرُ(149)

ويتضمن ترك فضول النظر أيضا، ترك المحرمات البصرية، كنظر الأجنبيات، ونظر المناكر الحسية، لأن ترك خلاف الأولى يوجب من باب الأولى ترك ما هو محرم، ويتضمن وجود لذة العبادة المعينة على الإستقامة، إذ لذة العبادة تحصل بكف العين عن المحارم، وكذا الفوز بالنجاة الأخروية. وقد ورد : «أن النار لا تمس عينا غضت عن محارم الله كالعين الباكية من خشية الله والتي باتت تحرس في سبيل الله»(150).

100 وأما فضول الطعام والشراب فقد تقرر أن* امتلاء المعدة يوجب الشرب الكثير، والشرب الكثير يوجب النوم الكثير، والنوم الكثير يوجب الخسران الكثير، لأنه يفوت أوقاتاً كثيرة للعبادة، وفوات الأوقات الكثيرة للعبادة يوجب قلة العبادة، وقلتها موجبة للقساوة القلبية المضعفة للإيمان، وضعف الإيمان أصل كل شر، مع أن في امتلاء المعدة تقوية القوى الشهوانية الفرجية وغيرها، وأقل ما يحصل من ذلك الشغل يدفع ما تدعو إليه تلك القوى، والفتور والتثاقل عن المسارعة إلى الخيرات من قيام الليل وغيره(151). وخلو المعدة من الطعام والشراب أصل من أصول القوم، وكثيرا ما يوصون بالتزامه. عبر عنه الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ بترك فضول الطعام والشراب إشارة إلى أن المراد بذلك خلوها عن الفضول، لا الخلو عن كل طعام وشراب، لأن ما يقوم به الأود ويتقوى به على العبادة لابد منه، إذ الجوع والعطش
101 المفرطين شاغلان عن العبادة أيضا، وموجبان للضعف عن أسباب* الإستقامة. فعبارة الشيخ أوضح من المراد، فقد ظهر بما ذكر أن ترك فضول ما تقدم من الأمور المستعان بها على الإستقامة، والله سبحانه الموفق بمنه وكرمه.

وقوله ــ رضي الله تعالى عنه ــ : ومما يستعان به على ذلك مواصلة الأبرار، وملازمة الإستغفار، والصلاة على النبي المختار ــ ﷺ ــ وكذلك كل ذكر يجمع على الله وينفي عن القلب سواه كلا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وكذلك التمييز

(149) استشهد كثير من المتصوفة والمتكلمين في التصوف بهذين البيتين في آداب البصر، أي الغض عن المحارم.

(150) أخرجه الدارمي في كتاب **الجهاد** عن أبي ريحانة.

(151) يمكن أن يندرج هذا الموضوع تحت حديث الترمذي في الزهد وابن ماجة في الأطعمة، كما يتوافق مع ما جاء عن كراهية كثرة الأكل (راجع: الغزالي، **ميزان العمل**، ص. 80).

بين حب الله تعالى وحب غيره، وبين حب حبيبه ـ ﷺ ـ، وحب غيره، وكذلك تلاوة القرآن مع التدبر، وربما يكون سماعه من الغير أقوى تأثيرا في القلب. فقد تقرر من سنة الله تعالى في عباده، أن مواصلة الخلص من عباده توجب لمن واصلهم التخلق بأخلاقهم، والتأدب بآدابهم، كما ورد : «إن الجليس الصالح كبائع المسك، إما أن تشتري منه أو يصيبك بطيب رياه، والجليس السوء كالحداد إما أن يحرقك أو
102 يصيبك بسواد الفحم»[152]. ولذلك كانت مواصلتهم أنفع شيء* في طريق الاستقامة، لا سيما إن لقي منهم أهل الهمة الفعالة كما قال أبو العباس المرسي : إنما يطلب الرجال أمثالي فإنه يأتيني رجل يبول على كعبيه[153] فأنظر إليه نظرة وقد بلغته.

وأما ملازمة الاستغفار ففيه تحقيق التوبة التي هي أساس الاستقامة، إذ المراد الاستغفار الناشئ عن الرغبة في محو الفائت المكروه من المعاصي، ولا تكون تلك الرغبة حقيقة إلا بعد التوبة التي هي الرجوع عن المذموم شرعا إلى الممدوح مع رد التبعات والاستحلال من الحقوق التي لا يمكن ردها ولا ينبني على ذكرها منكر أعظم، مع أن ملازمة الاستغفار فيها الفرج من كل هم وغم، على ما ورد في الحديث. وأهم الأمور للمومنين تحقق الاستقامة، وفيه أيضا غفران الرب ورضوانه حسب وعده تعالى الصادق، وذلك يقتضي صفاء الباطن من كدرات الذنب، فيكون مستقيما فتستقيم جميع الأعضاء لأنه سلطانها، ولذلك كانت تلك الملازمة من أسباب الاستقامة.

103 وأما الصلاة على النبي ـ ﷺ* ـ فقد ورد : «أن ملازمتها توجب كفاية كل هم»[154]. وأهم الأمور للمومنين دفع ما يمنع من الاستقامة مع أن فيها تربية المحبة للنبي ـ ﷺ ـ، ومحبته ـ ﷺ ـ مجلبة كل خير ومدفعة كل مضرة، لأن محبته فيها محبة الله تعالى، ومحبة الله تعالى هي نهاية المأمول وغاية السؤل، وفي محبته حسن اتباعه، إذ التمكن من محبة المحبوب يوجب اتباع رضاه، ورضاه : اتباعه، لأنه طاعة الله تعالى، واتباعه يوجب حب الله تعالى للمتبع وغفرانه، ويوجب الفوز العظيم، وذلك نهاية المراد. قال تعالى : ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ**

(152) أخرجه البخاري ومسلم.

(153) س، ق : كعابة.

(154) لم يرد في الكتب التي فهرسها فنسينك.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[155] ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[156] وأيضا ورد : «من صلى على النبي ﷺ، ﷺ، بالمضاعفة لعشر فأكثر»[157]. ومقتضى صلاة الله تعالى على عبده التي هي رحمته له وتجديد آثار تلك الرحمة عليه، محو آثار الذنوب التي هي القساوة عن قلبه فيستقيم بمحو تلك القساوة. ولهذا كانت الصلاة على النبي – ﷺ* – من أقرب الطرق إلى الله تعالى. ولأجل ذلك قيل من 104
ضاع عمره، وكبر سنه، وضعف بدنه عن قوة العبادة، فعليه بالصلاة على النبي – ﷺ –، فإن العبد يصلي على النبي – ﷺ – على قدر حاله، والرب على العبد على قدر جلاله وعظمته[158].

وأما الذكر الذي ينفي ما سوى الله تعالى عن القلب، فمن المعلوم أن انتفاء تعظيم غير الله تعالى عن القلب يوجب امتلاءه بعظمة الحق ويقتضي رفض اتباع رضى ما سواه من الخلق، ومن لازم ذلك محبته تعالى الخاصة والمبادرة لطاعته ما أمكن، وذلك نفس الإستقامة، [فمآل لزوم الذكر وسره][159] هو الإستقامة المتقضية للمعرفة الموجبة لعدم الميل لغير الله تعالى، ولذلك يقال : ما رأيت الأسرار إلا في ملازمة الأذكار. وقيل : الذكر منشور الولاية[160]. أي مآله إليها، ومن منع الذكر فقد عزل أي عزل عن سبب الولاية العادي. ولكن جرت العادة بأن تمكن معنى الذكر في القلب إنما يكون غالبا بعد تصحيح التوبة، والملازمة الطويلة، والإخلاص* والتأدب في 105
تلك الملازمة، وذلك بأن يسقط الشواغل ويكون على أكمل حال ظاهر أو أتمه باطنا. فقصده مجرد العبادة لا تحصيل مقام أو فضيلة.

وأما التمييز بين حب الله تعالى وحب غيره، وكذا بين حب حبيبه – ﷺ – وحب غيره : فقد علم أن المحبة ملزومة للتعظيم والمراعاة للمحبوب على قدرها، والحق تعالى ينزل العبد عنده على قدر تنزيل العبد إياه من المراعاة والتخصيص، فإذا

---

(155) سورة **آل عمران**، الآية 31.

(156) سورة **الأحزاب** جزء من الآية 71.

(157) لم يرد في الكتب التي فهرسها فنسينك.

(158) هناك اختلاف في حكم الصلاة على النبي ﷺ، وأرجح الأقوال أنها فرض على الجملة. وذهب كثير من العلماء أنها تجب كلما ذكر (انظر: القاضي عياض، **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، ج 2، صص. 60–61).

(159) سقط ما بين العلامتين من ك.

(160) هذا قول أبي علي الدقاق (راجع: ع. القشيري، **الرسالة** «باب الذكر»).

خصصه العبد عن غيره بالمراعاة الناشئة عن المحبة، خصصه الحق عن العامة وألبسه ملابس الخاصة، ومحبة رسوله الخاصة في محبته تعالى، فلها حظ من الرعاية والتخصيص. وإذا لم يميز العبد بين الحبين ولم تكن له في جانب الحق ولا في جانب النبوءة رعاية ومحبة هي أخص، فليس جديرا بأن يخص من بين أبناء جنسه [بتحقق][161] الإستقامة، بل هو كسائر العامة.

ومحبة الرب تعالى ذاتية وإحسانية. وكذا محبة الرسول ـ ﷺ ـ، ولكل من
الحبين سبب يوجبه مع منة الله تعالى، أما الذاتية في جانب الألوهية فبالتفكر* في 106
أوصاف الرب، وأنه القديم الأول الذي لم [يضره][162] حصول حدوث ولا حاجة لسبب يستند إليه، والباقي الذي لا يفنى، والغني الذي لا يلحقه ضعف، والمتنزه عن الإدراك جلالة وعظمة، والواحد الذي لا يخالطه مدبر ولا شريك، والقدير الذي لا يخرج شيء عن إحاطة اقتداره، والمريد الذي لا يتكون شيء بلا اختياره، والعليم الذي لا يغرب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، والحي الذي لا يخشى عليه عارض الموت، والسميع والبصير بكل موجود بلا جارحة يخشى عليها تغير أو نقص أو فوت، والمتكلم بكلام قديم لا يعتريه تجدد ولا انقطاع.

فإذا أدرك العبد هذه الأوصاف وعرف اختصاص الحق بها، فلا شك أن ذلك كمال ذاتي وجمال كنهي. والكمال الذاتي تتسارع النفوس إلى التعلق بحبه لما جبلت عليه من حب الجمال والكمال، ولا جمال ولا كمال أعظم من هذا الكمال والجمال
الإلهي، فيحصل للعبد بتوفيق الله تعالى* حب ذاتي. 107

وأما الإحساني في جانب الألوهية : فإذا تأمل العبد في ما أحاط به من النعم الظاهرة والباطنية وأنها منه تعالى، قال جل وعز : ﴿**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ**﴾[163] ﴿**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**﴾[164]. تسارعت نفسه لحبه على إحسانه كما تسارع لحبه على كماله، لأن النفس جبلت على حب من أحسن إليها. وأما الذاتي في الجانب النبوي فبالتفكر في كمال نسبه ـ ﷺ ـ وفي جمال الذات التي خلق عليها، وكمال الأخلاق التي طبع عليها من الحلم والصبر والكرم والشجاعة

(161) رسمها غير واضح في النسخ المعتمدة والسياق يقتضي ما أثبتناه.

(162) رسمها غير واضح في النسخ المعتمدة ولعل الصواب وما أثبتناه.

(163) سورة **النحل**، الآية 53.

(164) سورة **النحل**، الآية 18.

والصدق والأمانة والمعرفة لله تعالى والاستقامة والمحبة. وأما الإحساني في جانبه، فبشهود أن النعم كلها دنيا وأخرى على يده ـ ﷺ ـ، فقد ظهر أن الجانب الإلهي له أعظم كمال ذاتي يستحق به أن يهام في حبه، وأعم كمال إحساني يستوجب به الاستغراق في التعلق بوده. وأن الجانب النبوي له من الكمالين ما يستحق به أن
108 يخص من بين خواص المخلوقين بحب أعلى، وتعظيم أجلى. وفقنا الله تعالى لما يحبه* ويرضاه بمنه وكرمه.

وقوله ـ رضي الله تعالى عنه ـ وكذلك تلاوة القرآن مع التدبر، وربما يكون سماعه من الغير أكثر تأثيرا في القلب : لا شك أن القرآن نور يهدي به الله من يشاء من عباده، إذ مواعظه أنجح المواعظ، وألفاظه ألذ ما يلفظ به اللافظ، وحججه على النفس والهوى أقوى الحجج، وبراهينه على الشيطان أقطع من كل برهان للحجج، وقضاياه أسرع للقبول من ما سواها، ومعانيها أوفق لجميع المقامات من معاني ما وراها، وأجر تلاوته أرفع أجور الأذكار، وسريان نور الإيمان والتقوى منه في الفوائد أقرب من سواه من ذوات الأنوار. وكيف لا وهو حبل الله الذي لا ينقطع، وسبيله الذي في طلب الارتفاع من غيره لم يرتفع، وهذا مما لا يقع الاختلاف فيه لكن الانتفاع المباشر إنما هو بالترتيل والتدبر. وأما القراءة مع الغفلة، فلما فيها من قلة الأدب، وعمارة القلب بغير معاني المتلو، لا ينتفع بها القلب عادة في سبيل التقوى، ولا يرتفع بها عن موارد الهوى، وليس الخبر كالعيان.

109 ثم إن* سماعه من الغير مع التأمل، كثيرا ما يكون أقوى تأثيرا في القلب من التدبر مع التلاوة، بأن السماع من الغير لم يباشره شاغل، بل القلب حينئذ متوجه لأنواره بلا شاغل بخلاف التالي، فإن قراءته بلسانه ربما لم يتم معها فراغ القلب للتأمل، لمقارنة حركة اللسان لتوجه القلب للمعنى، وخلو القلب عن مقارن يجوز لأن يكون شاغلا أوفق للانتفاع بالمسموع من عدم خلوه، مع ما جبلت عليه النفوس من تأثرها بما يرد من الغير من المواعظ بخلاف موعظة الإنسان نفسه، فهو أقل تأثيرا، فكذلك التلاوة. والسر فيه، ما علم من قبول ما يرد من الغريب دون المأنوس، والغير أقرب للغرابة من النفس، فلهذا كانت تلاوة القرآن مع التدبر مما هو أعون على الاستقامة، والسماع من التدبر أقوى.

وقوله ـ رضي الله تعالى عنه ـ والأصل [العظيم][165] لذلك كله أكل الحلال،

(165) سقطت من ك.

ولكن إياك التوغل في طلبه، إذ ذلك يدخل عليك وسواسا عظيما. والحزن لا تفارقه ولا تصاحبه، فإن البقاء مع أحدهما يفسد القلب، فإذا كنت محزونا فاستعمل الفرح
110 والسرور، وإذا كنت فرحا* فاستعمل الحزن، وعليك بمطالعة كتب المحبين ثم إذا نظرت مراتبهم في محبوبهم، فقل في نفسك هذا الذي بلغ حب المخلوق للمخلوق، فكيف ينبغي أن يكون حب المخلوق للخالق ؟ وعليك بملازمة الدعاء والتضرع إلى الله تعالى، فإنه لا يصفو[166] القلب إلا بالدعاء. أكل الحلال يوجب إقامة البينة بما لا إثم فيه، والبينة هي محل أعمال التكليف، وجدير ببينة[167] قامت بما لا إثم فيه أن تحفظ من الآثام، وتلائم أعمالها ما قامت به من الطعام، لأن الله تعالى يجازي العبد من جنس عمله، فحيث عمل صلاحا في إقامة البينة من الصلاح صلح جسده أن يرتكب ما فيه الصلاح.

أما أكل الحرام فبالعكس، وأكل الشبهة بينهما، فتعرف من صاحبه وتنكر، ولهذا قال الغزالي ــ رضي الله تعالى عنه ــ : العمل الخارج من البدن على حسب ما دخل من الطعام[168]. فإن طعم الحلال بلا شبهة لم يخرج منه إلا صالح الأعمال، وإن طعم الشبهة لم يخل من تقصير، وإن طعم الحرام لم يخرج منه إلا الحرام. ولهذا كان أكل الحلال أصلا عظيما للإستقامة، كما ورد : «أن من أكل الحلال أطاع الله تعالى جزما، وأن من أكل الحرام عصى جزما»[169].

111 ثم إن «خير* الأمور أوسطها وأصوبها ما جرى على السنة»[170] والتوغل في الأشياء ليس منها، بل هو خروج عن الإعتدال، ولذلك إذا توغل الإنسان في تحقق شيء ما من الأشياء، وصار يبحث عنه وعن جهات تصحيحه بحثا خارجا عن الإعتدال لم يخل من وسواس عظيم يدخل عليه. فطلب الحلال بالتوغل يقتضي

---

(166) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : يصف، والصواب ما أثبتناه.

(167) س، ك : بنية.

(168) لا ينقل القول بنصه وإنما يأخذ بمعناه حيث يقول الغزالي : «من كان همه ما يدخل في بطنه كانت قيمته ما يخرج منها». ميزان العمل، باب : بيان ما يحمد ويذم من أفعال شهوة البطن والفرج والغضب.

(169) غير مفهرس في معجم فنسينك.

(170) خير الأمور أوسطها وفي لفظ : أوساطها. قال ابن الغرس : ضعيف؛ وقال السخاوي في «**المقاصد الحسنة**» : «رواه ابن السمعاني في «**ذيل تاريخ بغداد**»، لكن بسند فيه مجهول عن علي مرفوعا، وللديلمي بلا سند عن ابن عباس مرفوعا» (انظر: م. العجلوني، **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، ج 1، ص. 391).

الوسواس في تحصيله عادة، وهو شاغل عظيم عن الواجب، والأولى أن يبني الإنسان الأمور على الظن الأغلب، وإلا لحقه وسواس يشغله عما هو بصدده. فإن الوسواس في كل شيء داء موسوم بالقبح، ومرض يجب التداوي منه بزيارة الأبرار واللجاء إلى الله تعالى، وأصله كثرة التحري الخارج عن الإعتدال والتخوف من النقصان من شيء ما من الأشياء.

وأما الحزن وكذا الفرح فهما من الشواغل القلبية إن تعلقا بأمور الدنيا، ولذلك إذا أرسل القلب مع أحدهما وأديم، أفسده وأخرجه عن طريق الإستقامة [إذ التعلق بأمور الدنيا من جملة الشواغل عن الإستقامة](171) فلذلك ينبغي أن لا يقام مع أحدهما حرزا من فساد القلب يشغله عن طلب الإستقامة، بل يستعمل أسباب
112 الفرح عند الحزن، وأسباب الحزن عند* الفرح، فيذكر الموت ــ مثلا ــ وما فيها عند قوة الأفراح الدنيوية، ويذكر النعم وما دفع عنه من النقم ــ مثلا ــ عند قوة الحزن. وأما الفرح والحزن المتعلقان بأمور الآخرة، فلا يفسدان القلب إلا عن مقام هو أعلى مما صاحبهما فيه. فالحزن والفرح لمن كان في مقام الزهد في الدنيا وفي طلب الثواب الأخروي، يشغلانه عن مقام المعرفة وترك الإختيار مثلا.

وأما مطالعة كتب المحبين، فمن العادة أن النفس تنافس الأمثال، وتقايس بالرجال. فإذا كان للقلب صفاء وتعلق بالله تعالى، مؤثرا له على غيره، وسمع أثره مخلوق لمخلوق، وحب مخلوق لمثله، على إحسان مدخول، وجمال معلول، لم ترض نفسه بدون تلك المنزلة في حق ذي الجمال الذي يشين كل زين سواه، وذي الإحسان القديم الذي للقلب من كرمه جميع ما يتمناه. ولهذا كانت مطالعة كتب المحبين لأهل صفاء القلوب والتعلق بالله تعالى، مما يرتقى به عادة من المحبة إلى مقام أعظم وحال أفخم، وإنما قيدنا ذلك بأهل الصفاء والتعلق للعلم لأن أهل الغفْلة والإخلاء لا يؤثر ذلك في قلوبهم إلا تأثيرا ضعيفا، وليس الخبر كالعيان.

113 وأما ملازمة الدعاء فمن المعلوم أن* ملازمته فيها اللجوء إلى الله تعالى والتبري من الإعتماد على الأحوال أو الأفعال، وذلك من آثار الإضطرار الموجب للإستجابة. ولذلك كان الدعاء أقرب الأشياء في صفاء القلوب وخلوها عن الإستناد لغير الله تعالى حتى كأنه لا صفاء إلا منه [والعبادة كلها وإن كانت للإجتماع على الله

---

(171) سقط ما بين معقفتين من ك، وصحح بالهامش.

وللصفاء][172] ولكن الدعاء مخها وسرها، فهو أقرب وأوجب. هذا تمام ما أردنا أن
نشير إليه مما نحاذي به كلام الشيخ، فإن صادفنا في شيء من ذلك صوابا ومطابقة
فمن الله تعالى، وإن لم نصادف فالخطأ منا، وذلك أصلنا وخليقتنا، فلنرجع إلى أخبار
الشيخ رضي الله تعالى عنه.

ولما أمرني بالورد المعلوم، ومطالعة هذه الوصية، جعلت أقرأ الورد وقد نظرت في
الوصية، وأتردد إليه أيام إقامته بالزاوية وهي قليلة نحو عشرة أيام، فكان لي من فضل
الله تعالى في تلك الأيام ما لا أذكر. وفي أثنائها خرج يوما كأنه يريد زيارة أبي يعزة ــ
رضي الله تعالى عنه ــ لكونه صدرت منه نية زيارته قبل تحققه بذلك المقام، ونية
الصديقين كالنذر يتأولون في ذلك قوله[173] تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا* ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ 114
مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مُقْتاً عِنْدَ ٱللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[174] فتناول النية لأنها قول
نفساني، وإلا فالشيخ قد ذكر له بعض أصحابه أنه يريد أن يزور أبا يعزة فقال له :
أصحابي لا يحتاجون لزيارة أحد ولما خرج لزيارته تبعه الناس ثم إنه رجع عن ذلك،
فشاع عند الناس أنه رجع للقائه إياه بإتيان أبي يعزة ــ رضي الله تعالى عنه ــ إلى
الشيخ. وسمعت أن الشيخ أخبر بذلك عن نفسه، ولكن لم أسمعه منه. وسمعت بعض
الناس يقول : قال الشيخ قد دعونا لكم عند أبي يعزة في خروجنا هذا، والقائل لذلك
ثقة. وهذا يناسب إتيان أبي يعزة إليه للعلم بأن الشيخ في ذلك الخروج لم يصل إليه
حسا، ولا يستغرب إتيان أبي يعزة إليه، كما أنه أخبر يأتيه أبو العباس السبتي ــ رضي
الله تعالى عنه ــ، فإن فضل الله تعالى لا ينحصر.

وخرج يوما من تلك الأيام، ومشى بخارج سور الزاوية، ولما رجع قال لبعض
أصحابه، أتدري ما السر من طوافنا ببعض سور هذه المدينة ؟ فقال له لا ! فقال :
السر تأمينها من ما يخشى أهلها حينئذ. وكانت البلد إذ ذاك تخاف من[175] قوم
اشتدت عداوتهم لها* وإذا ذهب جند أهلها ــ وهم قبائلهم ــ إلى جهة السواحل 115
وبعدوا عنها، بقي أهلها في مخافة عظيمة من أولئك أن يدخلوها عليهم. ومن يوم قال
الشيخ ذلك لم تزل البلد في ازدياد الأمن من أعدائها أولئك، حتى أمنوا منهم بضعفهم

(172) سقط ما بين العلامتين من ك، وصحح بالهامش.
(173) وردت في ك هكذا : في ذلك إن قوله.
(174) **سورة الصف** الآية 2–3.
(175) ق، ك : على.

وغلبة جند أهلها عليهم. ودامت كذلك حتى كثر ضلالها أتاها أمر آخر لا الذي أمنها منه الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ فخربها كما هو معلوم[176].

ولما انقضت تلك الأيام القليلة التي قدر بقاؤه فيها ــ رضي الله تعالى عنه ــ وقد كادت المدينة وأعيانها كلها أن تنقلب بتبدل حال قبحهم بالصلاح، وكل يوم من تلك الأيام يضاعف ألف عيد، وفي كل لحظة منها يتجدد على الفؤاد نور جديد، خرج منها قاصدا لجهة الحج وشيعه الناس، وكان خروجه منها عشية. ومن جملة المشيعين الشرفاء وبعض الكبراء من ملوك البلد.

ورأيت البعض منهم يجري فرسه بين يدي الشيخ عن إذنه. ولما أجرى قال الشيخ كأنه عربي محض، ولما آن النزول للمبيت، قال* لأولئك الكبراء : ارجعوا إلى 116
منازلكم، ولم يمكنهم إلا الرجوع، إذ كان ــ رضي الله تعالى عنه ــ إذا أمر لا يستطيع أحد أن يراجعه أدبا وتوقيرا، وكنا نتعجب من ذلك، إذ لم يدعهم يبيتون معه وهم لا يصلون إلى منازلهم إلا ليلا. ولم نفهم السر في ذلك إلى الغد. فبتنا تلك الليلة، ولما أصبحنا معه وارتحلنا، تلقانا جمع من قبيلة مجاط[177] وهم أعظم الناس وأقواهم عند

(176) كان تخريب الزاوية الدلائية على يد المولى الرشيد الصديق القديم لهذه الزاوية. فبعد أن استولى هذا الأخير على مدينة فاس ومكناس وانتصر على قبيلة أيت ولال أنصار الدلائيين، اتجه إلى هذه الزاوية. فكانت بينه وبين جند محمد الحاج الدلائي معركة «بطن الرمان» التي انتهت بانتصار الشريف الرشيد ودخوله الزاوية الدلائية وتخريبها عام 1079هـ/1668م (راجع : م. اليفراني، **نزهة**...، مكتبة الطالب، ص. 303؛ م. القادري، **نشر**...، ج 2، ص. 180؛ م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 226).

(177) مجاط أو إمجاط : قبيلة بربرية من صنهاجة، إليها تنتسب عائلة الدلائيين، وهي القبيلة التي بقي الجزء الأكبر منها في أعالي ملوية بعد أن ارتحل الدلائيون إلى تادلا. يمكن أن يكون أصلها من الأطلس الصغير الغربي حيث يوجد هناك حاليا تجمع سكاني يحمل الإسم نفسه، ثم انتقلت قديما إلى ملوية العليا ناحية تونفيت، وانتشرت في جبال الأطلس المتوسط. عمرت طائفة من المجاطيين مدينة محمد الحاج الدلائي في أواسط القرن الحادي عشر الهجري. وبعد انتهاء الإمارة الدلائية وفشل الثورات البربرية، تفرق المجاطيون في البلاد على غرار ما وقع لأيت يمور، لأنهم ارتبطوا مثلهم بالجيش العلوي، فكانوا ينقلون في مختلف المناسبات. توجد اليوم في المغرب ثلاث قبائل يطلق على كل منها اسم مجاط : 1 ــ مجاط ناحية مراكش وتشمل فرقتين ؛ 2 ــ مجاط ناحية مكناس على بعد 10 كلم من المدينة طريق الحاجب؛ 3 ــ مجاط سوس وهم أهم هذه القبائل، وهي غير بعيدة عن تازروالت (انظر : م. حجي، **الزاوية الدلائية**، صص. 29 و257؛ التقي العلوي، أصول المغاربة، **البحث العلمي**، عدد 23؛ De la Chapelle, «Un document...», **Arch. Mar.**, T, 28, p. 46 note 6 ; L. Mezzine, **Contribution à l'histoire du Tafilalt**, p. 62).

ملوك البلد، بل هم الذروة في قبائلهم وعز ملكم، فطلبوا من الشيخ متأدبين أن ينزل لهم فنزل، ثم أتوا بطعام وأهدوا له أربعة من البغال الجياد، فقبلها منهم ثم قال لأصحابه : دائما أقول هذه الكلمة للناس، وهي أن الله تعالى لم يجعل لأحد منة علي، ألا تروني كيف رددت أهل الزاوية ولم يبيتوا معنا بالأمس ؟ ففهمنا حينئذ أن السر في ردهم هو أن الشيخ كوشف له عن كون تلك القبيلة يهدون له تلك البغال، فلو حضروا وهم ملوكهم لم يكن ذلك إلا على يدهم.

117 وفي ذلك الموضع عند إتيان مجاط بتلك الهدية، قال* بعض أحفاد الشيخ الصالح أبي عمر[178] دفين مراكش في نفسه، وهو مصاحب للشيخ وقد رأى الشيخ نزع شيئا من عمامته ثم رده والناس يسلمون عليه : إن هذا لجدول عند هذا الرجل مستجيب، بل أتته الهدايا والإقبال بسببه. وبنفس ما قال ذلك في نفسه،. مد الشيخ – رضي الله تعالى عنه – يده إلى عمامته فأخذ منها دواة من الغالية ثم قال : أنا رجل روحاني أحب الطيب وهذه دواة من الغالية، فما لي وللجدول الذي يقال ان الإقبال والهدايا منه ! فقال ذلك الرجل في نفسه : هذه مكاشفة واضحة، ثم قال الشيخ : نحن بعلم المكاشفة، إنما المكاشفة عند أهل الطريق[179] بمنزلة إجارة الجزار المسماة «تامخشفت»، الرجل صارت الدنيا في كفه كحبة من خردل يقلبها كيف شاء ثم يقال هذه مكاشفة ! قلت : وهذا يدل على قطبانيته – رضي الله تعالى عنه – كما أخبر بذلك صاحبه ابن سعيد. فلما قال ذلك، خرّ ذلك الرجل على رجل الشيخ مقبلا تائبا من الإعتراض ومن وساوس النفس.

118 وفي* ذلك المكان أيضا بين المغرب والعشاء، جاء طعام فطلبونا لنحضره، وكنت أنا معتزلا في أمر، فلم يجدني الطالبون إلا بعد ساعة، فلما أتيت قال لي الشيخ – رضي الله تعالى عنه – : كنت هنالك مشتغلا بكذا وكذا، وسمى لي ما أنا

---

(178) هو الشيخ أبو عمرو القسطلي المراكشي من ذرية الشاعر الشهير ابن دراج القسطلي، كاتب المنصور بن أبي عامر. كانت له شهرة بمراكش وبلاد المغرب. أخذ عن الشيخ الفلاح وعرفت زاويته بإطعام الطعام. نسب إلى قسطلة وهي مدينة بالأندلس. وعند ابن حزم في الجمهرة أسرة القسطلي من برابرة صنهاجة. توفي بمراكش عام 974هـ/1566م. ترجم له تلميذه ابن الفقير في كتاب «**شمس القلوب لكل محبوب**»، خ ع رقم 3694. د (انظر: م. ابن عسكر، **دوحة الناشر**، ترجمة 105؛ أ. الناصري، **الإستقصا**، ج 5، ص. 48؛ م. ابن الموقت، **السعادة**، ج 2، ص. 45).

(179) نسبة إلى «الطريقة» عند الصوفية، وهي السيرة المختصة بالسالكين إلى الله مع قطع المنازل والترقي في المقامات (ع. الجرجاني، **التعريفات**، ص. 129).

مشغول به. وفيه أيضا حضر بين يدي الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ طعام هو
الحريرة مطبوخا فيها حبات من عجين وهو يسير، فلما بقي منه قليل قدر ما يطعمه
الصبي الرضيع، أخذ الشيخ الإناء وجعل يبسط ذلك الطعام القليل في ذلك الإناء
بأصبعه ثم جمعه فقال : أظننتم أنكم تقدرون على أكله ! فسكتنا ثم قال : هو للفقير
أحمد، يعنيني بذلك، وللفقير يحيى، يعني الفقيه النبيه المشارك الهشتوكي(180) وكان
من جملة أصحابه مسافرا معه، ولمولاي علي(181)، يعني واحدا من الشرفاء التاطنين
سجلماسة(182)، فجعل يطعمنا ذلك الطعام بيده، وأيم الله لقد شبعت شبعا بعد
لقيمات حتى لا أستطيع أن أسيغه. وكان ذلك أول النهار قبل* أن نأكل شيئا حتى 119
كنت ما أستطيع إدخال جميع اللقمة في فمي من قوة الشبع خوفا من القيء
بالإمتلاء فلما رأى الشيخ كذلك قال : هذا المسكين فمه ضيق لا يقدر على
التكثير، وما زلت إلى الآن أخشى الضعف من هذه الكلمة. وأظن أن أصحابي شبعوا
من ذلك القليل مثلي كذلك، وكان هذا الأمر من أعجب ما شاهدت مباشرة.

ولم يزل يطعمنا وقد شبعنا حتى بقيت بقية فأمر بها لجماعة من قبيلة مجاط كانت حاضرة معنا، فقال لهم : كل واحد منكم يتناول من هذا الطعام شيئا، فتناولوه للبركة. ولما فرغوا من تناوله، قال لنا ـ رضي الله تعالى عنه ـ : ما أكلتموه فقد أكلتموه، وما أكلوه فقد أكلوه. وفهمنا أن المراد ما أكلتم من الطعام أكلتموه من البركة والأسرار الإيمانية، وهم كذلك على قدر أكلكم وأكلهم. ثم وعظ تلك الجماعة من مجاط، وكانوا أحرص شيء على غلبة القبائل وأقوى رغبة من كل قبيلة في أن يخافوا

(180) ترد ترجمته في **مباحث الأنوار** هذا (انظر هامش رقم 213).

(181) ترد ترجمته في **مباحث الأنوار** هذا.

(182) مدينة عتيقة من تافيلالت في الجنوب الشرقي للمغرب، أسسها بنو مدرار عام 140هـ، حسب صاحب **الإستبصار**. عرفت ازدهارا عظيما بفضل التجارة خلال القرون السبعة الأولى للهجرة، وظلت آهلة بالسكان، بل كانت عاصمة لإقليم تافيلالت إلى ما بعد القرن الحادي عشر الهجري، ومنها انطلقت الدولة العلوية. لا زالت أطلالها ماثلة للعيان بالقرب من الريصاني ويسميها الفيلاليون : المدينة الكبيرة أو القديمة (انظر في معنى اسمها : L. Mezzine, «Notes sur l'étymologie du Toponyme (Sijlimassa», H.T., vol. 21, 1984. وفي موضوع بنائها وأحوالها، راجع م. الحميري، **الروض المعطار**، ط. بيروت، 1975؛ وفي موضوع أفول نجمها وخرابها، راجع : م. الوزان، **وصف إفريقيا**، وهامش المحقق عليها؛ وابن محلي، **تقييد**، مخطوط، خ. س، رقم 2634؛ ابن الزيات، **التشوف**، تحقيق أحمد التوفيق، ص. 95، هامش 41؛ م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 2، ص. 519 و528؛ ع. ابن زيدان، «تقييد»، في **تاريخ سجلماسة**، مخطوط خ.س، رقم 12224.

120 ويطاعوا، إذ هم رؤوس القبائل البربرية وأعظم* جند ملك بلدهم، فقال لهم : من خاف من الله تعالى خاف منه كل شيء ومن أطاع الله تعالى أطاعه كل شيء، وخاطبهم في هذه الموعظة بما يناسب حالهم، وبلغة بربرية يفهمونها.

ولما ارتحلنا من عندهم وتوجهنا لجهة بلدتنا ملوية[183]، رأى خيال امرأة على بغلة فغضب فقال : ما هذه المرأة ومن أتى بها ؟ فالتفت لواحد من الشرفاء الذين معنا ظن أنه هو الذي أذن لها في السفر معنا لجهة ملوية، وكانت هي أرادت أن تسافر معنا لأن الطريق مخافة لتأتي من قريتنا بملوية بأمتعة لها، فقال لذلك الشريف : أنت أتيتنا بهذه المرأة ؟ فأنكر ذلك الشريف، إذ رأى سخط الشيخ ثم قال : قولوا لها لترجع و«لا تسافر المرأة مع غير ذي محرم منها سفر يوم وليلة»[184]. وإن لم ترجع تخاف على نفسها. وكان الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ شديد الوقوف على الحدود، وعظيم الجرأة على تغيير المناكر، وكان لا يذكر الدنيا ولا يدع من يذكرها بين يديه رفقا بأصحابه وحملا لهم على الجادة النافعة للقلوب. فلما قال ذلك، رجعت إلى أهلها

121 فذهبنا متوجهين إلى قريتنا المسماة* بِتِطَنْتَسْلِتْ[185]. فلما توغلنا في الطريق وجدت فرصة الخلوة بالشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ وهو على فرسه، فحاذيته وأنا أمشي على رجلي، فشكوت إليه أمر القبائل الذين يوالوننا وقلة وقوفهم على الحدود رجاء أن يقول لي لا تبال بأحد منهم، ثم لم يقل لي ذلك حين شكوت بل قال لي : داروا، فمن مات وهو يداري مات شهيدا. ثم أقبل يستشهد على هذا المعنى بأحاديث كأنما سطرت بين عينيه حتى بهرني. ثم جعل يحدثني حتى انتهى الحديث به إلى أن قال لي : أرأيت البغلة التي بعناها ؟ ــ وقد كان باع بغلة فأنفق من ثمنها في كسوة بعض أصحابه بالزاوية ــ لما عزمت على بيعها كلمتني فقالت لي يا سيدي : أنا أريد أن

(183) هو اسم لنهر ينبع من الأطلس المتوسط والكبير، ويصب في البحر الأبيض المتوسط. والمقصود هنا تلك المنطقة العليا منه حيث توجد منابعه، وهي منطقة محصورة بين الأطلس الكبير والمتوسط تمر بها الطريق الواصلة بين فاس وتافيلالت، أي نواحي ميدلت وتونفيت وأغبالو والتي تسكنها حاليا مجموعة من القبائل البربرية (**R. Ranal, La terre et l'homme en Haute Mouloya ; J. Berque, Al Youssi..., p. 46**).

(184) أخرجه الدارمي في «كتاب الاستئذان» عن أبي سعيد؛ وكذلك أخرجه مسلم في «الحج» والبخاري في «التقصير».

(185) قرية ما زالت قائمة في أعالي ملوية غرب مركز تونفيت وجنوب مركز غبالة، وهي من البربرية؛ ومعناها : عين العروسة.

أخدمك، وأنت تريد أن تبيعني، فصادمني كلامها ثم بعتها. وفهمت أنا أن بيعها لنية صادقة صدرت منه، ونية الصديقين نذر كما تقدم.

ثم اشتغل يحدثني بما يدل على رفقه بدوابه واعتنائه بها، ثم خاف ـ رضي الله
122 تعالى عنه* ـ أن أظن أن شيئا من الدنيا له عبرة عنده، فقال لي : ولا تظن أن شيئا من الدنيا عزيز عندي، فقال : الدنيا لا تساوي عندي جناح بعوضة، وليس عندي عزيز إلا الله تعالى سبحانه، وإنما ذلك رحمة ورفق بالخلق، وبما يتعلق بالإنسان، وإلا فالدنيا إنما هي مثل الحية من مسها لدغته.

ولما أشرفنا على بلدتنا أردت أن أسبق إلى قريتنا لأعلمهم بقدوم الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ، فقال لي : أنت ضعيف البدن، فاركب هذه البغلة وتقدم، فركبت وسبقت. فلما أعلمت أهل المنزل خرجوا إليه، وكان إذ ذاك أبي حيا، وخرج معهم فلقوه خارج المنزل كبارا وصغارا كأنما على رؤوسهم الطير، فقرأ لهم الفاتحة جهرا وكانت عادته إذا طلبت منه، أن يقرأها جهرا وهو باسط يديه ويكرر : ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾[186] ثلاث مرات. وأخبرني بعض الأصحاب أن بعض الصالحين قال له : إن [ذلك][187] الشيخ يفهم من «إياك نعبد وإياك نستعين» ما لا يقدر
123 الناس على فهمه، فإذا قرأها ختم بقوله تعالى : ﴿**سبحان* ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين**﴾[188]. وكان من عادته عدم إعادتها لمن طلبها إذا حضر ذلك طالبها في قراءتها أولا، ولا يخصص بها أحدا. ولما فرغ منها حينئذ نطق مؤذن القرية فقال : الفاتحة يا سيدي ! فقال الشيخ : ما قرأناها إلا لك ومن معك، ولم يعدها على عادته.

ثم أنزلوه في داره وفرشوا له على الأرض وعلى سرير في الدار، فجلس في السرير ثم شك في كونه معدا له، وكان كثير التحري في الأمور، فقال لي : أترى أني أجلس على هذا ؟ فقلت له نعم يا سيدي ! ما هيئ إلا لك. ثم أتاه أخونا محمد في تلك الدار يطلب منه الصحبة وأخذ الورد، فقبلها له ثم قال له أخونا : يا سيدي ! إني أريد أن أكون لك عبدا، فقال له الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ : أردتك أن تكون عبدا لله تعالى. ثم إن أهل منزلنا لم يأخذ عنه منهم الورد غير أخي، وأخبرني بعض

(186) سورة الفاتحة الآية 4.

(187) سقطت من ك.

(188) سورة الصافات الآية 180–182.

الأشراف ممن كان معه أنه لما أشرف على البلد قال : سبحان الله لنا هنا صاحبان لا غير، فكان الأمر كذلك، وفي الغد ارتحل عنا.

124 ولما* عزم على الرحيل قلت له يا سيدي : تقيم عندنا، فقال لي : تحتاجون إلى أن يكون مرادكم مرادنا، ويكون مرادنا مراد الله تعالى، يعني فلا أتعرض له في الإقامة ولا في غيرها. قلت وهذا الحرف، وهو تسليم الإرادة، هو مجمع طريق المعرفة وآداب المعاملة، وفقنا الله تعالى له.

ثم إن من عجيب أمر قريتنا، أنه لم يعامله أحدهم بطعام ولا بغيره، مع أنه كان من عادة الوالد رحمه الله تعالى إعانة الحجاج وغيرهم بما يتيسر من الدنيا، فضرب الله تعالى على قلوبهم حتى لم يعاملوه بشيء، بل منعوا من الإحسان لأهله. ولما انفصل الشيخ عنهم جعلوا يتعجبون مما منعوا من معاملته بشيء، وجعل بعضهم يقول : كنا ننتظر أن يأمرنا الكبراء بشيء. وجعل الوالد رحمه الله تعالى يقول : كنت أتفكر في ما أعطيه ولم يقدر لي. وكان ذلك المنع من الإحسان لما يريد الله تعالى بهم من الإتلاف بنزول الرزايا والبلايا. وذلك أنه لما انفصل الشيخ عنهم، لم يلبثوا إلا قليلا
125 أن توفي الوالد ــ رحمه الله تعالى ــ، ثم سلط عليهم* قوم فخربوا الدنيا، وأخذوا الأموال وقتلوا الرجال غيري، ومن فضل الله تعالى علي وعلى أخي أن سبب بنا ما أخرجنا من تلك القرية معا، حتى لم يحضر واحد منا تلك الفتنة ببركته ــ رضي الله تعالى عنه ــ.

ومن جملة أهل القرية رجل كان مسرفا على نفسه رحمه الله تعالى، فرأى رؤيا ظهر تأويلها في قدوم الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ إلى قريتهم، وذلك أنه رأى النبي ــ ﷺ ــ جاء إلى القرية فخرج إليه الناس جميعا، فجعل الوالد رحمه الله تعالى يقول : هذا النبي ــ ﷺ ــ قد جاءكم، وطالما كنت أنهاكم عن الفواحش وآمركم بالصلاة فتتركونها، وكأن النبي ــ ﷺ ــ جاء لتقوم عليهم الحجة، قال : وكانت علي ثياب وسخة فجعلت أتستر حياء من النبي ــ ﷺ ــ، فلما أفاق ذلك الرجل، قص هذه الرؤيا على الناس، وبعدها بقليل جاءهم الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ فخرجوا إليه، وفيهم الوالد على الصورة التي رأى ذلك الرجل، وكأن الحجة قامت
126 عليهم، إذ* لم يتب أحد منهم على يده، فسلط عليهم من أهلكهم بعد أن مات ذلك الذي رأى الرؤيا، ومات الوالد رحمه الله تعالى.

ولما ارتحل الشيخ عنا ــ رضي الله تعالى عنه ــ شيعته أنا وأخي وكانت هناك قرى لقوم يعادون أهل الزاوية وقبائلهم، واعدونا في أنفسهم ممن يكرههم ويعاديهم،

لكون قبائلنا من جملة قبائل أهل الزاوية، فرحنا إلى تلك القرى واستقبلوا الشيخ بالتعظيم وقالوا لي : أنت أتيتنا بهذا الرجل، فأنت من جهتنا إذ أتيت به حتى مر بنا كما مر على عدونا، فإن نالوا شيئا من البركة منه نلنا مثلهم، وإن كانت الخيبة فلنا جميعا. ثم أتوا بطعام ولم يأكل منه الشيخ شيئا. فلما أصبحنا وصلينا الصبح، وكان الشيخ هو الذي يقيم الصلاة ويؤم، ولا يصلي أحد منا حتى يعلم بالصلاة، تهيأنا للرحيل ـ فدخل عليه أولئك يشتكون من أعدائهم مجاط وأهل الزاوية، ونحن في
127 زعمهم من جهتهم، فقال لهم الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ وقد أشار إلينا أنا* وأخي : هذه ريشة من جناحي فباعدوهم، فقالوا له : مرهم يتركوا النفسيات. فقال لهم الشيخ : إنْ كان شيء قبل اليوم فقد تابا لله تعالى منه، فباعدوهم.

ثم شكوا إليه سبب تجديد العداوة بينهم وبين القبائل وأهل الزاوية، فقال لهم الشيخ : وكان شديد الكراهة للفواحش هذا أمر عظيم. ثم قال لهم : قد عقدت المهادنة بينكم وبين جميع المسلمين. وإنما قال لهم ذلك لأنهم لم يقتصروا على أعدائهم في الإغارات(189) بل خلطوا في قطع الطريق والإغارات جميع المسلمين بأعدائهم، فقبلوا تلك المهادنة على وجهه، فأمر بكتبها إلى الآفاق. ثم قال لهم : إن نقضتموها فهو عليكم حجة. وظنوا أن ذلك جرى على اللسان، وهو ـ رضي الله تعالى عنه ـ إنما كلمهم بالجد والحقيقة.

فلما غاب عنهم بأيام رجعوا إلى ما كانوا عليه من معاداة المسلمين وأخذ مال من تيسر لهم [أخذه](190) مطلقا، فسلط الله تعالى عليهم أعداءهم وقد كانوا قبل
128 ذلك منصورين عليهم، فجعل أعداؤهم لا يلقونهم في مجمع إلا كانت* عليهم الدبرة، وأعان الله تعالى أعداءهم عليهم بتسليط الجوع مع النصر فقتلوهم في كل موطن حتى أفنوا [ثرواتهم](191) وشجعانهم ومعظم جندهم، وحتى قتلوا النساء والصبيان، وحتى لا يستطيعون الخروج من القرى، وفر الكثير منهم إلى حلة الأعداء راضيا بعيش الذل والصَّغار.

وكنت أنا بعد انفصال الشيخ عنهم بزمان رأيت في المنام أني توجهت إلى قراهم وأنا أقرأ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ

(189) ك : الغارات.

(190) زيادة من ك.

(191) رسمها غير واضح في النسخ المعتمدة ولربما اقتضى السياق أن تكون كما أثبتناه.

كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[192]. وطفقت أكرر : ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. حتى أفقت فظهر مصداق تلك الرؤيا فيهم قريبا.

ولما ركب الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ لينفصل عنهم ـ وكنت حاذيته على رجلي طالبا للوداع، إذ لا يتمكن لنا الزيادة عن ذلك المكان لكثرة المخافة في الطريق وهو لا يساعدنا على اقتحامها في ظننا، مع أن قلبي إذ ذاك اعترته قوة أوجبت لي
129 طلب الإنفراد للعبادة والعلم، حتى عن الشيخ* ـ رضي الله تعالى عنه ـ مع ما فيه من وده، وقد أسأت الأدب في عدم صبري حتى يكون هو الذي يأمرني بالوداع ـ تعرض له نساء أهل تلك القرى صفوفا على عادتهم مع رجل كانوا اتبعوه، وادعى أنه من أهل الطريق وكان هو السبب في معاداتهم للمسلمين، ولما تعرض له تبدل وجه الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ وكان شديد الكراهة للمناكر، يظهر أثر كراهتها على وجهه، فأعرض عنهن محركا للفرس لغير جهتهن، فلما رأوا ذلك انتهروهن عن التعرض فوادعته ورجعت، وأنا إلى الآن نادم على الموادعة على ذلك الوجه، وليتني صاحبته على أي وجه كان، حتى يكون هو الذي يأمرني بالرجوع. فـ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[193].

وكانت صحبتي له إثني عشر يوما، فكان فيها من فضل الله تعالى ما لا أذكر. ولما ودعته ودعه أخونا، فتوجه نحو سجلماسة لأنها مكان اجتماع الحجاج
130 إذ ذاك، فأخذ فيها أياما ثم توجه نحو مكة أعزها الله تعالى والمدينة المشرفة* على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

ولما بلغ الحرمين الشريفين، أمر بإسراج فرسه وإلجامه ثم إطلاقه يمشي بلجامه وسرجه في الأزقة ليأخذه من شاء وكانت الخيل في البلد لا يستطيعها إلا أهل الملك لشدتها وهم أشراف مكة. فطفق الفرس يمشي في الأزقة فأخذ، وطلب ربه ولم يوجد، فذهب به الآخذ إلى سلطان الحرم فأخذه، فكان صدقة خفية، وجرى فعل الشيخ في ذلك على قوله :

وَإِذَا ٱلْمَطِيُّ بِنَا بَلَغْنَ مُحَمداً ... فَظُهُورُهُنَّ عَلَى ٱلرِّجَالِ حَرَامُ
قَرَّبْنَنَا مِنْ خَيْرِ مَنْ وَطِأَ الثَّرَى ... فَلَهَا عَلَيْنَا حُرْمَةٌ وَذِمَامُ

(192) سورة النحل، الآية 112.

(193) سورة البقرة، الآية 156.

ومكث ـ رضي الله تعالى عنه ـ في الحرمين نحوا من ثمان سنين مجاورا الروضة المشرفة ستة أشهر، ويجاور الكعبة مثلها، المشتمل على أيام الحج ليحج فيها فكثر أصحابه هنالك من أهل الحرمين الشريفين وأهل العراق والشام والهنود واليمن وغير ذلك، فصار أصحابه هناك أكثر من أهل المغرب لقلة مكثه فيه دون المشرق. وكان ـ
رضي الله تعالى عنه ـ رفيع الهمة عن أبناء الدنيا، فكان لا يداري تركيا* حاكما ولا 131
غيره، وكان من عادته أنه لا يقتدي بأئمة المساجد إلا في صلاة الجمعة، ولا يقدم أصحابه للصلاة بل يتقدم بنفسه لسر، وهو ما يعلم للعباد من النفع في شفاعة تقدمه.

ثم وشى به بعض أحفاد العياشي[194] ـ المعلوم في المغرب بالغزو في زمانه ـ لوالي البلد، وذلك الواشي كان رجل سوء طالبا للدنيا، فلما رأى إقبال الناس على الشيخ أراد إطفاء نوره حسدا، ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[195]. فقال لوالي البلد : إن هنا رجلا يزعم أنه صاحب الوقت، يعني يزعم أنه يكون هو الفاطمي المذكور في الحديث وهو مخالف للسنة، ولذلك لا يصلي وراء أئمتكم. فوقع كلام ذلك الواشي في قلب ذلك الوالي موقعا على عادة كراهية الولاة لكل مزاحمة في الولاية ولو بالدعوى، فجاء ذلك الوالي الشيخ ووجده حذو البيت الحرام مع نفر من أصحابه، فلم يحتبل به الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ ولم يقم له، فقال له ذلك الوالي : ما هذا الذي تقول وما مذهبك ؟ ولأي شيء يجتمع الناس عليك ؟ ولم
لا تصلي وراء أئمة المسجد الحرام* ؟ فأجابه ـ رضي الله تعالى عنه ـ فقال : أما 132
اجتماع الناس، فإنما هو اجتماع أصحابي في الدين والتعاون على أمر الله تعالى، والذي أقول لهم ما أمرهم الله تعالى به، وأما مذهبي فمذهب مالك[196] ـ رضي الله تعالى

(194) هو أبو عبد الله محمد بن العباس أحمد المالكي الزياني. ولد عام 980هـ/1573م وقد اختلف في سبب لقبه بالعياشي وأصل هذا اللقب. وهو من تلامذة الشيخ عبد الله بن حسون. ومن خلال هذه الشخصية، يتضح تكوينه العلمي والصوفي؛ إلا أن العلاقة التي ربطت العياشي بشيخه تعدت علاقة التتلمذ العادي. كان يمثل لكثير من المغاربة العالم العامل المجاهد في سبيل الله. بدأت حركته الجهادية حوالي 1012هـ/1604م. ويتفق كل من ترجم له أن مقتله كان يوم الخميس 9 محرم 1051هـ/21 أبريل 1641م (راجع عن حركته كتاب **الخبر عن ظهور الفقيه العياشي**، مخطوط خ ع، رقم 91د؛ عبد اللطيف الشاذلي، **الحركة العياشية**، الرباط 1982؛ وانظر ترجمته في م. اليفرني، **نزهة...**، صص. 230–245؛ م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 7؛ أ. الناصري، **الإستقصا**، ج 6، ص. 73).

(195) **سورة الصف**، الآية 8.

(196) هو مالك بن أنس الأصبحي الحميري، إمام دار الهجرة (المدينة) وأحد الأئمة الأربعة الكبار عند أهل السنة، وإليه تنسب المالكية أو المذهب المالكي. توفي في المدينة عام 179هـ، ودفن بالبقيع. وقبره مزارة هناك (خير الدين الزركلي، **الأعلام**، ج 5، ص. 254؛ **دائرة المعارف الإسلامية**، مادة «مالك»).

عنه ــ، وأما ترك الصلاة وراء أئمتكم فلأنهم على خلاف مذهبي(197)، فتركت الإقتداء بهم خروجا من الخلاف واكتفيت في الجماعة بأصحابي، وغير هذا مما يقال لا عبرة به.

ولما كلمه الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ انفتحت بصيرة ذلك التركي وأصحابه، فطلب منه الدعاء واعتذر إليه، واعتقد أن الواشي ظالم كما هو، فقام مودعا الشيخ وأمر أعوانه أن يأتوه بذلك الواشي، وحلف لئن اتصل به ليمثلن به، وجعل يخاصم ويقول : تؤذون أولياء الله في حرم الله تعالى يا أعداء الله. ولما استشعر الواشي أن القضية انعكست عليه، والعقوبة [عليه لا على](198) من أغرى عليه، اختفى عن التركي ثم هرب من مكة* المشرفة إلى مصر، فكان عاقبة أمره خسرا، وتلك سنة الله 133
تعالى في أعداء أوليائه وحسادهم. نعوذ بوجهه الكريم من عداوة ولي له وإذاية من هو عظيم عنده.

وذلك أنه مكث بمصر أمدا يسعى في اقتناء الأموال المحرمة، حتى بلغه ذلك إلى مخالطة الحكام بالسعاية إليهم بأموال المسلمين، والتوسط إلى المصادرين منهم من أخذ مال الحجيج القاصدين لبيت الله الحرام، وحتى بلغه ذلك أيضا لمعاملة النصارى بما لا يحل بيعه لهم، بل ربما جزم بأن ذلك لا يصدر [من مؤمن](199) ولم يزل على سوء الحال في دينه معتكفا على المحرمات حتى قتل على جرمه. نعوذ بالله تعالى من معصيته ومعاداة أوليائه.

ولما آذاه الرجل بما وشى به لحاكم البلد، قال : ــ رضي الله تعالى عنه ــ لأصحابه : هذا بلد أوذي فيه سيدنا : يعني رسول الله ــ ﷺ ــ حين آذته كفار مكة، فهو لنا أسوة في الإذاية بها. ولم يزل الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ مجاورا للحرمين الشريفين إلى أن توفي في حرم* مكة حاجا كما يأتي قريبا. 134

وفي أثناء مجاورته أقبل الحجاج في بعض تلك السنين بعد قضاء مناسكهم، وأخبروا عن الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ أنه قال : كلمني النبي ــ ﷺ ــ في

(197) كان المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي عند الأتراك، ولذلك سعوا في نشره وتقويته على حساب المذهب المالكي (راجع على سبيل المثال كيف عملوا على نشر مذهبهم هذا في تونس (**Hadi Cherif,** **«Religion et pouvoir en Tunisie (17e et 18e siècles)», in Annales E.S.C, mai 1980.**).

(198) سقط ما بين العلامتين من ك.

(199) سقط ما بين العلامتين من ق، ك.

ليلة كذا من شهر كذا، وقد طال علي العهد في تعيين الشهر، وأظن الليلة ليلة الإثنين، فقال : يا محمد بن عبد الله، قم وأمد الناس ؟ قال : فقمت أمدهم شرقا وغربا وجوفا وقبلة، قال : ولما أتيت السودان وجدتهم أبعد الناس عن الخير، ولكن لم أزل واقفا عليهم حتى فتحتهم. وبعد أخبر الحجاج بهذا الخبر عنه ــ رضي الله تعالى عنه ــ وبعد وفاته، بلغنا خبر بظهور رجل عظيم الشأن بالسودان انفتح أهله بمدده، وأسلم خلق كثير من المجوس على يده، وأخبر عنه بعض الفضلاء ممن رآه أنه لا يعرف له شيخ، فيحتمل والله أعلم أن يكون ذلك الرجل اتصل به مدد الشيخ، ففتح الله
135 تعالى بحضوره تلك القلوب الصم، والأفئدة* الغلق، وعلى كل حال، فقد ظهر مصداق قول الشيخ بذلك الرجل، نفعنا الله تعالى به وبأضرابه، واسمه الشيخ عبد الله البرنوي[200] قيل إن أصل نسبته إلى الشرق، بل قيل إن أصل نسبته إلى سيف بن ذي يزن[201] والله أعلم. وقد قتل ذلك الرجل ــ رضي الله تعالى عنه ــ ظلما، ومات شهيدا، ولم تزل البركة في ذريته إلى الآن، وقد خلف ولدا منهم اسمه الشيخ عمر[202]، له مكاشفات رويت عنه على ما نذكر بعض ذلك على وجه التحقق، وهو من المنقطعين إلى الله تعالى فيما يظهر من حاله، نفعنا الله تعالى به.

وفي أثناء تلك الإقامة أيضا، كتب صاحبه الفقيه الشيخ أحمد بن سعيد الكنسوسي عن إذنه لكافة أصحابه بالمغرب، وخص بالذكر منهم جماعة كتابا يوصيهم بتقوى الله تعالى فيه، وهو يقول لهم : اعلموا أن هنالكم من هو من أصحابنا ولم يلقنا، ولا يخفون عليكم مما في قلوبهم من محبتنا، فمن أتاكم منهم فعلموه
136 الورد المعلوم*، فإذا تعلموه واشتغلوا به فلهم ما لنا وعليهم ما علينا. وربما فهم العقلاء من أصحابه بذلك أن الشيخ لا رجعة له إلى المغرب، ومنهم من فهم أن ذلك إذن عام لأصحابه في إعطاء الورد تبليغا عنه.

---

(200) شيخ صوفي من بلاد السودان، عاصر نهاية إمبراطورية بورنو. جعل القادري وفاته عام 1088هـ/1676م (نشر المثاني، ج 2، ص. 24؛ والتقاط الدرر، ص. 201، ترجمة 305). عرف به أحمد الحلبي في كتابه **ريحان القلوب فيما للشيخ عبد الله البرنوي من أسرار الغيوب**، وهو مخطوط خاص (الخزانة القادرية بفاس). لم أقف عليه.(انظر: م. الكتاني، **السلوة**، ج 1، ص. 336).

(201) هو سيف بن ذي يزن بن ذي أصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو الحميري، من ملوك العرب اليمانيين. ولد ونشأ في صنعاء. مكث في الملك نحو خمس وعشرين سنة. تآمر عليه الأحباش، فقتلوه في صنعاء نحو 50 ق.هـ/574م، وهو آخر من مَلَكَ اليمن من قحطان (انظر: خ. الزركلي، **الأعلام**، ج 3، ص. 149؛ **دائرة المعارف الإسلامية**، مادة : «سيف»، المجلد 7 و8).

(202) خلف أباه بزاوية برنو، وجعله القادري من الذين لم يقف على تاريخ وفاتهم. ولربما توفي بعد سنة 1150هـ (انظر : م. القادري، **التقاط الدرر**، ص. 438، ترجمة 566).

ثم إنه لما كان الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ غريبا في حاله. عجيبا في جده ومعاملته كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، فلا تراه ضاحكا ولا نائما ولا جالسا جلسة بلا أدب، ولا ذاكرا للدنيا، ولا متلذذا بلذة دنيوية، ولا غافلا في معاملة ولا متراخيا في مزاولة، لم يطل بقاؤه. فإن الشيء الغريب لا يكون متسع الوقت غالبا، بل توفاه الحق وأخذه إليه بلا تطويل ولا فتنة بحمده تعالى ولا تغيير ولا تبديل.

ولما أحس بمرض وفاته استدعى أصحابه فقال لهم : أستودعكم الله تعالى، هذا مرض موتي، قد جاءني المنادي من قبل الحق، فعليكم بتقوى الله تعالى، واعلموا أنكم غير مهملين. ليوقر صغيركم كبيركم، وليرحم كبيركم صغيركم. وبذلك كتب
137 صاحبه الشيخ أحمد* بن سعيد المذكور، وقال : اعلموا أن العقد مع الله تعالى فيما علمتم وأمرتم به، وإنما الشيخ واسطة، ﴿فَمَنْ نَّكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾(203). وقال في كتابه هذا : لو أعلمتكم بما شاهدت من عجائب الألطاف في وفاة الشيخ لاقتضيتم العجب.

وتوفي في داره بمكة المشرفة، وسبب تملكه إياها أن بعض التجار شاوره على بيع بعض أمور تجارة(204) فأمره فيه بأمر فامتثل أمره، فربح فيه بما خرج عن المعتاد، فحسن اعتقاد ذلك التاجر في الشيخ، فبنى دارا وأتقن بنيانها وأهداها للشيخ، فقبلها منه لما يعلم من حسن طويته. ولم يكن الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ متزوجا إلى آخر أمره فتزوج امرأة تكميلا لأمور السنة، وتوفي عنها فتركها حاملا ثم مات ما ولدت وماتت، وفي كتاب الشيخ أحمد بن سعيد المذكور، أن الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ أمرهم وهو في شدة المرض أن يحجوه، فأحرم ووقفوا به بعرفة، فلما فرغ من التحلل الأول سنة 1079 مات ـ رضي الله تعالى عنه ـ وعليه التحلل الثاني،
138 فيبعث يوم* القيامة بفضل الله تعالى ملبيا، لأن ذلك وعد من مات وهو حاج. ودفن بالحجون(205) عند رأس مولاتنا خديجة أم المؤمنين الكبرى، قال : ووفاته بمكة كانت مطلوبة، لأنه كان إذا سمع الحديث المعلوم وهو : «أن النبي ﷺ قال : يا رب ما أعددت لأهل البقيع ؟ فقال الله تعالى : أعددت لهم المغفرة والرضوان، وكذا وكذا،

(203) سورة الفتح، الآية 10.

(204) وردت في النسخ المعتمدة هكذا «تجرة». ولعل الصواب ما أثبتناه.

(205) مقبرة مكة نسبة إلى جبل هناك.

فقال : وما أعددت لأهل الحجون ؟» فقال الله تعالى : «سألت عن جيرانك يا محمد، فما سؤالك عن جيراني»(206).

قال : فلعلو همة الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ، كان إذا مر به هذا الحديث يقول : اللهم إني أريد جوارك، فتمم الله تعالى عليه ذلك بوفاته بمكة ودفنه بالحجون.

ويجب أن يعلم أن جوار الله تعالى وجوار رسوله واحد، وأن رضى رسول الله ـ ﷺ ـ في رضى ربه، وكل ما هو أرفع عند الله تعالى فهو أرفع عند رسوله، وببركته كانت الرفعة جودا من ربه تعالى وكرما، فلما أبهم ثواب أهل الحجون دل ذلك على
139 عظمته الدالة* على ترفيعهم على أهل البقيع(207) كما هو مذهب بعض العلماء فقال(208) الشيخ ما هو أرفع عند الله تعالى وهو أرفع عند رسوله أيضا، فإذا تحققت تلك الرفعة فلو قيل لرسول الله ـ ﷺ ـ ماذا أسأل منهما ؟ لقال أسأل ذلك الأرفع فالشيخ ما سأل ولا رغب إلا فيما هو أرضى وأرفع عند رسول الله ـ ﷺ ـ، كما هو أرفع عند الله تعالى ولله تعالى أن يفضل ما شاء على ما شاء ولا حجر عليه، فإذا علم هذا لم يتوهم أن الشيخ رغب عن رسول الله ـ ﷺ ـ مع شدة حبه إياه، إذ هو إنما رغب عن جهة معظمة إلى ما هو أعظم عند الله تعالى وعند رسوله. وهذا الحديث ربما يشهد للقائل بأن مكة أفضل بحسب ما يتبادر منه، فافهم.

وقد انتهى بذكر وفاة الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ ما أردنا إيراده من أحوال الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ أمدنا الله تعالى بمدده الذي لا ينقطع، وأسبل علينا
140 من بركة ستر لطفه الظاهر والخفي الذي لا يرتفع. فلنشرع في ذكر* ما تيسر من أصحابه لرجوع ذكرهم إلى ذكره. وأما جميع أصحابه فلا يمكن استقصاؤهم تفصيلا إلا لعلام الغيوب، إذ هم ثمانون ألفاً أو أكثر كما تقدم.

(206) لم يرد في الكتب التي فهرسها فنسينك.

(207) مقبرة المدينة، تقع في الناحية الجنوبية الشرقية للمدينة المنورة خارج سورها الحديث، وفيه كثير من المزارات من قبور الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين وأول من دفن بالبقيع هو الزاهد عثمان بن مضعون صاحب النبي (**دائرة المعارف الإسلامية**، مادة «البقيع»؛ ابن إبراهيم، **الإعلام**، ج 3، ص. 227).

(208) س : فسأل.

[أحمد بن سعيد أكنسوس]

فمنهم الشيخ العلامة أبو العباس أحمد بن سعيد(209) المتقدم كان رحمه الله تعالى من حذاق طلبة مراكش، وكان من المشاركين في الفنون، وهو ممن ينكر أمر الشيخ أول ظهوره، وكان أصحاب الشيخ يشكونه إليه ويقول لهم الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ : دعوه فإنه سيكون شعارا لا دثارا. فكان كما أخبر الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ، فقد وفق لمصاحبة الشيخ وخدمته، ولما ذاق عنه ما ذاق أيتم أولاده، وأيم امرأته بعد أن خيرها فاختارت البقاء في عصمته، وذلك ليتفرغ لصحبة الشيخ وخدمته، وكان أمر صبرها على فراقه نحو اثني عشر عاما إلى أن توفي رحمة الله تعالى عليه، فلم أدر ما بعلت بعده.

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ شديد الرعاية لأحواله ببركة الشيخ، حتى كان لا يتناول جليلا ولا حقيرا إلا بنية. أخبرني صاحبنا الأرضى الأوفى الفقيه الناسك الشيخ* محمد بن عبد الرحمن(210)، أن الفقيه ابن سعيد المذكور، رأى أوراقا فيها 141
كلام لبعض الصوفية بيد ابن عبد الرحمن المذكور، فتناولها منه ثم ألقاها تاركا لها، قال : فاستشكلت ذلك منه، ثم بعد وقت قلت له لم ألقيت الأوراق ؟ فقال لي : كنت أخذتها بلا نية معتبرة. وكان هو يوالي الشيخ من أصحابه وله أسرار وأذواق.

وأخبرني بعض من أثق به أن بعض الفقراء صلى معه الصبح في مسجد بمراكش زمن إقامة الشيخ بمراكش، وكان ابن سعيد المذكور إمامه، فكشف لذلك الفقير عن بعض أحواله في أثناء الصلاة، فرأى النور أحاط بابن سعيد حتى ذهب عن أطرافه الغلس، فاهتم ذلك الفقير بالتعلق به لما رأى تبركا به، فكشف لابن سعيد عن مكاشفة ذلك الفقير بحاله وأنه نوى التعلق به بعد الفراغ من الصلاة، ولما سلم بادر لدخول باب خلوة قريبة منه فرارا من ظهوره بتعلق ذلك الفقير وسترا على نفسه، فلم يدركه، ثم جعل يخبر بما رأى.

---

(209) هو أحمد بن سعيد المراكشي أكنسوس، ويظهر أنه هو الذي قصده اليوسي في **الفهرسة** وذكر جملة من العلوم التي أخذها عنه (راجع : ح. اليوسي، **الفهرسة**، مخطوط الخزانة العامة، رقم 1838د، ص. 144؛ و**الإعلام** للعباس بن إبراهيم، ج 2، ص. 324، لا زيادة فيه على ما في **مباحث الأنوار** هذا).

(210) ستأتي ترجمته في **مباحث الأنوار** هذا (انظر هامش رقم 241).

وأخبرني ثقة علما ودينا أنه، أعني ابن سعيد المذكور، شوهد بالحرم الشريف
142 على حصير بين السماء والأرض* بإزاء الكعبة وهو يتعبد، قال : وأكدت الوصية على ذلك المشاهد أن يكتم عليه السر. وأذن له الشيخ في حياته بتربية التلميذ، وذلك بالحرمين الشريفين، وإذا جاء أصحابه إلى الشيخ قال لجلسائه يداعبه : هؤلاء لا مدخل لي فيهم، إنما هم أصحاب السيد أحمد بن سعيد، ويبتسم، وقد كتب بعض أصحابنا بالمغرب إليه رسالة، وأدركت الشيخ في مرضه، وذكر له بعض متضمنها، وأجاب عن تلك الرسالة بعد وفاة الشيخ بكلام بليغ، وانتهى به الأمر بوجه من المناسبة إلى أن قال : وقد بلغنا بحمد الله تعالى على يد شيخنا مبلغ الرجال، وذقنا
143 ما ذاقوا، وشربنا مشربهم ولله الحمد. ثم ذكر ورد الشيخ* بعد أن أخبر ـ وهو أعلم الناس بحاله ـ أنه غوث[211] الزمان وأنه قطب العصر والأوان، وذكر أن ذلك الورد أخذه أولا عن أبيه، ثم ارتقى به حتى أخذه عن النبي ـ ﷺ ـ مشافهة. ويدل على صدقه فيما قال، رفضه المال والزوجة والولد، مع أنه كان ذا وجاهة وثروة ونعمة. ولما توفي الشيخ بالحرم الشريف ظهر تمكينه وقيامه مقام الرجال في محل الشيخ، أخبرني النبيه الشيخ محمد بن محمد المرابط[212] المذكور، وكان حضر بالحرم زمن وفاة الشيخ : إن ابن سعيد، كان واقفا في محل الشيخ وقوف المتمكن، حتى إنك إذا أتيت ذلك المحل أدركت أنه ليس بخال من السر رحمة الله تعالى عليه.

[يحيى الهشتوكي]

144 ومنهم الفقيه الدراكة* الشيخ يحيى الهشتوكي[213] كان ـ رحمه الله تعالى ـ عالما مشاركا في الفنون، له إدراك حسن في تحقيق «**الكبرى**»[214] للشيخ

(211) يسمى الغوث أو القطب الأعلى الأوحد، ويسمى غوثا باعتبار التجاء الملهوف إليه. يتفق كل المتصوفة على أنه هو المقرب الأكثر للإله وأنّه يمثل أعلى مراتب الصوفية : فهو القطب الذي يدور من حوله عالم التصوف (راجع: ع. الجرجاني، **التعريفات**، ص. 94؛ M. E. Blochet, «Etude sur l'ésotérisme musulman», J.A., T. 19, mai-juin 1902).

(212) انظر الهامش 78.

(213) فقيه وعالم مشارك، ذكره العباس بن إبراهيم في **الإعلام**، ج 5، ص. 300. ولم يزد على ما جاء في **مباحث الأنوار** هذا الذي هو مصدره.

(214) أحد المتون الثلاثة التي ألفها الشيخ السنوسي في العقائد وأصول الدين على الطريقة الأشعرية. كانت لها الأسبقية في المغرب على باقي المؤلفات في هذا الباب إلى أن غدت منذ القرن الثالث عشر الهجري للـ«**مرشد المعين على الضروري من علم الدين**» لمؤلفه ابن عاشر (انظر: ع. كحالة، **معجم المطبوعات**، ص. 1058).

السنوسي[215] وغيرها. أخذ عن الشيخ بعد أخذه للعلوم الظاهرة عن أربابها زمنا، وكان إذا حضر بين يدي الشيخ يصير كالميت بين يدي غاسله. وكان ببركة أستاذه راسخ الأقدام في الدين، مثابرا على اتباع سنة سيد المرسلين، وكان كثير الأوراد، فيجلس لورده من صلاة الصبح ولا يقوم إلا قرب الزوال، وسمعته يوما وقد لقي إنسانا كان يعرفه قبل ذلك، يعظ ذلك الإنسان ويأمره بالتوبة ويقول له : إما أن يتوب صاحب الإنسان ويرجع على مراد صاحبه أو يفارقه لئلا يجذبه لحاله، ثم التفت
للإنسان فقال له : هكذا ينبغي للإنسان أن* يبالغ من نصح صاحبه فإن عاد إلى 145
مراد صاحبه، وإلا وجب على الإنسان أن يفارق من لا يساعده لئلا يرجع على حاله.

ولا يراه أحد إلا شهد له بقوة التعلق بالله تعالى وتبتله إلى عبادته. وكان لا يتكلم في غير نفع، وله أخلاق جميلة من الصبر والاحتمال والزهد في أمور الدنيا، ويباشر أموره بيده ولا يستنكف عما يستنكف عنه أبناء جنسه من الطلبة، ولا يلبس إلا الصوف. واستقر بعد أن حج مع الشيخ بالشام، ثم رأى ظلما ومنكرا وقع هنالك فحملته الغيرة الدينية على السفر إلى السلطان العثماني بصطنبول في تغيير ذلك الأمر، مع أنه لا معرفة له به ولا بجلسائه، ومن بركة نيته سبب الله تعالى من لقاه[216] بأخي
السلطان، وهو ممن يتعاطى العلم، فعرف به* أخاه. ولما أراد السلطان ملاقاته أحضر 146
له جماعة من العلماء وهو يريد قراءة البخاري ليبحثوه، فلما حضر سألوه عن مسائل تتعلق بالحديث الشريف، ففتح الله تعالى ببركة شيخه بصيرته فأجابهم عن كل ما سألوه، فعظم أمره عند السلطان فغير ذلك المنكر وقضى له مآرب، فخيره بين البقاء عنده مكرما أو رجوعه للشام، فاختار الرجوع فرجع إلى الشام ومكث فيه مشهورا بالعلم والديانة إلى أن توفي فيه رحمة الله تعالى عليه.

---

(215) محمد بن يوسف السنوسي، من أعلام القرن التاسع الهجري. توفي بتلمسان عام 895هـ/1490م. أخذ الولاية عن الشيخ إبراهيم التازي ثم الوهراني. ومن أشياخه في العلم : الشيخ الأبلي والشيخ ابن مرزوق، شارح «**البردة**» والشيخ عبد الله بن العباس، شارح «**لامية**» ابن مالك. له تآليف عديدة من أشهرها «**العقيدة**» بصورها الثلاث (الكبرى والوسطى والصغرى) (انظر : أ. بابا، **نيل الإبتهاج**، ص. 325؛ أ. ابن القاضي، **درة الحجال**، ترجمة رقم 605؛ م. ابن مريم، **البستان**، الجزائر، 1908، ص. 237).

(216) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : ألقاه، ولعل الصواب كما أثبتناه.

[محمد بن سعيد المرغيثي]

ومنهم العالم القدوة والصالح البركة أبو عبد الله الشيخ محمد بن سعيد السوسي ثم المرغيثي[217] وولده الفقيه محمد[218]، وقد تقدم ذكرهما أول الكتاب. وكان الشيخ
محمد بن سعيد المذكور، يحب الشيخ حبا شديدا ويقتدي ببصيرته بلا توقف لما* 147
يعلم منه ولما ذاق من الأسرار بصحبته. ولذلك كان يرى كما تقدم صحة صحبة رجال حاح لقول الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ رأيت أن ليس من الأدب خروج المغرب قبل موادعة الصحابة بحاح. وكانت له إخبارات بالغيب تدل على مكاشفته. وكان الناس يقصدونه بالزيارة والتبرك ولهم فيه اعتقاد عظيم، وهو الذي وضع نظما في علم التوقيت وشهور العام وأيامه، سماه «المقنع»[219] وشرحه بشرحين : الكبير والصغير. وقد جعل الله تعالى الإقبال على كتابه، فاشتغل به الناس في المدائن والقرى ببركة صحة نصحه وصلاح طويته. ووضع في الجدول المخمس خالي[220] الوسط
نظما* وقع عليه الإقبال أيضا. 148

وكانت له دراية في كل فن حتى في علم الطب، ثم إنه ترك الطب بسبب أن إنسانا أتى بالهراقة فيها بول وأدخلها عليه في المسجد، فقال : إن علما يؤدي بي[221]

---

(217) أحد رجالات الفكر المغربي المشهورين في العصر العلوي الأول. ويسمى بالمرغيثي نسبة إلى قبيلة مرغيثة بناحية تزنيت التي منها انتقل إلى مراكش. من شيوخه في العلم : أبو محمد عبد الله بن علي بن طاهر الحسني، وأبو القاسم الغول الفشتالي، وأبو عيسى السكتاني. كان له تلامذة كثيرون، وهو الذي أجاز اليوسي. وإلى جانب شهرته في علم التوقيت والحساب، فإنه قد ألف في مواضيع أخرى. من تآليفه : كناشة **فهرسة العوائد** (مخطوط الخزانة العامة 285د). ومجموعة أخرى ذكرها له محمد المنوني في مقالة عن المكتبة الحمزاوية (مجلة **تطوان**، عدد 8). توفي بمراكش عام 1098هـ/ 1678م ـ 1879م (راجع ترجمته عند كل من : م. ح. اليوسي، **الفهرسة**، ورقة 68أ؛ م. اليفراني، **صفوة**، ص. 177؛ م. المحبي، **خلاصة الأثر**، ج 3، ص. 482؛ م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 241؛ م. الكتاني، **سلوة**، ج 3، ص. 277.؛ م. ابن الموقت، **السعادة الأبدية**، ج 1، ص. 136؛ م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 96).

(218) عالم أديب، له نظم مختصر في السيرة النبوية لليعمري. لم أقف على سنة وفاته. وقد ورد على هامش النسخة الكتانية من **مباحث الأنوار** هذا : أنه توفي عام تسعين وألف (انظر: ع. ابن إبراهيم، **الإعلام**، ج 6، ص. 34).

(219) نسب إليه من قبل كل الذين ترجموا له، وأشاروا إلى أن الناس كانوا يعكفون على إقرائه وقراءته (راجع: ع. ابن إبراهيم، **الإعلام**، ج 8، ص. 307).

(220) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : خال. والصواب ما أثبتناه.

(221) وردت في النسخ المعتمدة : يؤديني. ولعل الصواب ما أثبتناه اعتمادا على ما نقله صاحب **نشر المثاني** عن **مباحث الأنوار** هذا.

إلى أن أكون سببا لدخول المسجد بالنجاسة لا أشتغل به. وقد كان مقصودا به قبل ذلك، وكانت له محبة كاملة في أهل البيت، وكان الناس يرون أن له نجاحا في الجدول وبركة في الأمور. وكان إماما بمسجد[222] بمراكش، ومن عادته تأخير صلاة الصبح إلى الإصفرار بناء على أنه لا ضروري لها وأن مختاره إلى طلوع الشمس، فروي أنه أنكر عليه ذلك فقال : إني رأيت النبي ـ ﷺ ـ فقال* لي : أصبت في تأخير الصبح، 149
وذلك أن قصده من ذلك الرفق بالضعفاء وبمن تفوته الجماعة في مساجد التغليس.

وحين جاور الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ في تلك السنين بالحرمين الشريفين اشتاق إليه الفقراء واشتكوا إليه أمر بطئه[223] عنهم، إذ كانوا يرجون إيابه للمغرب، فعمل أبياتا يطلب فيها النبي ـ ﷺ ـ ويسأله تسريح الشيخ للمغرب، لأنه كان يعلم أنه لا يأتي إلا عن إذنٍ، وأمر الفقراء بقراءتها. وبلغت إلينا بالزاوية البكرية حينئذ، ولم يتعلق الآن ـ لطول العهد ـ بحفظي منها إلا ثلاثة[224] أبيات من[225] أولها وهي هذه :

يَا رَسُولَ ٱللَّـــهِ إِنَّ ٱلْفُقَـــرَا ... قَدْ شَكَوْا مِنْ فَقْدِ خَيْرِ ٱلنُّظَـرَا
شَيْخِهِـمْ وَهْـوَ ٱبْنُ عَبْدِ ٱللَّـــهِ ... قَدْ حَمَلُوا مِنْ شَوْقِـهِ مَا بَهَـرَا* 150
يَا رَسُولَ ٱللَّـــهِ سَرِّحْـــهُ لَنَـــا ... أَنْتَ ذُو ٱلْحَقِّ وَخَيْرُ ٱلنُّظَـــرَا

وكان رحمه الله تعالى معمرا، بقي بعد الشيخ مع كبر سنه سنين، ولم يزل إماما مقصودا بمراكش، [موقرا عند العامة والخاصة إلى أن توفي بمراكش][226] وترك ولده الفقيه محمد وبقي بعده يسيرا من الزمن ثم توفي ولم يعقب ذكرا. رحمة الله تعالى عليه وعلى أبيه.

[محمد بن عبد الهادي]

ومنهم الشريف الأجل، والعالم الأبجل، العارف بالله تعالى مولاي محمد بن عبد

---

(222) هو مسجد المواسين الذي أسس فيما بين 970هـ و980هـ/1573م على أنقاض حي قديم لسكنى اليهود بالمدينة. و«المواسين» هو اسم لصانعي السكاكين والخناجر (راجع : G. Deverdun, Marrakech..., pp. 367-386.).

(223) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : بطأه. والصواب ما أثبتناه.

(224) وردت هكذا : ثلاث. ولعل الصواب ما أثبتناه.

(225) في ك : وهي، وفي ق : هن.

(226) سقط ما بين معقفتين من ك.

الهادي[227] من شرفاء العلم ومن ذرية القطب مولاي عبد السلام بن مشيش[228]. كان مجاورا بالحرم الشريف وبه لقي الشيخ وصاحبه وارتقى به ارتقاء بديعا، وهو من جملة من حضر وقعة التركي حين سعى بالشيخ ذلك الساعي، وَقَرَّبَهُ الشيخ إليه
151 وعلمه* الإسم الأعظم[229] وأذن له في رواية جميع أسماء الله تعالى الحسنى بعد أن رواها عن الشيخ.

ولما عزم على الرجوع إلى المغرب لموضع مسقط رأسه وهو جبل العلم[230]، أذن له الشيخ في الرجوع وودعه، ولم يكن لنا نحن علم بحاله ولا بصحبته للشيخ، حتى كتب به لأصحابنا بالمغرب الشيخ أحمد بن سعيد المتقدم منوها لشأنه في تلك الرسالة ورافعا[231] لقدره في التعريف، فقال : وأعلمكم بأخ لنا رفيع القدر، كبير الشأن، ذي أسرار بهية وأذواق سنية، أخبرني الشيخ أنه أجلسه على بساط الولاية في زمن قريب ولم يزل بحمد الله تعالى في ازدياد، وهو الشريف الحسني مولاي محمد بن
152 عبد الهادي من ذرية القطب مولاي عبد السلام بن مشيش، فلا بأس* عليكم أن تعرفوه وتكاتبوه وتطلبوا منه الدعاء لا سيما عند رأس القطب مولاي عبد السلام بن مشيش.

ولما حج الفقيه الشيخ أحمد بن الحاج الفاسي[232] في الدولة الرشيدية لقيته

---

(227) لم أقف على ترجمة له، ولا شك في أنه كان يعرف عند الشرفاء العلميين باسم آخر. وقد جاء على هامش النسخة الكتانية من **مباحث الأنوار** هذا : «لعله ابن عبد الوهاب».

(228) هو عبد السلام بن أبي بكر بن علي. يرجع كل من ترجم له نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب. وقيل إن اسمه هو سليمان وإن «مشيش» كنية له فقط. أخذ عن أبي مدين الغوث والشيخ عبد الرحمن المدني الزيات، وعليه تتلمذ أبو الحسن الشاذلي. كما يعتبر ابن مشيش ممن أدخل التصوف إلى المغرب. مات مقتولا بمؤامرة من محمد بن أبي الطواجين الذي كان قد ثار في بلاد غمارة، وذلك عام 622هـ أو 625هـ (راجع كناشة لمؤلف مجهول في الخزانة الحسنية عنوانها **مناقب الشيخ عبد السلام بن مشيش** تحت رقم 9447؛ وم. الفاسي، **مرآة المحاسن**، ص. 176).

(229) هو الإسم الجامع لجميع الأسماء، وقيل : الله، لأنه اسم الذات الموصوفة بجميع الصفات، أي المسماة بجميع الأسماء (ع. الجرجاني، **التعريفات**، ص. 24).

(230) يسمى بجبل العلم أو بجبل أبي هاشم (بوهاشم بالنطق المحلي)، حيث يوجد ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش وسط قبيلة بني عروس في الشمال الغربي لمدينة شفشاون.

(231) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : ومرفعا. والصواب ما أثبتناه.

(232) هو أحمد بن العربي المعروف بـ«ابن الحاج» الفاسي، من قضاة فاس وفقهائها المشهورين. أخذ عن علماء من المشرق والمغرب. توفي في فاس عام 1109هـ/1698م (انظر: م. اليفراني، **صفوة**، ص. 223؛ م. القادري، **التقاط الدرر**، ص. 273؛ س. الحوات، **البدور الضاوية**، ص. 385؛ أ. الفضيلي، **الدرر البهية**، ط. حجرية، 1896، ج 2، ص. 329؛ م. مخلوف، **شجرة النور الزكية**، القاهرة، 1930، ج 1، ص. 328).

وقت إيابه في الحج فسألته عن الشيخ وهو [إذ ذاك][233] في الحرمين الشريفين، فقال لي : أنا لم تقدر لي معرفته، ولكن لقيت في رجوعي بعض الفقهاء من شرفاء العلم، وهو من سادات أهل الدين والخير، وكان يذكر لي ذلك الرجل بالولاية العظمى والمعرفة الكبرى، ويثني عليه ثناء عظيما جميلا وهو إلى وقتنا هذا حي مقبل على شأنه معرض عما لا يعنيه، كبير الشأن في قومه، موقر عند العامة والخاصة، رفيع الهمة عما

153 [يشين][234] من أمور الدنيا، قد كان سكن وحده حذو* روضة جده ابن مشيش منقطعا للعبادة، وربما كانت له تلامذة قليلون، ثم استشفع إليه بعض الشرفاء أن ينتقل إلى مدشر هنالك، ورغبوا إليه في ذلك تبركا به فانتقل إليهم، وهو قريب من محله، وهو ذو أخلاق رفيعة وتؤدة كبيرة، حتى لا تكاد تسمع كلامه من تخشعه الطبيعي، وله محل عظيم في الصبر والتوكل[235] وإلغاء خوف الخلق، يشهد له بذلك كل من لقيه، وقد لقيناه وانعقدت بيننا وبينه المحبة والأخوة في الله تعالى، والحمد لله على ذلك. ولم يزل إلى الآن في المدشر المنتقل إليه، زاده الله تعالى توفيقا وبلغه غاية مرامه ونفعنا بمحبته آمين.

[علي العكاري]

154 ومنهم الدراكة الأنبل، والفهامة الأبجل*، الشيخ علي العكاري[236] المتقدم، وقد ذكرنا ما وقع له في أول ملاقاته الشيخ، وأنه كثير التحري في تقوى جوارحه مثابر على مخالفة الأمور المنافية للتقوى، وكان يرى النبي ـ ﷺ ـ في المنام، وكان له قدم في إظهار التعظيم للجانب النبوي. وأخبرني عن نفسه يوم مات أخونا ـ رحمه الله

(233) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : إذا. والسياق يقتضي أن تكون كما أثبتناه.

(234) رسمها غير واضح في النسخ المعتمدة، ولربما اقتضى السياق أن تكون كما أثبتناه.

(235) أول مقام في التوكل أن يكون العبد بين يدي الله عز وجل كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف شاء، لا يكون له حركة ولا تدبير. (القشيري، «باب التوكل»).

(236) أبو الحسن علي بن علي الحسني، العكاري نسبا والمراكشي منشأ. درس في الزاوية الدلائية، وأجازه كل من الحسن اليوسي والشيخ عبد القادر الفاسي. بدأ التدريس في سجلماسة، ثم رحل إلى فاس، واستقر أخيرا بالرباط مشتغلا بالتدريس بمسجدها الأعظم وبضريح أحمد بن موسى العايدي، وتخرجت على يده جماعة من أهل العلم. خصص له حفيده علي بن محمد العكاري تأليفا سماه : **البدور الضاوية في ذكر الشيخ وأصحابه وتلامذته أبناء الزاوية**، مخطوط الخزانة العامة د88. كما ترجم له م. بوجندار في **الإغتباط بتراجم أعلام الرباط**، مخطوط خ ع تحت رقم 1287د؛ وم. حجي، **الزاوية الدلائية**، صص. 116- 121.

تعالى ـ عبد السلام بن محمد، وقد طال به المرض وطلبت منه أن يتولى غسله تبركا به، فوافقني وغسله لما بيني وبينه من المحبة، مع أنه كان لا يغسل الموتى، أنه في تلك الليلة التي غسله من صبيحتها رأى النبي ـ ﷺ ـ في المنام فقال لي : لقد استبشرت لأخيك، إذ[237] رأيت البارحة رسول الله ـ ﷺ ـ ووفقت أن دعوتني
155 لغسله فغسلته، فلعله تناله* بركته ـ ﷺ ـ.

وكنا معه بالزاوية البكرية في عشرة جميلة، وأصبح يوما وهو يقول : تيقنت أن كل ما[238] أنعم الله تعالى به علي، منذ كنت إلى الآن وسيأتي، من بركة الشيخ، فظهر على وجهه حين يقول ذلك أنه قال عن عزيمة وقوة قلبية، فقلنا له وما ذلك ؟ فقال : كانت في قلبي أمور فوقف علي الشيخ في المنام البارحة برهة يسيرة من الزمان فطهر[239] القلب من تلك اللحظة وملأه بما لا يعلم ما ينبغي أن يشكر به إلا الله تعالى، فعلمت أن أموري كلها مبنية عليه. وأخبرني أيضا أنه رأى الشيخ في المنام
156 ومعه أخوه الفقيه الشيخ محمد العكاري، قال : فبشرني الشيخ بأمور عظام وكأنه* أعرض عن أخي، قال : فجعلت أطلبه ليدعو لأخي وهو يلغي أمره، ولم أزل أكرر المراجعة والطلب في أخي حتى أقر له هو أيضا أنه من أهل الجنة.

وأخبرني أيضا أنه رأى الله تعالى في المنام فقال له : إن الناس اشتغلوا بلهوهم وأنت بخلافهم، فبأي شيء تريد أن تدخل به في رحمتي ؟ فقلت يا رب بفضلك، فقال : أو بطاعتي ! فإن طاعتي من فضلي، وأظن الآن أنه قال لي : وجعلت أقول بفضلك والرب تعالى يقول وطاعتي من فضلي حتى انفصل الخطاب. وأخبرني أنه كان ربما ذهب إلى المغتسل في ساقية بليل إذا أجنب بالِاحتلام، فيشاهد الجن في ذلك المحل ويقتحمه ولا يبالي بهم.

157 وكان كثير الِاعتناء باللسان وسماه* بعض الناس فارس اللسان، فلا يغتاب أحدا ولا يغتاب بين يديه، وإذا أنطق بعض الحاضرين بما فيه ذكر أحد بما قد يكره لم يغفل عنه بل يصيح عليه ويقول له : إن شئت أن تقص فلا تعير أحدا. وهو ممن دق فهمه في علوم المعقول، وشارك في سائر الفنون، وقد قيد عنه بعض الطلبة حواشي واسعة في شرح «**الكبرى**» للشيخ السنوسي، ولا يخالط ولاة الأمر إلى الآن ولا يلتفت

(237) ق، ك : إني.

(238) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : كلما. ولعل الصواب ما أثبتناه.

(239) غير واضحة الرسم والمعنى في س، ق.

إليهم، ويرزقه الله تعالى بلا تكلف ولا حاجة لمداراتهم من بركة ديانته. وله دعوات علمناها له مستجابة. وهو إلى الآن مقبل على ما يعنيه، عظم حسن ظن الناس به ولا يزالون يتبركون به في محله وهو رباط سلا(240). زاده الله تعالى توفيقا.

[محمد بن عبد الرحمان الصومعي]

158 ومنهم الخاضع* المنيب، والعالم الأريب، الشيخ محمد بن عبد الرحمن الصومعي(241)، وقد تقدم أنه ذهب من الزاوية البكرية لملاقاة الشيخ بمراكش، وتقدم بعض ما وقع له مع الشيخ. وأخبرني – وهو ثقة – أنه ربما يكون مشتغلا بورده في غيبة الشيخ فيمر به الشيخ في خلوته عيانا كالبرق، وأخبرني أيضا أنه قال له الشيخ يوما : إنك ترى النبي – ﷺ – يقظة.

وهو وفقه الله تعالى إلى الآن مقبل على ما يعنيه من العلم والعمل، تخرج عليه في العلم ناس من أصحابه، وتهذبت بمصاحبته أخلاقهم، وهو حسن العهد منقطع عن الولاة وعن الإشتغال بأسباب الدنيا، ورزقه الله تعالى الكفاف بلا تكلف. ولم
159 يزل محببا للخلق متبركا* به في قومه موقرا عندهم وعند من يعرفه من الناس جميعا،

(240) تعرف الآن بمدينة الرباط. وقد كانت قديما تتكون من مدينتي الرباط والقصبة وتنسبان معا إلى مدينة سلا، فيقال : رباط سلا وقصبة سلا. وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي سكن جيش الوداية القصبة فسميت بقصبة الوداية، كما استرجعت الرباط الإسم الذي أطلقه عليها الموحدون وهو رباط الفتح. وفد على عدوتي أبي رقراق، الرباط وسلا، كثير من الأندلسيين المهاجرين، خاصة بعد سقوط غرناطة سنة 898هـ/1492م، فشكلوا فيهما قوة بحرية لعبت دورا في الجهاد البحري وفي تاريخ البلاد خاصة في القرن السابع عشر الميلادي (راجع: ح. الوزان، **وصف إفريقيا**؛ ع. البكري، **المغرب**، 1965، ص. 87؛ م. بوجندار، **مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح**، مخطوط خ ع، رقم 1044د، ص. 18؛ م. حجي، **الزاوية الدلائية**، صص. 170– 175.

J. Caillé, **La ville de Rabat**, Ed. d'Art et d'Histoire, 1949 ; K. Brown, «Histoire culturelle de Salé», **B.E.S du Maroc**, n° 116, mars 1970.)

(241) اسمه الكامل : أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الزمراني التادلي الصومعي، عالم مشارك وشيخ صوفي تولى مشيخة زاوية الصومعة بعد والده. من تآليفه : «**شرح سينية ابن باديس**» و«**شرح همزية البوصيري**». درس وتخرج عالما في الزاوية الدلائية ورجع إلى مسقط رأسه في تادلا وأقبل هناك على نشر العلم، كما صاحب أحمد بن عبد الله صاحب زاوية المخفية بفاس وحج معه عام 1100هـ/ 1688م. توفي ودفن بالصومعة عام 1123هـ/1712م (انظر: م. القادري، **التقاط الدرر**، ص. 307، ترجمة ص. 462؛ ع. ابن إبراهيم، **الإعلام**، ج 6، ط. الملكية، ص. 47؛ م. حجي، **الزاوية الدلائية**، صص. 121–122).

وترد عليه أحوال جميلة ربما غلبت عليه فيصيح باسم الجلالة، وهو مثابر على الأذكار، لم يزل فيما رأيناه يقوم جزءا نفيسا من الليل. وحج بيت الله مع بعض العارفين(242) ممن لقيناه وسنذكره بعد، وهو إلى الآن يتردد إلى زاوية ذلك العارف بفاس يأتي إليها من بلدة تادلا على نحو ستة مراحل في أيام المواسم ورمضان. وأخبرني أنه أول ما لقي هذا العارف وآوى إلى زاويته، رأى الشيخ في المنام فقال له : مثل هذا الموضع أريد لك الإيواء إليه. وهو لا يرى غالبا إلا ذاكرا أو مشتغلا بالعلم تعليما ومطالعة أو مذاكرة، وهو فيه ذو إنصاف سليم الصدر، زاده الله تعالى توفيقا وبلغه مناه.

[الطيب بن المسناوي]

160 ومنهم* الفقيه النحرير، والعالم المتفنن الحقيق بالتقدير، وهو الشيخ الطيب بن المسناوي بن محمد بن أبي بكر الدلائي(243). وقد تقدم أنه لقي الشيخ بالزاوية، وتقدم ما وقع له بملاقاته. وأخبرني أنه لما طلب الصحبة من الشيخ قبلها له. وأخبرني أنه(244) قال له عند المصافحة : صاحبتك على : «أن تعبد الله كأنك تراه»(245). وقال : إن الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ لم يرض لي بالمقام المذلول لقوله ــ ﷺ ــ : «فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(246)، وهو عبادة المراقبة وإن كان رفيعا بل بما هو أعلى وأرفع، وهو عبادة بساط الشهود(247). وكان قبل أن يعقد الصحبة مع الشيخ ربما سئل لأجل متانة علمه المعلومة عند الناس عن حال الشيخ فيسلم ويقول : إن لم
161 أكن من الرابحين* فلا أكون من الخاسرين. ومن بركة ذلك التسليم وفق لمصاحبته والانتفاع به.

---

(242) ورد على هامش نسخة ق : هو سيدي أحمد بن عبد الله صاحب زاوية المخفية (وستأتي ترجمته في **مباحث الأنوار** هذا. انظر هامش رقم 508).

(243) فقيه وعالم شهير من علماء الزاوية الدلائية وأبنائها، درس بالدلاء وتصدر للتدريس والإفتاء بها. كان له تفوق كبير في الفقه ونفس طويل في الشعر. توفي في الدلاء عام 1077هـ/1666م (انظر: م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 161؛ **والتقاط الدرر**، ص. 170؛ س. الحوات، **البدور الضاوية**، ورقة 167أ؛ م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 84).

(244) زيادة يقتضيها السياق.

(245) جزء من حديث يحاور فيه جبريل الرسول ﷺ. أخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب؛ كما أورده القشيري في «باب المراقبة».

(246) تتمة للحديث السابق. أخرجه مسلم.

(247) ق : الشمس.

وقد ظهر مصداق ما قاله الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ لما مرض بعد غيبة الشيخ لجهة المشرق، وطال به ذلك المرض، فارتفع حاله ولحقه خشوع، وأوبة[248] وخضوع. وكان إذا صلى ترى عليه ديباجة الخضوع الأكبر، والإيمان الأظهر، وبلغ به الأمر إلى أن كان لا يستطيع أن يسمع الآذان من هيبة ذكر الجلالة. وأخبرني أنه رأى النبي ـ ﷺ ـ فطلب منه السماحة من التقصير في حقه، فقال له ـ ﷺ ـ : سامحتك. وكان يجد في نفسه من ذلك المرض التوحش عن الخلق إلا القليل* ممن يوافق حاله. 162

وطلب مني إذ ذاك يوما أن آتيه ببعض كتب التصوف المشتملة على أحوال أهل الله تعالى فأتيته بابن عبَّاد[249] شارح «**الحكم**»[250]، ثم غبت عنه، فلما رجعت وجدته مطروحا فقال لي : أتيتني بهذا الكتاب وأجدني لا أستطيع النظر فيه، فإني إن نظرت فيه كاد قلبي أن يتفطر، فأخاف أن أموت. ولم يزل على تلك الحال أو أزيد إلى أن توفي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ.

[إبراهيم بن عبد الله السوسي]

ومنهم العالم العامل، ذو الأحوال الزكية، والأخلاق المرضية، أخو الشيخ سيدي إبراهيم بن عبد الله[251]. كان له ببركة الشيخ حال رفيع، واتباع للسنة بديع،

---

(248) رسمها غير واضح في النسخ المعتمدة وقد أثبتناها من **نشر المثاني** الذي نقل عن **مباحث الأنوار** هذا. وجاء على هامش نسخة ك : لعله من الأبواء على الشذوذ (بياض) من غير الثلاثي.

(249) هو ابن عباد الرندي. ولد برندة عام 732هـ/1333م وتوفي عام 792هـ/ 1390م. ارتحل في شبابه إلى المغرب. وبعد أن توقف بتلمسان لدى الشريف التلمساني أحد مجددي المذهب المالكي بالمغرب، التحق بفاس ودرس بمدارسها على أشهر العلماء الذين كانوا بها مثل : الآبلي والفشتالي والمقري. ثم لم يلبث أن اشتغل بمشكل البدعة، وحمل على الفقه، فانتقل إلى سلا وعاش بجانب الصوفي الشهير ابن عاشر (راجع : ع. أومليل، **الخطاب التاريخي**، بيروت، ص. 174؛ وعن ترجمته انظر الزركلي، **الإعلام**، ج 5، ص. 299).

(250) من الكتب المعروفة لابن عباد : شرحه لـ«**حكم**» ابن عطاء الله. وكتاب «**فتح التحفة**» (وهو مجموع أحاديث)؛ و«**الرسائل الكبرى**»، و«**الرسائل الصغرى**». وابن عباد هو أول من شرح «**حكم**» ابن عطاء الله، تلميذ الشاذلي بواسطة شيخه ابن العباس المرسي. وإن كانت شروح «**الحكم**» متعددة، فإن شرح ابن عباد لن يضاهيه إلا شرح متصوف آخر من القرن التاسع هو أحمد زروق (راجع : ع. أومليل، **الخطاب التاريخي، مرجع مذكور**، ص. 174).

(251) فقيه وصالح قدم من سوس واستقر بمراكش. ذكر العباس بن إبراهيم (**الإعلام**، ج 1، ص. 189) أنه كان من تلامذة محمد بن سعيد المرغيثي. توفي عام 1096هـ/1685م (انظر : م. الحضيكي، **طبقات**، ورقة 68/ب).

[وربما ورد عليه حال(252) من محبة أو ما بمعناها](253) فيصير به طريحا كالمريض.

163 ولما ورد علينا بعد غيبة* الشيخ بالزاوية البكرية بقصد زيارة أبي يعزة ـ رضي الله تعالى عنه ـ، نزل لدي بالمدرسة، فإذا أخلاقه مسكية، وإذا أحواله ربانية. فبينما نحن ليلة نتحدث إذ ورد عليه حال عظيم من المحبة أو معناها فصار طريحا به زمانا.

ولما رجع من زيارة أبي يعزة مر بنا أيضا، فقلت له يا سيدي : لعل هذه الزيارة نافعة إن شاء الله تعالى، فقال لي : وهل أطلعت على شيء من أمرنا، فقلت : لا، وإنما هي حسن ظن، فقال : لكني أنا لما ذهبت لأبي يعزة تفكرت فيما أطلب الله تعالى لديه، فوفقت لطلب العلم والعمل، قال : فلما دعوت عنده وسألت الله تعالى
164 ذلك، رأيت في المنام كأن الوادي الذي تحت أبي يعزة قد* فاض فيضانا عظيما بماء صاف فأقبلت عليه وجعلت أشرب مما يليني منه، ثم رأيت وسطه ماء أبيض من شدة الصفاء فتناولت منه أيضا، فتأولت أنه قد استجيب لي بحمد الله تعالى في العلم والعمل به، وأن الماء الأبيض هو الإخلاص في العمل.

ثم إني أهديت له(254) برنسا كان أهدي لي، فأثابني عليه بعمامة الشيخ وقال لي : إن الشيخ أرسلها لي وكان يلبسها في الحرمين الشريفين، فخذها بركة، فأخذتها. ثم رجع ـ رحمة الله تعالى عليه ـ إلى مراكش الذي هو محل إقامته، ولم يزل به مقبلا على شأنه متبركا به إلى أن توفي فيه شهيدا بالطاعون. رحمة الله تعالى عليه ونفعنا بمحبته.

[مولاي محمد بن هاشم]

ومنهم الشريف الحسني أبو عبد الله مولاي محمد بن هاشم(255)، من شرفاء

(252) الحال في اللغة يعني نهاية الماضي، وبداية المستقبل، ويعني عند أهل التصوف ما يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب. ومن خصائصه أنه لا يدوم بل يزول (انظر : ع. القشيري، **الرسالة**، «باب الحال»).

(253) سقط ما بين معقفين من ك.

(254) ك : لي.

(255) شريف علوي من فرع أولاد يوسف كان أبوه قد سكن مدينة فاس ومكناس الزيتون، ثم رجع إلى سجلماسة وبها توفي عام 1027 أو 1028هـ ثم عاد ولده محمد بن هاشم إلى مدينة فاس صبيا وأقام بها. لم نقف على سنة وفاته، ويظهر أنها كانت في العشرة الأخيرة من القرن الحادي عشر الهجري (انظر : م. العلوي، **الأنوار الحسنية**، ط. فضالة، 1966، ص. 60؛ أ. الفضيلي، **الدرر البهية**، ج 1، ص. 105).

سجلماسة[256] لقيه بالزاوية وصاحبه أيام صحبتي إياه، ورجع عنه بالمكان الذي رجعنا منه، وكان يلازمه* وهو صغير العقل إذ ذاك، كثير اللهو لما يرى من محبة أهل 165
البيت وملاطفته لهم، لا لقصده التوبة على يده.

ولما بتنا في بعض الليالي التي سافرنا فيها مع الشيخ، دخل على الشيخ خباءه، وكان لا يبيت معه أحد فيه، فاقتحم هو المبيت ورفق به الشيخ وتركه وما يريد تعظيما له لكونه من أهل البيت، وقد تقدم أنه عظيم المحبة في أهل البيت، وغرضه أن ينظر عبادة الشيخ بالليل كيف كانت، فأظهر من نفسه أنه نائم، وكان الشيخ يلبس على الرداء برنسا وخنيفا[257] سوسيا، فلما أظهر النوم، نزع الشيخ خنيفه وغطاه به وصبر على البرد، وكان الوقت وقت برد، فجعل ينظر ما يفعل الشيخ، فإذا هو جالس لا ينام، قال : وبت تلك الليلة* وأنا غير نائم أيضا من هيبة الشيخ، وندمت على ما 166
فعلت مما لقيت من المشقة، قال : فإذا الشيخ يسكت ثم يزفر زفرة يكاد الخباء يطير منها من فوق رؤوسنا، قال : ولم يقرب صباح تلك الليلة حتى حوسبت، وقد صعب علي أن أقوم والنوم لم أجده.

وكان الشيخ يطعمه الطعام بيده ثم يقول له : نحن نحاول إدخال طريق الفقر[258] في مولاي محمد فأبى أن يدخل، ولكن نؤجل له فيه إلى وقته. فرجع ذلك الشريف بعد انفصاله عن الشيخ إلى ما كان عليه من الهزل والفتوة، ولم يزل كذلك نحوا من عشرين سنة، ولما قرب أجله بأشهر اعترته حالة التوبة وأناب[259] إلى الله

---

(256) تكلم عنهم **مباحث الأنوار** هذا بشيء من التفصيل في آخر الكتاب.

(257) «البرنس» يطلق على الثوب الذي يكون غطاء الرأس جزءا منه ومتصلا به، وهو لباس تقليدي عند البربر منذ زمان. ورد بهذا المعنى عند كثير من المؤرخين الذين عالجوا تاريخ البربر مثل صاحب **الحلل الموشية**، ص. 15. كما استعمل البرنس غطاء ووطاء وزينة عند كل من البيدق (في كتابه **أخبار المهدي بن تومرت**، ص. 72) وعند ابن صاحب الصلاة (في كتابه **المن بالإمامة**، صص. 1–2). وقد وردت كلمتا البرنس وأخنيف بمعنى واحد، جاء ذلك على لسان ابن خلدون في وصفه للباس البربر في الجزء السادس من **العبر**، ص. 89 (راجع كذلك التقي العلوي، «أصول المغاربة»، مجلة **البحث العلمي** عدد 20–21، ص. 69).

(258) معناه الإنتساب إلى الفقر الذي هو أول شرط للصوفي، والفقر يعني الطرح النهائي لكل الملذات الدنيوية. وقد حدد المتكلمون في التصوف معنى الفقر. فالقشيري رادفه بالمسكنة، وهو «شعار الأولياء وحلية الأصفياء واختيار الحق سبحانه لخواصه من الأتقياء والأنبياء والفقراء حفدة الله». والفقراء هم أقل درجة ومنزلة من الزهاد وأعلى منزلة من الخدام (راجع : ع. القشيري، **الرسالة**، «باب الفقر»).

(259) كذا وردت في جميع النسخ المعتمدة. ولعل الصواب : تاب أو أناب.

تعالى، وظهر فيه طريق الفقر كما قال الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ ولا غرابة في
167 ذلك، فإنهم قوم يصدقهم مولاهم ولا يشقى* بهم من آووه أو آواهم، فكان لا ينام في الليل إلا قليلا، ويصوم النهار والدمع لا يفتر عنه ولا يرق له، ورد التبعات ما استطاع وجد كل الجد من العمل مع الخشوع والخضوع، والتجأ إلى الله تعالى وجعل الشرفاء أهله يتعجبون من حاله. ولم يزل دأبه كذلك إلى أن توفي شهيدا بالطاعون ـ رحمه الله تعالى ـ.

[مولاي علي]

ومنهم أبو الحسن مولاي علي(260)، وهو من بني عم مولاي محمد المذكور. أخذ عن الشيخ بالزاوية وصاحبه أيام صحبتنا إياه. فكان ـ رحمه الله تعالى ـ مواظبا على أذكاره، كريم السجية حسن المعاملة، فلا تراه غالبا إلا ذاكرا. وكان كثير الصيام قويا عليه، ولم يزل دأبه كذلك إلى أن توفي ـ رحمه الله تعالى ـ.

[عبد الخالق]

ومنهم الوجيه الأنجد، والنبيه الأمجد، الشريف أبو عبد الله عبد الخالق(261)
168 نزيل الصومعة(262) من شرفاء مراكش. لم يزل* على محبة الشيخ مثنيا عليه الثناء الجميل، مقبلا على شأنه مواظبا على العبادة ما أمكنه إلى أن توفي ـ رحمه الله تعالى ـ.

[أحمد عبد الخالق]

[ومنهم ولده أبو العباس أحمد بن عبد الخالق(263) كان أولا في لهو وفتوة، ولما لقي الشيخ وصاحبه أقبل على دينه ورجع عما كان عليه ملازما للأذكار والعبادة، متواضعا ذا أحوال مستحسنة إلى أن توفي ـ رحمه الله تعالى ـ](264).

(260) لعله الشريف أبو الحسن علي بن قاسم الذي كان في الزاوية الدلائية وهي عامرة. كان عابدا يتبرك الناس به، وهو الذي أخبر الدلائيين بأن حكمهم لن يطول. لم يشر من ترجم له إلى مكان وفاته وسنتها (انظر م. العلوي، **الأنوار الحسنية**، ص. 57؛ إ. الفضيلي، **الدرر البهية**، ج 1، ص. 107؛ م. الزكي، **الشجرة الشماء**، مخطوط خ س تحت رقم 5063، ص. 209).

(261) نقل ترجمته هذه صاحب **الإعلام** دون زيادة (ترجمة 1074، ص. 8).

(262) انظر هامش : 71.

(263) لم نقف على ترجمة له.

(264) سقط ما بين معقفتين من ك، وصحّح في الهامش.

[منصور المراكشي]

ومنهم الشاب الأريب، والطالب اللبيب، منصور المراكشي(265)، كان له إدراك
حسن في علم المعقول والمنقول(266)، قد ذاق من أسرار الشيخ حظا، وحصل له منه
قسط. وأخبر عن نفسه أنه بنفس ما لقيه غلب عليه حال المراقبة، حتى إنه إذا غلب
عليه النوم ليلا ثم أفاق ووجد نفسه على غير هيئة الأدب لم يملك نفسه أن يتحول إلى
169 تلك الجلسة. وكان ـــ رحمه الله تعالى ـــ بعد غيبة الشيخ* مخالطا للناس، يغلب عليه
حال البسط(267) إلى أن قرب أجله، فوفق للإقلاع عن كل شغل عن العبادة، ورفض
مخالطة الخلق، وانقطع للتعبد في خلوة إلى أن توفي برباط سلا وهو مقبل على
العبادة ـــ رحمه الله تعالى ـــ.

[عمر المراكشي]

ومنهم الفقير عمر المراكشي(268)، كانت له نية صالحة في الشيخ واعتقاد
جميل، ملازما لورد الشيخ، وظهرت له في نفسه وفي تعلقاته بركة عظيمة لم يزل يقر
بها. وهو من جملة من سمع من الشيخ الأخبار بأحوال عظيمة، وكان قد صاحبه في
أوقات شدة الغلاء، فإذا أتى لزيارة الشيخ سأله عن حاله وقال له : كيف أحوالك مع
هذا الغلاء ؟ فيقول له : والله يا سيدي لا أباليه بالة(269) من بركتك. ولا أعرف أين
170 هو، والناس إذ ذاك يموتون جوعا ثم يقول : وإني لأخشى* على أولادي يا سيدي أن

---

(265) ترجم له ع. ابن إبراهيم، ولم يذكر سنة وفاته (ع. ابن إبراهيم، **الإعلام**، ج 2، ص. 256 ترجمة 980).

(266) كثيرا ما يحلى بعض العلماء بهذه الثنائية. فالعلوم العقلية قصد بها العلماء مجموعة من المواد قسموها إلى قسمين : علم المنطق وما ارتبط به من علم الكلام؛ وعلم البحث والمناظرة. أما العلوم النقلية، وتسمى أيضا الشرعية أو الوضعية، فقد حصروها في هذا العصر في اثني عشر. وهي : التفسير والقراءات والحديث وأصول الدين وأصول الفقه والفرائض والتوقيت والتصوف واللغة والنحو والبلاغة والتاريخ (راجع: ح. اليوسي، **الفهرسة**، مخطوط خ ع، رقم 1838د، ص. 88 وما بعدها؛ م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 6، ص. 86 وما بعدها).

(267) البسط والقبض هما حالتان، بعد ترقي العبد عن حالة الخوف والرجاء، تتعلقان بأمر مستقبل مكروه أو محبوب، والقبض والبسط بأمر حاضر في الوقت يغلب على قلب العارف من وارد غيبي (ع. الجرجاني، **التعريفات**، ط. التونسية، ص. 91).

(268) نقل ترجمته هذه صاحب **الإعلام**، ولم يشر إلى سنة وفاته (انظر: ابن إبراهيم، **الإعلام**، ج 9، ترجمة 1482).

(269) لم نعثر على هذه الكلمة في معاجم اللغة. ولعلها من التعبير الدارج.

يذبحوا من السمن، فيعجب الشيخ ذلك ويبتسم. ولم يزل مقبلا على شأنه ملازما لورده إلى أن توفي ــ رحمه الله تعالى ــ بمراكش.

[مولاي أحمد]

ومنهم الشريف المراكشي أبو العباس مولاي أحمد[270]. وهو الذي دخل على الشيخ فقال له : كلمتني البارحة السيدة فاطمة بنغمتك، وكان له حب عظيم في الشيخ سرى به بعض أسرار الشيخ في قلبه، ولما بلغته وفاة الشيخ جعل يبكي ويقول : أي سن تضحك لنا بعد الشيخ ؟ لقد منعنا من صحبة غيره لعلمنا بنفي نظير له.

[مولاي محمد بن عبد الله]

ومنهم الشريف المراكشي أيضا، مولاي محمد بن عبد الله[271] كانت له أحوال
عظيمة من بركة الشيخ تغلب عليه، وربما نطق وأخبر بكوائن وتقع كما أخبر. وكان في
أول ملاقاته الشيخ ربما غلب* عليه الوارد[272] فيخرج في الأزقة على هيئة 171
السكران[273] متمايلا، ومن لا يعرفه يظهرله من النظر في وجهه أنه شارب خمر، وإنما
به خمر المحبة، حتى إنه لقيه رجل كان يعرفه من جملة المتورعين عن مثل الخمر فلما
رآه على تلك الحال حسبه سكرانا بالخمر فجعل يقول : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ﴾[274]، ها هنا خرج حال هذا الرجل، وقد كنت أعرفه غير شريب بل
مسكينا من جملة المساكين، فقال له : هو ليس هذا ذلك الخمر الذي تعرف أنت.

وكان في أول ملاقاته يغلب عليه حال إرادة شكر ما به من النعمة الباطنية،
وما أدرك من الأسرار واللطائف، فيخرج ليلا ويصعد الصومعة قبل وقت الصبح ثم
يقول بأعلى صوته : ربحنا ولله الحمد*، فيسمعه سامع ويظن أنه يقول : أصبحنا ولله 172
الحمد، فيقول ذلك السامع : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هذا الرجل قد

---

(270) نقل ترجمته هذه العباس بن إبراهيم في **الإعلام**، ص. 129. ولعله أحد أبناء الشريف عبد الواحد بن أحمد العلوي قاضي مراكش أيام المنصور الذهبي (انظر: أ. العلوي، **الأنوار الحسنية**، ص. 65).

(271) لم نقف على ترجمة له.

(272) انظر هامش 105.

(273) السكر عند أهل الحقيقة هو غيبة بوارد قوي وهو يعطي الطرب والالتذاذ وهو أقوى من الغيبة وأتم منها (ع. الجرجاني، **التعريفات**، المطبعة الميمنية، تونس، ص. 69).

(274) **سورة البقرة**، الآية 156.

اختل عقله فقام ينادي بالإصباح قبل وقته. وكانت له مجاهدات بلزوم مخالفة هوى نفسه، حتى إنه يوما رأيت بيده سبحة أعجبتني فأردتها منه فقال لي : إن هذه السبحة بعث بها الشيخ إلي من المشرق، فلا أستطيع فراقها، ولولا ذلك لأعطيتها لك. ثم ذهب عني ساعة ثم رجع ورمى بها إلي كالكاره لها، فسألته عن ذلك وألححت عليه في السؤال لما أعلم من شدة رغبته في إمساك ما جاء من يد الشيخ، فقال لي : فهمت أن إمساكي لها نفسي، فأردت أن أخالف نفسي في إمساكها.

173 وأخبرني أنه رأى في المنام في زمن* إقامة الشيخ بمراكش، أنه ضرب بِنْتاً له فقتلها، فقص على الشيخ هذه الرؤيا فقال له الشيخ : تلك نفسك قتلتها، ولكن إحذرها بأنها تحيا بعد الموت وتبرأ بوجود إِلْفِها القديم.

ولم يزل الناس يقصدون هذا الشريف للتبرك ويتوصلون بأدعيته وإخباراته إلى السرور بالظفر بالمآرب، وقد وقع معه تصرف [قد يرى](275) غريباً، لبعض الناس، وهو أن بستانا ينسب لبيت المال(276) تعلق به غرض لذلك البعض، فأتى إليه وقال له يا سيدي : أن البستان الفلاني أريده، فقال له : بكم تتصدق إن صار لك ؟ فقال له : بكذا وكذا. فلما اتفقا على قدر الصدقة قال له : ونحن أعطيناه لك. وفي ذلك

174 اليوم أو في غده سبب الله تعالى ما اقتضى هبة ذلك البستان* لذلك البعض من جهة من له التصرف في أحوال بيت المال، ثم غدر ذلك الإنسان في الصدقة التي وعد بها، فلما تحقق غدره أتى إلى داره فرسم على بابها بعظم : إنا أزلنا عنك البستان لغدرك، فسبب الله تعالى ما اقتضى نزعه منه وإعطاءه لآخر. فلما تحقق ذلك الرجل من أين أوتي جاءه بالشفعاء تائبا وأنفذ الصدقة أو وعد بها وعدا محققا، فقال : رددناه عليك. فصدق الله قوله ورده إليه، وهو بيده إلى الآن. وهذا تصرف ظاهر بالهمة أو بما شاء

(275) وردت في س هكذا : قدري.

(276) يقصد به بيت مال الدولة، وهو الجهاز الذي تنتهي إليه الجبايات. وإذا كان في بعض البلدان الإسلامية قائما على الأوقاف وفي البعض الآخر على جمع الجبايات، فإن بيت المال في المغرب كان له هذا المعنى الأوسع. تعود نشأة بيت المال إلى أيام النبي محمد ﷺ، حيث ظهرت فكرة مال الجماعة الإسلامية. ويعتبر الخليفة عمر أول من أنشأ نظام الدواوين ونظام الحسبة، إذ الظروف الجديدة التي أصبحت أمامها الدولة الإسلامية بعد توسعها طرحت ضرورة إنشاء هذا البيت الذي لم يكن معروفا عند العرب. وجهاز بيت المال في المغرب أيام السعديين لم يبتعد عن المفهوم الإسلامي، فكان لهم بيت مال بمراكش، وكان تطوره مقرونا بتطور دولتهم، وخاصة بتطورها العسكري (راجع : **دائرة المعارف الإسلامية**، مادة «بيت المال»؛ ح. بنكَرعي، **مداخيل بيت المال السعدي**، رسالة جامعية لم تنشر، كلية الآداب بالرباط، 1985).

الله تعالى، وقد شاهد هذه الواقعة أهل مراكش ولا ينكرها إلا مكابر. ولم يزل رحمة الله تعالى ملازما لورده مثابرا على طاعة ربه إلى أن توفي بالطاعون شهيدا، رحمة الله تعالى عليه.

[أحمد بن محمد بن أبي بكر الدلائي]

175 ومنهم الأمجد، أبو العباس أحمد بن محمد* بن أبي بكر الدلائي(277). كان من أهل الجاه والثروة، إذ هو أخو سلطان البلد ومن ذرية الصالحين. فلما لقي الشيخ بالزاوية تبدل حاله ورق قلبه، وأقبل على العبادة وملازمة الذكر ما استطاع، وكان يقول : في الشيخ : إني شاكر له إحياء الموتى، فإذا قيل له كيف ذلك ؟ قال : كان قلبي ميتا لا حراك به فنظر إليه نظرة فأحياه.

وكان يقول : إن للشيخ هيبة عظيمة ليست للملوك، فإن هيبة الملوك بالحرس والأعوان والخدم والغضب، فإذا قابلت الملك وكلمك ضعفت تلك الهيبة، وهيبة الشيخ تعظم عند القرب والمكالمة. وما ذكره صحيح، وقد تقدم أن هيبته ــ رضي الله تعالى عنه ــ أعظم ممن رأيناه، وقد أتى إليه نفر من الناس للزيارة فصبر على مقابلته
176 بعضهم وبعضهم لا يستطيع* أن يقابله، فصار إذا لمحه الشيخ تستر بسارية من سواري ذلك المحل.

وكان أبو العباس المذكور يقول أيضا :إنا نسمع عن أهل الطريق أنهم يكاشفون عن الخواطر والغيوب حتى وقع لنا ذلك مع الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ، قال : فإني كنت بعد ارتحاله بالزاوية بنحو ثلاثة أيام، أنا وصاحب لي، نتحدث حذو إنسان كان يلازم بعض بيوت المدرسة الموالية للمسجد بأحاديث الشيخ، فسمعنا ذلك الإنسان وهو رجل ضعيف إما من مجاهدة أو من مرض ضعف به لم يرقده، فقال لنا : إن ذلك السيد قال لي أخوكم السيد الشرقي، يعني الأستاذ
177 المتقدم ذكره، اذهب إليه فإنه يمر ببلدتكم أتوات(278) أو قربها، فهو يحملك* إليها،

(277) ولد في الزاوية الدلائية وفيها درس ثم أقرأ أصنافا من العلوم والمعارف. وقد اشتهر بسعة حفظه وإدمانه على القراءة. كانت وفاته سنة 1075هـ/1664م بالدلاء وبها دفن (راجع : س. الحوات، **البدور الضاوية**، ورقة 165/أ؛ م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 84).

(278) اسم لواحة ولإقليم مغربي واسع في الجنوب الشرقي المغربي. كانت قاعدته الأساسية هي «أدرار». لعب دورا في تاريخ المغرب باعتباره قاعدة لحركة تجارية ودينية وعلمية مرتبطة بسجلماسة وفاس وتلمسان، وقاعدة للاتصال بين شمال غرب إفريقيا وجنوبه. اقتطعه الفرنسيون أيام الحماية وألحقوه بالجزائر (انظر: ع. الفشتالي، **مناهل الصفا**، ط. تطوان، ص. 36؛ أ. الزياني، **الترجمة الكبرى**، ط. وزارة الأنباء، ص. 68؛ **تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات في الإيالة السعيدة من القصور**، ط. الملكية؛ **الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية** (معلمة الصحراء)).

فذهبت إليه فطلبت ذلك منه، فقال لي ارجع إلى مكانك وانتظر ليلة المولد، فإنك تموت فيها أو تأتي إلى بلدك برجلك صحيحا، قال : وكان هذا الإخبار من ذلك الرجل وليلة المولد لم يبق بيننا وبينها إلا أربعة أيام، فعجبنا من إخباره، ثم رحمه صاحبي فأعطاه دريهمات يستعين بها على شأنه، فأخذ ذلك الرجل الضعيف تلك الدريهمات وذهب إلى السوق واشترى ما يصلح به. قال : وجعلنا ننتظر أمره كيف يكون ليلة المولد، فلما حضرت ليلة المولد وقفت حذو بيته فأمرت إنسانا ينظر ما صنع، فذهب إليه واختبره فوجده قد مات، فهذه مكاشفة بديهية.

178 قال : ودخلت عليه أيام قيامه بالزاوية عند غروب الشمس للّيلة التي ينتظر* فيها استهلال الشهر، وكان ذلك الشهر شهر ربيع النبوي، فقال لصاحبه الفقيه يحيى الهشتوكي وقد تقدم ذكره : يا ولدي اطلع للسطح لتنظر هل استهل الشهر أولا، قال : فقلت في نفسي أولا، أنا أطلع لأخدم هذا المولى بالطلوع لانتظار الشهر ! قال : فبنفس ما قلت ذلك ــ وأنا إذ ذاك صاحب لهو وفتوة وشرف ــ في نفسي، خطر لي خاطر آخر خسيس، وهو إني إذا طلعت إلى السطح ربما يحصل معنى آخر، وهو أن يطلع علي من بنات الجيران من ألهو بها، فذهبت لأقوم بذلك الخاطر الثاني، فإذا الشيخ بحذائي قد صاح بي وضرب بيده على ركبتي وأقعدني وهو يقول : أقعد ؟ فإن ذلك قبيح، قال : فبهت من قوله وقعدت.

179 قال : ووقع لي معه كلام غير* ما مرة استشكله فإذا سألته أجابني سريعا، فمن ذلك أنه كان يحدثنا يوما فقال : من كان في مقامنا هذا يحتاج إلى سياسة الملوك وتدبير الرعية ودين الأنبياء، قال : فقلت له يا سيدي : أما سياسة الملوك وتدبير الرعية فربما يفهم لهما معنى، وأما كون الإنسان بدين الأنبياء فما معناه ؟ فإن أحدا لا يبلغ مقام الأنبياء، قال : فقال لي بديهة : ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة**﴾(279). قلت : يحتمل أن يكون عطف تدبير الرعية على سياسة الملوك عطف تفسير، فإن سياسة الملك لرعيته هو تدبيره لها، ورعية(280) الولي خلق الله تعالى جميعا : «فإن الخلق عيال الله وأحب الخلق إليه أنفعهم لعياله»(281). وليست تلك

(279) اقتباس من الآية الكريمة ﴿**لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر**﴾، (**سورة الممتحنة، الآية 6**).

(280) ك : ورعاية.

(281) أخرجه الطبري وغيره.

180 الأنفعية إلا لمولى، وتدبير الولي للخلق قيامه* ما استطاع بحقوقهم والسعي لهم في مصالحهم الأقرب فالأقرب، ويحتمل أن يريد بتدبير الرعية تدبيرهم لأنفسهم ما يصلحهم مع مليكهم، فيكون إشارة إلى التأدب مع الحق ما استطاع في جميع الأمور.

ويراد بسياسة الملوك القيام بحقوق الخلق، فيكون من عطف المباين، وعلى كل حال فالمراد بدين الأنبياء الإقتداء بهم في رسوخ اليقين وفي التوكل على الله تعالى والتفويض له في جميع أمور الدنيا والدين، وإن كانت حقيقة الولي في ذلك لا تبلغ حقيقة النبي، وهذا لابد لكل ولي منه، والأوَّلاَنِ بيناء على أنهما شيء واحد، يختصان بمن دفع لمباشرة الخلق.

هذا الذي يبدو والله أعلم بمراد الشيخ بذلك. فقال : وما وقع وأجيب عنه
181 سريعا، لكن المجيب بعض أصحابه وهو الشيخ يحيى الهشتوكي* المتقدم ذكره، أن أخي دخل على الشيخ وهو إذ ذاك، أمير القوم وسلطان الغرب، فقال له يا سيدي ! الرعد قد سمعناه، وأحببنا سقي المطر، فأجابه الشيخ يحيى المذكور سريعا بأن قال : إنك تحت السقف، ومن كان تحت السقف لا يصيبه المطر، فإذا أردت أن يصيبك المطر فاخرج بنفسك إلى مقابلة السماء قال : فسكت السلطان ولم يجد جوابا.

قلت : وما قاله الشيخ يحيى لا غبار عليه، فإن سر الصالحين لا يناله غالبا إلا من لا يعترض عليهم، ويكون قصده في ملاقاتهم التقرب بهم إلى الله تعالى مع قصد التوبة، وهذه العوارض في منع المدد القلبي أشد من السقف في منع المطر
182 السماوي، ولله در الشيخ يحيى في جوابه وما* فيه من الإستعارة، ولكن لا يستغرب منه وقد رباه القطب ابن عبد الله، وطيب الفرع من طيب الأصل.

قال أبو العباس المذكور : وقد خاطبني الشيخ في أمر التوبة بمعنى لم يزل منذ سنين منقوشا في قلبي، وذلك أنه قال لي : لا يقول الإنسان لنفسه تعالى نتوب إلى الله تعالى أبدا، فإن النفس قد يثقل عليها ذلك، ولكن يقول لها نتوب أياما، فإذا مضت تلك الأيام، فإن أحس من نفسه بإرادة الرجوع إلى مألفها ولهوها، فليقل لها لا سبيل إلى ذلك، فقد ظهرت في باب الله تعالى، فإن من ظهر في شيء فالعار عليه تركه.

قلت : ولعل هذا الخطاب هو الذي يناسب حال المخاطب، ولا ينافي ذلك
183 صلاحه لكل من احتاج إلى التحيل في إلقاء* النفس في سبيل التقوى، فإنهم ذكروا أنه يتلطف معها ولو بقصدها ذلك رياء، فإن التوبة لا تخلو من نور، فربما غلب ذلك النور عليها فلا يبقى معها فتور ولا رياء، وفقنا الله تعالى لما يحبه ويرضاه. آمين[282].

[محمد بن مسعود المراكشي]

ومنهم الفقيه النجيب، أبو عبد الله الشيخ محمد بن مسعود المراكشي[283] كان – رحمه الله تعالى – من له العناية بتحصيل «**خليل**» وتحصيل «**الألفية**»[284] وتحصيل غيرهما. وكان له إدراك حسن في «**خليل**»، وله تقاييد كثيرة عليه. ولما حصله، اشتغل بتدريسه مع «**الألفية**» وبما تيسر من غيرهما. وهو، مع ذلك، مصاحب لبعض أبناء الملوك، يأكل مما يأكلون ويلبس مما لهم، حتى لقي الشيخ فضربه ضربة اعتراه منها حال اقتضى له تمزيق ما عليه لأنها شبهة. وقد تقدم التنبيه على هذا.

184 ولما* أخذ عن الشيخ – رضي الله تعالى عنه –، انقطع عن مصاحبة أبناء الملوك، وظهرت له أحوال صالحة جميلة حملته على الخروج من الزاوية التي صاحب فيها أبناء الملوك، وكتب لمن يرى أن له عليه حقا يستحله من ذلك، فجعله المكتوب إليه في حل.

ثم انقطع بجوار القدوة العارف أبي الحسن الشيخ علي بن عبد الرحمن[285]، وسيأتي – إن شاء الله تعالى – ذكره من جملة من لقيت، إذ الشيخ – رضي الله

---

(282) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : إذاً. والسياق يقتضي أن تكون كما أثبتناه.

(283) توفي بالطاعون عام 1090هـ/1679م، ترجم له ع. ابن إبراهيم، **الإعلام**، ج 6، ص. 46 ولم يزد على ما جاء في **مباحث الأنوار** هذا، فهو مصدره (راجع : م. حجي، **الزاوية الدلائية**، صص. 125–126).

(284) تسمى **الألفية** أو **الخلاصة**، وهو تصنيف مشهور في النحو لصاحبه محمد بن مالك الطائي الأندلسي. دخلت **الألفية** إلى المغرب أوائل المائة الثامنة وأقبل عليها طلاب العلم وأصبحت من الكتب التعليمية المختارة عند المغاربة، تعددت شروحها وحواشيها منها : **شرح ألفية ابن مالك**، للإمام ابن غازي؛ **وحاشية على شرح المرادي للألفية**، لعبد الواحد الحسني (انظر: ع. كحالة، **معجم المطبوعات**، ج 1، ص. 232).

(285) ترد ترجمته في **مباحث الأنوار** هذا (انظر هامش رقم 438).

تعالى عنه ـ غائبا بالمشرق، فاختار جوار ذلك العارف، وهو من كبراء المعاصرين للشيخ. وأخبرني أنه لما وصل إليه، قال له : ما ترى في بنت غني من أغنياء الدنيا إذا
185 زارت غنيا آخر كيف تكون مداراته لها ؟ والله إني لأنظر إليك* نظرة في حق قدومك إلينا لله تعالى وأنت فقيه، وأنظر إليك نظرة أخرى لحق شيخك. ولم يزل عنده محببا مكرما يدرس العلم مقدما للإمامة بمسجده، تظهر عليه أحوال المحبة، وربما غلب عليه حال فينطق بأمور من الغيب. وأخبرني عن نفسه أنه كانت ترد على قلبه ملابس من لطائف الإيمان جديدة تبعد عن المعاصي وتوجب ملازمة ذكر الله تعالى. ثم إنه يوما خطر بباله رجحان ما للشيخ ابن عبد الرحمن على شيخه الأول ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال : وبنفس ما خطر ذلك لي من غير إتقان رسوخه في القلب، سلب جميع ما في قلبه من المحاسن الإيمانية، ولم يبق له شيء إلا مجرد الإسلام كما كان على عادته
186 الأولى، حتى إنه لم* يمنعه من الوقوع في الكبائر مثل الزنا إلا عدم الوجدان، وجعل يكرر التردد إلى الشيخ ابن عبد الرحمن ليمده بشيء، وظن أنه من قبله يمد، ولم ينفعه ذلك التردد.

وأطلع الشيخ ابن عبد الرحمن على حاله، فقال لأصحابه : الفقيه السيد محمد بن مسعود قد أظلم قلبه في هذه الساعة، ولا أدري ما أصابه، قال : فبينما أنا هائم في أودية ذلك الضلال، نبهت للسبب، وأنه هو خطور ذلك الترجيح، فتبت إلى الله تعالى وعرفت شيئا من مقدار قوة الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ، فعاد قلبي للخير الذي كان فيه أو أعظم، فجعلت أقول بين يدي الشيخ ابن عبد الرحمن : لو لقيت
187 ألف قطب، ما التفت إلا إلى سيدي ومولاي محمد بن عبد الله* السوسي. فمن يومئذ يتحافظ ـ ما استطاع ـ على تحصين تعظيمه في القلب، وبقي على حاله في جوار الشيخ ابن عبد الرحمن زمانا طويلا وهو غير ناو فراقه. وكان يقول لي : لما صاحبت بعض أبناء الملوك، كنت كثيرا أقول : اللهم أبدل لي صحبته بصحبة ولي من أوليائك، ففتح الله تعالى علي في صحبة هذا الرجل وجواره. ثم إنه وقعت فتنة من بعض ملوك الوقت[286]، ففرقت بينه وبين ذلك الشيخ العارف، فارتحل إلى

(286) سيأتي التعليق عليها عند ترجمة علي بن عبد الرحمن الدرعي في **مباحث الأنوار** هذا (انظر هامش 471).

«تنغملت»[287] بقرب مراكش، ولم يزل فيها على ديانته مشتغلا بما تيسر من الحديث والعلم إلى أن توفي بها شهيدا بالطاعون ـ رحمة الله تعالى عليه.

[محمد بن محمد بن محمد بن يعقوب الولالي]

188 ومنهم أخونا أبو عبد الله* محمد بن محمد بن بن يعقوب[288]. كان له إدراك حسن وفهم قوي، وقرأ «**ألفية**» ابن مالك حتى فهمها بـ«**ـالمكودي**»[289]، واشتغل بمطالعة «**المرادي**»[290]. ثم إنه لقي الشيخ بقريتنا بملوية التي تسمى **تطنتسلت**[291] كما تقدم ذكره في رحلة الشيخ إلى جهة المشرق. ولما لقيه، صلح حاله وجد في الدين جده؛ وأخبرني أنه لما لقيه، حدثت له نفرة عظيمة للشهوات المحرمة ورغبة رفيعة في إقامة الفرائض ببركة الشيخ بلا مجاهدة، حتى إنه ربما رأى في المنام أنه فاته فرض، فيتأسف[292] على ذلك في المنام تأسفا عظيما : «لأن الإنسان تجري عليه أحوال
189 المنام كجريان أحوال اليقظة، كما أنه يموت على ما عاش* عليه ويبعث على ما مات عليه»[293].

---

(287) «تنغملت» أو «تناغملت» : زاوية بقبيلة هنتيفة على مقربة من شلال أوزوض غرب مركز أزيلال. يرجع تاريخ تأسيسها إلى القرن العاشر الهجري، على يد موسى بن يعقوب البوكماري تلميذ عبد الله بن حسين الرقي (راجع : م. الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص. 16؛ ع. الزيادي، **دوحة البستان في مناقب علي بن عبد الرحمن**، مخطوط خ ع رقم 390د، ص. 58؛ اليفراني، **صفوة من انتشر**، صص. 201–202؛ الحضيكي، **طبقات**، ط 1، ص. 130).

(288) لم أقف على ترجمة له.

(289) هو عبد الرحمن بن صالح المكودي المتوفى عام 807هـ/1405م، وبيت بني المكودي بفاس التي بها اشتهروا بالعلم والكتابة والثروة. اعتنى المغاربة بشرحه على «**الألفية**» المعروف بـ«**ـالمكودي**»، كما له شرح على «**الأجرومية**» ونظم في حوالي 400 بيتا في علم التصريف سماه «**البسط والتعريف في علم التصريف**»، وله أيضا كتاب في اللغة اسمه «**المقصورة**» ومنظومة في مدح النبي تتكون من 294 بيتا وقد تعددت شروحها (انظر : أ. بابا، **نيل**، ورقة 7/أ؛ الكتاني، **سلوة**، ج 2، ص. 158؛ كحالة، **معجم المطبوعات**، ج 2، ص. 1787).

(290) هو بدر الدين أبو محمد حسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي المصري، اشتهر في النحو واللغة وكان مالكي المذهب.وكتابه هو **الجنى الداني في حروف المعاني** (انظر : كحالة، **معجم المطبوعات**، ج 2، ص. 1724، مادة : «**المرادي**»).

(291) انظر الهامش رقم 185.

(292) كـ : فتأسف.

(293) أخرجه مسلم في «كتاب الجنة».

وكانت له أخلاق جميلة في الكرم والحياء، ولم يزل منذ لقي الشيخ مثابرا على دينه، ملازما لتلاوة القرآن متمسكنا متقشفا مقصرا عن الرفاهية. ولم تزل بركة الشيخ تترادف عليه وعلى ذريته إلى الآن، أدام الله تعالى عليه توفيقه وسدده وأولاه[294] لكل خير ديني ودنيوي. آمين.

[أبو محمد عبد الحليم]

ومنهم النية الوجيه، أبو محمد عبد الحليم[295]، من نسل الشيخ أبي القاسم
الملقب الزعري[296] أبي الصالح المشهور الشيخ محمد الشرقي[297]. لقيه بتادلا وأخذ
عنه، وله منه انتفاع جميل في دينه وبركة في دنياه، وهو الذي تقدم أنه أصابته الثآليل
190 الكثيرة* في يده فشكاها للشيخ وطلب منه أن يمسح عليها بيده، فقال له الشيخ :
اِمسحها أنت بيدك! فمسحها، فسقطت كأن لم تكن عن آخرها. وبقيت بركة
شفائها بيده إلى الآن من بركة الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ، فلا يمسح بيده محل
إصابتها إلا عوفي.

[محمد الساحلي]

ومنهم الوجيه الأرضى، والمتواضع المرتضى، محمد الساحلي[298] من ذرية الصالح المشهور أبي عبد الله الشيخ محمد الشرقي المذكور، دفين تادلا بموضع يسمى أبا

---

(294) ق، ک : وأولاه.

(295) لم نقف على ترجمة له.

(296) هو أبو القاسم الجابري الرتمي الملقب بالزعري، عرف بالزهد والإنزواء عن الدنيا. أخذ عن الشيخ التباع. توفي عام 940هـ/ 1533م (راجع : ع. العروسي، **المرقي في بعض مناقب القطب سيدي محمد الشرقي**، مخطوط خ ع رقم 1911، ص. 60؛ م. الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص. 52؛ و**تحفة أهل الصديقية**، ص. 28).

(297) هو أبو عبيد الله محمد الشرقي بن أبي القاسم الزعري. من كبار شيوخ التصوف ومؤسس الزاوية الشرقاوية بأبي الجعد. أخذ الطريقة عن أبيه عن الشيخ التباع، كما أخذ عن أبي مبارك الزعري وأبي محمد بن ساسي. كانت له مع أبي المحاسن الفاسي مراسلات ومواصلات. ألفت كتب عديدة في طريقته ومناقبه وأسرته، أهمها : «**المرقي في بعض مناقب القطب سيدي محمد الشرقي**»، و«**الروض اليانع الفائح في مناقب أبي عبد الله بن صالح**»، لأبي الحسن بن رحال المعداني. توفي عام 1010هـ/ 1466م (راجع : م. الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص. 123؛ م. الإفراني، **صفوة**، ص. 25.؛ م. القادري، **نشر**، ج 1، ص. 80).

(298) لم يزد العباس بن إبراهيم في **الإعلام** على ما قاله أحمد الولالي في **مباحث الأنوار** هذا، فهو مصدره.

الجعد(299). كان ــ رحمه الله تعالى ــ من شجعان العرب ومن فرسان تادلا. فلما أراد
الله تعالى به لطفا، ذهب إلى مراكش زمن ظهور الشيخ به، فسمع بخبره، فذهب
إليه بقصد الزيارة. فلما عزم على الدخول عليه، اعترته هيبة عظيمة، فكان* يقول إنه 191
لحقه حينئذ من الرعب ما هو أعظم من رعب دخوله على عشرة من الأسود في محل
واحد

فلما لقي الشيخ، قلب الله تعالى أحواله؛ وبدل ما كان به من عمل الإسراف حسنا، قال مخبرا عن نفسه : إن الشيخ أخذ حزامه فشده أو أمره بشده من وسطه، ثم قال له : شددنا عليك ــ إن شاء الله تعالى ــ حزام التقوى. قال : وأحسست من نفسي بتبدل الأحوال في الحين، وصرت بمعزل عما أنا فيه من الإسراف على نفسي، فجعلت أقضي من الفوائت خمسة عشر يوما كل يوم.

ولما رجع إلى منزله بتادلا، انعزل عن الأقْران والأعوان، والخيول والرفاهية،
وجعل لا يركب إلا الحمار على إلحاف، ولا يلبس إلا الخشين، وكثر دمعه وندمه على
ما فات، وتعجب من حاله كل من عرفه، ولم يزل* في تلك الحال إلى أن مر الشيخ 192
بتادلا حين توجه للمشرق، فأتى إليه متعرضا له بأولاده صغار فزاره، فازداد به قوة، ثم
رجع لمحله.

ثم إنه وقعت له نازلة بعد غيبة الشيخ في أثناء إقامته بالحرمين الشريفين، وهو
أن بعض أقاربه عدا عليه. والذي غاب عن ظني أن سبب العداء حسده له من إقبال
الناس عليه وثنائهم عليه لمسكنته. فلما عدا عليه، زارته أريحية شجاعته القديمة،
فدافعه دفعا قتله به، ثم ندم على عدم الصبر. وبعد ذلك ترصد له إخوة المقتول غرة.
فلما تمكنوا منه، ضربوه حتى تركوه بسبيل الموت. فحمل لداره. فلما اشتدت عليه
الجراحات، توجه نحو الشيخ واستمد منه الإغاثة في الفرج مما هو به من الشدة.
قال : ولما فرغت* من التوسل إليه، اعترتني سِنة، وهي مما طلبت : إذ كنت أياما 193
وليالي لا أنام من الشدة، فرأيت في تلك(300) السنة الشيخ أتاني في الجو، فجعلت

(299) كانت تسمى أيضا «جعيدان»، وهي بلدة من بلدات تادلا، ارتبط نموها وتوسعها بالزاوية الشرقاوية التي أقامها الشيخ محمد الشرقي. أما أصل الكلمة، فهو من «جعدة» وهي نبات ينبت على ضفاف الأنهار (انظر: م. الفاسي، **ممتع**، صص. 125–126؛ م. العبدوني، **يتيمة العقود**، مخطوط خ ع، رقم 293د، ترجمة محمد الشرقي في الباب الثالث).

(300) ق، ك : ذلك.

جماعات من الأرواح تتعرض له في الجو نازلة من السماء، وتلك الأرواح صورت لي كالقطع الصافية من اللُّجين[301]. فلم يقف جماعة من تلك الأرواح حتى وصل إلي، فأخذني في ذراعيه كالصبي، فحركني بين يديه، ثم قال لي : يا ولدي ! إنك تراني وما تعرض لي، ولم أقف لأحد حتى وصلت إليك، والله تعالى يأخذ حقك منهم، يعني العادين عليه، وعسى أن يكون هذا كفارة لما أصبت، ولك سبعة أيام جراحا، وسبعة أيام أطراحا، وسبعة أيام أفراحا. قال : فأفقت، وكان الأمر كما قال الشيخ :
194 انفتحت الجراحات سبعة أيام تسيل دما وقيحا*، ثم انطرحت عظامي وأحسست بالراحة سبعة أيام أخرى، ثم خرجت في ابتداء سبعة أخرى. ففرح أهلي بسلامتي.

وهذا الكلام الذي وعده به الشيخ في هذه الواقعة في المنام صرح به للناس بنفس إفاقته، وسمعه منه الخاصة والعامة قبل وقوع مصداقه، وانتشر بتادلا وظهر مصداقه. ولم يزل الفقير الساحلي المذكور، متمسكنا متقشفا مقبلا على شأنه مع شدة رفاهية جنسه : أولاد الشيخ الشرقي، مستمرا على ذلك إلى أن قربت وفاته ارتحل بأهله إلى المشرق، ولقصد الحج. فلما فرغ من المناسك مع أهله، أقبل فأدركته الوفاة في موطن الحج. رحمة الله تعالى عليه.

[محمد بن عبد الرحمن]

195 ومنهم الشاب الأرضى*، والصالح المرتضى، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن[302]، وهو من أقاربنا. وهذا الشاب الأرضى لقي الشيخ ولم يطلب منه الصحبة، ولا أخذ عنه الورد. ولكن بعد أن غاب الشيخ، ظهرت له آثار المدد في أصحابه فأحبه وأحب أصحابه. فهو ممن دخل في قول الشيخ كما تقدم فيما كتب به من جهة المشرق : واعلموا أن هنالكم من هو [مِنْ][303] أصحابنا غيركم، ولا يخفون عليكم مما في قلوبهم من المحبة. ولما عظمت في قلبه محبة الشيخ وأصحابه، وجد لها بركة عظيمة. وقد كان ذا لهو من صغره وامتناع من أبيه، فتاب إلى الله تعالى ورمى كل لهو عنه وأقبل على العلم والعبادة ببركة محبة الشيخ واعتقاده الإستناد إليه، فتعلم

(301) رسمها غير واضح في النسخ المعتمدة ونرجِّح أنها اللُّجين.

(302) لعله محمد الصنهاجي الذي ذكر صاحب **سلوة الأنفاس** أنه كان من تلامذة محمد بن عبد الله السوسي (انظر : م. الكتاني، **سلوة**، ج 2، ص. 179؛ ع. ابن إبراهيم، **الإعلام**، ج 5، ص. 302).

(303) سقط من ق.

196 عقائده* وديانته(304) وقضى ما عليه من الفوائت وهو صغير، إنما له بعد البلوغ نحو
ثلاث سنين؛ وظهر بأخلاق زكية حتى إنه كان يسقي في المدرسة ماء لأصحابه،
وله مندوحة عنه، ولم يكن قبل ذلك يرتضي سقيه.

وسرى به خلق الحلم والصبر حتى إنه ربما سلط عليه من يؤذيه ولا يجاوبه
أصلا، بل يعرض عنه من فراغ قلبه من لهو الدنيا والميل إلى أمورها، وكان قبل ذلك
عزيز النفس لا يصبر لأحد.

وكان يتخشع إذا سمع الموعظة ويظهر على وجهه أثر الخضوع، ولم يزل على
تلك الحال من الجد والاِشتغال بأمور الآخرة معرضا عن كل لهو نحوا من العام، وكان
197 يكثر الصلاة على النبي ﷺ*، ثم حضرت وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ، فمرض المرض
الذي توفي فيه. ثم إنه في ذلك المرض دخلت عليه امرأة لتعوده وهي من أخوال
أمه(305) وكانت تراه قبل أن يتوب، فلم يملك نفسه في تلك الشدة أن بادر لتغطية
وجهه، فبقيت حتى أيست من رؤيته خرجت.

وذلك دأبه أيام توبته يعرض عن نظر المحرمات، وعن التكلم بما لا يعني. فلما
اشتد عليه المرض، دخل عليه أبوه وكان رجلا صالحا من الصابرين. فبينما هو عند
رأسه مع أناس إذ غشي عليه، فظنوا أنه الموت، فبقي من حضر معه ساعة ثم جعل
أحدهم يحك أسفل رجليه فأفاق، فقال له أبوه مع من حضر : ما هذه الغيبة ؟ فقال
198 لهم : أمهلوني* حتى أستريح، فأقص عليكم الواقع. فسكت هنيئة، ثم قال لهم : إنه
جاءتني الملائكة بشيء من أمور الجنة طيب الرائحة، فقالوا لي : إن الله تعالى يقرئك
السلام ويأمرك أن تشم هذا، فشممت ما بأيديهم، فخرجت فيه نفسي، فذهبوا بي
إلى أن بلغت نهرا من أنهار الجنة، فاغتسلت فيه، ثم طلعت في درج الجنة، ثم أروني
النار، وأروني فيها نساء، فقالوا لي : إن هؤلاء النساء المعذبات بينك وبينهن نسب،
قال : فتضرعت إلى ربي أن يشفعني فيهن بقدرته وإرادته، فتقبل شفاعتي وأكرمني
بإخراجهن، ثم طلعت في درج الجنة إلى أن وصلت إلى النبي ﷺ، وأظن أنه في
199 الفردوس الأعلى، فجلست حذوه، ثم قيل لي* : لا تخش، فإنه لا يخشى من اسمه
محمد.

---

(304) ق : ودياناته.

(305) ق، كـ : أبيه.

فاختلف علي الرواة فيمن أخبر أنه قال له هذا القول. فمنهم من قال : إن الله تعالى هو الذي أخبر أنه قال له، ومنهم من قال إنما أخبر أن النبي ـ ﷺ ـ هو الذي قال له ذلك القول. قال : وفي أثناء مشيي في الجنة، لقيت فيها أمي وأباها، وكان أبو أمه أبي أنا، ولقيت فيها أخي عبد الجبار، ولقيت فيها أحمد بن علي. قال : ولما قعدت عند النبي ﷺ، هممت أن أسأله عن شيء وهو ما يفعل الله تعالى بقبيلتي ؟ ثم أفاقني منكم من كان يحك رجلي، وأنا الآن راغب في الموت، فلم يلبث ـ إلا قليلا ـ أن توفي رحمه الله تعالى ونفعنا بمحبته. وعبد الجبار أخوه، الذي
200 ذكر أنه* لقيه في الجنة، مات مقتولا شهيدا : قتله المحاربون مع أحمد بن علي الذي ذكر أيضا، وهو مولى من الموالي المستندين لقرابته.

فلنقتصر على هذا القدر من أصحاب الشيخ المبارك ـ بحمد الله ـ، رضوان الله تعالى عليه. فإن استقصاء من هو بالمغرب منهم متعذر، فضلا عمن بالمشرق. والجهل بأسمائهم وتتبعهم بالسؤال عن أحوالهم يحوج إلى ديوان مستقل، وما ذكر مقتضى هذا المختصر. وإنما ذكرتهم لإظهار كرامته فيهم على وجه يحصل به ما يشبه تحقق(306) التواتر في وجود كرامته، رضي الله تعالى عنه ونفعنا به. وبالجملة، فإن كرامة هذا الشيخ أعظم من أن تخفى، ولا تلقى واحدا ممن صاحبه إلا أغناك في كرامته بوقائعه. وقد وقعت لي أنا معه وقائع أردت أن أذكر واحدة منها : وذلك أن
201 قبيلة بني ولال*(307)، وهم قومنا الذين نشأ أجدادنا منهم، وأصلهم من بني

---

(306) ق، س : يحقق شبه.

(307) كانت أيت ولال «أعالي ملوية» التي أصلها من أيت عطا، في القرن 17م، ضمن اتحادية أيت إدراسن التي كانت تتكون من القبائل التالية : أيت سادن وأيت وفلا وأيت يمور وأيت مجاط وأيت عياش وإملوان وأيت نضير وأيت ولال، وربما أيت يوسي وأيت سغروشن. كانت مواطن هذه القبائل في هذا القرن نفسه توجد في الأطلس المتوسط، فيما بين منابع أم الربيع والحوض الأعلى لوادي كَيكَو وفيما بين منخفض تكرارا وحوض ملوية العليا. ويظهر من تتبعنا لأخبار أيت إدراسن، أن أيت ولال لم تكن من القبائل المشكلة لهذا الحلف قديما. فمن خلال بعض المصادر، يظهر أن هذا الحلف كان مقتصرا في بداية تشكله في عروض الصحراء المغربية على بعض القبائل الصنهاجية، ثم صار اسما جامعا لقبائل كثيرة انتشرت حوالي (1012م/ 1013م) في أعالي غريس (راجع : البيدق، **المقتبس من كتاب الأنساب**، ص. 55؛ **وأخبار المهدي**، ص. 51) قبل أن تدخل الأطلس المتوسط. فمن هنا نكون أمام صعوبة تحديد تاريخ دخول أيت ولال أعالي ملوية، وكذلك تاريخ انضمامها إلى أيت إدراسن. فالمصادر التاريخية تحدثت لأول مرة عن أيت ولال «الجبلية» في عهد المولى رشيد، وجعلتهم في ناحية مكناس. هذا، في حين يستفاد من إشارات **مباحث الأنوار** هذا أن هذه القبيلة كانت في حدود **1069هـ** لا تزال في أعالي ملوية. ولذلك يرجّح أن نزوح العناصر الولالية إلى أعالي ملوية كان قبل =

عطا(308) قبيلة كبيرة معروفة بأقصى جبال ملوية، وفيهم أخوة قبيلتنا يسمون لديهم بني ولال أيضا، وبنو عطا أصلهم من العرب كما تقرر ذلك في شجرة أنساب القبائل الموجودة بأيدي الفقراء أهل الصومعة، بل أخبرني بعضهم أن بني عطا أصلهم من أخص العرب وهم قريش. وكل ذلك لا بعد فيه لتبدل أحوال القبائل العربية وتنقلها من أرض إلى أرض، ومن رفع إلى خفض. فتبدل الألسن بتبدل البلد(309)، وقعت فيهم

= القرن 16م، ومن المؤكد أيضا أنهم توقفوا هناك مدة طويلة قبل أن يستأنفوا هجرتهم من جديد نحو سهل سايس. إلا أن تاريخ استئناف هذه الهجرة وكيفيتها استعصى علينا تحديده. فهل كانت هجرتها جماعية أو جزئية؟ وكيفما كان الأمر، فهم يشكلون الآن فرقة من بني مطير تسمى أيت ولال نبطيط بين فاس ومكناس، كما تنسب إليهم قرية «أيت ولال» على سفح جبل إيموزار كندر عند بداية سهل سايس، وعند أيت يوسي وأيت علوان وأيت بوزيد وأيت إسحاق (راجع : أ. الزياني، **البستان**، ص. 24؛ م. القادري، **التقاط الدرر**، ض. 172؛ التقي العلوي، «أصول المغاربة»، مجلة **البحث العلمي**، عدد 24؛ ع. كيننح، **آثار التدخل الأجنبي على علاقات المخزن بقبيلة بني مطير**، رسالة جامعية، كلية الآداب بالرباط، 1985؛ De la Chapelle, «Un document...», Arch. Mar., vol. 28, note 1, p. 28 ; G. Spillman, Les Ait Atta du Sahara..., p. 36).

(308) هو الإسم الذي تحمله إحدى الإتحاديات التي تجمع عدة قبائل صنهاجية في الجنوب الشرقي المغربي، ويبدو أنه قد ظهر لأول مرة في نهاية القرن السادس عشر الميلادي. كان تكوين هذه الإتحادية في بداية الأمر من القبائل البربرية التي تسكن جبل صغرو، ثم أخذت تتوسع نحو الشمال والشرق، كما لا يبعد أن تكون فيهم بعض العناصر العربية المنحدرة من أصل معقلي. ويظهر أن الدافع إلى تشكيلها كان هو الظروف العامة التي عرفتها البلاد أواخر الدولة المرينية وبداية الدولة السعدية، والمتمثلة في ضعف السلطة المركزية، وركود التجارة الصحراوية، والغزو الأجنبي للشواطئ المغربية، ثم ضغط بني معقل. كما أن هذا التكوين كان تحت رعاية مؤسس زاوية تامصلوحت الشيخ عبد الله بن احساين الأمغاري، وبقيادة الزعيم دادّ عطا جَدِّ الإتحادية. يتركب الإتحاد العطاوي من خمسة أخماس، والخمس يشتمل على قبيلة واحدة في بعض الأحيان، والقبيلة عندهم تشتمل على عدة بطون، والبطن يشتمل على عدة أفخاذ أو «إغص». وهذه الأخماس هي : 1 ــ أيت ولال وأيت ونير؛ 2 ــ أيت واحليم؛ 3 ــ أيت سفول وأيت علوان؛ 4 ــ أيت يعزا وأيت خلفات وأيت الفرسي؛ 5 ــ أيت أنبكّي. وكانت مواقع هذه الإتحادية على وجه التقريب بين مرتفعات الأطلس شمالا، وحوض درعة غربا، وواحات تافيلالت شرقا، وتنفتح على الصحراء جنوبا. إلا أن أغلبية هذه المجموعات ألقت، وفي عصور مختلفة، بعناصرها نحو السفوح الشمالية للأطلس. وأهم هذه العناصر هي أيت عطا أومالو (راجع : ت. العلوي، «أصول المغاربة»، مجلة **البحث العلمي**، عدد 23؛ De la Chapelle, **Un document**..., p. 19 ; G. Spillman, **Les Ait Atta du Sahara**..., Rabat, 1936; L. Mezzine, **Contribution**..., p. 471, 725-730).

(309) يطرح هذا قضية النسب الذي كان له شفوف وسمو في نظر المجتمع المغربي، والذي كان فيه للعرب عامة والمغاربة خاصة، المكانة المرموقة حيث كثرت مؤلفاتهم فيه. وقد بدأ الإهتمام بالأنساب في المغرب منذ العهد المريني حيث دونت عدة كتب في الموضوع، كان منها من تناول أنساب البربر عامة ومنها من اقتصر على بعض البيوتات والأسر. إلا أن ادعاء أحمد الولالي النسب العربي لقبيلته يظهر أنه بعيد عن الصواب، وربما عكس ظاهرة قديمة عرفها المغرب واقترن انتشارها بما صار للأشراف عامة من ترقية =

مقتلة عظيمة في حرب وقع بين ملوك الوقت. وهم مع قبائل آخرين. ولم يقع في تلك القبائل ما وقع في تلك القبيلة، بل خصوا بكثرة القتل من غير أن يقصدهم
202 بالخصوص مقاتلهم، بل قصده في الغالب إنما هو في إفناء* غيرهم. فاتفق أن قتل منهم نحو أربعمائة وخمسين مقاتلا.

ولما وقعت فيهم تلك المقتلة(310)، تفكرت يوما في ذنبهم الذي منه خصوا بتلك المصيبة. إذ علمت أنها ليست إلا عن ذنب، فقيل لي في عالم النوم : إن سبب إراقة تلك الدماء منهم أنهم أراقوا دم واحد من أهل البيت، فذهبت الشكاية منه إلى السيدة فاطمة رضوان الله تعالى عليها، ثم منها إلى رسول الله ﷺ، ثم منه إلى جبريل عليه السلام، ثم إلى رب العزة. فحكم الله [عليهم](311) بأنه يسلط الله عليهم من يقتل منهم ذلك العدد، ثم ذهبت الشفاعة من الشيخ ابن عبد الله شيخنا
203 المذكور، إلى السيدة فاطمة رضوان الله تعالى عليها، ثم إلى رسول الله ﷺ*، ثم إلى جبريل عليه السلام، ثم إلى رب العزة. فلطف الله تعالى بهم. وكان من اللطف الذي وقع لهم أنه لم يخل بيت منهم إلا واحداً، بل ما قتل رجل إلا وبقي من يخلفه ويعمر بأثره في بيته. ومن اللطف أيضا أن زاد عندهم في عام المقتلة أربعمائة وخمسون صبيا ذكرا، وطال عيش الصغار حتى كثروا(312)، والشيخ رضي الله تعالى عنه ليس بينه

= اجتماعية. فالأصول الكبرى للقبائل البربرية التي أجمع عليها المؤرخون والنسابون المشهورون، كابن خلدون مثلا، لا تشير إلى عروبة قبيلة أيت ولال، وكل ما هو معروف أن كثيرا من الإتحاديات والقبائل والعشائر البربرية كان يحلو لها أن تتخلص من النسب البربري. ولذلك وجد عندها نسابون خدموا هذا الإتجاه وقالوا بأن أصولهم من حمير أو اليمن أو قريش. كما أن الأمر لم يقتصر على القبائل والأسر التي ادعت النسب العربي، بل انتقل الأمر إلى مستوى الأفراد الذين أصبحوا يدعون الإنتساب إلى آل البيت (راجع : ت. العلوي، «أصول المغاربة»، مجلة **البحث العلمي**، عدد 22؛ م. القبلي، «مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين»، **مجلة كلية الآداب**، عدد 3-4).

(310) لا شك في أن هذه المقتلة التي خصت بها قبيلة بني ولال عن باقي القبائل اليدراسنية الأخرى، حدثت خلال حركة 1094هـ. ففي هذه السنة خرج المولى إسماعيل بعساكره لمواجهة برابرة صنهاجة الأطلس المتوسط الذين انهزموا وفروا إلى جبل العياشي بينما بقيت جيوش السلطان معسكرة في أعالي ملوية حتى دخل فصل الشتاء. وفي هذه الحركة بنى المولى إسماعيل قلعة عين اللوح وأزرو. أما الهزيمة التي تعرضت لها قبيلة أيت ولال على يد المولى الرشيد في حدود سنة 1079هـ/1668م، فلم نرجحها لكون هذه القبيلة، المقصودة بالقتل هنا، كانت في حدود هذا التاريخ لا تزال بأعالي ملوية (راجع : م. الزياني، **البستان**، ص. 35).

(311) سقطت من س.

(312) كذا في جميع النسخ المعتمدة، وفي **الإعلام** (للعباس بن إبراهيم ج 4، ص. 392 وما بعدها، والذي نقل عن **مباحث الأنوار** هذا) جاءت : كبروا.

وبين تلك القبيلة علاقة ظاهرية[313] إلا ما كان لنا معه.

ولما قيل لي ذلك في المنام، جعلت أتعجب كيف أراقوا دم واحد من أهل البيت ولم أسمعه، ثم بعد ذلك بزمان لقيت واحدا من شرفاء سجلماسة[314] يقال له :
204 مولاي حفيد[315]، فكنت أتحدث معه حتى قال لي : إن* بني ولال في العام الذي أغاروا علينا بالموضع الفلاني، وأخذوا منا ما كنت رددت من المتاع، جرحني واحد منهم وأخذ ثيابي حتى النعال، فتوجهت إلى السيدة فاطمة فقلت : يا سيدتي، إن كنت أنا منك، ويا رسول الله إن كنت من جهتك، فالله ينتقم من هؤلاء، قلت : أو جرحوك ؟ قال لي : نعم. وقد كنت أنا لما أغاروا على تلك القافلة التي بها مولاي حفيد المذكور، خرجت لأرد للمساكين أمتعتهم، فوجدت أمتعة الشرفاء عندهم، فرددت منها ما أمكن، وبعثت بها لأهلها، وأنكروا لي أن يكونوا جرحوا أحدا من أهل
205 البيت. فلما أخبرني بما ذكر، عرفت مصداق الرؤيا وجاه* الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ من شفاعته في الأمور العظام، من غير مناداته في ذلك. نفعنا الله تعالى بمحبته، وأمدنا من صفاء مدد نعمته.

هنا انتهى المقصود من المبحث الأول.

(313) كذا في جميع النسخ المعتمدة. ولعل الصواب : ظاهرة. وبهذا اللفظ جاءت في **الإعلام** لابن إبراهيم، ج 4، ص. 390 وما بعدها.

(314) هم الأشراف الحسنيون الذين اشتهروا بالعلويين، قدموا من الحجاز في آخر المائة السابعة، أي في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، وكان أول من دخل منهم المغرب هو جدهم المعروف بالحسن الداخل. وقد تحدث عنهم «**مباحث الأنوار**» هذا بنوع من التفصيل في آخر المتن.

(315) حمل كثير من الشرفاء العلويين اسم حفيد، ويصعب تمييز المعنى هنا؛ ولربما كان هو حفيد بن الشريف علي أخو مولاي محمد ومولاي رشيد (انظر : م. القادري، **نشر المثاني**، ج 1، ص. 317).

المبحث الثاني
في مناقب الوالد وأبيه وأبي أبيه وشيوخهما

[يعقوب بن محمد الولالي]

فلنبدأ بمناقب الجد وأبيه لتترتب عليه مناقب الوالد ـ رحمة الله تعالى على الجميع ـ، فنقول : جد الوالد اسمه يعقوب بن محمد الولالي[316]، ثم من بني الحسن بن عيسى، فخذُ من قبيلة بني ولال[317]، لم يعرف له أستاذ ينتسب إليه في طريق
206 القوم، وإنما كان أمره* من مجرد إيقاظ الله تعالى إياه وإرشاده له بلطفه إلى مراشده. وكثير من الصالحين وقع له مثل ذلك. ولا يمتنع الفتح على غير أستاذ وقتي؛ وكثيرا ما يقع، وكذلك كان أمر يعقوب جد الوالد.

وذلك أنه كان بين أهله في البادية على عادة البوادي [من الغفلة بالدنيا والشغل بها][318] عما ينبغي من أمور الآخرة، إلا أنه كان مسكينا في تصرفه مقبلا على شأن أسبابه، ثم أوقع الله تعالى في قلبه كراهية حال البادية لما فيها من البعد عن أسباب الدين والخير، فنظر أقرب القرى إليه، فارتحل بأولاده إليها قاطعا حبل البادية فرارا بدينه إلى حيث يستقيم.

207 وتلك القرية* في وسط جبل ملوية حيث تتراكم أثلاجها، وتسمى «تسجدلت»[319] بها ناس مساكين، ووادها متعبد أهل الله لانقطاعه عن محل

---

(316) لم نعثر على ترجمة له.

(317) هي أيت ولال «الصحراوية» التي شكلت مع أيت أونير أحد أخماس اتحادية أيت عطا، وإليها انتسبت أيت ولال «أعالي ملوية». انتمى أغلب سكانها إلى برابرة صنهاجة مسوفة الذين منهم انحدرت دولة المرابطين. كانت العناصر الولالية تنتشر في القرن الحادي عشر الهجري على رقعة واسعة ذهبت من فزواطة حتى ناحية واوزغت (راجع : **Spillman, Les Ait Atta du Sahara..., p. 36**).

(318) وردت في كـ هكذا : من الغفلة بالشغل بالدنيا.

(319) تكتب «تسجدلت» أو «تاسكَدلت»، وهي قرية في أعالي ملوية جنوب ميدلت بالقرب من مركز تونفيت، حيث ضريح يحيى بن يوسف في قبيلة أيت يحيى.

جماهير القبائل، وبه قبورهم مزارات معلومة، أولهم الشيخ يحيى بن يوسف(320) وسيأتي ذكره، ولم يزل مزارة لأولياء الله الأحياء، وهو قديم لا يعرف له تاريخ. واقتدى الناس في زيارته بذوي البصائر مع ظهور البركات بزيارته، ثم ذهبت قبورهم مع الوادي واحدا واحدا، وهي كلها معلومة، وتنتهي بقرية أسفل الوادي تسمى «تعدلنت»(321). وقد جربت زيارتهم لقضاء الحوائج.

ولما سمع بذلك الفقيه القاضي الشيخ أحمد بن سعيد المجلدي(322)، وقد أراد
أن يحج ومنعته موانع منها إباية سلطان* البلد، زارهم بقصد تيسير الحج له. وبنفس ما 208
رجع، أذن له السلطان في الحج، وجاءت أسباب التيسير تسعى إليه فحج كما أراد. وكذلك الشيخ أبو علي بن مسعود اليوسي لما أزعجه الأمير إلى مراكش، ومنعه الرجوع إلى بلده، وألزمه البقاء بمراكش، أرسل ولدا له فزارهم بقصد تيسير الرجوع إلى بلد قبائله. وبنفس ما رجع، أذن له الأمير في الرجوع من غير شفيع ولا مذكر(323).

---

(320) شخصية لم نقف على ذكر لها سوى عند أبي الحسن اليوسي (**المحاضرات**، ط. الرباط، ص. 15) الذي أرجع إليها نسبه، فقال : «أنا الحسن بن مسعود بن يوسف بن علي بن يوسف بن أحمد بن إبراهيم بن محمد بن أحمد بن علي بن عمر (بن يحيى) بن يوسف، وهو أبو القبيلة، ابن داود بن يدراسن بن يلنتن». ما زال مشهده مزارة الزوار من المنطقة وخارجها، ويقع جنوب غرب ميدلت تربطه طريق غير معبدة بمركز تونفيت. وتجتمع حوله كثير من الأضرحة غير المعروف تاريخ أصحابها.

(321) قرية توجد في الأطلس المتوسط وفي أعلى ملوية جنوب ميدلت وجنوب مركز تونفيت على وادي تهندر من قبيلة أيت يحيى.

(322) من كبار فقهاء عصره ومن قضاة فاس. ذكر صاحب «**نشر المثاني**» أن أبا الحسن اليوسي كان من تلامذة المترجم، ولكن المعروف أن اليوسي لم يقرأ بفاس ولم يعرفها إلا بعد أن دخلها مدرِّساً. له فهرسة استوعب فيها أشياخه، ومنهم أبو سالم العياشي؛ كما كان له «**شرح مختصر خليل**» و«**اختصار المعيار**» و«**التيسير في أحكام التعسير**» وقد حققه موسى لقبال بالجزائر. توفي ودفن في فاس عام 1094هـ/1683م (انظر م. القادري، **نشر**، ج 1، ص. 306؛ م. الكتاني، **سلوة**، ج 3، ص. 206؛ **فهرس الفهارس**، ط. فاس، ج 1، ص. 420؛ ع. ابن زيدان، **إتحاف**، ج 1، ص. 324).

(323) حدث ترحيل اليوسي إلى مراكش مرتين : في عام 1085هـ، وذلك بعد أن كان قد خرج من فاس وأنشأ زاوية في خلفون على ضفاف أم الربيع. وفي هذه المرة بقي يدرس بجامع الشرفاء بمراكش إلى حدود عام 1090هـ حتى أذن له السلطان مولاي إسماعيل بالعودة إلى خلفون. وفي عام 1092هـ أعاده السلطان إلى مراكش وبقي فيها ثلاثة أعوام. وقد كان سبب ترحيله هو إقامته في هذا الوسط البربري الذي كان متعاطفاً من قبل مع الدلائيين (راجع كتاب ع. الجراري، **عبقرية اليوسي**، ط. الرباط، ص. 24 وما بعدها).

ولكون هذا الوادي، ويسمى وادي «وُرِنْ»[324]، مزارة ومتعبدا لأولياء الله تعالى، اختار يعقوب السكنى به في القرية المذكورة وبوسطها الصالح يحيى بن يوسف
209 المتقدم، وهو أعظم من بالواد في نفوس الناس، فقصد جواره*. ولما استقر بتلك القرية، ألقى أولاده بالمكتب ليتعلموا، وأخذ لوحا لنفسه مع الصبيان ليتعلم ما قدر له من السور، ويتعلم ما يلزمه من أمور الدين. فلما تعلم ما تيسر له، اشتغل بالذكر والعبادة مقتصرا على البلغة من الدنيا، والبلد بلد التقشف والأوساخ، وعرفه الناس بالمسكنة، ومكث كذلك زمانا وهو يخالط الناس ثم انقطع عن المخالطة. فكان إذا أصبح، ذهب إلى الغابة خارج القرية، فيظل فيها يذكر الله تعالى إلى العشي فيروح إلى منزله، وأولاده يقرؤون في المكتب. واستمر دأبه كذلك زمانا، وكان في ذلك الاِنعزال يأوي من تلك الغبطة[325] إلى مكان خال يجمع فيه صُبْرَةً[326] من الحجارة
210 فيها عدد* كثير، ثم ينقلها «بلا إله إلا الله، محمد رسول الله ــ ﷺ ــ»، من موضع إلى موضع من ذلك المكان، ولا يزال كذلك من الصبح إلى العشية لا يفتر عن ذلك إلا في أوقات الصلاة.

ثم إن الناس فطنوا بانقطاعه، وكان لأهل القرية مكان مفروش بالحجارة من أصله يجلسون فيه، ويتأنسون بالاِجتماع به، ويتذاكرون أمور دنياهم فيه، فقالوا له : يا يعقوب! ما منعك أن تجلس معنا في نادينا وتتحدث معنا ؟ وكان ذلك النادي يسمونه «إِسْلْ»، وهو بلغتهم الحجر الأملس المنبطح المستوي ظاهره بالأرض، فسموا المكان باسم ما حل فيه. فلما سألوه، أعرض عنهم. ثم إنهم ألحوا عليه، فقالوا له :
211 لابد أن تخبرنا عما* أوجب لزومك الغابة والاِنقطاع عن رؤية الناس ومجالستهم. فلما ألح عليه السائلون، قال لهم : يا أولادي! إنه كشف لي عن أهل الجنة وأهل النار عند شهودهم، فانعزلت لئلا أرى أحدا؛ وذلك أن أهل الجنة أراهم مستورين، وأهل النار أراهم عراة.

فبقي دأبه كذلك إلى أن كبر أولاده. فمن بركة فراره إلى الله تعالى، ظهر فيهم الصلاح جميعا، وهم أربعة : محمد [بن][327] يعقوب، وعبد الرحمن بن يعقوب، وعلي

---

(324) أحد روافد نهر أم الربيع، يسمى حاليا بوادي تهندر، نسبة إلى قرية تقع على ضفته الغربية، ويخترق القرية التي يوجد بها ضريح سيدي يحيى أو يوسف في الجنوب الغربي لمركز تونفيت.

(325) ك : الغيظة ورسمها غير واضح في ق.

(326) س، ك : صبوة.

(327) سقط من ك.

بن يعقوب، وعثمان بن يعقوب. إلا أنه لم يظهر منهم عند الخلق إلا محمد بن يعقوب(328)؛ وكان لما ظهرت بصيرته وبلغ مبلغ الرجال، يرجح عثمان على الآخرين ويقول : لقد هممت أن يظهر قبره لينتفع به المسلمون، ولكنه لم يفعل.

[محمد بن يعقوب]

212 ومحمد بن يعقوب* هو أبو الوالد كما تقدم. ولما أراد الله تعالى ما أراد من ظهور كرامته وسفره ليعرف الرجال ويلقى أهل الله، دخل عليه والده يعقوب، فوجده بداره جالسا، فلامه وعيره على القعود الدال على التراخي في أمور القراءة والدين، وكان ذا نفس أبية، وهو حينئذ ما تزوج، فحلف ليسافرن في طلب القراءة والدين، بحيث لا يعود إلى أبيه حتى يعرف كيف رجع إليه.

فخرج مسافرا لجهة صحراء الغرب، وهي من جبال «زير»(329) إلى «درعة»(330) من جهة القبلة، وإلى «توات»(331) من جهة المشرق. فلما بلغ من الصحراء إلى قرية بـ«ـزيز» تسمى «وِقُرْنْ»(332) ــ بكسر الواو وضم القاف وفتح
213 الراء ثم نون ساكنة ــ مكث بها بقصد القراءة* واختارها عن سائر قرى «زيز»، لأن

(328) ذكر صاحب «**تحفة أهل الصديقية**» أنه كان من أصحاب أبي عمرو المراكشي، بينما لم يذكر حفيده في هذه الترجمة ذلك. كانت وفاته بسبب الطاعون الذي حل بالمغرب سنة 1006هـ، حسب «**البدور الضاوية**» أو سنة 1007 حسب «**مرآة المحاسن**». **إلا أن محمد حجي ذكر (في كتابه عن «الزاوية الدلائية»** أن وفاته كانت عام 1060هـ/1650م. ويظهر لنا أن ذلك ليس ممكنا، لأن أحمد الولالي يذكر أن جده كان حيا عندما ذهب محمد بن أبي بكر إلى الحج سنة 1005هـ. وعندما رجع عام 1012هـ/ 1604م، وجده قد توفي (انظر : م. الفاسي، **تحفة أهل الصديقية**، ص. 55؛ م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 55. وتجد ترجمته في «**مباحث الأنوار**» هذا).

(329) سميت هذه الجبال بجبال زيز نسبة لنهر يوجد منبعه فيها، وصفها الحسن الوزان وقال بأنها تصل إلى خمسة عشر جبلا (انظر: ح. الوزان، **وصف إفريقيا**، ص. 287).

(330) هي المنطقة التي يمر بها وادي درعة، وهي منطقة شاسعة تكتنفها مرتفعات الأطلس الكبير شمالا، وتافيلالت شرقا، والسوس الأقصى غربا. وتكتب «درعة» ــ بالدال المهملة ــ لأن أصل الكلمة «إدرا» بمعنى عميق، وليس من ذرَّع كما يقول مؤرخو هذه المنطقة. وبلاد درعة عموما ذات طابع صحراوي، باستثناء الجزء الشمالي وعلى امتداد وادي دادس من الشرق إلى الغرب، حيث تكثر الأجنة والأشجار المثمرة. كما كان بدرعة قديما عدة مراكز تنطلق منها وتنتهي إليها قوافل التجارة المغربية السودانية (راجع : م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 2، ص. 529 وهامش 1؛ ي. ابن الزيات، «**التشوف**»، تحقيق أ. التوفيق، ص. 158 و224، هامش 275 و517).

(331) انظر هامش رقم 278.

(332) قرية تقع على وادي زيز قريبا من توليجت.

أهلها أصلهم من قبيلة «بني ولال»[333].

وكان ــ رضي الله عنه ــ رجلا شجاعا. فبينما هو مقبل على شأنه، إذ أغار قوم على سرح تلك القرية، فتبع القوم أهلها، وتبعهم مع أهل القرية، وأخذ رمحا من بعض أهل القرية، فلم يفعل أحد من أهل القرية مثل ما فعل حتى استخلص السرح من القوم. فلما رأوه كذلك، أعجبهم؛ فتنافسوه وأرادوا تزويجه رغبة في بقائه لديهم لأمانته وشجاعته. فلما أحس ذلك منهم، خرج عنهم فرارا مما راودوه عليه من التزوج، وذهب حتى وصل إلى قرية تسمى «تِلْوِنْ»[334] ــ بكسر التاء والواو وسكون اللام ــ فمكث بها. ثم أغير على سرحهم، ففعل مثل ما فعل مع أهل القرية الأولى في* المحاربين، حتى استخلص من اللصوص السرح، فتنافسوه أيضا. 214

ثم حدث نفسه بأنه إنما سافر مهاجرا لله[335] تعالى طالبا للعلم والدين، فإذا هو بالإغارات ومزاولتها، فخرج من تلك القرية فارا بدينه من الفتن. وذهب في خروجه منفردا. فلما وصل إلى أرض قفر، تداركه الله تعالى برحمته وبدأه بفتوحات نعمته. فلقيه الخَضِر عليه السلام،فسقاه ماء ثم قال له : إذهب إلى الموضع الفلاني بـ«ـدرعة»، فإنك تجد شيخك به، وهو الشيخ عمرو بن الحاج[336]. فلما وصل لذلك المكان، وجد الشيخ عمرو بن الحاج الدرعي كما قال له الخضر عليه السلام، وألفاه رجلا زاهدا في الدنيا ظاهرا وباطنا* فلازمه، ووجد أصوله قد كادت أن تضيع 215
من زهده فيها، فأخذ يخدمها له بيده، وكان رجلا قويا، ووجد له بصيرة عظمى، وبركة كبرى.

ولحق به من بلده الزاهد المنيب، الشيخ الحسن بن علي السجدلتي[337] من

---

(333) انظر : الهامش رقم 307.

(334) تبعد قصور «تِلْوِنْ» عن كَلميمة بحوالي 25 كلم، وهي على وادي غريس وفي قبيلة أيت سفول (راجع : «Villes et Tribus du Maroc», **Tribus Berbères**, T 2).

(335) ق، كـ : إلى الله.

(336) لعله أبو حفص عمر بن أحمد الأنصاري الذي أسس زاوية بتمكَروت عام 983هـ، وتوفي عام 1010هـ/ 1–1602م. وبهذه الزاوية استقر أخيرا محمد بن ناصر الدرعي الذي كان له بها شأن عظيم (انظر: ح. الناصري، **الدرر المرصعة**، مخطوط خ ع رقم 5265د، ص. 289).

(337) تتلمذ أيضا على أبي بكر الدلائي وأخذ عنه، ثم رجع إلى قريته تاسكَدلت. ذكر محمد حجي أن وفاته كانت سنة 1005هـ/96–1597م، ونسب إليه أعمالا صاحبها هنا هو محمد بن يعقوب. فلربما أن الأستاذ حجي وقف على ترجمته في مصدر آخر (انظر : س. الحوات، **البدور الضاوية**، ورقة 23/ب؛ م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 55).

القرية التي فر إليها أبوه. وبقيا معا يخدمان شيخهما، ووجداه يقرئ الجن ويريهم. وكوشف لجدنا محمد بن يعقوب عن حال الجن الآخذين عن شيخه، فأصبح يراهم ويلقاهم. وخرج يوما ليتوضأ بساقية حذو المنزل، فزاحمه واحد من الجن على مكان الوضوء، فأصابه برأسه ذلك الجني، فبلغ الشيخ ما وقع بينه وبين ذلك الجني، فأمره
216 بالصبر، وقال له : إن مخالطة الجن لا تخلو من* شيء، فاصبر فإنك ستقرئهم ويحتاجون إليك.

ومرض من ضرب ذلك الجنيُّ مرضا طويلا، فكتب بأمر مرضه إلى شيخه بسوس، وهو إذ ذاك حي. وشيخه يقال له الشيخ أحمد بن علي(338)، وهو في ظني أخذ عن الولي المشهور الشيخ أحمد بن موسى السوسي(339). فلما وصل كتابه شيخه، قرأه؛ فإذا فيه أن هنا عندي رجلين من الجهة الفلانية، ومرض أحدهما. فكتب إليه شيخه : هذان الرجلان من أبكارك، ومن فسد له بكره لا شيء فيه، فاستوص بهما خيراً، وهذا حرز يعلقه المريض منهما، وبعث مع الرسول حرزا. فلما بلغ الحرز، تحمله معه بأمر الشيخ فبرئ بإذن الله تعالى.

217 وبقي من ذلك المرض* ثقل في أذنه، ولذلك اشتهر في قبائل البربر على ما سنذكره بعد بالأصم. وقد أشرت إلى ما اشتهر به في قصيدة عملتها في التوسل ببعض الصالحين حيث أقول :

وَلَسْتُ أَنْسَى أَبَا يَعْزَ آلذِي شَهِدَتْ ... بِقُرْبِهِ وَعُلَاهُ آلْعُرْبُ وَآلْعَجَمُ
وَلَا آلْجِلَانِي عَبْدَ آلْقَادِرِ آلْحَسَنِي ... أَعْظِمْ بِهِ رُتْبَةً جَلَّتْ لَهُ حُرَمُ
وَلَا آلْوَلِيَّ أَبَا آلْعَبَّاسِ نَاصِرَنَا ... مَنْ آنْتَمَى لِعُلَاهُ لَيْسَ يَصْطَدِمُ

(338) لعله أحمد بن علي بن داوود الدرعي، المدعو بالحاجي. كان من الفضلاء والصلحاء وأخذ عن سيدي أبي القاسم الغازي. توفي عام 998هـ/1589م. يقع ضريحه شمال زاكورة، وهو مقصود بالزيارة من أجل الإستشفاء من الصرع (راجع : م. بن ناصر، **الفهرسة**، ص. 22؛ م. الناصري، **الدرر المرصعة**، الترجمة الثالثة؛ م. الحضيكي، **طبقات**، ورقة 23/ب).

(339) شيخ صوفي مشهور من أسرة شريفة، يتصل نسبه بالحسن بن علي بن أبي طالب. سلك طريق القوم على يد عدد كبير من شيوخ الصوفية، منهم : الشيخ عبد العزيز التباع وأحمد بن يوسف الراشدي. بعد حياة السياحة والتنقل، استقر بتزروالت وأسس بها زاوية عرفت باسمه وقصدها كثير من الناس للأخذ عنه وبلغت شهرتها كل الآفاق. توفي عام 971هـ/1564م (انظر : م. ابن عسكر، **دوحة الناشر**، ص. 110؛ م. ابن القاضي، **درة**، ج 1، ص. 165؛ م. البعقيلي، **مناقب**، مخطوط خ س، رقم 3805ز، ج 1، ص. 2؛ م. الفاسي، **ممتع الأسماع**، صص. 58–60؛ ع. ابن إبراهيم، **الإعلام**، ج 2، صص. 26–29؛ م. السوسي، **إيليغ**، ط. الرباط، 1966، صص. 17–45).

وَلَا ٱلتَّقِيَّ أَبَا مَدْيَانَ غَوْثَهُمُ هُوَ ٱلشَّهِيرُ وَكَانَ فَضْلُهُ عَلَمُ
وَلَا ٱبْنَ يَعْقُوبَ جَدَّنَا ٱلشَّهِيرَ بِمَا حَكَوْهُ عَنْهُ مُكَاشِفٌ بِهِ صَمَمُ

وبقي، بعد برئه، في صحبة شيخه وخدمته هو وصاحبه الشيخ الحسن بن
218 علي السجدلتي حتى كملت له إثنا عشر عاما. ثم إن الشيخ* يوما دعاهما. فلما
جلسا بين يديه، قال لهما : إني أريد أن أبعثكما إلى القرية التي أنتما منها، ثم قال
لهما : إنه عرج بي البارحة حتى بلغت في السموات موضعا به النبي ﷺ،
فكوشف لي عن اليهود وهم في جهنم، ثم قال رسول الله ﷺ للحاضرين معه
مشيرا إلي : هذا شيخ من لا شيخ له يوم القيامة. ثم أتيت قريتكم فوجدتها منسوجة
نسج البرنس، ابتدأت باتساع وانتهت بتضييق، فقالا له : نعم يا سيدي، هي
كذلك. ثم قال لهما : إن ذلك الرجل الدفين بها راودني عليكما، فطلب مني أن
أبعثكما لتحيا بكما بقريته وأحوازها رسوم الدين، يعني الشيخ يحيى ابن يوسف
219 الذي تقدم أنه* أشهر رجل «وُرْنْ»، وأنا ساعدته على ذلك، فاذهبا إلى بلدكما بسم
الله.

فقال له جدنا ابن يعقوب : تلك البلدة بلدة سائبة، أخشى أن لا يستقيم لي
ديني فيها، وبها ظلمة كثيرون، ولا يباعدون المسكين إلا بقهر واضح، فقال له
الشيخ : قاهر الظلمة جزار، والجزار يحتاج إلى حراسة لئلا تتلطخ ثيابه بالدم، فقال
له الجد : وأنا يا سيدي، لا طاقة لي على معاشرة أهل تلك البلدة بدون ذلك،
فصحبتك لي أولى. فسكت الشيخ ثم قال له : قم لترجع إلى بلدك ! فإن الله تعالى
جعل سيف قهر الجبابرة بيدك. ثم قال لصاحبه : راعه ولا تباعده، فإنه إن رآك
220 سكن غضبه، وإن* لم ترعه ربما أهلك ذلك الإقليم، فكان أمره كما قال شيخه.

وكان الصالحون يشكون إليه ظلمة بلادهم. وممن شكاهم الشيخ الصالح : أبو بكر الدلائي على ما سنذكره بعد، وكذلك يشتكي إليه كل مسكين ظلم، فينتقم الله تعالى من ظالمه، وسنذكر بعض الوقائع في ذلك.

ولما رجع هو وصاحبه إلى البلد، كان إذا داعب[340] صاحبه يقول : بعثنا إلى هذه البلدة أنا وأنت، و«أنت مني في ذلك بمنزلة هارون من موسى»[341]. وكان إذا

(340) وردت في ق هكذا : غاب.

(341) اقتباس من الحديث الشريف الذي قاله الرسول ﷺ في حق علي عندما استخلفه على المدينة وعلى عياله : «أنت مني بمنزلة هارون من موسى. إلا أنه لا نبي بعدي».

غضب لأمر ديني، ثم رأى صاحبه، اتسع عليه الغضب، وربما يناديه باسم هارون، مضيفا له إليه، فيقول : يا هاروني أقبل !

221 ولما شرع في الرجوع بأمر الشيخ إلى القرية أو قاربها، مر طائر بأبيه* يعقوب، وهو كبير السن إذ ذاك مشتاق لولده لطول غيبته، فصوت ذلك الطائر في الجو، فقال يعقوب للحاضرين : تدرون ما قال الطائر ؟ فقالوا : لا! قال : إنه بشرني بقدوم ولدي محمد، فكان الأمر كذلك. ثم مات يعقوب في جده واجتهاده وانقطاعه إلى الله تعالى. فدفن وقبره معلوم إلى الآن، مزارةٌ عند أهل البلد، واشتهر عندهم أن من زاره يوم الأربعاء ـ أظن أربع مرات ـ لموته فيه، فإن حاجته تقضي بإذن الله تعالى.

ولما استقر جدنا بقرية «تسجدلت»، كما أمره بذلك شيخه، جد في تبديل العوائد الرديئة المتمكنة من عامة البلد. فمنها أن الناس وجدهم يصنعون الحناء
222 برؤوسهم من قرب الغروب*، يرون أنه لا يصل إلى محل الإفطار حتى يدخل وقت الإفطار. فقطع تلك العادة. حسما للذريعة واحتراما لنهار رمضان جميعا عن موجبات الإفطار. ومنها أنهم كانوا يصبغون الشعر الأسود بالحمرة فيشوهونه، فكان الرجل منهم يجعل وفرته في إناء الصبغة [مستلقيا على قفاه ويبقى كذلك نهارا لا يصلي لتتعلق به تلك الصبغة][342]، وتسمى بلغتهم صبغة اللّد، فاجتمع لهم فيها سيئتان : تشويه حسن الشعر الأسود والشغل عن الصلاة، فقطع ذلك عنهم. ومنها أنهم لم يكونوا يكترثون بأهل العلم، مستغنين عنهم بمجرد تلاوة «**القرآن**» فلا يطلبون عالما، واشتغل يعلمهم حتى عرفوا قدر العلم. وكانوا لا يحجبون غالبا النساء، فحجب أهله،
223 فعلم لهم الحجاب* بذلك.

وكانت في قومه، «بني ولال» عوائد فاسدة في النكاح فأزالها، منها : أن من مات له منهم قريب[343] وترك امرأة، بادر إلى ذبح تيس بصدر خيمتها، فيكون بذلك أحق بها كرها منها، ويقول : تركها لي التيس. ومنها أنه إذا دفن قريبه وحفر له بالفأس. كان أحق بامرأته، ويقول : تركها لي الفأس، وغير هذا من الرذائل. وروى عنه من يثق به، أنه في بعض سفره لإزالة تلك العوائد، لقيه الشيطان بعد إيابه وقد أسقطها، فقال له : يا ابن يعقوب ما لك ولأقوامي تسقط عنهم ما قررت ؟ فقال له : أنت هذا يا لعين ! فأخذ حجرا ليضربه به، فعاد بين يديه دخانا مضمحلاً.

(342) سقط ما بين معقفتين من ق، ك.

(343) ك : لهم قريب.

224 وكان ـ رضي الله تعالى عنه* ـ من أهل الجد والزهد والتقشف، ولا يلبس غير الصوف الخشن، وبرنسه في الغالب مصبوغ بالسواد أو مصنوع من صوف أسود. وغالب ما يغسل به ثيابه الماء مع تراب أبيض، يسمى بلغتهم «تبرنست». وبلده بلد التقشف والأوساخ وسواد التراب وكثرة الدخان(344) والأثلام. وكان عنده من الدنيا بلغة يستطيع بها شراء مراكب وأعبد، ويستخدم بها أجراء في أسبابه إن شاء. ومع ذلك، لم يملك قط عبدا ولا أمة، ولا ركب قط فرسا إلا يوما واحدا : ركب فرس ولده ليذهب إلى موضع فاهتز به الفرس فنزل عنه. وكان يقول للكراهية في اكتساب
225 العبيد لولده : لولا أن تقول حسدتك*، لدعوت الله تعالى أن لا يكسب لك عبدا ولا أمة. ثم يقول، تنفيراً عن اكتساب الرقيق : إنهم يزيلون أثر مشقة الأشغال عن الأيدي ويحققونه(345) في القلب. ولما بعث ولده فرسا إلى جهة «غريس» مع بعض أصحابه ليباع ويشترى له بعض الرقيق، كره ذلك وكره مساءة ولده بمنعه، فحملته الكراهة أن قال : إذهب أيها الفرس! لا جعلك الله تجدني. فكان كذلك، فلم يرجع ما اشترى به حتى توفي.

وكان ـ رضي الله تعالى عنه ـ رجلا قويا يباشر غالب أشغاله(346) بيده. وكان يصلح الطرقات بيده لصعوبة بعض المحال منها في بلدته، لأنها جبال. وكان يقول : لو
226 أراد الناس ـ يعني نفسه ـ الدنيا لبيع هذا الأرز بفاس*، يعني يقوم الناس بخدمته فيها حتى يتكلفوا أن يحملوا الأرز إلى فاس في تحصيل مراده. وكان مائلا للخمول كثيرا. ومن ميلانه إليه، أنه أُذِنَ له في إطعام الزاوية وإقامة حق الواردين من الأضياف، وأعطي له من البركة ما يطعم به من مريدين، إن كان عنده جميع ما يريد، فترك ذلك وقال : إني وجدت الشيخ أبا بكر أُعطيت له الزاوية ووكل له إطعام الوارد، فمددته بزاويتي.

وكان كثير الاِجتهاد في الدين، قائم الليل، صائم الدهر. أدركه الناس في آخره عمره من نحو ثمان سنين لا يفطر إلا العيدين، حتى إنه يوجد خلُوف فمه من مجالسته عن بعد. وكان، في زمن مجاهدته، مجدا في قيام الليل وغير ذلك. ولما شاق
227 نفسه من ذلك، حدثته فقالت له* : إنك ما تفعل هذا إلّا رياء، ليقال إن ابن

(344) يقصد بها الضباب والغيوم.
(345) رسمها غير واضح في ق، ك.
(346) ك، ق : اشتغاله.

يعقوب من أهل الجد؛ ومراد النفس فترته عما هو بصدده. فقال لها : صدقت في ما تقولين. قد عرفت أنك لا تفعلين ما تفعلين إلا رياء، أو أنت عدوة؛ فأردت أن أعذبك في الدنيا، ثم يعذبك الله تعالى على ريائك في الآخرة. فغرضي في ما أنا فيه أن أجمع لك بين العذابين، فخضعت نفسه. وروى أن نفسه تشخصت بين يديه وتضرعت من تعذيبه إياها. فمن يومئذ وجد فيها اطمئنانا.

وكان بعض الفقهاء من أهل الخير، وهو الفقيه أحمد بن حمدان التلمساني[347] ـ رحمة الله تعالى عليه ـ، يكرر هذه المقالة ويرحمه عليها ويقول : جزاه الله تعالى خيرا، هكذا يكون جواب النفس، وهكذا تكون معاملتها.

228 وكان غير خالي[348] مع ملازمة التلاوة والأذكار من مطالعة* الكتب. ويروي أنه كثيرا ما يطالع الكتاب؛ فإذا رأى ما فيه بعيدا عما الناس فيه، قال متعجبا ومتأسفا ملتفتا إلى الناس : هذا الذي في هذه الكتب ليس عند هؤلاء ـ يعني أهل الزمان ـ، والذي عند هؤلاء ليس في هذه الكتب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! والكتب التي خلفها وأدركنا بعضها إنما هي مصاحف القرآن العظيم والحديث مثل «**البخاري**»[349] و«**الشفا**»[350] و«**تفسير**» الثعالبي[351] وكتب المواعظ والتصوف. هذا ما أدركنا من كتبه رضي الله تعالى عنه. وكان ربما حضر

---

(347) عالم مشارك من الأسرة الدلائية، أخذ العلوم عن الأشياخ الدلائيين. أبعد مع أسرته إلى تلمسان. وبعد السماح لأسرته بالعودة، استقر بفاس وتصدر للتدريس بجامع سيدي علي بن حرزهم. توفي بالطاعون في 1 رمضان 1092هـ/14 شتنبر 1681م (انظر: م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 301؛ **والتقاط الدرر**، ص. 224، ترجمة 336؛ م. الحضيكي، **طبقات**، ص. 26).

(348) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : خال. والصواب ما أثبتناه.

(349) المقصود به «**صحيح البخاري**»، وهو من الكتب التعليمية التي اعتنى بها المغاربة في ميدان الحديث بعد «**موطإ**» مالك. وصاحبه هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي، المتوفى عام 256هـ (انظر: خ. الزركلي، **الأعلام**، ج 2، ص. 11 وج 6، ص. 258؛ **دائرة المعارف الإسلامية**، مادة «البخاري»).

(350) هو كتاب للقاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي، المتوفى عام 544هـ/1149م، وعنوانه هو «**الشفا بتعريف حقوق المصطفى**»، وهو من الأصول التي اعتمدها المغاربة في دراسة السيرة النبوية. وقد حققه الأستاذ ابن تاويت. ترجم للقاضي عياض كثيرون، وقد أفرده المقري بتأليف سماه : «**أزهار الرياض في أخبار عياض**»، مخطوط خ س رقم 784.

(351) عنوان هذا التفسير هو «**الجواهر الحسان في تفسير القرآن**» لصاحبه عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجعفري، ولد بالجزائر وبها نشر علمه، وله عدة مصنفات (انظر: **معجم المطبوعات**، ج 1، ص. 661).

«**البخاري**»؛ فإذا قرئ حديث، قال لهم وبه صمم : ماذا قال ﷺ ؟ فإذا قالوا له : قال كذا وكذا ـ وكان حديث عمل ـ، قام في الحين ليعمل به.

229 وراه بعض أهل نظافة* الثياب في مجلس «**البخاري**»، فسأل عنه وقد رآه وسخا فقيل له : إنه فلان! فقال : هذا فلان الذي يقال ؟ والله ما أرى ثيابه طاهرة، فقال الشيخ محمد بن أبي بكر(352) وهو حاضر للقائل : آسكت ولا يغرنك صممه، فإنه يسمع. وروي عنه أنه كان يقول في صممه : أسمع ما ينفعني ولا أسمع ما يضرني، ويقول : إن الرجل ـ يعني نفسه ـ يسمع ما في البحور. وكانت له وقائع معلومة، وكرامات ومناقب، وكان يزور الصالحين الأموات، مثل : أبي يعزى ـ رضي الله تعالى عنه ـ، ويلقى الأحياء في زمنه مثل : الشيخ المشهور أبي الطيب

230 الميسوري(353)، لقيه مرارا، كما لقي الشيخ أبا بكر الدلائي*(354) المعروف، وكانت له معه صحبة وإخاء ومصاحبة في أسفار.

فمن مناقبه ـ رضي الله تعالى عنه ـ ما شهد له به أبو بكر المذكور في سفره معه بقصد زيارة أبي يعزى، وذلك أنه كان يقرأ «**القرآن**» والنور يفيض من بين ثناياه.

---

(352) ولد تقريبا عام 967هـ/1559م، خلف أباه على رأس الزاوية الدلائية عام 1021هـ/1612م، وأخذ العلم عن الشيخ أبي المحاسن الفاسي والإمام القصار وابن القاضي. أما الطريقة، فأخذها عن أبيه، كما تجول للقاء الصلحاء في مجموع أنحاء المغرب وأخذ عنهم. توجه إلى الحج عام 1005هـ وكانت وفاته في 11 رجب 1046هـ/10 دجنبر 1636م (انظر: م. الفاسي، **مرآة**، صص. 225-227؛ م. اليفراني، **صفوة**، صص. 67-68؛ م. القادري، **نشر**، ص. 339؛ س. الحوات، **البدور الضاوية**، ص. 60/أ؛ ع. الكتاني، **فهرس الفهارس**، ج 1، ص. 294؛ م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 76).

(353) هو أبو الطيب بن يحيى بن أبي القاسم اليحياوي، نزيل ميسور من بلاد ملوية العليا. كان رجلا من أهل الصلاح والديانة. أخذ عن الشيخ أبي محمد عبد الله الخياط وكان له أتباع كثيرون. توفي عام 988هـ ودفن ببلاده ميسور، وقبره مزارة هناك (انظر: م. ابن عسكر، **دوحة الناشر**، ترجمة 79؛ م. الفاسي، **أهل الصديقية**، مخطوط ح ع، رقم 76 ج. ص. 71؛ س. الحوات، **البدور الضاوية**، ص. 32؛ ع. الصومعي، **التشوف الصغير**، مخطوط خ ع رقم 1103د ورقة 82/أ).

(354) هو أبو بكر بن محمد بن سعيد بن أحمد بن عمر الصنهاجي المجاطي. ولد عام 943هـ/1536-1537م، مؤسس الزاوية الدلائية في الأطلس المتوسط على الطريقة الصوفية الشاذلية. كان شغفه بالعلوم الباطنية أكثر من شغفه بالعلوم الظاهرة. اتصل بالشيخ أبي عمرو القسطلي وأخذ عنه عهد الشاذلية، وبأمره أسس زاويته في الدلاء. كانت وفاته في شعبان عام 1021هـ/شتنبر 1612م (ترجم له كل من م. اليفراني، **الصفوة**، صص. 46-47؛ **ونزهة الحادي**، ص. 274 وما بعدها؛ م. الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص. 145؛ م. القادري، **نشر**، ج 1، ص. 163؛ س. الحوات، **البدور الضاوية**، ص. 24 وما بعدها؛ ع. الصومعي، **التشوف الصغير**، ورقة 84/ب).

فكوشف لأبي بكر عن حاله في ذلك. فقال لهم الشيخ أبو بكر : أول ما دلني على حال الشيخ محمد بن يعقوب أني شاهدت النور يفيض من فيه من تلاوة «**القرآن**»، فعرفت إيمانه وقوته وإخلاصه، مع أنه كان بربريا لا يخلو من ضعف في مخارج الحروف.

ومن مناقبه ــ رضي الله تعالى عنه ــ أنه كان يخرج من بيته مع بعض أصحابه عند الإصفرار، فيلقى أبا بكر في الدلاء فيتكلم معه ساعة ثم يأخذ بيد صاحبه فيعود
231 إلى* منزله من ساعته ويبيت به، وبين بلده وبلد أبي بكر مسيرة يوم وزيادة للفارس المجد، ومسيرة ثلاثة أيام للقوافل.

ومن مناقبه ــ رضي الله تعالى عنه ــ أنه قال له أبو بكر المذكور : أردت أن تعقد بين قبيلتي «مجاط» وقبيلتك «بني ولال» حبل اتصال فلا يفترقون أبدا، والله أعلم بمراده في ذلك. فقال له جدنا ابن يعقوب : خذ خيط حرير وأعقد فيه عقدة، فإن العقدة فيه لا تكاد تنحل، وكذلك تكون قبيلتي وقبيلتك. فقال له أبو بكر : بل أنت تعقده بيدك. فأخذه وعقد فيه عقدة، فقال : هكذا يكونون[355] ولم تزل القبيلتان من يومئذ متصلتين بالإخاء والود إلى الآن. ولذلك إلى هذا الوقت مائة سنة
232 ونيف، وربما يكون بينهما ما تكون* البغضاء والشحناء على أقل منَّةً، ثم يلتحمون[356] بإذن الله تعالى. ولم يزل عدو إحدى القبيلتين عدو الأخرى، وصديقها صديق الأخرى إلى الآن، وذلك مصداق ما عقد بينهما.

ومن مناقبه ــ رضي الله تعالى عنه ــ أنه ذهب في بعض أوقاته لزيارة أبي يعزى مع واحد من أصحابه، وليس معهما آخر. فلما كانا في بعض الطريق، اتفق أن وجدا فيه حيا من أحياء العرب، يقال لهم «زعير»[357]، وهم وقوف في أثناء الرحيل. فلما

---

(355) كذا وردت. والسياق يقتضي : يكونان.

(356) كذا وردت. والسياق يقتضي : يلتحمان.

(357) قبيلة كبيرة تقع حاليا شمال مدينة الرباط وسلا وتصل حتى وادي «كَرو» شرقا، وهي منطقة حلت بها قديما قبائل هلالية ومعقلية. سكانها من أصل بربري التحقت بهم أو اندمجت فيهم بعض العناصر العربية. أما تكلمهم اللغة العربية، فلا ينفي أصلهم البربري؛ فتلك حالة عرفتها قبائل بربرية أخرى. ويظهر من النص أن مواطن زعير في نهاية القرن السادس عشر الميلادي كانت إلى الجنوب الشرقي من المنطقة التي تحتلها اليوم، أي ناحية «تاسوت» حيث يوجد ضريح محمد بن مبارك الزعري تسَّاوتي (انظر هامش رقم 380)، في حين كانت لا تزال في حدود القرن الخامس عشر الميلادي بأعالي ملوية (راجع عن قبيلة زعير: **«Villes et Tribus du Maroc», Rabat et sa region, T 2**).
وعن لفظة زعير انظر: م. القادري، **نشر المثاني**، ج 1، ص. 66 الذي أعطاها تفسيرا غريبا.

رآهم، قال لصاحبه : اليوم أجعلك فقيرا. اِذهب إلى هؤلاء وانظر ما أوقفهم وهم في
الرحيل ؟ فذهب، فإذا سبب وقوفهم أن لسيدهم وكبيرهم له ولدا رضيعا* وأصيب 233
بمرض منعه الرضاع وهو يبكي، أظن أنه ليس له ولد غيره. فتحير والده وأمه فوقفا
ووقف الحي لأجله. فقال له : اِذهب إلى الصبي واغمزه بأصبعك السبابة ! فذهب
صاحبه إلى الصبي، فغمزه بأصبعه، فسكت لحينه وأقبل على ثدي أمه وبرئ بإذن الله
تعالى. فلما شاهدوا ذلك من صاحبه، ازدحموا عليه يتبركون به، وتجاذبوه وضيقوا
عليه، وكان أعجميا لا يعرف الخطاب بلغتهم، فجعل يقول لهم : لست أنا الفقير،
وها هو الفقير هنالك، فلم يفهموا ما يقول، وازداد ازدحامهم عليه للتبرك به والشيخ
ينظر إليه من بعد وهو يضحك، فلم ينفصل صاحبه عنهم إلا بشق الأنفس. فلما
انفصل عنهم، وجده* يضحك وقال له : رددتك فقيرا اليوم. 234

ومن مناقبه ــ رضي الله تعالى عنه ــ أنه استضاف ليلة عمارة من قبيلة «بني
حند»(358)، قبيل معروف بملوية. فأضافوه، معظمين له. فلما دخل عمارتهم واستقر
في خيامهم، قالوا له : يا سيدي ! إن الأسد لا يكاد يفتر عن ترامیه في غنمنا بهذا
المنزل، فقال لهم كالمداعب : وهل يترامى أسدان في محل واحد ؟ فنحن ترامينا على
هذه العمارة إذ دخلنا خيامها، فلا ينبغي له أن يترامى على عمارة نحن فيها، فاطمأنوا
لقوله. ثم اتفق له أن ترامى الأسد عليهم في تلك الليلة سبع مرات. وفي كل مرة،
يأخذ شاة على خلاف المعتاد منه في غير تلك الليلة. فلما أصبحوا، أتوا إليه فقالوا
له : إنك قلت : لا* يترامى أسدان في محل واحد، وقد أخذ الأسد البارحة سبع 235
شياه، ولم يبال بأسديتك، فقال لهم : نعم! قد تلاعب بذمتنا بلا شك، ولكن
لا ترحلوا من هذا المكان حتى يؤخذ منه بالثأر إن شاء الله تعالى. ثم قال لهم مشيرا
إلى مكان : احفروا له زبية هنا وامكثوا ولا ترحلوا ؟ ففعلوا ما أمرهم. فجعل لا يأتيهم
أسد ليترامى على الغنم إلا سقط في تلك الزبية قبل ترامیه فيقتلونه، حتى قتلوا سبعة
من الأسود على عدد الغنم التي أخذت ليلة بياته، فقالوا فيما بينهم : قد أخذ بالثأر

(358) قبيلة بربرية صغيرة تمت بصلة إلى أيت إدراسن. وحسب روايتهم المحلية، فإنهم قدموا من الجنوب وسكنوا تونفيت ثم أخرجتهم منها قبيلة أيت يحيى التي جاءت بعدهم (في ظروف الفوضى التي أعقبت موت المولى إسماعيل)، فانتقلوا إلى ترابهم الحالي الذي كان جزء منه في يد قبيلة إشقرن، وهو الواقع في مرتفعات الأطلس المتوسط بين ملوية العليا والحوض الصغير لوادي سرو وغرب أيت مكَيلد وشرق إشقرن (راجع : **J. Drague, Esquisse..., p. 150 note 19 ; L. Mezzine, Contribution..., p. 174 ; Raynal, La Terre et l'homme en Haute Moulouya, p. 16 (carte).**)

من السباع، فلنرتحل، فارتحلوا. ولم يزل ذلك المكان عندهم إلى الآن مشهورا بتسميته بـ«ـدار السباع».

236 ومن مناقبه ــ رضي الله تعالى عنه ــ الغريبة المشهورة عنه، والواقعة* المعلومة له، وهي أنه كان يحرث مكانا بوسط الجبل تسمى «ثِزِنْتْكَرْسَلْتْ»، موضع معلوم. وهو يسقى في السنين التي يرتفع فيها المطر. فحرثه في بعض السنين، فارتفع المطر في وقت الشتاء، فقال لصاحبٍ له : اِذهب بنا يا ولدي لسقي هذا الفدان ! وكان ذلك في وقت الليالي، وكان الشر بين قبائل البربر. فقال له صاحبه : إني أخشى إن ذهبت معك لسقي الزرع أن يجدني بعض خيل العدو هنالك فيقتلوني، فقال : اِذهب بنا ! فلا عليك. فذهب معه إلى الفدان. فلما وصلا إليه، وكانت القائلة، رمى صاحبه بثيابه، فدخل الفدان وأدخله الماء فجعل يسقيه. وطلع الشيخ إلى موضع
237 عال هناك وتوسد برنسه فيه تحت أَرْزَةٍ مستظلا بها. فبينما صاحبه*يسقي الزرع، إذ طلعت خيل العدو عليه، فقال الشيخ له : اثبت مكانك ولا تكلمهم ! فلما طلعوا عليه، وقد عرفوه من قبيل أعدائهم، فتبادروه ليقتلوه. فلما بلغوا مكانه، ضرب الله تعالى على أبصارهم فلم يروا شيئاً، فتكلموا ونادوه ولم يجبهم. فظنوا أنه جني، فرجعوا. فلما بعدوا عنه إلى مثل مكانهم الأول، نظروا إليه فإذا هو يسقي الزرع على حالته الأولى فتبادروه مغيرين. فلما وصلوا مكانه، لم يروا شيئا أيضا، فرجعوا يستعيذون من الشيطان. فلما بعدوا إلى مثل مكانهم تحققوه ورأوه أيضا فكروا عليه بخيلهم. فلما
238 قاربوه، لم يروا شيئاً أيضا، فوقفوا هنالك ثم قالوا له : إن كنت إنسانا*، فعليك أمان الله تعالى فكلمنا، وإن كنت غير ذلك فذاك. فنظر إلى الشيخ فأشار إليه أن كلمهم، فكلمهم وعرفوه فسألوه عن الحال. فقال لهم : أنا في شغل الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ وهو معي، فسألوه : أين هو ؟ فقال لهم : هو ذاك فوق الربوة تحت تلك الأرزة مستندا. فنزلوا عن خيلهم وأتوا إليه، وعندهم مؤونة فأفرغوها بين يديه لتكون زادا له ولصاحبه.

ومن مناقبه ــ رضي الله تعالى عنه ــ ما وقع له مع بعض أقاربه، وهو رجل يدعى بلغتهم «أَخَنٍّ»، بضم الهمزة وفتح الخاء المعجمة وكسر النون المشددة. وذلك
239 أن الرجل المذكور كان ذا مال كثير وثروة واسعة، عنده من الذهب والغنم* والزرع والدواب والأثاث ما لا ينحصر. وكان الناس يخدمونه لذلك، حتى إنه روي عنه أنه كان يقول : كنت أتعجب من أين يأتيني الفلس ؟ ولما أراد الله تعالى به الفلس،

بات عنده الشيخ المذكور، وألفاه يجز الغنم، وعنده من الجزازين نحو من أربعين لكثرة غنمه. فلم يهتبل ذلك الرجل به ولم يذبح له اللحم، بل أطعمه من ما يطعم به الجزازين، وكان من عادتهم عند جز الغنم أن يصنعوا طعاما مطبوخا في القدر ويؤكل بالسمن، ويسمى عندهم «بَرْكُكَشْ»، بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وضم الكاف الأولى وفتح الثانية ثم شين بعجمة مسكنة، فلم يجد عليه الشيخ في ذلك، بل
240 أعرض عن* مؤاخذته بعدم قيامه بحق ضيافته مع كثرة ماله وقرابته منه. ثم قدر له أن بات عنده مرة أخرى في وقت الجز أيضا، ومعه صاحبه المتقدم، وهو الشيخ الحسن بن علي الذي كان معه بـ«ـدرعة»[359] مع شيخه، فلم يذبح لهما أيضا، بل أعطاهما عشاء من جنس ما أطعمه الجزازين. فلما رأى الشيخ ذلك، قال لصاحبه : كل عشاءك ! وأما أنا، فلا أغش هذا الرجل بأن آكل طعامه ثم أقاتله، قد بت عنده في مثل هذا الوقت من العام الماضي، فأضافني بمثل هذا فلم أقاتله إذ كنت وحدي.
241 والآن إذ حضرت معي ولم يقم بحق الضيافة ولست من قبيله ولا* قريبه، واستضعف أمرك مع أمري، فإني مقاتله، فأكل صاحبه عشاءه.

فلما أصبحا، خرج الشيخ إلى وسط غنم ذلك الرجل فأخذ بطرف برنسه وأشار به إلى الغنم، فقال : اِذهبن أيها المحببات، فليس هذا مكانكن، قال ذلك ثلاث مرات. فسلط الله تبارك وتعالى على ذلك الرجل موت الغنم حتى فنيت، فاشترى أخرى ففنيت، ولم يزل كذلك حتى فني كل ما بيده من الذهب والإبل والدواب والبقر. فذهب إلى الزرع المخزون وهو كثير فوجده قد أكله السوس. فاستمرت به مصيبة المال حتى لم يبق له شيء، وصار شديد الفلس بعد كونه من أكبر أغنياء البربر. ثم إن من عجيب أمره أن قلة ذات اليد لم تزل في ذريته كأنها
242 تتوارث إلى الآن*، وبين ذلك الوقت وهذا نحو من مائة سنة، ولم يزالوا يلجأون إلى بعض الصالحين في ذلك والحال كما هو. نعوذ بالله تعالى من دعوة صالح مستجابة بالهلاك.

ومن مناقبه ــ رضي الله تعالى عنه ــ إخباره كثيرا بالغيوب، فيجيء[360] الأمر كما قال. فمن ذلك أن رجلا سرق قوما فأتوا به إليه لعله يقر بين يديه، فقال : أقر بالحق ؟ فإن فضوح[361] الدنيا أهون من فضوح الآخرة، فأبى ذلك الرجل أن يقر.

(359) انظر هامش رقم 330.

(360) ق : فتجيء.

(361) كذا وردت في النسخ المعتمدة. ولربما كان الجمع هو فضائح أو فواضح.

فكرر عليه الأمر بالإقرار. فلما أيس من إقراره قال لخصومه : اِذهبوا إلى الغابة
الفلانية وانظروا شجرة برأسها عش واسع، فإن بها مسروقكم. فذهبوا إلى تلك الغابة
وعرفوا الشجرة بنعته، فطلعوها فوجدوا السرقة في ذلك العش بتمامها. فلما سمع ذلك* 243
الرجل إخباره ثم أوتي بالسرقة كما قال، سقط على رجليه يقبلهما وأقر أنه سرق وتاب
إلى الله تعالى.

ومن ذلك أيضا أن رجلا من أصحابه كان ساكنا بجواره، وكان لذلك الرجل
غنم بنى لها بيتا تروح إليه، وجعل أسفل ذلك البيت طاقا يرمي منه ببعر الغنم. ثم
إنه ليلة دخلت اللبؤة على غنمه من ذلك الطاق، وكان مسكن ذلك الرجل على
ذلك البيت، فلما دخلت اللبؤة على الغنم وماج بعضها في بعض، وسمع ذلك الرجل
حس موج الغنم وصياحها، أخذ ضوءا فاطلع به على الغنم لينظر ما بها، فرأى اللبؤة
في وسطها واقفة، فلم يشك في أنها تفنيها أو تأخذ منها، فصاح بالجيران وقاموا إليه*. 244
فلم يستطع أحد الدخول على اللبؤة، فأشكل عليهم الأمر فذهب إلى الشيخ ليشكو
إليه النازلة في جوف الليل. فلما قرع الباب، قال له الشيخ : ذلك فلان ! فقال :
نعم يا سيدي ! فقال له قبل أن يخبره بالواقع : دعنا لنومنا وارجع لغنمك ! فعسى
أن تجد اللبؤة قد ماتت ! فتعجب ذلك الرجل من كونها تموت في الحين. ثم إنها في
أثناء ذهابه للشكوى ــ وقد منعها الله تبارك وتعالى أن تصيب من الغنم شيئاً ــ
دهشت وعادت لتخرج من حيث دخلت. فلما أخرجت رأسها من الطاق،
صادفها كذلك بعض الجيران ممن سمع الصياح وبيده فأس، فضربها على دماغها ولم
تتحرك، فماتت. فلما عاد ذلك الرجل من عند الشيخ، وجدها قد ماتت ولم تصب
من* غنمه شيئاً. فسر بذلك ورجع ليخبر بموتها. فلما وقف خارج الباب، كلمه 245
الشيخ فقال : دعنا لنومنا، فقد عرفنا أن اللبؤة قد ماتت !

ومن ذلك أيضا أن رجلا من قبيلة تسمى «إِشْقِرْنْ»(362) كان يخدمه

(362) شكلت اتحادية صغرى شملت ثلاثة بطون : إيمزناتن، وأيت يعقوب أوعيسى، وأيت عمرو أوعيسى. كانت في القرن السابع عشر الميلادي ضمن اتحادية أيت أومالو التي تضم عدة قبائل صنهاجية في الأطلس المتوسط والهضاب التي تفصل الأطلس عن سهل سايس مثل : زيان وأيت إسحاق وأيت أحند وأيت سري وأيت شخمان. وفي القرن التاسع الهجري، كانت مواقع إشقرن لا تزال في المنحدرات الجنوبية لجبل العياشي، وتوجد مواقعها الحالية بين مدينة خنيفرة وقبيلة أيت إسحاق حتى قدم جبل تفرت. تقول روايتهم الشفهية إنهم ينحدرون من صنهاجة الجنوب. ولا نجد تفسيرا واحدا للفظة «اشقرن» : فهي عند زيان تحمل معنى «القرن اليابس»، وعند العرب تعني : الأشقر (انظر: التقي العلوي، «أصول المغاربة»، **مجلة البحث العلمي**، عدد 24؛ **De la Chapelle, Un Document..., p. 31, note 2; Dragne, Esquisse..., p. 150 note 19; Drouin, Un Cycle..., pp. 26-27**).

ويواصله، وكانت تلك القبيلة إذ ذاك من أعز قبائل البربر، وكانوا يواصلونه وهم الذين وهبوا له بلدته المعروفة له بملوية. ثم إنه يوما تحدث مع ذلك الرجل فقال له : قد أتاك زمان تكون قبيلتك فيه كالكلب المقهور في يوم مطير، يأخذه هذا الكلب حتى يعفوه بالطين[363]. فإذا أطلقه، أخذه آخر. فقال له ذلك الرجل : وما علامة ذلك يا
246 سيدي ؟ فقال : علامته أن تموت أنت ولا قبر لك ! فأخبر ذلك الرجل أهله* بما قال له الشيخ، فمضت سنون وتوفي الشيخ رضي الله تعالى عنه. فلما أراد الله تعالى إذلال تلك القبيلة ليقع مصداق ما أخبر به رضي الله تعالى عنه، ثار الشر بينها وبين قبيلة «مجاط»[364]، وكل من القبيلتين تعصب له من القبائل من يواليه، فارتحلت قبيلة ذلك الرجل في يوم مطير كثير الطين وهم في محاولة ذلك الشر، وكان موضع ارتحالهم يسمى «لَمْدَا»[365]. فلما نزلت الحلة، سأل أولاده عن ذلك الرجل فلم يجدوه، وأخبرهم من كان مصاحبا له نهارا أن العهد به الموضع الفلاني. فذهبوا بالغد إلى ذلك الموضع وتتبعوا أثره إلى أن ارتفع على دَوْحَةٍ[366] هنالك فانقطع أثره، ولم يجدوا
247 حذوه أثر سبع ولا رجل ولا غير ذلك مما* يمكن أن يكون هو الذي رفعه، فعرفوا أنه قد مات، وأنه رفع من ذلك المكان خرقا للعادة تصديقا لقول الشيخ بأن لا يكون له قبر. فعرف أولاده أن ذلك الشر سبب إذلالهم، فكان الأمر كذلك. وغلب عليهم أعداؤهم واستحوذوا عليهم نحواً من أربعين سنة، لا تواليهم قبيلة إلا وتصرفت فيهم بما شاءت، ولا يمنعهم إلا الذمة والإلتجاء إلى غيرهم.

ومن ذلك أيضا أن ابنه الأكبر محمد بعثه إلى زرع له بواد ملوية ليقف لحصاده. وكانت قبيلة ذلك الرجل الذي أخبره أنه يموت ولا قبر له يوالونه ويعينونه في خدمة ذلك الزرع، والملك إذ ذاك للملوك السعدية بمراكش. وكان بعض عمالهم
248 يتولى تلك القبيلة ويتصرف فيها فيما يلزمها من الوظائف المخزنية[367] ويحضر* في

(363) س، ق : رسمها غير واضح.

(364) انظر الهامش 177.

(365) لم نجد في منطقة الأطلس المتوسط مكانا باسم «لمدا»، والمرجَّح أنها تصحيف لكلمة «لندا» وهي اسم لسهل ومنطقة واقعة بوادي صرو بين مدينة خنيفرة ومركز القباب، وقد اشتهرت بما وقع فيها من معارك عسكرية أيام السلطان المولى سليمان وكذا إبان الغزو الفرنسي في بداية هذا القرن.

(366) لا ندري هل يعني شجر الدوم الذي هو من فصيلة النخيل (ولكن ليس بشجر عظيم كما هو معروف ببلاد العرب وبصعيد مصر خاصة. فالدوم المعروف بالمغرب صغير الحجم والثمر)، أو هو تعبير من اللسان الدارج عن المكان المرتفع.

(367) إن موضوع الجبايات في العهد السعدي لم يحظ بعد بدراسة مفصلة ودقيقة. ويظهر من خلال النص أن السعديين كان لهم عمال في القبائل لجمع الجبايات، إلا أن أصناف هذه الجبايات ومقدارها وكيفية =

حلتهم بملوية أحيانا. واتفق أن حضر تلك الحلة ذلك العامل حال حضور ولده الزرع، فوشى به بعض الناس إلى ذلك العامل فقال : إن هنا رجلا يدعي أبوه لنفسه حالا، ويخدمه الناس مجانا. فذهب ذلك العامل إليه فلم يجده في مكانه. إذ ذاك خرج إلى الوادي ليغسل حناء كان بيَّته برأسه ونام به إلى أن طلعت الشمس فذهب ليغسله ويصلي الصبح، وكان إذ ذاك صغير السن. فلما لم يجده، سأل عنه الخادم، فلم تخبره أين هو. فتوجه إلى حصدة زرعه وهم جماعة، فأخذهم وقيدهم في السلاسل.

فلما رجع ولده إلى مكانه، أخبرته الخادم بما كان، فنظر إلى موضع الحصدة
فلم يجدهم وعرف أنهم أخذوا*. ذهب إلى أبيه، وكان بينه وبينه مسيرة نصف النهار، 249
وكان أبوه لا يداري مخلوقا ولا يخاف منه، حتى كان كثيرا يصرح بذلك ويقول لبعض
من كان أبوه طاغيا : كنت قبل أن أخاف الله تعالى أخاف من أبيك ومن غيره.
والآن إذ خفت الله تعالى لا أخاف من أبيك ولا من غيره. ومعلوم أن خوف الله
تعالى هو ثمرة معرفته. قال الله تبارك وتعالى : ﴿**إنما يخشى الله من عباده**
العلماءُ﴾(368) فحصر وصف الخوف في وصف المعرفة، والمراد كما قيل : العلماء
بالله تعالى لا العلماء بالشركة والشفعة ونحو ذلك(369)، فإنهم قد لا يخافون الله تعالى.
فلما أقبل على أبيه، نظر إليه فقال : محمد ! قد سقطوا عليك وعثروا على أمرك.
ويعلم الله* ما صليت الصبح. ولو صليته، ما عثروا عليك. فعرف ولده أنه كوشف 250
له عن حاله. ثم إن العامل بنفس ما أخذ الحصدة وحملهم على القيد، كلمه بعض
الناس فقال له : أي شيء أحوجك إلى هذا الرجل ؟ فإن أباه لا يقدر أحد على
مسه ! فأطلقهم له وسأل منه السماحة. فلما وقع له ذلك، ذهب.

ومن ذلك أيضا ما وقع له مع بعض رعاته، وهو أنه كان له راع أودع عنده غنما يرعاها، ثم غلبت نفسه ذلك الراعي بأخذ منها كبشا (كذا)، وذهب به ليبيعه. فلما كان في وسط الطريق. وفي القائلة، ترامى عليه ذيب فأخذ بصوف الكبش، فطرد

= توزيعها على أقسام القبيلة هي أشياء ما زالت غير معروفة. فـ«ـالوظائف المخزنية» مصطلح غير محدد المعنى، وهي قد تعني ما يرتبه العامل من مال على قبيلته. وعلى كل حال، فإن الوظائف المخزنية لا تعني الضرائب الشرعية، بل هي جباية استثنائية (راجع : أ. التوفيق، **إينولتان**، ج 2، ص. 149 وما بعدها ؛ ح. بنكرعي، **مداخيل بيت المال السعدي**، رسالة جامعية، كلية الآداب بالرباط، 1985).

(368) **سورة فاطر**، الآية 28.

(369) في هذا المعنى، راجع : الغزالي، **روضة الطالبين وعمدة السالكين**، ص. 243.

251 الراعي ذلك الذيب. وبنفس ما طرده، عاد إليه وترامى عليه، وهو في تراميه لا يشعر*
حتى يراه آخذا بصوف الكبش من غير أن يوذيه. ولم يزل دأبه مع ذلك الذيب كذلك، وهو يتعجب من كون الذيب يترامى على الكبش وسط النهار في العمارة وهو بيده إلى أن بلغ السوق فباعه. ثم أتى إليه وهو في خلوة له. فلما رآه، قال له : يا حبيبي ! ـ وكان قلما ينادي إنسانا إلا بوصف الحبيب ـ، لماذا تطرد ذلك الذيب المترامي على كبشه ؟ ولماذا تقاتله على ما هو له ؟ وأي شيء صنع لك حتى تقاتله على كبشه ؟ فاستحيى ذلك الراعي وعرف أنه كوشف له عن حاله، وأنه عالم بأنه سرق الكبش، فسقط على رجله يقبلها يطلب منه السماحة معترفا بذنبه. والذيب
252 المذكور يحتمل أن يكون على حقيقته*، وأنه تعصب للشيخ كالمقاتل للسارق بمجرد استخلاص الكبش ولذلك لا يؤذيه، ويكون ذلك من باب إطاعة الأشياء حتى الوحوش للأولياء كما عهد من حالهم، فنسب الشيخ الكبش للذيب لما قاتل عليه وتعصب له. ويحتمل أن يكون روحانيا تمثل بالذيب، وتكون مقاتلته لإظهار فضيحة السارق لئلا يعود. والله أعلم بما كان في ذلك.

ومن ذلك أيضا أن رجلا ممن يواليه سرقت له فرس وظهرت بيد أعدائه فلم يستطع لها استخلاصا، فشكا ذلك إلى الشيخ مرارا. ثم إنه اكترى سارقا ليسرقها له من أولئك، وكان لهم كلب ضار لا ينام ليلا ولا ينفلت منه السارق إلا أن يقتله،
253 عودوه البيات مع دوابهم*، وكانوا يتكلون على حراسته دائما لما يعلمون من حاله، ولا يخافون على دوابهم من أجله. فذهب ذلك السارق إليهم، فوجد الفرس مقيدة بقيد الحديد والكلب على غرارة تبن هي تأكل منه. فأحس به الكلب فرفع رأسه إلى السارق ثم جعل ينظر إليه، ولم يقع من ذلك الكلب ولو النبيح. فجعل السارق يقطع بحديدة لديه القيد حتى قطعه وأخرج الفرس وركبها، فأتى بها إلى ربها. فلما أتى بها إليه، وفى له أجره. ثم جاء إلى الشيخ ليخبره. فلما وصل إليه، قال له كالمداعب : يا
254 سيدي ! قد جاء بالفرس رجال الليل لا كأنتم. فإني شكوت إليك مرارا ولم* أتصل بشيء حتى جاء بها رجال الليل. فقال له الشيخ قبل أن يخبره بالكيفية : ثكلتك أمك ! ومن خنق الكلب الضاري الذي لا يدع شاذة ولا فاذة لصاحبك حتى لم يهول عليه ولو بالنبيح ؟ فعرف الرجل أن له علما حقيقيا بالواقعة كما أخبره السارق بها، وأن له تصرفا فيها.

ومن ذلك أيضا ما أخبر به ولده المذكور، وأنه يخرج بلده ويصاهر أهل الزاوية البكرية، ووصاه بتكميل نسخة من «**البخاري**»، وأن الله تعالى يبعث لها من ذريته من يصلح لقراءتها، إذ كان ولده ذلك عاجزا عن القيام بإحسان قراءتها، فكان الأمر
255 كما قال رضي الله تعالى عنه.*

وأما وقائعه في الانتقام من الظالمين في أنفسهم وأحوالهم، فهي أشهر من نار على علم. ومنها ما تقدم مع الرجل الذي استضافه هو وصاحبه. ولعله كان لا يقوم بحقوق الله تعالى، فسلط الله عليه بذلك السبب. وذلك مما يدل على كمال إيمانه وقوة فراغه من أوصاف نفسه لما تقرر أن العبد إذا بلغ إلى حيث تستوي عنده نفسه ونفس غيره من سائر الخلق، وأنه ينصف من نفسه كما ينصف من نفس غيره، وينتصر لغيره من نفسه على حد انتصاره لنفسه من غيره، وإلى حيث لا ينسب
256 لنفسه حولًا ولا قوة ولو بوجه التوهم، وإلى حيث يرحم الخلق أشد* من رحمته لولده، لا يبتغي لهم أذى إلا كما يبتغي ذلك لولده. ومعلوم أن ابتغاء الأذى لولده إنما يكون منه، كإقامة الحد بأمر سيده، وكاستعمال الدواء له. فإذا بلغ هذا المقام، فإن الله تعالى قد يخرجه سيفا مسلولا ينتقم به من الظالمين من عباده.

ومن ذلك السيد سعد ـ رضي الله تعالى عنه ـ الصحابي المعلوم، حتى كان الصحابة يستعيذون من دعوته. والشيخ محمد بن يعقوب المذكور، كان من هذا القبيل، وكان أسداً من أسد الله تعالى في الانتقام من المستحقين. وكان الشيخ أبو
257 بكر يسميه أسدا. أخبرني أبي ـ رحمه الله تعالى ـ أنه أوتي به زمن صغره* مع ولد لأخيه قريب من قدره في السن إلى الشيخ العارف أبي بكر الدلائي المذكور، فأجلسهما حذوه، فسأل عن ولد الشيخ محمد بن يعقوب منهما، فأشير له إلى أبي. فلما عرفه، جعل يمسح على ناصيته وهو يقول : لا إله إلا الله : هذا ولد السبع الأصم. ولم يزل يكررها ويصيح بها مدة.

وهذه الحالة ـ أعني كونه أخرجه الله تعالى للانتقام من الظالمين ـ اعترف له بها كبراء وقته من العارفين، ومنهم الشيخ محمد بن أبي بكر. أخبرني ـ وغير واحد ـ أنه كان يقول لما اشتدت عليه جرأة قبائل وقته لقلة الأحكام واستقلالهم بأنفسهم :
258 ليت محمد بن يعقوب* يحضر لنا في وقتنا هذا ساعة، وليته أحيى لنا ولو لحظة ثم يعود. وكان هذا مع ما له من كمال الإيمان، وثبت له من قوة التصرف بالهمة.

وكان أبي ـ رحمه الله تعالى ـ، زمن شبيبته، يسكن بجوار الشيخ محمد بن أبي بكر، يلتمس منه البركة لما ظهر تصدره وانتفاع العباد به. وفي بعض أوقات مجاورته له، أغار بعض الظلمة على جيرانه ومنهم أبي، فأخذوا من بيته ما وجدوا. ولما سمع محمد بن أبي بكر ذلك، جاء يسعى إليه على قدمه حافيا على كبر سنه. فلما سمع بسعيه المحاربون، فروا حياء منه وهيبة له. فسأل عن أبي بعد أن تصدعوا عنه فأُتي به
259 إليه، فقال له* : يا ولدي ! ما أهمني إلا خوف قتلك. فإذا سلمت بنفسك، فلا أبالي. والدنيا يخلفها الله تعالى، فأخذ بيد أبي، فتحنن عليه كالأم تتحنن على ولدها الصغير.

ثم إن الشيخ محمد بن أبي بكر في آخر ذلك اليوم خرج إلى أصحابه فرحا مسرورا، حتى إن أصحابه جعلوا يتعجبون من شدة فرحه، فرحا لم يروا منه مثله قط، ثم سألوه عن وجه سروره، فقالوا : يا سيدي ! ما هذا السرور اليوم ؟! هتك المحاربون حرمة ولد الشيخ محمد بن يعقوب وهو بجوارك ولديْك، وأنت في هذا الفرح وهذا السرور ! فقال لهم : ومالي لا أفرح ومثله من يفرح أكثر من هذا ؟ فإن أولئك
260 المحاربين وجدت لهم أعوانا قد صبغوا أيديهم* من هتكهم حرمة ولد الشيخ محمد بن يعقوب صبغا لا ينفك عنهم أبدا، ويلازمهم أثره دائما.

وكان الأمر كما قال : ما مكثوا قليلا حتى ذلوا وغلبوا، واستمر بهم الذل إلى الآن. ولذلك إلى هذا الوقت ما يقرب من مائة سنة. وفي تلك النازلة أخذوا لأبي فرسا أنثى. فلما عرفوها له، ردوها إليه، وولدت عنده مهرة ليس لها إلّا عين واحدة عظيمة في جبهتها، فعاشت يسيرا ثم ماتت، فتعجب الناس من أمرها ولم يبق ممن هو قريب منه إلا أتى إليها ليراها. فسمع الشيخ محمد بن أبي بكر الناس يقولون : ولدت
261 فرس فلان عجبا، فقال لهم : العجب ما يصيب الذين أخذوها منه* ثم ردوها من الهلاك والذل والهوان. فغلب عليهم أعداؤهم قريبا من ذلك، فقتلوهم وانتهبوا أموالهم.

ومن ما وقع من صور الاِنتقام على يد الشيخ محمد بن يعقوب، ما أخبر به الشيخ محمد بن أبي بكر ونقله عنه الثقات. وذلك أن والده العارف المشهور الشيخ أبا بكر، كان في قبيلته(370) مجاط سبعة إخوة فطغوا على من قدروا عليه، فنهرهم أبو بكر فلم يتوبوا، وأنذرهم فلم يسمعوا، فلما أيس من خيرهم شكاهم للشيخ محمد بن

(370) س : قبيلة، ورسمها غير واضح في ك.

262 يعقوب ورفع أمرهم إليه. قال الشيخ محمد بن أبي بكر : فلما بلغ أمرهم إليه ذهب* إلى موضع قريب من قريته يسمى تَغْرُتْ نْتْمْغَرِنْ، لفظ أعجمي وهو معروف بهذا الإسم إلى الآن، فارتفع فيه على رضم حجر هنالك فقال : أيها الصالحون، إن أبا بكر يشكو إليكم أولاد فلان، وكان ذلك في قريب من المشتى ــ ومن عادة قبائل ملوية أنهم ينزلون إلى قرب السواحل فرارا من الجبال في وقت الشتاء كما ذكرنا ــ فلما نزلوا إلى قريب السواحل ماتوا جميعا، فعادت قبيلتهم بوقت الربيع ولم تبق من المشكو بهم عين تطرف.

ومن الوقائع في ذلك أيضا، ما اشتهر وعرف : وهو أن رجلا من أهل قريته
263 كان يحصد زرعا له، فجاءه رجل بغنم له وهو من* قبيلة تسمى بلغة البربر أَزْرُفَنْ[371]، وكانوا طغاة ظالمين. فلما بلغ بغنمه فدان ذلك الحاصد أرسلها في الزرع، فجعل صاحب الزرع يطردها حتى أخرجها من الزرع، ثم أعادها ربها في الزرع أيضا، فأخرجها رب الزرع، فلما تكرر ذلك ضرب رب الغنم رب الزرع بعود فأثر في وجهه، وكان رب الغنم مستضعفا لصاحب الزرع، فانكسر قلب صاحب الزرع وترك رب الغنم وما أراد، فجاء يبكي حتى بلغ إلى الشيخ محمد بن يعقوب
264 وهو قرب داره يقرأ كتابا، فلما* وقف عليه وشكى بضاربه، نظر إلى وجهه فرأى فيه أثر الضرب، فأثر ذلك في الشيخ وتغيظ، فقال : يضرب وجهك على زرعك كأنك دابة، إجلس يا ولدي فإن صاحبك يأتيك الآن. وظن الشاكي أنه يأتي للإعتذار أو نحو ذلك، فجلس ساعة فإذا هو قد أتى به أهله إلى المقابر ميتا. فسألوا عن قصته فقالوا : لما ضرب السجدلتي وترك غنمه في الزرع، وقف ساعة ثم آوى إلى ظل شجرة فأصابته سِنَةٌ تحت تلك الشجرة، فخرجت أفعى من غار فنهشته في رأس أنفه فلم يفق إلا مسموما فمات لحينه، واعتذروا فاستعفوه.

265 ومن مناقبه ــ رضي الله تعالى* عنه ــ، أنه كان يقرئ الجن على ما أخبره به أستاذه، كما تقدم، وروي أن واحدا منهم كان يستحيي أن ينظر إلى الشيخ، فيقول له الشيخ : اِقرأ ؟ وكأنك تستحيي من كونه أنت قاتلي، ذلك أمر الله تعالى، اِقرأ ولا دخل لك في ذلك ؟ ثم إنه اتفق أن قتله ذلك الجني شهيدا في زمن الطاعون، إذ كان ذلك الجني بعد ذلك من جملته. فقد روى الناس أنه نزل الطاعون في بلده ففر

(371) قبيلة تقع حاليا بالقرب من الزاوية الحمزاوية، وفيها نشأت الأسرة التي انتمت إليها هذه الزاوية (انظر: ع. العياشي، **الإحياء والإنتعاش**، مصور خ ع، رقم 1433د، ص. 6).

الناس إلى خارج المنزل، فمكث هو صابرا محتسبا، فقيل له : إن دواء الطاعون الإرتحال، فقال لهم : في أي شعبة وفي أي مكان أختفي عن الله تعالى ؟ وفي هذا
266 الطاعون بعث إليه الشيخ* أبو بكر من الدلاء حين شاع في جيرانه وأولاده وتعلقاته، وكان ولده الشيخ محمد بن أبي بكر غائبا بالمشرق، فقال : إن محمدا ولدي غائب وأمه تعلق قلبها بلقائه كما تعلقت قلوبنا بذلك، وأنت ترى ما نزل من أمر الله تعالى، فما ترى هل يكون لنا لقي به أم لا ؟ فقال الشيخ محمد بن يعقوب للمرسول، قل له : أما أنت فإنك تلقاه، وأما أنا وغيرك فلا أدري، يعني بالغير أمه، فكان الأمر كما أشار ـ رضي الله تعالى عنه ـ، مات هو بالطاعون(372)، وماتت أمه وبقي الشيخ أبو بكر حتى لقي ولده، وعاش بعد ذلك زمانا.

267 فلما نزل الطاعون في بلده وصبر هو صبر معه فرقة من أهل الدين*، فبينما هو يوما مع جماعة في مكان معد لما يستعان به على الوضوء حول المسجد، إذ قام يدفع بكفه في الهواء ثم وقف وقد أصابته الرعدة، فقال للحاضرين : أبلغوني منزلي، فأخذوا بيده حتى بلغوه منزله فأوقدوا النار حذوه بقصد التسخين لما كان به من حمى باردة، فلما أفاق من الرعدة التي أصابته من الحمى الباردة سألوه وكانوا متعجبين من حاله، حيث قام يدفع في الهواء ثم أصيب، فقالوا له : رأيناك تدفع بكفك في الهواء ثم أصابتك الرعدة واقفا، ما ذلك ؟ فقال لهم : إنه دخل الجن الموكولون بإصابة الناس
268 بهذا الطاعون فأصابتني* الرحمة عليكم، وفيهم جني كنت أقرئه، فقمت أدفعهم عنكم، ثم صادفتني ضربة ذلك الجني منهم كنت أعلم أنه يصيبني، فقال له آخر : ويحك أصبت الفقير، فقال له المصيب : هذا أمر الله تعالى ليس فيه فقير ولا غيره.

قلت : ونحو هذه الوقائع التي صحت حكايتها عمن يوثق ببصيرته، تدل على أن الطاعون رجس يصاب به الناس على أيدي الجن كما اشتهر على ألسنة العامة، وليس هو فساد المزاج من فساد الهواء وخبثه كما يقول الأطباء، والله أعلم.

وبعد أن أخبرهم الشيخ بما وقع له، قال لهم : أجلسوا لي ولدي محمد
269 لأوصيه، يعني* ولده محمد الكبير، وكان مريضا بالطاعون، وكان له ولد آخر صحيح لم يصب به حينئذ اسمه إبراهيم، فقال له الجلساء : أوص الصحيح، فقال لهم : أجلسوا

(372) عرف المغرب هذا الوباء عام 1005هـ/1697م، ودام حتى عام 1007هـ/1599م. كان مصدره أوربيّاً، وسجلت بداية انتشاره في كل من تطوان وفاس (راجع : B. Rosenberger et H. Triki, «Famines et Epidemies au Maroc...», in H.T., vol. 14 et 15, p. 44).

لي من قلت لكم، فأجلسوه وأوصاه، فقال له : هذه الدار إن قدر لك الخروج منها فلا تبعها، وأخوك محمد الصغير، يعني أبي، استوصي به خيرا، ولم يذكر إبراهيم، ثم قال له : وغرضي أن لا تخرج من بلدك إن أمكن لك، ونسخة البخاري ــ وكان قد أمر بنسخها ــ أتممها، فإن الله تعالى يبعث لها قارئا منكم.

ثم برئ محمد الذي أصيب ووصى إليه، ومات إبراهيم وسلم محمد الصغير، 270 وظهر أثر وصيته* ببقاء الدار وأثر رغبته فيها. وذلك أنه خرج من بلده لما صاهر أهل الزاوية، أعني أولاد الشيخ أبي بكر، وبقي أخوه، أعني أبي، في البلد وفي دار أبيه، ففاض عليه فيها خير الدنيا والآخرة مما لم يفض على أخيه الخارج، مع أنه أكبر منه، حتى كان يفتقر إليه. ورأى النبي ــ ﷺ ــ في المنام في تلك الدار، ومنها حج بيت الله الحرام. فلما توفي الشيخ رحمه الله تعالى وتوفيت طائفة من أهل بيته، رآهم بعض الناس في المنام فقال لهم : ما فعل الله تعالى بكم وأين أنتم ؟ فقالوا له : ﴿**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ**﴾[373].

هذا تمام ما أردنا إيراده من أخبار الجد فلنشرع الآن في أخبار الوالد فنقول :

[محمد بن محمد بن يعقوب]

271 قد صحت* الرواية عن الجد ــ رضي الله تعالى عنه ــ أنه أخبر بأن ولده الصغير يكون له شأن في الدين، ويدل على ذلك وصيته لولده الكبير بأن يستوصي به خيرا، ونحن أدركنا له أحوالا رفيعة، وكانت له كرامات في حياته وبعد مماته ــ رضي الله تعالى عنه ــ على ما سنذكر بعض ذلك قريبا.

وكانت أمه، أعني الوالد رحمه الله تعالى، من فخذ من قبيلته الولالية يسمون : بني وعزّان، وكان لأبيها نية صالحة، فخلق الله تعالى لنيته الوالد بما هو به من الأوصاف الرفيعة الدينية على ما سنذكر، ولم يخطبها أبوه، بل خطب ولده محمد 272 الأكبر بنتا لذلك الرجل، وكان من جملة* حملة **القرآن** ومن أهل الدين والخير، فأعطاها له، فلما ذهبوا ليأتوا بها عروسا، قال لهم والدها المذكور : لا تذهبوا بالكبرى للصغير إلا أن تذهبوا بالصغرى للكبير، فترددوا في ذلك ثم شاوروا الجد

(373) سورة البقرة، الآية 156.

فوافقهم وولدت له محمد بن محمد بن يعقوب[374] الصغير المذكور، وكان في حضانة أخيه الأكبر، وأعطي من الحفظ والفهم ما يقل من أوتي مثله، إلا أن لسانه غلبت عليه العجمة.

وعلومه النحو والتوحيد والفقه والحديث والتصوف، ونشأ في العبادة صغيرا، وخالط الصالحين أهل مكانه وزمانه، وأولاهم به الشيخ محمد بن أبي بكر، تردد إليه
كثيرا في وقته. وكان الوالد ــ رحمه الله تعالى ــ أعز* الأصحاب لديه، ولما توفي قال 273
أصحابه : إن لم يرث هو حاله فلن يظهر له وارث.

والشيخ محمد بن أبي بكر، كان إمام وقته معرفة وعلما، وكانت له محبة عظيمة في أهل البيت، وكان له مقام رفيع في التصرف بالهمة وفي موافقة القدر لقوله، حتى روي عنه أنه كان يقول : لو اهتممت بهذا الجبل لا نقض، ويقول : إني لأتكلم بكلمة هزلًا فتكون حقا، وأطلب الإقالة منها فلا أجدها، وكل ما أقول فأكتبوه. وشيخه هو الشيخ المشهور العارف الكبير أبو عبد الله محمد الشرقي[375] دفين
تادلا[376] بموضع يسمى أبا الجعد*[377]. 274

وكان محمد ابن أبي بكر، فقيها عالما له فهم خاص في الحديث. وكان في حياة أبيه أبي بكر مطاوعا له، خائفا أن لا يقوم بحقه. وروي عنه أنه كان يقول مع شدة محافظته على طاعة أبيه : إني لأتفقد وجهي خوف المسخ مما أخشى من تضييع حق الوالد. وكان يشهد لأبيه بالمعرفة والولاية الكبرى، وربما يفتخر بذلك. وكان بعض فقهاء فاس يقول : لو لم يكن في محمد بن أبي بكر إلا طاعته لأبيه لكفاه. وسنذكر بعض معاملته لأبيه وما يقول فيه.

ولقي أجلة أهل وقته مثل الشيخ أبي الطيب الميسوري[378]، والشيخ عبد الله

---

(374) عاش محمد بن محمد بن يعقوب ــ حسب ما أشار إليه ابنه في سياق لاحق من «مباحث الأنوار» هذا ــ ما يناهز 73 سنة. وبناء على عدة مؤشرات أمكننا تعيين سنة ميلاده في حدود 1001هـ، وهو تاريخ قريب الإحتمال ويؤكد ما قلناه عن سنة وفاة أبيه التي كانت بين 1005 و1007هـ. لأن ابنه محمد كان صبياً في هذا الإبان. أما وفاته، فتحملنا المعطيات على الإعتقاد بأنها كانت حوالي عام 1074هـ/ 1663م.

(375) انظر الهامش 62.

(376) انظر الهامش 297.

(377) انظر الهامش 299.

(378) انظر الهامش 353.

بن حسون السلاوي[379]. وروي أنه ذهب إليه فوجده قد أعرى رجليه وذراعيه لمن شاء تقبيلهما، وكان* محمد ابن أبي بكر شديد التحافظ على أمور الظواهر لفقهه وعلمه بالأحكام، فخطر بباله أن هذا التعري لماذا ؟ وبنفس ما خطر له ذلك، قال الشيخ عبد الله بن حسون : من قيل له من مس لحمك لم تمسه النار، كيف لا يعري لحمه لمن يمسها ؟ فجلس الشيخ محمد بن أبي بكر - رضي الله تعالى عنه - إلى جنبه، - وكان عاقلا - فجعل نفسه طول ذلك اليوم كالحاجب على الشيخ عبد الله بن حسون، فلا يأتيه إنسان بحرز يكتبه له إلا أخذه من ذلك الإنسان فمده للشيخ عبد الله بن حسون ثم يقبل يده، فإذا كتبه أخذه من يده مقبلا له مرة أخرى ثم يمده لربه، وغرضه من ذلك كثرة تقبيل يده لما سمع من قوله. 275

276 ولقي أيضا الشيخ* العارف ابن مبارك التستاوتي[380]. ولقي أيضا الشيخ الكبير الشأن الورع العزيز، أبا عبد الله محمد بن محمد الملواني[381]، ولما لقيه طلب منه الصحبة، وكان - رضي الله تعالى عنه - يكلم النبي - ﷺ - يقظة، فلما طلب منه الصحبة، قال له حتى استأذن، ثم استأذن بأن قال : يا رسول الله، محمد بن أبي بكر يطلب منه الصحبة، أقبلها له أم لا ؟ فسكت هنيئة ثم قال : تعال قد أذن لي في عقد الصحبة لك، ثم قال له : جئت لسكنى تَغْيَ[382] وكانت بلدة

(379) هو عبد الله بن حسون الخالدي، من الفقهاء المتصوفين، الآخذين بالطريقة الجزولية. انتقل من مدشر سلاس بأحواز فاس إلى مدينة سلا، وهو من المتخرجين في فاس على يد عبد الواحد الونشريسي وطبقته. انقطع طوال حياته للتدريس والخطابة بسلا. وبالرغم من استغراقه في التصوف، فإنه كان يتمتع بحاسة وطنية مرهفة. توفي في 12 محرم 1013هـ/10 يونيو 4-1605م (انظر: أ. ابن القاضي، **درة الحجال**، ج 3، ص. 62، ترجمة 979؛ م. اليفراني، **صفوة**، ص. 19؛ م. القادري، **التقاط الدرر**، ص. 44؛ **ونشر**، ج 1، ص. 129؛ م. الحضيكي، **طبقات**، ج 2، صص. 252-254؛ م. اليفراني، **سلوة**، ج 2، ص. 39؛ أ. الناصري، **الإستقصا**، ج 6، صص. 109-110).

(380) هو محمد بن مبارك الزعري، صوفي مشهور وصاحب زاوية. أخذ عن الشيخ أبي عمرو المراكشي وله أتباع كثيرون. توفي بالطاعون عام 1007هـ/1598-1599م. ودفن بتاسوت من بلاد زيان بعيدا عن ضريح أبي يعزى بنحو 25 كلم (راجع : م. الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص. 128؛ م. الفاسي، **تحفة أهل الصديقية**، ص. 5؛ م. اليفراني، **صفوة**، ص. 249؛ م. القادري، **نشر...**، ج 1، ص. 66؛ س. الحوات، **البدور الضاوية**، ص. 71 وما بعدها؛ أ. الناصري، **الإستقصا**، ج 3، صص. 93-108؛ م. السوسي، **المعسول**، ج 18، صص. 167-168).

(381) شيخ صوفي يتصل سنده بالنبي محمد ﷺ مباشرة، كانت وفاته عام 1030هـ/1620م (انظر: م. القادري، **النشر**، ج1، ص. 238؛ س. الحوات، **البدور الضاوية**، ص. 93).

(382) تكتب «تغي» أو «تاغيا»، والمراد بها قرية موان الواقعة في أيت حديدو جنوب ميدلت؛ وليس المراد بها =

ملوان[383]. تسمى تغي، بفتح التاء وسكون الغين وفتح الياء – فقال : نعم ! فررنا
من الفتن، فقال له : الوفود التي تأتيك من بلدك لا تسعها* تغي، اِرجع إلى بلدك 277
فإن العود الذي يتعرض لك قد كسر. فكان الأمر كما أخبر، غلبت قبائله الموقرون له
القبائل المعترضون له.

ثم لم يفارق الشيخ محمد بن أبي بكر مكان الشيخ محمد الملواني المذكور، حتى توفي – رضي الله تعالى عنه – فصلى عليه الشيخ محمد بن أبي بكر، وقال يوم موته : قد توفي في هذا الشعب اليوم رجل عظيم. فلما توفي رجع إلى زيز[384]، وبه ضريح الشيخ المبارك أبي وكيل[385]، وفيه أعلم بما اتفق عليه الصالحون من أمر رجوعه إلى بلده. فروي عنه أنه قال : بعث إلَي الشيخ أبو وكيل بعض الصالحين ممن توفي لأقف على قبره، فذهبت إلى ضريح أبي وكيل، فلما دخلت عليه الروضة خرج من
قبره، وأولياء* الله تعالى أحياء، فجلس على التابوت ودلى رجليه إلى الأرض، فقال لي : 278
قم لتعود إلى بلدك وهات شروطك وأنا أعرض عليه شروط أهل الله، فإذا قبلتها فارجع لموضعك، فقلت له : والله لا قدمت شروطي على شروط أهل الله، فقال له أبو وكيل : هي إقامة حق المسكين، وابن السبيل، وأهل البيت، وطلبة العلم، فعدد عليه أمورا فقبلها محمد بن أبي بكر مستعينا بالله تعالى، وقد أوفى بها بعد ذلك. وذكر له شروطه هو، منها : أن لا ينتقص دينه بمخالطة العامة. فلما رجع إلى بلده أظهر أن القبائل المعترضين له يغلبون ويذلون، فكان [الأمر][386] كما أخبر.

= «تاغيا» المشهورة التي فيها ضريح مولاي بوعزة بين وادي زم وولماس. ونجد هذه اللفظة البربرية في مختلف نواحي المغرب ومعناها يختلف حسب المناطق : فهي تعني «الجبل» أو «الغابة» وترادف لدى لاوست «الخانق» [في قولهم : «إكَاس تاغيا» أوْ «يوكَاس تاغيا»، أي خنقه أو شنقه] (E. Laoust, **Contribution...**, p. 43).

(383) أصل الكلمة من «ملوانة» التي هي تعريف لكلمة «إيملوان» البربرية، وهي قبيلة صنهاجية ذكرها كل من البيدق في كتاب **الأنساب** وابن خلدون في الجزء الخامس من كتاب **العبر**. كانت مواقعها في القرن السادس الهجري في جنوب الأطلس الكبير وقد تفرقت وانفصمت وحدتها من زمان واندمج الكثير من أبنائها في قبيلة أيت يمور ولم يعد الآن للقبيلة وجود إلا في أسماء بعض المواقع الجغرافية التي تذكرنا بطريق هجرتها في كل من وسط غريس ودرعة العليا وفركلة وأعالي دادس وفي منطقة تاغيا حيث توجد خمس قرى منذ القرن الثاني عشر الميلادي (انظر ل. بروفنسال، **تاريخ الموحدين**، ص. 146)؛ كما توجد بعض فصائلها بين سيدي قاسم وزرهون (راجع أيضا : ت. العلوي، «أصول المغاربة»، م. **البحث العلمي**، عدد 23؛ De la Chapelle, **Un document...**, p. 56, note 52).

(384) هي المنطقة التي يجري فيها وادي زيز.

(385) صوفي مشهور ذكر باسمه عند س. الحوات (**البدور الضاوية**، ص. 116).

(386) سقط ما بين العلامتين من ك.

279 وقد أخبر عنه أبي ـ رحمه الله تعالى ـ وغيره بأمور* كثيرة من الكشف، منها أنه قال له : لما التقى الجمعان، أعني جمع قبائله وجمع القبائل المعترضين له، ذهب إليهم وأنزل في العمارة الفلانية، وكانت عمارة من جهته في جهة العدو تمنعها من أخذها، فإن ذلك الفريق يغلب، فذهب ونزل في تلك العمارة، فكان الأمر كما قال.

ومنها أنه سأله عن امرأة له كانت بنت صاحب الشيخ محمد بن أبي بكر ما حالها ؟ فقال له الوالد : إنها تشكو عدم الذرية، فقال محمد بن أبي بكر : أخبرها أني ضمنت ثلاثة، وأشار بأصابعه الثلاثة إلى جهته، فكان الأمر كما قال. تزايد لها ذكور ثلاثة، وعاشوا حتى كانوا بأولادهم.

280 ومنها* أنه قال لأبي : ملوية لقبائلكم أربعين سنة، ثم قال له أبي : ثم لمن ؟ قال : ثم تكون في يد السمسار، فكان الأمر كما قال. كانت لقبائلهم أربعين سنة ثم أخرجوا منها وصارت تتداولها القبائل. ومنها أنه أخبر أن القبائل الأعداء له ولقبائله بعد غلبتهم يعودون لعداوتهم ثم يغلبون، فكان الأمر كذلك.

ومنها أن الشريف الأجل، العالم السني الأكمل، أبو محمد مولاي عبد الله بن علي بن طاهر السجلماسي[387]، كان له ولد عزيز اسمه : عبد الهادي[388] فغاب
281 بفاس، وهو حينئذ معه بالزاوية والطريق مخافة، فتخوف على* ولده، فقال له الشيخ محمد بن أبي بكر، وكان يعرفه ينكر وقائع الفقراء، ما تقول يا مولاي عبد الله إن أخبرتك بشيء مما يخبر به الفقراء من الغيب ؟ فقال له : ما ذاك ؟ قال : إن ولدك

(387) أحد حفاظ المغرب الثلاثة في عصره، وأشهر علماء تافيلالت. درس أولا على فقهاء سجلماسة ثم فاس، حيث أخذ عن كبار علمائها في عصره، خاصة الإمام القصار. تصدر للتدريس في مسقط رأسه، إلا سنوات قليلة قضاها في مراكش والدلاء. توفي عام 1044هـ/1634م. ترجم له الكثيرون منهم : أ. ابن القاضي، **درة الحجال**، ج 3، ص. 60؛ أ. العلوي، **الأنوار الحسنية**، ص. 26؛ م. اليفراني، **صفوة**، صص. 3ـ4؛ م. القادري، **نشر**، ج 1، ص. 321؛ م. الحضيكي، **طبقات**، ج 2، صص. 213ـ215؛ إ. الفضيلي، **الدرر البهية**، ج 1، صص. 263ـ265؛ م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 2، ص. 522.

(388) عالم وصاحب تآليف كثيرة، هو أكبر أبناء المولى عبد الله، ويكنى بأبي محمد. لازم الطلبة دروسه في جامع القصبة بمدغرة. وفي سنة 1056هـ/1544هـ، ذهب إلى الحج. وهناك توفي ودفن بالمدينة المنورة (انظر: م. اليفراني، **صفوة**، ص. 130؛ م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 32؛ أ. العلوي، **الأنوار الحسنية**، ص. 66؛ م. القادري، **الدرر السنية**، ص. 55؛ إ. الفضلي، **الدرر البهية**، ج 1، صص. 265ـ267؛ م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 2، ص. 523.

مولاي عبد الهادي هو الآن في كذا، ويأتيك قريبا في كذا، فقال له : ننظر ما تقول ! فجاءه في الوقت الذي عين له، وسأل أين [كان][389] في الوقت الذي ذكر له أنه الآن فيه، فأخبر بما يطابق ما قال، فقال له : لقد وافقتك القدرة، ولم يستطع أن يقول إن ما يقوله الفقراء صحيح حفظا على الجري على ظاهر الشرع والعادة. ووقائعه ـ رضي الله تعالى عنه ـ في نحو هذا أكثر من أن تحصى. وكان يقول مع رفعة
282 حاله : لو علقنا بأشفار عيننا ما بلغنا* خصلة من خصال الوالد، يعني والده أبا بكر، فقيل له ما هي ؟ فقال : الصدق، فقيل له : وأنت لا تكذب فقال : إن في المعارض مندوحة عن الكذب، وسيدي أبو بكر لا معارض له.

وكان لأبي عنده مكانة ومنزلة رفيعة، وكان لأبي فيه نية عظيمة ربما يعتقد فيه القطبانية. ومن مواصلته له ومحبته العظيمة فيه، حصل له منه انتفاع عظيم في الدين والدنيا. فكان له رحمه الله تعالى من الشوق ورقة القلب في جانب الألوهية والنبوءة ما بهر، حتى إنه ـ رضي الله تعالى عنه ـ لا يستطيع أن يسمع مديح النبي ـ ﷺ ـ
283 في غالب أمره، ويتعجب ممن يقرأ كتب المواعظ وكتب أهوال* عظمة القدرة، كمواقع القيامة، إذ كان لا يستطيع سماعها خوف موته بتمزق قلبه وحضرته يوما تقرأ بين يديه همزية البوصيري[390] شكرا لله تعالى سعيه صبيحة يوم المولد النبوي أو سابعها، وقد بلغ من ينشدها إلى حيث ذكر الصالحين، وأنه يحاول أن يصل إليهم، وقد فاقوه مع كبر سنه، فجعل يبكي رحمه الله تعالى بكاء شديدا، حتى بكى لبكائه من حذوه، ثم غلبه حاله، والعين تبكي والأنف يبكي حتى كان الجسد كله يبكي، فقام يذهب
284 حافيا، وماشاه الناس إلى منزله، فمرض لذلك مدة. وحضرته* وقد أوتي بورقة فيها بعض وصف النبي ـ ﷺ ـ، فقرأ فيها عن أنس قد قال :

ما قط لمس من الحرير ومن الديباج   ألين من راحة ذي المعراج

فلما قرأ هذا البيت صاح صيحة فسقط.

(389) ق : هو.

(390) «**الهمزية**» و«**البردة**»، قصيدتان لشرف الدين محمد بن سعيد البوصيري المتوفى عام 696هـ/1296م. وهما في مدح النبي محمد ﷺ. إحداهما ميمية تعرف بـ«**البردة**» وأخرى «**همزية**» ومطلعها :

كيف ترقى رقيّك الأنبياء   يا سماءً ما طاولتها سماء

اعتنى بها المغاربة وتعددت شروحها، منها «شرح الصومعي» الذي امتاز بعدم الإستطراد ويوجد هذا الشرح بالخزانة العامة على شكل مخطوط تحت رقم 232 كـ (انظر: م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 1، ص. 49).

ووعظ يوما ثم ذكر حديث : «إن أهل جهنم يجتمعون على الآمر بالمعروف والنّاهي عن المنكر وقد دار بأقتابه في جهنم كما يدور الحمار برحاه فيقول له : أليس كنت تامرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر فيقول لهم : كنت آمركم بالمعروف ولا أفعله وأنهاكم عن منكر ثم آتيه»[391]. فلما استشعر معنى هذا الحديث صاح وسقط سكران.

285 ولما أمر الشيخ محمد بن أبي بكر ولده محمد الذي تولى إمارة المغرب* بعد موت أبيه بالحج، وكان أبي ـ رحمه الله تعالى ـ مشتاقا لرسول الله ـ ﷺ ـ، ومشتاقا لزيارة بيت الله الحرام، وكان إذ ذاك ابن نحو أربعين سنة ـ شوقا يكاد أن يقتله، فمنعه الشيخ محمد بن أبي بكر شفقة عليه لقلة ذات يده، عظم عليه الشوق حتى إنه عزم على معصية شيخه إن أبى بعد المراجعة، فجعل يراجعه في ذلك ويتوسل إليه. ثم إنه بعث إليه ولد أخيه عبد الرحمن بن محمد، بعد أن هيأ أمورا من الزاد، ليقول له : إني تيسر لي ما أحج به لعله يأذن، فلما بلغه ولد أخيه أذن له، فجاء
286 ليعلمه بذلك. فلما رآه مقبلا، قام عن جماعة من الناس كان بينهم، خوف أن* يقول له ما لا يحب من المنع في تلك الجماعة، فلما خلا به قال له : ماذا قال الشيخ ؟ قال له : قد أذن لك والحمد لله تعالى.

فلما سمع تلك الكلمة لم يسمع ألذ منها، فلم يملك نفسه ـ وقد طارت الدموع من عينه فرحا ـ أن طار في السماء مع ما له من كمال الهدنة والمروءة، فضرب برجليه في الهواء وهو يقول : يا بشراي ! ثم قال لولد أخيه : بشرتني بحجتي، بشرك الله تعالى بحجتك. وكان والد أخيه لا يخطر بباله الحج لاشتباكه بأشغال أبيه وخدمته تعلقا به مع قلة ذات اليد، فلما رجع ولد أخيه إلى أبيه قال له : ماذا فعل عمك
287 محمد ؟ قال له : قد أذن له في الحج، فقال* له أبوه : عمك تعرف منزلته لدينا، فتهيأ لتذهب معه، فإنا لا نستطيع أن ندعه مسافرا للحج وحده.

فذهب معه إلى الحج يخدمه خدمة العبد لسيده، وانتفع بذلك وظهر صلاحه من يومئذ، فكان لا يفتر عن طاعة الله تعالى وذكره، وكان كريما صابرا قليل الكلام، حتى توفي على أحسن حال، موافقا لعمه طول أمده. وقد اتفق له مع عمه من سفرهما معا، ما فيه مناسبة لحجّهما معا، وذلك أن العارف المشهور الشيخ أبا بكر

(391) أخرجه البخاري في «كتاب بدء الخلق والفتن» عن أسامة.

الدلائي المتقدم ذكره، أوتي بهما إليه وهما صغيران، لأنه وإن كان عمه لا يفوته في
السن إلا بيسير، فوافقا لديه ماء زمزم قد أهداه له بعض من حج، فجعل يمس ذلك
288 الماء* بيده ويسمح بها على نواصيهما، فاتفق أن حجا معا.

وأخبرني أبي رحمه الله تعالى أنه لما توجه نحو المشرق، طفق الناس يزورون من
يظن به الخير، ويشار إليه بالصلاح، قال : وجعلت لا أتوجه لزيارة أحد ممن يشار
إليه ويزوره الناس، إلا تعرض لي الشيخ محمد بن أبي بكر في قلبي، حتى أشرفت على
مدينة الرسول ـ ﷺ ـ فلم أجد له حسا في قلبي. وأخبرني أنه كان يعتقد أنه
يموت هنالك من قوة حال حب دهمه هنالك، إلا أن الله تعالى الذي أمسك
السموات والأرض أمسك فيه الروح، ويسكر في بعض الأوقات حتى لا يبقى له
289 إحساس بالكلية. أخبرني* أنه كان حذو الروضة المشرفة، فقرأ من **القرآن** حتى وصل
إلى قوله تعالى : **﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ، وَلَا تَجْعَلْ فِي
قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا، رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾**(392). غلبه حال سكر فبقي أمدا
[يطؤه](393) الناس بالأقدام فما أحس بها. وأخبرني أنه وقف عليه رجل من أهل السر
ولا يعرف، فمسح وجهه في أثناء الطواف بشيء أذكى من المسك.

وأخبر عنه الحاج محمد بن محمد بن أبي بكر، أنه كان يظن به أنه يموت من
شدة ما اعترته هنالك، وكان يقول : كان محمد بن محمد بن يعقوب حين حججنا
290 معه يبكي منه كل شيء حتى أضلعه، وكان يشهد له بالولاية العظمى*، ويقول ـ مع
ما له من هيبة الملك والإمارة في زمن توليه مشيرا إليه ـ : لا يجلس لي ذلك الرجل
من جهة إلا مات لي ذلك الجنب حتى يقوم عني فيعود الروح إليه. وهذه الهيبة
عرفناها له وعرفها به كل من رآه، فكان إذا رآه إنسان خاف منه.

أخبرني بعض كبراء أهل البيت، أنه دخل مع بعض إخوته في زمن إمارة الحاج
محمد بن محمد بن أبي بكر(394) عليه في مجلسه ومعه عظماء أصحابه، قال : فلما

---

(392) سورة الحشر، الآية 10.

(393) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : يطأه. ولعل الصواب ما أثبتناه.

(394) هو المعروف بمحمد الحاج، ولد عام 997هـ/8–1589م. كانت دراسته بالزاوية الدلائية وتوجه إلى الحج 1041هـ/1–1632م. وبعد موت أبيه عام 1046هـ/1636م، ظهر له نزوع إلى الإستقلال عن السعديين بمراكش، فأسس الزاوية الدلائية الحديثة وغدا زعيما سياسيا ودينيا للقبائل البربرية في الأطلس المتوسط وشرع في أعماله الحربية والتوسعية. انتهت زعامته عام 1079هـ/1668م على يد مولاي رشيد بمعركة «بطن الرمان» توفي بتلمسان 1083هـ/1671م (راجع : م. حجي، **الزاوية** =

جلسنا عنده وقد لحقنا شيء من هيبة ملكه، نظرت إلى رجل في طرف القوم بيده
291 كتاب، فنظر إلي ذلك الرجل، فدخل رعب منه في قلبي أنساني* هيبة الملك، بل تعدى على ذلك حتى كنت أهم بالفرار من نظرته خوفا، وكأن الأسد الذي يخشى من نزوته ينظر إلي، فسألت عنه فقيل لي ذلك محمد بن محمد بن يعقوب، قال : فبقيت أتعجب من هيبته مع أني لم أكن أعرفه قبل ذلك.

وأخبرني رجل ممن أثق به أنه جن في زمن شبيبته، ثم اتفق أن مر الوالد رحمه الله تعالى بإزاء عمارتهم فشكوا إليه جنونه فجاء ليقف عليه، قال : فبينما أنا في غمرة الجنون، إذ سمعت الناس يقولون : جاء السيد ابن يعقوب، وكان يدعى إلى جده، فلما سمعتهم، مثل لي في حال الجنون، أن الأسد جاءني، فلما دَخل علي ووضع يده
292 على رأسي، مثل لي أن الأسد* باطش برأسي، ففزعت من ذلك الجنون وبرئت[395]. وكان يقول : كأن الجني الذي مسني قتله الأسد، فمن يومئذ ما رأيته.

وكان له حظ عظيم من الاجتهاد في العبادة مع أحوال صافية شريفة، وزهد في الدنيا ومعاملة أخروية في ماله. فأما اجتهاده في العبادة فأمر معلوم له من صغره إلى أن توفي رحمة الله تعالى عليه، وقد عاش نحوا من ثلاثة وسبعين سنة، وداوم على أوراده ولا يزال فيها في ازدياد، وهذا مما عرفه به كل من خالطه. وقد لقيت الناسك المرتضى يوما، وهو المرابط الصغير[396] من أولاد الشيخ أبي عمرو المراكشي فقال لي : كيف
293 أبوك ؟ فقلت له بخير، ثم قال لي : كنت أعرف* له اجتهادا عظيما في الدين، وهل بقي كذلك ؟ فقلت له : كما تعهده أو أكثر.

وكان كثير الصيام، لا يفطر من الدهر إلا القليل، وكان لا ينام من الليل جله، ولا يزيد في نومه على نصف الليل إلى أن توفي. وأخبر هو عن نفسه أن النوم لا يأتيه في النصف الآخر من الليل أبدا. وأخبر أن سبب ذلك ـ مع توفيق الله تعالى ـ أنه حين بلغ مصر في ذهابه إلى الحج، قيل له : إن هنا أمة من إماء الله

= **الدلائية**، ص. 149 وما بعدها؛ وانظر ترجمته في : م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 196؛ س. الحوات، **البدور الضاوية**، ورقة 114 وما بعدها ؛ أ. الزياني، **البستان**، ورقة 5/أ؛ **والترجمان المعرب**، ص. 362).

(395) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : وبرأت. ولعل الصواب كما أثبتناه.

(396) هو أبو عبد الله محمد الصغير بن أبي عمرو المراكشي (انظر: ح. اليوسي، **المحاضرات**، ط. الرباط، ص. 130).

تعالى دفينة يزار ضريحها، تسمى : سَتٌّ نْفِسْ(397)، من ذهب لزيارتها راكبا للحمار
تواضعا، وطلب عندها أن لا يأتيه نوم في وقت من الليل استجيب له، قال : فزرتها
294 كذلك وطلبت عند ضريحها أن يذهب* عني النوم في النصف الآخر من الليل
فاستجيب لي. فكان لا يأتيه النوم في النصف الآخر بوجه ولا بحال، وأدركناه نحن
وهو يقومه بتلاوة **القرآن**، ويبكي إلى أن يصبح، وهذه حالته حضرا وسفرا، ولم تمر
عليه ليلة في عمره إلا يتلو فيها **القرآن** العظيم ويبكي بكاء دائما شديدا.

وكان له بيت في داره إليه يأوي في تهجده، وبظهر ذلك(398) البيت بيت بابه
للخارج، بيت به رجل كثير المزاح، فكان يسمعه كل ليلة يتلو **القرآن** ويبكي بكاء
شديدا، فقال للناس يوما : هذا الرجل ــ يعني الوالد ــ يبكي كل ليلة ولا يدعنا
لننام، وأي شيء فعل حتى يبكي هذا البكاء ؟ وإنما أكل الشعير ! وقصد بذلك
295 المزاح* والمضاحك(399). وفي النهار يخرج «**دلائل الخيرات**»(400) مرتين، ثم يشتغل
بذكر الله ويقرأ أحزابا كثيرة : كـ«**الوظيفة الزروقية**»(401) و«**الأحزاب
الشاذلية**»(402) وغيرها. وكان شديد الغضب إذا رأى منكرا.

وأما معاملته الأخروية في ماله، فكان كثيرا يتصدق من غير فخر ولا إفشاء،
ويقري الضيف ولا يسمي إضافته الزاوية، مع أنه كان أكثر إطعاما ممن اشتهر بتسمية

---

(397) هي نفيسة بنت الحسن بن علي بن أبي طالب، تقية صالحة، عالمة بالتفسير والحديث. ولدت بمكة عام 145هـ/762م ونشأت في المدينة وانتقلت إلى القاهرة، وبها توفيت عام 208هـ/824م. كان العلماء يزورونها ويأخذون عنها، لأنها سمعت كثيرا من الحديث. وللمصريين فيها اعتقاد عظيم وقبرها مزارة معروفة بمصر (انظر: خ. الزركلي، **الأعلام**، ج 8، ص. 44؛ أ. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج 2، ص. 169).

(398) س، ق : تلك.

(399) كذا وردت في النسخ المعتمدة. ولعل الصواب هو: المضاحكة.

(400) كتاب للشيخ الجزولي وعنوانه «**دلائل الخيرات ومشارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار**»، وهو كتاب ضم صيغا متعددة للصلاة على النبي بكيفية مبسطة. وقد جمعه ودونه الشيخ محمد الصغير السهلي أخص تلامذة الشيخ الجزولي. وقد تعددت شروح «**دلائل الخيرات**» في العصر السعدي، منها : «**الأنوار اللامعات في شرح دلائل الخيرات**»، لعبد الرحمن الفاسي، وقد طبع على الحجر بفاس عام 1317هـ ؛ و«**شرح دلائل الخيرات**»، لمحمد الفاسي ولا يزال مخطوطا.

(401) انظر الهامش رقم 11.

(402) منها **الحزب الكبير** وأوله ما عند ابن عطاء الله وابن عباد والشيخ زروق : ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم وإذا جاءك الذين يومنون بآياتنا فقل سلام عليكم..**﴾. ومن شروحها : «**شرح الحزب الكبير**» وهو المعروف بـ«**حزب البر**» لعبد الرحمن الفاسي و«**شرح حزب البحر**» لأحمد الصومعي (انظر: م. الفاسي، **مرآة**، صص. 58–63؛ أ. المقري، **روضة الآس**، ط. الملكية، 1964، ص. 301).

ضيافته الزاوية. وأعتق من العبيد جماعة، ولا يستنكف مع وجاهته عند العام والخاص أن يكون مؤذنا، فكان يؤذن أحيانا، وهو المتولي إمامة مسجده احتسابا. وعلمه كما
296 ذكرنا : الحديث ومطالعة «**التفسير**» مع «**التوحيد**»، وما يحتاج إليه من* الفقه والتصوف. وعليه ابتدأت أنا قراءة النحو، ففتح لي معه فيه فتحا مبينا. وكان يرحم الضعفاء ويداري على المساكين، وله حظ وافر من إجابة الدعوة والإستشفاء من الأمراض الشاقة، وقد دعا لي أنا يوما بالعلم الظاهر وغيره، وظهر أثر دعوته لي في العلم، ونسأل الله تعالى أن يستجيب فينا له في كمال العلم وفي غيره.

وكان له نوع من قهر الجبابرة، وقد سكن وسط بلدة قبيلة مجاط، وكانت لهم سطوة وكثر فيهم الظالمون من قلة الأحكام، ومن ذلك لا يستطيع أحدهم أن يمس أطرافه ولا أطراف من سكن معه، لأنهم شاهدوه دعا على أفراد منهم فهلكوا لحينهم،
297 وكان واحد من جبابرتهم أساء معه الأدب وآذى بعض قرابته، فقال له : أعطاك* الله مصيبة تجد المدخل ولا تجد المخرج، فركبته والعياذ بالله تعالى في قريب من الزمن علة الإستسقاء، ولم تزل به حتى مات. ودعا لأقوام بالمال والولد فظهر ذلك فيهم، وفي أولادهم. وكان الناس في قحط بارتفاع الأمطار فجاؤوه للإستسقاء فقال لهم : أنا يسقى زرعي بماء العين وأنتم بحال الإضطرار، فاطلبوا الله تعالى، فاستقوا مرارا ولم[403] يغاثوا فرجعوا إليه، فدعا، لهم فانهلت السماء أمطارا حتى حييت الزروع[404] والنبات. وأخبرني رجل ثقة، أنه خرج معه وهما يمشيان في الزروع للناس في عام قل
298 فيه المطر، فوجدها محتاجة إلى الماء* وكادت أن تيبس، فأدركته الشفقة فرفع طرفه إلى السماء ودعا بالغيث ــ وكان ذلك الرجل لبيبا ــ قال : ولما دعا أدركت في نفسي الإستجابة، فكان الأمر كما ظننت، فجاءت الأمطار الغزيرة وحييت الزروع.

وأما صفاء باطنه فدل عليه أنه لا يزال يتلو **القرآن** ويبكي، وكثيرا ما تدركه أحوال المحبة والشوق والخضوع والهيبة حتى إنه ربما مرض منها. وتقدم أنه كان يتعجب ممن يستطيع أن يسمع مدح النبي ــ ﷺ ــ أو يقرأ علم المواعظ من رقة قلبه
299 وصفاء باطنه. وقد حضر وقتاً مجلس الشيخ ابن مسعود اليوسي، وكانت تعجبه قراءة النحو، فألقاه يتكلم في الضمائر، وذكر أن الضمير كناية عن المدلول، يسمى بذلك في اصطلاح بعض أهل العربية، قال : لأنه ليس فيه تصريح بالمدلول، فانجر به الكلام

---

(403) ق، ك : فلم.

(404) ق : الزرع.

حتى ذكر عن بعض الصالحين حكاية، وهي أنه كان يكثر أن يقول هو هو مكررا، وكان ذلك ذكره، فوقف عليه إنسان فقال له : ما تعني بهو ؟ فلما لم يجبه، قال له : الله تعني ؟ قال : فلما سمع اسم الجلالة، انقطع صوته ومات.

فلما سمع الوالد رحمه الله هذا الكلام صاح بطرف المجلس صيحة عظيمة
300 وسقط مغشيا عليه أمدا، حتى سكن(405) أهل المجلس من هول حاله*.

وأما زهده في الدنيا فكان لا يمسك شيئا منها ولا تسبب فيها بغير وقوف على حرث في وقتين، وقت من زمن الحراثة، ووقت من زمن الحصاد، فإذا أخذ من ذلك قوته وقوت عياله أعرض عما سوى ذلك. وكانت الدنيا تأتيه من كل وجه، وتصلح له في كل سبب، فكان ينفقها حتى لم يترك لأولاده ما يرثون من أثاث ولا من عين ولا من حيوان إلا شيئاً يسيراً تافهاً لا بال له. وكان من عادته ـ رحمة الله تعالى عليه ـ أن من حضر عنده، قريبا كان أو بعيدا، يعطيه ما أهدي له في المجلس ولا يقوم بشيء منه إلى أهله.

301 وهذا أمر يعرفه الناس به حتى* الملوك، وكان السلطان في ذلك الوقت، وهو محمد بن محمد بن أبي بكر، ربما طلع في محلة إلى جهة ملوية للإصلاح بين قبائله، فكان كلما طلع خرج الوالد ـ رحمه الله تعالى ـ إليه، ومعه أمة خدمة مع عبدها يعزل لها خيمة ويكون هو، أعني الوالد في خيمة أخرى، ويأتي معه بما يحتاج إليه من الدقيق والإدام واللحم، فيصنع للسلطان طعاما كل يوم، وقصده من ذلك مداراته مع التمكن من أكل طعام نفسه، وكان يعجب السلطان ذلك الطعام ويرغب في أكله
302 للبركة. وكان قاضيه إذ ذاك، الشيخ محمد بن عبد الله(406) الملقب البكري، فحضر* القاضي يوما عند الوالد فجاءته صدقات كثيرة وهدايا، فأعطاه جميع ذلك على عادته في إعطاء الحاضر ما أوتي به ـ وكانت الدنيا عزيزة عند ذلك القاضي ـ فلما وسع على القاضي الرزق من جهة الوالد من تلك الصدقات، صار ملازما له وانقطع عن السلطان لئلا يفوته ما يوتى به، ففطن به السلطان بعد أن انقطع لذلك نحو ثلاثة أيام، فقال له السلطان وقد جاءه وقت الغروب : أين كنت تقيل في هذه الأيام حتى لا تأتينا نهارا ؟ فاعتذر له أنه في شغل القضاء، فقال له السلطان : والله ما شغلك

(405) وردت في ق هكذا : سكت، والأنسب ما أثبت.

(406) ذكره نشر المثاني وأشارت إليه الطرة المثبتة في هامشه رقم 24 من الصفحة نفسها. توفي عام 1089هـ/1678م (راجع : م. القادري، نشر، ج 2، ص. 248 وهامش رقم 24).

303 القضاء عنا ولا هو لك بخلق، إنا نعرف أين تقيل ! وإنما* كنت تقيل عند الشيخ
محمد بن يعقوب لتفوز بما يأتيه من الهدايا والصدقات، لأنك تعلم أنه لا يمسك شيئا
ويعطي ما كان منها للحاضر، فخجل القاضي.

ومن زهده في الدنيا أنه كان لا يلبس الكتان في الصيف ولا في الشتاء، وقد
أهديت له جبة من الملف أهداها له بعض إخوانه في الله ليلبسها، فساعد المهدي في
غرضه وتركها عنده. إلا أنه كان لا يلبسها إلا قليلا مع جبة صوف أخرى، ويلبس
كثيرا البرنس المصبوغ بالسواد أو المخلوق كذلك. وفي سنة من السنين صنعت له
جبة من غليظ الكتان وكمها إلى الكوع فلبسها قليلا ثم تركها، فما رؤي لابسا
304 للكتان بعد كما لم ير قبلها. وكان يجاعل أولاده* على قراءة العلم رغبة فيه، فيقول
لأحدهم : إن حفظت كذا فلك كذا، أو إن فهمت كذا فلك كذا، ويفي لهم لتتم
رغبتهم، وأنا قد أعطاني على ختم خليل باللوح مهرة من جياد الخيل، وأعطاني بقرة
على ختم الرسالة، جازاه[407] الله تعالى عنا في حرصه على خيرنا في دار الكرامة.

وله وقائع وكرامات في حياته وبعد مماته. فمن كرامته في حياته ما أخبرت به
امرأته مع جماعة ممن حضر من العجائز ومن خدم بيتها. وذلك أنه رضي الله عنه كما
تقدم، كان يلازم التَّهجُّد ثم لا يقصد في النهار مرقدا، ولكن ربما غلبته عيناه في أي
305 مكان، ثم إنه يوما غلبته عيناه بين أهل بيته وقد استند* على مرفقه بادي الوجه، ولما
غلبته عيناه اضطرب نور ظاهر على وجهه، فبصرته أمرأته فقالت لمن حضر من
العجائز والخدم : هل ترين ما أرى ؟ فقلن نعم ثم اضطرب ذلك النور على وجهه مرة
بعد مرة حتى بهرهن الأمر، وعادة النساء قلة الصبر على السكوت، فماج بعضهن في
بعض بالتكلم فأفاق.

ومن كرامته وهي بشرى له ببعض أولاده من غير تعيين، أنه قام يوما ليصلي
الصبح فذهب ليفتح الباب الذي ينغلق على داره، فتعرض له في الغلس شخص قبل
فتح الباب فقال له : أنا بشير لك، فاستعاذ من الشيطان لأنه كان ـ رضي الله
306 عنه ـ متثبتا، وكان ذلك المكان لا يصل إليه رجل والباب منغلق، فتيقن أنه لم*
يدخل ذلك الشخص من خارج، فقال له : لست بشيطان، وإنما أرسلت لأبشرك،
فعلم أنه ليس بشيطان ثم قال له الشخص : أبشرك بأن من أولادك مباركا، يكون له

(407) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : جازه. والصواب ما أثبتناه.

عند الله تعالى شأن. قال : وبنفس ما أخبرني لم أجده، مع أن الباب لم يزل محكم الغلق ولا طريق سواه، فعلمت أنه ذو خصوصية وأنه صادق.

[ومن كرامته رضي الله تعالى عنه أنه مرض في بعض السنين، فلما رأى النساء وأولاده دهشوا من خوف موته وبكوا، قال لهم : لا تبكوا، فإني لا أموت إلا بعد كذا وكذا إن شاء الله تعالى، فإنه كلمني هاتف من السماء فأخبرني أني لا أموت إلا بعد ذلك الأجل، وكان الأمر كما قال](408).

ومن كرامته رضي الله تعالى عنه إخباره لأهل الزاوية بحضرة أهل العلم : أن عرب الغرب لا يصلون إليهم بسوء بعد أن خالفوا وعصوا(409). وقال لهم إني أرى أن قارئا يقرأ، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفاها الله، ويسعون في الأرض فسادا. وكانوا(410)
307 يثقون بمرائيه*(411) فسروا بذلك، ووقع الأمر كذلك، فغلبوا مرة بعد أخرى وأطفئت نارهم.

وكذلك إخباره لهم بأن سلطان مراكش ينهزم(412)، وذلك حين غزاهم، ووقع

(408) سقط ما بين العلامتين من ق، ك.

(409) كان الخلاف بين العياشي والدلائيين ناتجا عن اختلاف في وجهات النظر حول توحيد البلاد. وقد حاول محمد الحاج تلافي كل اصطدام بالعياشي إلى أن كانت المواجهة الأولى في فاس سنة 1641م. ولكن محمد الحاج الذي لم يستطع هزم العياشي عسكريا، التجأ إلى وسائل التفرقة بين هذا المجاهد وأنصاره من قبائل الغرب، وذلك بتدبير عملية اغتياله من لدن عرب الخلط. على أثر هذا الإغتيال، صارت بلاد الغرب في يد محمد الحاج. إلا أن عبد الله العياشي الذي كان العضد الأيمن لوالده أراد أن يثأر والده، فحشر لذلك أنصاره من قبائل الغرب والتقى بجيش الدلائيين بالقرب من «أحد كورت» الحالي في أوائل ربيع عام 1053هـ/1643م فكانت الغلبة للدلائيين الذين طردوا أنصار العياشي من مساكنهم وأكثروا فيهم القتل (راجع : م. اليفراني، **نزهة الحادي**، ص. 270 وما بعدها؛ م. حجي، **الزاوية الدلائية**، صص. 154–158؛ م. الشاذلي، **«الحركة العياشية»**، ص. 198؛ **مجلة كلية الآداب الرباط**، ص. 185.

(410) ق : وكان.

(411) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : مرائه. والصواب ما أثبتناه.

(412) كانت علاقة الدلائيين بالسلاطين السعديين علاقة مجاملة، وبقوا حتى بعد أن انكشف ضعف هؤلاء الأخيرين وتفسخت سلطتهم. متشبثين بالولاء للسعديين. كما عملوا في الوقت نفسه على تكوين قوة محلية متحاشين الإصطدام بهم. وفي عهد محمد الحاج الدلائي الذي خلف أباه سنة 1406هـ/ 1634م، تغيرت الأمور. فبعد عراك كلامي بينه وبين سلطان مراكش محمد الشيخ الأصغر، صمم على قبض زمام الحكم في المغرب، فكانت بين الطرفين معركة أبي عقبة سنة 1048هـ/1636م على ضفة وادي العبيد انهزم على أثرها محمد الشيخ السعدي ورجع جيشه إلى مراكش (راجع : م. اليفراني، **نزهة**، ص. 281؛ م. القادري، **التقاط الدرر**، ص. 109؛ **ونشر**، ج 1، ص. 376؛ م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 131).

الأمر كما قال. ومن كرامته ـ رضي الله تعالى عنه ـ ما وقع له مع سلطان الوقت[413] وذلك أن بعض من يعاند ذلك السلطان من سلاطين زمانه[414] تلطف حتى دخل له أصعب المدن عليه وأعظمها، فهمَّه شأنه وخاف أن يكون دخوله سبب ذهاب ملكه، وكان من عادة هذا السلطان إذا همَّه أمر لجأ إلى دعائه وتوجهه إلى الله تعالى، فلما دخل له ذلك السلطان تلك المدينة، لقيه وخلا به في مكان، فقال له يا
308 سيدي : إن ذلك الرجل دخل تلك المدينة، والأعداء كثيرون والناس* متشوفون إليه كما علمت، فدخل علي من الهم ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فأنا لا تخرج من يدي حتى تتكفل لي على فضل الله تعالى أنه يخرج منها بلا ضرورة لنا. وأخذ بطرف ثوبه ولواه على يده، فقال له : هذا مقام العائذ بحرمتك، ولا أطلق ثوبك من يدي حتى تتكفل لي بأمر ذلك الرجل، فقال له الوالد : ـ رضي الله عنه ـ كيف أتكفل لك بأمر غيب لا يعلمه إلا الله تعالى ؟ هذا مما لا يقوله أحد ! ولكن نسأل الله تعالى اللطف والعافية.

ولم يزل الأمير يكرر ويشدد في المسألة، والوالد ـ رضي الله تعالى عنه ـ يعتذر له، فلما ضيق عليه سمع هاتفا، والأمير لا يسمعه، يقول : يسل ذلك السلطان من
309 تلك المدينة كما* تسل الشعرة من العجين[415] وكان سماعه ذلك موجبا لتيقنه بحصول مراد الأمير، فقال له : إن كنت تتوب إلى الله تعالى في أن تجهز بعد هذا جيشا للمسلمين، وتقف عند حدوده تعالى، فأنا أتكفل لك بحول الله وقوته، أن ذلك الأمير يخرج من بلدك ولا يصل إليك في هذا الوقت بأذى، فقال له : نعم يا سيدي فأنا

(413) هو محمد الحاج الدلائي (راجع هامش رقم 394).
(414) يقصد به هنا المولى محمد بن الشريف الحسني (انظر هامش رقم 415).
(415) هذه إشارة إلى دخول المولى محمد بن الشريف مدينة فاس عام 1060هـ/1660م. ذلك بأن الدلائيين عندما استولوا على مدينة فاس عام 1051هـ/1641م، ولوا حاكما عاما على أقسامها الثلاثة : عدوة الأندلس وعدوة القرويين (فاس القديم) ثم فاس الجديد، وعرفت المدينة في هذه المدة عهدا امتاز بالطمأنينة والإستقرار، لكن هذا الصفاء لم يلبث أن تطور إلى خلاف مسلح بين فاس الجديدة والقديمة، فاستنجد أهل الأولى بمحمد الشريف الذي لبى الدعوة ودخل هذه المدينة وقبض على القائد التملي. ولما وصل الخبر إلى محمد الحاج، جمع جيشا قويا وكثيرا من البربر وتقدم إلى فاس، فالتقى بمحمد بن الشريف في المكان الذي يسمى «ظهر الرمكة» عام 1060هـ. انهزم جيش محمد بن الشريف واستسلمت المدينة وعادت إلى طاعة الدلائيين، فرجع محمد بن الشريف إلى سجلماسة (انظر: م. اليفراني، **نزهة**، ص. 283؛ م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 51؛ أ. الناصري، **الإستقصا**، ج 7، ص. 19؛ ع. ابن زيدان، **إتحاف**، ج 3، ص. 131؛ م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 209).

تائب إلى الله تعالى، فلأجهزن للمسلمين(416) جيشا. فتعاقدا على ذلك فخرج. ثم توجه السلطان للذي دخل له تلك المدينة وكان يتخوف منه أن يتحصن بها حتى ينقلب عنه فيتبعه في إفساد مملكته، ثم إنه لما قاربه، خرج إليه فبارزه فهزم وانفصل عن تلك المدينة، ولم يأخذ منها شيئا.

310 ومن كرامته أيضا* ــ رضي الله تعالى عنه ــ الواقعة المشهورة الغريبة التي وقعت له مع المحاربين، وذلك أن منزله كان قرية صغيرة في بعد من المدن، واختارها للتفرغ للعبادة وللبعد عن كثرة ملاذ الدنيا، وكان محل تلك القرية وهو ملوية، مواليا لجبال القبائل التي عادتها حرفة الحرابة لا سيما في أوقات الغلاء، إلا أن ملوية تكون معمورة بقبائلها من غير وقت شدة البرد، وفي وقت شدة البرد ينزلون إلى جهة السواحل فرارا من ثلوجها وبردها، ثم إن فرقة من قبيلة بالجبل يسمون آيت ستيري(417) قتلت فرقة أخرى ففرت لتبعد عن أولياء المقتول إلى حمى قرية الوالد ــ

311 رحمه الله تعالى ــ، فآواهم إليه لانقطاعهم له، وقطع لهم قطعة من أرضه يحرثون* فيها ويحيون مواتها، وبقوا هنالك سنين مستندين إلى رحمته، وقد حال بينهم وبين إذاية قبائل ملوية. فلما اصطلحوا مع أولياء المقتول، رجعوا إلى الجبل ــ وقد خالطوا أمور قرية الوالد وعرفوا شأنها ــ فذهب منهم واش إلى بني عط من قبائل الجبل الذين هم أصل قبيلتنا الولالية كما تقدم، فقال لهم : ها هنا قرية لأهلها مال كثير، وهي أهون من نسج العنكبوت، لأن أهلها ضعفاء ولا شركة لهم عددا ولا عدة، وقبائلهم ينزلون عنهم

---

(416) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : فلا أجهر لمسلم. والسياق يقتضي أن تكون كما أثبتناه.

(417) تضم أيت ستري أو أيت أسري حاليا أربع قبائل هي : أيت أم البخت وأيت ويرا وأيت محند وأيت عبد اللولي. تحتل السفح الشمالي للأطلس المتوسط المطل على سهل تادلا بين أم الربيع ووادي العبيد، ومركزها الإقتصادي هو القصيبة. وقد أشير إلى وجودها بهذا الموقع منذ 1104هـ/2-1693م (راجع : أحمد الناصري، **الإستقصا**، ج 1، ص. 80). إلا أنه يظهر من خلال النص أنها لم تكن قد وصلت هذا الموقع في منتصف القرن الحادي عشر الهجري. وربما دل هذا على صعوبة تحديد مواطنها بدقة في المرحلة التي تكلم عنها النص. وتذكر روايتها الشفهية بأنها من صنهاجة، ولم تكن تتكون في البداية سوى من أيت عبد اللولي فقط، التي نزحت من نواحي تافيلالت. وخلال مرحلة هجرتها، أضيفت إليها أيت محند المنسلخة عن أيت محند بجنوب أزيلال، ثم أيت ويرا وأصلها من أيت شخمان، وأيت أم البخت وهي من أصل متنوع. وقبل وصول أيت أسري إلى الضفة اليمنى لوادي العبيد، أي قبل القرن الثامن عشر الميلادي، ساهمت في تكوين قبائل أيت عباس وأيت مزيع وأيت أوكوديد وأيت بوزيد وأيت عتاب الذين هم الآن في ناحية أزيلال (انظر: **De la Chapelle, Un Document...**, p. 31, note 3; J. Drague, **Esquisse...**, p. 172, note 8; L. Mezzine, **Contribution...**, p. 237, note 103; J. Drouin, **Un cycle...**, p. 54).

في وقت الشتاء وحولهم قرى بعيدة عنهم لا يصل إليهم خبرهم إذا وقع فيهم أحد
312 حتى يفوز آخذهم ببلوغ المتمنع*، وقال لهم ذلك الواشي : وأنا أذهب معكم إن غزوتهم حتى أوقفكم عليهم فتربص بنو عط إلى وقت الشتاء، فلما دخل وعرفوا أن قبائل ملوية انفصلوا عنها، أتوهم مع ذلك الواشي ـ على أن يكون عينا لهم ـ بمائة وخمسين راميا لا تكاد تسقط له رصاصة بالأرض، فلما قاربوا القرية كمنوا في الغابة إلى الليل، وعزموا على أنهم يتفرقون على دور القرية وهي قليلة متفرقة، فيكون على باب كل دار نحو ستة أو سبعة، فإذا خرج صاحبها لصلاة الصبح أخذوه وأوثقوه قيدا أو منعوه من الصراخ، حتى إذا جمعوهم في القيد، فعلوا في القرية ما شاؤوا وأخذوا أموالهم
313 فيذهبون في الغابة على مهل[418]. ثم إن من لطف الله* تعالى لتصديق ما أخبر به الوالد، وهو أن الصالحين تكفلوا له بحفظ تلك القرية وأنه لا يؤخذ ساكنوها، أن ذهب ثلاثة من أهل القرية ليصطادوا في الغابة، أحدهم ولد الوالد وهو أخونا عبد السلام، وثانيهم ولد بنته، وثالثهم مولى يأوي إليهما، فتوجهوا نحو مكمن المحاربين من غير قصد، فلما قاربوهم وعرف المحاربون أن الكلاب تقع عليهم وينتذرون بها، قالوا فيما بينهم : قوموا لنحيط بهؤلاء الثلاثة فنحبسهم معنا إلى الليل لئلا ينذروا أهل القرية، فقاموا ليحيطوا بهم فنذروا بهم ففروا، فتفلت الإثنان وحبس المولى، فلما عرفوا
314 أن الإثنين ناجيان تبعوهم في الحين، وقالوا : نأخذهم الآن فنفوز بأموالهم* وندخل بها الغابة قبل أن ينتذر أهل قرى ملوية، فتبعوا أثرهم.

فلما بلغ الإثنان القرية وجدوا الوالد خارجا من المسجد وقد صلى العصر، فقالا له : المحاربون عليكم وها هم بإثرنا، وقصا عليه الخبر، فلم يتما[419] الكلام حتى

---

(418) رأينا في الهامش رقم 308، كيف تأسست اتحادية أيت عطا بين القرن التاسع والعاشر الهجريين، وأنها بدأت تلقي بعناصرها في اتجاهات مختلفة. وهكذا نجدهم منذ النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري يمارسون ضغوطا مختلفة على سكان المناطق التي توجهوا نحوها. وإذا كان «**مباحث الأنوار**» هذا يشهد على الضغط الذي واجهته أعالي ملوية من لدن هذه العناصر العطاوية، فإنهم مارسوه أيضا في جهات أخرى وخاصة على القبائل المستقرة على طول ممرات الأطلس الكبير. كان هذا الزحف والتعسف من قبل عناصر اتحادية أيت عطا مقرونا بالأزمات العامة التي عرفتها البلاد، وتمكنوا خلال القرن الثاني عشر الهجري من الوصول إلى مشارف السهول الداخلية والسيطرة على مجموعة من الواحات في درعة وتافيلالت (راجع : **De la Chapelle, Un Document...**, p. 15, note 19, p. 19; **Spillman, Les Ait Atta...**, pp. 10-44, 74; **Mezzine, Contribution...**, p. 147, 679, 725, 750).

(419) ق : يتم.

انكب[420] عليهم المحاربون ورموهم بالمدافع حتى صار الرصاص بين أيديهم ومن
خلفهم مثل البرد، ولم يحضر مع الوالد في القرية إلا نحو اثني عشر رجلا، والباقي
غاب لجهة القبلة ليأتوا بالتمر منها، وكان من عادتهم السفر لسجلماسة للإتيان بالتمر،
ثم إن من حضر معه مات منهم ثلاثة وجرح واحد جرحا منعه من التحرك، فعظم
الأمر على الوالد فتوجه نحوهم وبيده* عصا[421] يتوكأ عليها، فرموه ولم يصيبوه بأذى، 315
فدعا الله تعالى فانهزموا عند العشي بين يدي تلك الشرذمة الحاضرة مع الوالد، مع أن
جلهم ليس له مدفع، وإنما بيده سيف أو رمح، فتبعوهم إلى الغروب فلم يزالوا يهربون
طول الليل حتى أصبحوا بقرية في الجبل بينها وبين قريتنا نحو مسيرة يومين. وأخبروا
عن أنفسهم بعد ذلك أن الخيل لم تزل تتبعهم طول الليل، وما بالقرية من خيل ولا
رجل، ولكن الله تعالى نصر عبده وحفظه من هتك الحرمة.

ولما وقعت له هذه الواقعة وتعجب من أمرها الحاضرون، سأله بعضهم بأي
اسم دعا عليهم، فقال : والله ما قلت حينئذ إلا نحو ما قاله أهل الغار حين انحطت
عليهم* الصخرة ففرج عليهم كما في «**صحيح البخاري**»[422]، وذلك أني قلت : يا 316 317
رب إن كنت عملت عملا ابتغاء وجهك فلا تفضحني في النساء والصبيان بهؤلاء
المحاربين.

وأما كرامته ــ رضي الله تعالى عنه في إجابة الدعوة ــ وقد تقدمت الإشارة
إليها ــ فأكثر من أن تحصى، وكذا في برء المرضى.... وأما كرامته بالمرائي والتباشر بها
فكذلك، وكان كثيرا يرى النبي ــ ﷺ ــ، وقد رآه مرة فكشف له عن خاتم النبوءة
حتى قبلها[423]، فيكون بفضل الله تعالى آمنا لما ورد أن تقبيلها ورؤيتها أمان. وكان ربما
يرى بعض بناته ــ ﷺ ــ أو* أزواجه الطاهرات حين يقرب أن تتزيد له بنت 318
فيسميها باسم من رآها. ولما قربت وفاته ــ رحمه الله تعالى ــ، رأيت في المنام أن
الشيخ محمد بن أبي بكر أتاه فخرج معه إلى خارج المنزل وهما متشابهان، فقال له
الشيخ محمد بن أبي بكر مشيرا إلي : ابن من هذا ؟ فقال له الوالد : ابن فلانة،
فقال له الشيخ : تبارك الله، مكررا له ثلاث مرات. فلما أفقت قصصت عليه الرؤيا،

---

(420) ق : أنكا.

(421) س : عصى.

(422) ذكر البخاري حديث أصحاب الغار في «كتاب الأدب» وذكر ثلاثة أدعية تتعلق بتوسل أولئك إلى الله بأعمالهم الصالحة : رضى الوالدين واجتناب الزنا وحفظ حق الأجير.

(423) ك : فقبلها.

فقالت لي امرأته : رأيت الشيخ محمد بن أبي بكر ولم تقل له ولا طلبت منه شيئا،
فقال لها : أنا قلت له ما قلت، فعرفت أن بينه وبين شيخه سرا في أمري*. 319

ولما أراد الله تعالى فتنة أهل قريته من كثرة مساوئهم، بنوا القصبة بسبب هذه
الواقعة التي أنجاهم الله تعالى منها عن غير رضى منه، لما تحقق عنده أن الصالحين
تكلفوا بحفظ القرية الأولى وسلامتها، فكانوا في تلك القصبة، ثم قال يوما : أخليتم
تلك القرية بمناكركم، ومن اشتغل منكم بالمنكر في هذه القصبة أتلفه الله عنها، فأخذوا
فيها بعد وفاته كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، ثم لم يلبث في تلك القصبة إلا قليلا أن
توفي بلا مرض طويل، بل صلى العشاء الأخيرة ـ وكان حينئذ ضعيفا من الهرم ـ فلما
آوى إلى فراشه وكان له ولد صغير يضطجع معه، قال لأمه : خذ هذا* الولد إليك، 320
فقد نزل بي شيء، فأعلمت الناس وأولاده فاجتمعوا إليه وهو في هيئة الراقد يمكث
كذلك ساعة ثم يقوم ليتقيأ شيئا قليلا، ولم يزل كذلك إلى أن انفصلت عنه[424]
روحه المقدسة برحمة الله تعالى عند طلوع الفجر. وأخبرني بعض من يخدمه أنه في
نهار تلك الليلة أو قبله بيوم خلا بنفسه فسمعه يقول : اللهم أقبضني إليك بين يدي
هذا العار، وكأنه كوشف له عما يقع بتلك القرية.

وبعد وفاته بنحو عام، ونحن بالزاوية البكرية منقطعون للقراءة، جاءني يوما
صاحبنا الصالح الأبر، الفقيه النبيه، الشيخ محمد بن عبد الرحمان[425] فقال لي* : 321
ألك أخ اسمه محمد قد مات منذ زمان ؟ قلت له : نعم ! وهو كان بعيدا عن معرفة
أمورنا لبعد البلد من البلد، فقال : سبحان الله ! ومدها، فقلت له : وما ذاك ؟ قال
لي : رأيت البارحة الميت الفلاني، وسماه لي فعرفته، وكان مات بالقرب، وهو من طلبة
العلم لا يفتر عن طلبه، وهو من أهل الدين والخير، إلا أنه يقل ما يحصل له من
العلم، ومع ذلك هو مثابر على طلبه، فتوفي في طلب العلم غريبا ـ رحمة الله تعالى
عليه ـ، وحضر جمهور من الطلبة جنازته، وهو من بلاد ثدغ[426]، بلدة معروفة

(424) ک : عليه.

(425) انظر الهامش رقم 241.

(426) «ثدغ» أو «تدغه» مجموعة من القرى بالسفح الجنوبي للأطلس الكبير على وادي دادس على الطريق الواصل حاليا بين قصر السوق وورزازات وعلى النهر الذي يحمل الإسم نفسه. وقد أشار إلى وجودها في هذا المكان كل من البيدق (في **أخبار المهدي**، ص. 51)؛ والحسن الوزان (في **وصف إفريقيا**، ص. 148)، وهي حاليا تابعة لمركز تنغير وذات مركز استراتيجي هام بين إقليم تافيلالت وورزازات، وتشتهر بنخيلها وجمال طبيعتها وبها عناصر بشرية متنوعة (راجع : أيضا : **«Villes et Tribus du Maroc», Tribus Berbères, T. 2**).

بالصحراء، قال : رأيته في المنام وأنت حاضر معي، فقلت له : ما فعل الله تعالى
322 بك ؟ فقال : خيرا بحمد الله تعالى، قال* : فلما حضرت أنت سألته عن أبيك،
فقلت له : كيف أبو فلان ؟ فقال لي : لا تسأل عن أبيه، بل اسأل عن أخيه محمد
وأنا أعطيك خبره، هو في الجنة ينتعم مع المؤمنين، وأما أبوه فقل من فاز برتبته، فإنه
أقامه الله تعالى مقام المحبوبين لا مقام المحبين، قال : فأفقت ولا علم لي بأن لك أخا
اسمه محمد قد مات، فإذ قد كان فهو مصداق الرؤيا، فأبشر واحمد الله تعالى على
حال أبيك. فحمدت الله تعالى، لأن الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح بشرى من الله
تعالى، كما ورد : «إن الوحي قد انقطع ولم يبق إلا البشرى بالرؤيا الصالحة يراها المومن
323 أو ترى له»[427].... وأخونا محمد هذا قد مات قبل أبيه* بسنين وكان متنسكا متعبدا
يحفظ «**الرسالة**»[428] كما يحفظ **القرآن**، ولم يزل يتلوها، وكان حبيبا مهابا لا يحضر
مجلساً فتوتي[429] فيه الحُرم، رحمة الله تعالى عليه وعلى جميع من مات من إخواننا.

وأما كراماته بعد وفاته ــ رضي الله عنه ــ فقد ظهرت للعامة واشتهرت لديهم،
وبعضها أقوى مما وقع له في الحياة. فمنها الواقعة الغريبة والمعاملة العجيبة التي شاهدها
أهل المكان ووقفوا على حقيقتها في قريب من هذا التاريخ، وهو عام تسعة بعد المائة
324 والألف، وذلك أن عجوزا من قبيلة يسمون بني حم[430]، استثقلها* أهلها إذ ليس
منهم ولد لها ولا قريب حميم، فلما أرادوا الاِنتجاع من ملوية إلى جهة السواحل على
عادة قبائل ملوية، إذ لا يستطيعون الثواء بملوية، قالوا لها : أُدخلي هذه الروضة ــ
يعنون روضة الوالد رحمه الله تعالى ــ حتى نرجع إليك بمركوب تنتعجين به معنا،
وقصدهم غدرها وتركها للتلف لطول عناهم بصحبتها، وكان المكان إذ ذاك خاليا
وليس بإزاء الروضة قرية ولا عمارة على مسيرة نحو اليوم، فدخلت الروضة تنتظرهم،

---

(427) هذا حديث ورد كما يلي : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لم يبق بعدي من النبوة إلا المبشرات، قالوا وما المبشرات ؟ قال الرؤيا الصالحة» أخرجه البخاري متصلا، ومالك عن عطاء مرسلا. وزاد مالك : يراها الرجل المسلم أو ترى له (انظر: الزبيدي، **تفسير الوصول إلى جامع الأصول**، ط. دار المعرفة، بيروت، ج 1، ص. 213).

(428) انظر الهامش 17.

(429) رسمها غير واضح في النسخ المعتمدة. ولعل الصواب ما أثبتناه.

(430) لم نجد في خرائط المنطقة ولا في معجم القبائل، قبيلة بهذا الاِسم حاليا، وكل ما نجده هو اسم مركب وفي عدة أمكنة متباعدة : ناحية الرباط ومراكش ومكناس وزكورة وتافيلالت، مثل : أيت حمو ــ أدير، وأيت حمو ــ بولمان التي هي في عداد القبائل الزمورية. ومن المرجح أن هذه القبيلة هاجرت من أعالي ملوية وتفرقت قبل القرن التاسع عشر الميلادي.

325 فذهبوا عنها وغدروها وانتجعوا إلى جهة السواحل وغابوا عنها أربعة أشهر*، فلما دخل
وقت الربيع جاءوا إلى ملوية لحاجة لهم بعد توجههم [بالحلة](431) من جهة المشتى إليها، وأظن أن مرادهم الإطلاع على أمر الزرع كيف نباته، وظنوا أن العجوز قد أكلها السبع أو الذيب أو ماتت جوعا وبردا، فآل بهم الأمر إلى أن مروا بإزاء الروضة فقال بعضهم لبعض : ليت شعري ما فعلت العجوز التي تركناها هنا ؟ فنادتهم من الروضة : قد غدرتم وما غدر الله عز وجل ببركة جوار أوليائه، فاستحيوا منها ونزلوا إليها فخرجت إليهم، وقد تعجبوا من أمرها. فقالوا لها : أخبرينا عن عجيب أمرك الغريب ؟ كيف عشت ولم ندع لك طعاما ولا كسوة ؟ فقالت لهم : يا أولادي !
326 آواني صاحب هذه الروضة ــ رضي الله تعالى عنه* ــ وقام بمؤنتي وبالإحسان إلي،
قالوا لها : كيف ذلك ؟ قالت لهم : إذا أمسيت مد لي من القبر إناء مملوء بالكسكسون، وإذا أصبحت مد لي ذلك الإناء كذلك، فآكل حتى أشبع، ثم أذهب إلى العين فأشرب، ثم أرجع إلى الروضة، ولم يزل دأب هذا الرجل معي في الضيافة كذلك في كل ليلة لا يتبدل طعامه، إلا في عشية يوم وصباحه فقد مد لي في إحداهما خبز والأخرى حريرة فيها كثير حب من عجين، ولم أدر ما السبب ؟ وكفاني الله تعالى مؤنة البرد فلم يهلكني.

فلما رأوا مصداق قولها من عيشها في الخلاء بلا زاد ولا كسوة أربعة أشهر
327 حملوها وعظموها، وشاع خبرها في قبائلهم، فبلغ ذلك رئيس تلك القبائل*، وهو
المولى عليهم وهو حي إلى الآن، فاستدعاها واستدعاهم وأحضر جمعا من تلك القبائل، حتى تقررت عنده تلك القصة أولا وآخرا، وأقروا بغدرها تلك المدة، وبخهم على غدرها وعظم أمرها وأمر بتجديد الروضة له ــ رضي الله تعالى عنه ــ ولما سمعنا هذه القصة تشوقنا لمن يحقق لنا أمرها كما هو، فلقينا رئيس هذه القبائل مع جماعة من أهله ــ فقص علينا أمرها كما هو ــ وكان ثقة ــ مع أنها متواترة غنية عن وثوق مخبر.

ومنها الواقعة التي هي أخت الغرابة ومقابلتها في الظهور وحقيقة الكرامة، وقد
328 سافر صاحبها من بلد إلى بلد ليخبر بها ويشيعها مع أنه* شاهدها أهله. وهو أن
رجلا من قبيلة يسمون بني وَفَلّ(432) من قبائل جبل ملوية، كان نازلا بمنزل حذو

(431) سقطت من ق، ك.

(432) «أيت وفلا» من البربرية ومعناها أهل المنطقة العليا (الفوقاني). وهي قبيلة صنهاجية من «مسوفة» ومن قدماء اتحادية أيت إدراسن الذين انتقلوا من الصحراء واستقروا على ضفاف وادي زيز وغريس. وفي نهاية القرن السادس عشر الميلادي، استأنفت أيت وفلا تقدمها نحو الشمال وغدت في القرن السابع عشر =

الروضة قبل خلائه، وعنده بنت زمنى طالت بها الزمانة أكثر من ست سنين، قال :
فلما طال بي أمرها، وضجرت من حالها، حملتها وألقيتها في تلك الروضة ونيتي غدرها
وتركها إلى أن تموت أو تبرأ، قال : فلما أدخلتها الروضة، قلت لها : يا بنية ! أمكثي
في هذه الروضة لعل الله تعالى يعافيك ؟ قال : فخرجت عنها وأخذت بلجام فرسي،
وكان معي ابن لي صغير بلغ على(433) أن يثبت على السرج إذا أخذ له بلجام الفرس،
فأركبته وقدت الفرس باللجام، قال : فمشيت يسيرا نحوا من عشرين خطوة أو
329 ثلاثين*، فسمعت إنسانا من القبور يقول : يا أبتي يا أبتي(434) ! ففزع قلبي
واستبعدت أن تكون البنت قد عوفيت في تلك الساعة، وخيل لي أن بعض أهل
القبور هو المنادي، إذ ليس ثم عمارة غيرها، قال : فأعرضت عن ذلك الصوت
ذاهبا، والتفت الصبي فرآها وعرفها، فقال : يأبي ! هذه أختي فلانة قد تبعتنا، قال :
فالتفت فإذا هي هي، فوقفنا حتى لحقت ورجلاها كالمغزالين ضعفا، فعانقتها
واستنزلت الصبي فبكينا وبكت معنا، قال : فقلت لها يا بنية ! أخبريني عن شأنك،
فقالت : بنفس ما انفصلتم عني ألقي علي شيء يشبه النعاس وليس هو، فرأيت كأن
330 أفعوانا أبيض خرج* إلي من القبر فمر على فخذي وأنا أحس ببرده عليهما حتى
انتهى فأفقت، فوجدت في نفسي قوة فقمت، فإذا أنا بارئة بحمد الله تعالى. وقالت :
هذه أو العجوز المتقدمة ـ شككت في أيهما قالت ذلك ـ : وفي أثناء تلك السنة
أشاهد أن لذلك الرجل دارا وخيولا وعبيدا، وإماء. قلت : ولعل ذلك هو ما كان
يتصدق به ويعتقه من العبيد والله تعالى أعلم. قال ذلك الرجل : فذهبت بابنتي
فبرئت من الزمانة والضعف فقويت، فهي إلى الآن تخدمني وكثر خطابها، وأنا إلى
الآن ما زوجتها من واحد. وكان هذا الرجل يتعجب من هذه الواقعة ويخبر بها ويقول :
331 ما رأيت أعجب من السيد* محمد بن يعقوب ! فلم أشاهد لمن أزوره من الصالحين
ما شاهدت له.

= الميلادي ضمن اتحادية أيت يفلمان. تقع مواطنها حاليا فيما بين الأطلس الكبير جنوبا، وأقصابي الشرفاء شمالا، وفيما بين قبائل أيت مكيلد وأيت سغروشن شرقا. وقد انفصلت عنها مجموعتان في وقت ما : نزلت الأولى بسهل سايس وهي تشكل الآن فرقة من بني مطير؛ أما الثانية، فهي بأيت سادن (راجع : ع. الفاسي، **منظومة الأقنوم**؛ أ. الزياني، **الروضة السليمانية**، مخطوط خ ع، رقم 257 ك؛ ت. العلوي، «أصول المغاربة»، **البحث العلمي**، عدد 23).

(433) سقط ما بين العلامتين من ق. أما في ك، فصححت على الهامش.

(434) وردت غير مكررة في ق، ك.

ومنها أن امرأة لبعض من سكن في جواره مرضت مرضا شديدا وفيه توفيت، فلما [اشتد عليها جدا قبل موتها حملوها إلى روضته][435] فباتت فيها للإستشفاء، فلما [أصبحت حملوها][436] إلى بيتها، فقالت لهم وهي ثقة لديهم : لو ساعدتموني لعظمتم شأن صاحب هذه الروضة أو لرحلتم عنه، وأخبرتهم أنها تموت من ذلك المرض، فقالوا لها : ما ذاك ! قالت لهم وهي في غاية ما يكون من المرض : منذ فارقتموني أسمعه في قبره يقرأ **القرآن** إلى الصباح، فلو كنت أبرأ لأخبرني بذلك.

قلت : ثبت في الحديث «إن الإنسان يموت على ما عاش عليه، ويبعث على
ما مات عليه»*[437]. فربما يفهم منه بواسطة حكم استمرار الحال أن الإنسان في 332
البرزخ على ما عاش عليه، وهو ــ رضي الله تعالى عنه ــ كان في حياته مداوما لتلاوة **القرآن** لا سيما وأرواح المحبين أحياء عند ربهم.

ومنها ما أخبر به بعض الثقات من سكان جواره، وكان من أهل التعبد والخير، وهو : أنه يرى القناديل توقد في روضته إلى الصباح من وقت العشاء، وليس هناك زيت ولا موقد ولا عمارة في القبر، أخبر بذلك قومه وأنه رأى ذلك أياما عديدة.

ومنها أن قوما أركبوا عروسا إلى بيتها، فلما بلغوا إلى عين بإزاء روضته أنزلوها
وهم رجال* ونساء وبحال هيئة الأعراس في الفرح واللباس، ثم طفقوا يلعبون بالدفوف 333
والمزامير نهارا، وقد اختلط الرجال والنساء، فلما اشتغلوا بذلك المنكر وزلزلت بهم الأرض زلزالا شديدا، وانعقدت في لحظة فوق رؤوسهم سحابة، وقد كانت السماء مصحية، وصاح بهم الرعد صياحا شديدا، وأرسل عليهم البرد الشديد والأمطار ففروا ولم يسأل أحد منهم عن أحد، وتلطخت بالطين ثيابهم وثياب عروسهم، ولما تعاطوا هذه الواقعة واشتهرت، لحق عامتهم الخوف، فمن يومئذ ما عادوا لمثلها.

وأما وقائع أهل تلك البلد في الإستشفاء لمواشيهم من أمراضها بإطافتها الروضة
وفي فضيحة السارقين* بالحلف في تلك الروضة، فهي أكثر من أن تحصى. وقد سل 334
بعض الظلمة سيفا حذو روضته على مسكين، فقال له ذلك المسكين : إني في حرمة صاحب هذه الروضة، فلم يقله ذلك الظالم، فلما أومأ إليه بالسيف انكسر في

---

(435) سقط ما بين معقفتين من ك.

(436) سقط ما بين معقفتين من ك.

(437) أخرجه مسلم في «كتاب السنة».

الهواء ذلك السيف بلا إصابة شيء، وتاب ذلك الظالم من إذاية ذلك المسكين لما شاهد. وقد سكن قوم بمنزله الذي كان له في حياته، وكان سكناهم ظلما، فلم يستقم لهم شيء من مال ولا ولد ذكر حتى ارتحلوا عنه. وهنا انتهى ما تيسر إيراده من أحوال الوالد ـ رضي الله تعالى عنه ورحمه ـ وبه انتهى المبحث الثاني من مباحث الكتاب.

المبحث الثالث

فيمن* لقيناه غير ما تقدم ممن يظن به الخير أو كاتبناه، ولنقتصر منهم 335
على عِلِّيتهم وأجلتهم، فإنهم أهل لتخليد بعض أمورهم في الكتاب
رضوان الله تعالى عنهم.

[علي بن عبد الرحمن الدرعي]

فمنهم ذو الأخلاق المسكية، والطبائع الدينية والأحوال العرفانية، العارف بالله تعالى شيخ وقته، وأستاذ زمانه في أحوال هداية القلوب، الشيخ علي بن عبد الرحمن الدرعي(438) دفين تادلا بمنزله بها المسمى : تَمُجُّتْ(439)، وقبره الآن بها مشهور وهو
مزارة للواردين، أصله من درعة، وفي زمن صغره لقي بدرعة* الشيخ عبد الله(440) بن 336

(438) شيخ صوفي ازداد بوادي درعة عام 1018هـ/1609م، وقد جاء عند كثير ممن ترجم له باسم الدراوي. بعد قراءته **القرآن** أخذ الطريقة بتمكروت عن عبد الله بن الحسين، ثم بدأ حياة السياحة، فذهب إلى سوس، ودخل في خِدْمة الشيخ بودميعة. ثم ذهب لزيارة أبي يعزى والأخذ عن شيوخ الزاوية الدلائية، لينتقل فيما بعد إلى زاوية واويزغت عند الشيخ محمد الدادسي الذي كان هو عمدته في الأخذ. وبعد وفاة شيخه هذا، اضطلع بأمور الزاوية بعده وجعل ينفق على الطلبة واليتامى والأرامل ـ مما أكسبه شهرة واسعة في المغرب كله. وكانت ذكرياته في الزاوية الدلائية وشعبيته سببا في المحنة التي أصابته مع المولى الرشيد. توفي بالطاعون عام 1090هـ/1679م، وقد يفهم مما عند المنالي الزبادي أن خلفه في الزاوية هو أبو عثمان سعيد الحنصالي. ألف فيه علي الزبادي، «**دوحة البستان ونزهة الإخوان في مناقب سيدي علي بن عبد الرحمن**»، مخطوط خ ع رقم 390د (راجع أيضا: م. اليفراني، **صفوة**، ص. 184؛ م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 290؛ **والتقاط الدرر**، ص. 219، ترجمة 328؛ م. الفاسي، **سلوة**، ج 1، ص. 183؛ ع. ابن إبراهيم، **إعلام**، ج 9، ترجمة 1431).

(439) تَمُجُّتْ أو تَمُدْجُوتْ، من البربرية ومعناها المحل الأقرع، الخالي من النبات ؛ الأجرد. وهو مدشر يبعد عن بني ملال بحوالي 30 كلم جهة الشمال الشرقي في الجبل. ويكون أهل تمدجوت فرقة بربرية في أيت بوبكر من قبيلة أيت محاند (G. Drague, Esquisse..., p. 169, note 12).

(440) هو عبد الله بن الحسين الدرعي، يعرف «بالرقي» وبـ«القباب»، من شيوخ الزاوية الناصرية. أخذ عهد الشاذلية عن الشيخ أحمد بن علي الحاجي الدرعي (عام 998هـ/1590م)، تلميذ الشيخ الشهير أبي القاسم الغازي الدرعي. توفي بتمكروت عام 1045هـ/35-1936م. ترجم له محمد المكي الناصري في «**الروض الزاهر في التعريف بالشيخ ابن حسين وأتباعه السادات الأكابر**»، مخطوط الخزانة العامة 187ق؛ كما تجد ترجمته في : م. الناصري، **الدرر المرصعة**، مخطوط خ ع، رقم 265ك، ص. 189؛ م. القادري، **نشر**، ج 1، ص. 333؛ **والتقاط الدرر**، ص. 102، ترجمة 168.

الحسين[441]، أستاذ العالم المشهور الشيخ محمد بن ناصر[442]، ولقي بها أيضا الصالح الزاهد الشيخ أحمد بن إبراهيم[443] من أصحاب الأستاذ المذكور وهو المشار إليه بوراثته، وانتفع بهما وأعطياه طعاما فأكله ووجد له سرا فمكث بدرعة.

ثم تقوى عزمه على طلب أستاذ يلقي إليه نفسه فقدم إلى ضريح أبي يعزى ليطلب عنده أن يهدى لأستاذ ينتفع به، فلما بلغه وزاره، رأى في المنام أن أبا يعزى
337 أجلسه على طرف واد مملوء ماء، ومعه أوان وبإزائه تمر، وقد أذن له أن يسقي الناس*
ويطعمهم في ذلك الوادي وذلك التمر. ثم سمع برجل يقصده الناس للأخذ عنه والزيارة ببلدة تسمى : وَوزَغْتْ[444] بفتح الواو الأولى وكسر الثانية ثم زاي وغين معجمتين مع فتح الزاي وسكون الغين ثم تاء ساكنة، وهي بإزاء جبل يسمى غُنَيْن[445]، واسم ذلك الرجل الشيخ محمد بن محمد الووزغتي[446]، كان آخذا أولا عن الشيخ عبد الله بن حسون السلاوي[447] المتقدم ذكره، وهو الذي قال للشيخ محمد بن أبي بكر[448] من قيل له من مس لحمك لم تمسه النار، كيف لا يمد يده ورجله لمن يقبلهما !

---

(441) وردت في ق هكذا : الحسن.

(442) ستأتي ترجمته في **مباحث الأنوار** هذا (انظر الهامش رقم 537).

(443) ازداد عام 1001هـ/1592م، وهو حفيد أبي حفص عمر الأنصاري مؤسس الزاوية التمكروتية في القرن العاشر الهجري. مات مقتولا عام 1052هـ/1642م (راجع : م. الناصري، **الدرر المرصعة**، ص. 10؛ م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 21؛ **والتقاط الدرر**، ص. 116، ترجمة 188؛ م. الحضيكي، **طبقات**، مخطوط خ ع، رقم 1124د، ورقة 1/21).

(444) قرية مشهورة في قبيلة أيت بوزيد، تطل على سد بين الويدان جنوب مدينة بني ملال وتبعد عنها بحوالي 27 كلم. توجد بها زاوية أحنصال. وما قاله محمد الفاسي عن كلمة «واوزغت» المشتقة من «ازر» بالبربرية التي تعني الينبوع الصغير، فلعله يجانب الصواب، ذلك لأن واويزغت قد يشتق منها «أز غ» وليس «أزر» (راجع : أ. البيدق، **أخبار المهدي**، ص. 50؛ م. الزبادي، **دوحة البستان**، مخطوط خ ع، رقم 390د، ص. 14؛ م. الفاسي، **مجلة البينة**، مايو 1962).

(445) يعرف حاليا عند سكان المنطقة بجبل غنيم، يقع جنوب بني ملال ويطل على منخفض واويزغت.

(446) يعرف أيضا بالدادسي. وهو شيخ صوفي له أتباع كثيرون. وتميزت طريقته باستعمال السماع. وكان عبد الله الهبطي من أشياخه الذين لم يذكرهم «**مباحث الأنوار**» هذا، إلا أن صحبته لشيوخ الزاوية الدلائية كانت متميزة. يوجد مشهده بواوزغت ويعرف الآن بسيدي محند أومحمد. توفي عام 1062هـ/1651م (انظر: م. الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص. 84؛ **تحفة أهل الصديقية**، ص. 61؛ م. اليفراني، **صفوة**، ص. 83؛ م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 60؛ س. الحوات، **البدور الضاوية**، ورقة 23؛ م. الزبادي، **دوحة البستان**، صص. 31-32؛ م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 55).

(447) انظر الهامش 379.

(448) انظر الهامش 362.

فانتفع به ثم إنه أحس بكبر الشيخ فقال له : يا سيدي ! جعلني الله تعالى
338 فداءك[449]، وقدمني في الوفاة أمامك*، فإن قدر الله تعالى تقدمك لي، [فبأي شيء تأمرني أشتغل به أبزيارة الناس أم ألتزم داري ؟ فقال له : يا بني ! زُرْ حتى تزار، ودر حتى تدار، ثم قال له الشيخ عبد الله بن حسون : وأين بلدك ؟ فقال له : بلدي بجبل غنين، فقال له : أغناهم، أغناهم][450].

فلم يلبث الشيخ إلا [قليلا[451] أن] توفي فجعل الشيخ محمد بن محمد الووزغتي لا ينبعث له [رجل][452] إلا قدم إليه، فإذا أتاه وأحس من نفسه بعدم الاِنتفاع ندم على المخالطة، ولم يزل كذلك حتى قدم للشيخ أبي بكر إمام وقته، وهو الذي كان صحب جدنا في وقته وأخذ عن أبي عمرو[453] المراكشي[454]، وهو أخذ
339 عن الشيخ التباع[455] وهو أخذ عن شيخ المشايخ الشيخ محمد بن* سليمان الجزولي[456] مؤلف دلائل الخيرات ـ رضي الله تعالى عنه ـ. والشيخ أبو بكر[457] هذا هو الذي يشار إليه بالكمال الوقتي، وروي أنه لما ألقى الشيخ أبا عمرو، وضع يده على رأسه فقرأ : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾[458]، فكوشف للشيخ أبي بكر عما تحت تخوم الأرض حتى رأى البهموت.

وكان الشيخ أبو بكر رقيق القلب كثير البكاء، ويقول : من لا يسقي اللحية بالدموع لا ينبغي أن يدعها على وجهه، وكان محبا للخلق، كثير الضيافة، روي عنه

---

(449) وردت في ق هكذا : فدواك.

(450) ما بين العلامتين سقط بالبتر من ك.

(451) ما بين العلامتين سقط بالبتر من ك.

(452) ما بين العلامتين سقط بالبتر من ك.

(453) ورد في النسخ المعتمدة هكذا : عمر.

(454) انظر الهامش 178.

(455) هو أبو محمد وأبو فارس عبد العزيز التباع بن عبد الحق الحرار؛ شيخ صوفي كبير ومن أشهر الآخذين عن الشيخ محمد بن سليمان الجزولي. ألف فيه محمد المهدي الفاسي كتاب «**ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع**»؛ راجع أيضا **دوحة الناشر**، ص. 136، ترجمة 145أ.

(456) هو الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن سليمان، ظهر برباط أسفي أولا، ثم انتقل إلى أفوغال حيث مات مسموما عام 870هـ/65ـ1466. وهو شيخ الطائفة الجزولية، وعرف بنسبه إلى جده، فكان يقال له محمد بن سليمان. نقل السعديون جثته إلى مراكش حيث ضريحه الحالي. نجد ترجمته بالتفصيل في : **ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع**.

(457) انظر الهامش 354.

(458) **سورة الأنعام**، الآية 59.

أنه في ابتداء أمره شكى أبوه كثرة ما يذبح للضياف، فقال لأبيه : تعالى نتفق على أن ما تلده الغنم من الذكور يذبح، وما تلده من الإناث لا يذبح، فأجابه أبوه
340 لذلك، فجعلت الغنم* لا تلد إلا الذكور، فعرف أبوه أن أمره إلهي[459] فسلم له الأمر. وكانت له أخلاق رفيعة ويحب الأخلاق الطيبة ويأمر بها، فإذا استفتح مجلس الوعظ استفتحه بقوله : وروى الحسن، عن أبيه الحسن، أن أحسن الحسن الخلق الحسن[460]. فلما قدم إليه الشيخ محمد بن محمد، ظفر بمناه، فالتزمه إلى أن ورثه مقامه، فكانت له كرامات ومكاشفات وإمدادات ووقائع، وانتفع على يده في أمر القلوب جم غفير من المسلمين، وشدت له الرحال من المدن والأمصار والبوادي، وأخذ عنه طلبة العلم وعامتهم، وظهر بقوة اليقين والدين كثير من أصحابه.

341 ولما أتاه الشيخ علي بن عبد الرحمن وقرب منه، بأن كان* على مسافة قريبة، كوشف عن حاله، فقال لجماعة من فقرائه : أتاكم اليوم فارس من فرسان أولياء الله تعالى، ومن صدق الفقراء خرجوا إليه وتلقوه وجعلوا يأخذون نعاله ويقبلونها تبركا، وأنكر هو في نفسه ذلك، وقال : إن هذا ليس من [السنة في شيء، فبقي مع الشيخ محمد بن محمد وانتفع به وحصل له فيه ود عظيم، ولازمه وزيارته سنين إلى أن توفي، فورث عنه السيادة الدينية والأستاذية العرفانية، وظهرت][461] له كرامات وأحوال وإمدادات، وقصده جماهير[462] الناس وانتفعوا به، وشدت له الرحال من الحضر
342 والبوادي، وزاره العلماء وأخذوا عنه ولازموه، واشتهر أمره وصار* كنار على علم، بحيث لا ينكر عليه إلا ناقص عقل ودين، فلا تلقى واحدا من أصحابه إلا ظهر لك أثر المدد اليقيني والعملي عليه، وأخبرك بكرامات حصلت له في ما بينه وبينه.

وكان ـ رضي الله تعالى عنه ـ واسع الأخلاق حسن المعاملة، لا يعاشره أحد إلا ألفه، وكان إذا وعظ الناس بكى، وكان كثير الرحمة على عباد الله تعالى، وكان كثير

---

(459) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : لإهي.

(460) حديث لا نجده في الكتب التي فهرسها فنسينك، كما لم يعتمد أحد من الحفاظ سنده ولا متنه. يقصد بالحسن المذكور أولا الحسن المثنى، وبالحسن المذكور ثانيا أباه الحسن بن أبي طالب، وبجده الحسن الرسول الكريم. (انظر شجرة العلويين في آخر «**مباحث الأنوار**» هذا). وقد رجح محمد حجي (في **الزاوية الدلائية**، ص. 45، هامش 5) اختيار الشيخ أبي بكر له بسبب التناسق وحسن السجع وما يدعو إليه من خلق حسن.

(461) ما بين العلامتين سقط بالبتر من ك.

(462) وردت هذه الكلمة في أماكن متفرقة من النسخ المعتمدة هكذا : الجماهر. والصواب ما أثبتناه.

إطعام الطعام للوفود والزوار(463) ويخبر كثيرا بالغيوب فوقعت كما أخبر. ولما قرب انخرام الدولة الدلائية أخبر بها وأن الشريف الرشيد(464) يتولى بعدهم، فكان الأمر كذلك. وكنت أنا في خلوة معه فأخبرني ببعض أسراره، حتى ذكر لي : أن النبي ـ ﷺ ـ
343 ولاه المدد، ثم إنه بالليل أتاني وأنا* نائم، فقال لي : يا حبيبنا أكتم السر، فقد عوتبت على ذكره، فجمع علي عذاب الدنيا والآخرة، فجعل يبكي وعظمت علي هيبته، فلم أخبر به أحدا إلى أن توفي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ.

وأخبرني بالرجوع إلى البلدة التي دفن فيها الوالد ـ وقد كنا خرجنا منها ـ فكان الأمر كما أخبر. ثم إني بعد ذلك شكوت له أمر تلك البلدة، وأنها شديدة البرد، كثيرة الثلوج، لا يستقيم فيها غرس، حتى قلت له : أما نحن فلا بلد لنا في الحقيقة : فقال لي : بل لك البلد، فأين مرج طويل ـ ومد يده إيماء لطول(465) ذلك المرج ـ وهو
344 مستقبل في وسط القبائل. فلما أخبرني بهذا ـ وقد كنت سمعت أنه أخبر عن نفسه* أنه اطلع على أماكن لم يعاشره من الناس ـ أنه اطلع على مكان لنا آخر، إذ ذاك الوصف لم يكن في البلدة المشكو له بأمرها، فاستفهمته عما قال، واستبنت المراد منه، فجعل يدعو لي ويستر ما أخبر به كالنادم على قوله، فأمسكت وبقيت بعد ذلك الإخبار زمانا نحواً من عشر سنين، وقد مات في ذلك الزمان رحمه الله تعالى، وخرجنا من تلك البلدة لفتنة وقعت فيها. وبعد ذلك الزمان خطر ببالي أن أشتري بلدة بملوية يجمع الشمل مع الإخوة، فنعتت لي بلدة [لناس يسمون أهل](466) زاوية غمرة(467)،

(463) وردت في النسخ المعتمدة : الزيار، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(464) توفي بمراكش في 11 ذو الحجة 1082هـ/9 أبريل 1672م، وهو في سن الثانية والأربعين من عمره، وبعد أن مضت سبع سنين على دخوله فاس وبيعتها له (راجع : م. اليفراني، **روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف**، ط. الملكية، الرباط، ص. 41 ؛ **الدرر الفاخرة**، ج 1، ص. 11 وما بعدها؛ أ. العلوي، **الأنوار الحسنية**، ص. 77؛ م. اليفراني، **نزهة**، ص. 304؛ م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 192 ؛ **والتقاط الدرر**، ترجمة 292؛ إ. الفضيلي، **الدرر البهية**، ص. 145؛ ع. ابن زيدان، **إتحاف**، ج 3، ص. 28 وما بعدها).

(465) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : أطول. والصواب ما أثبتناه.

(466) ما بين العلامتين أصابه البتر في ك.

(467) تقع حاليا في قرية من قبيلة بني سادن قريبة من هرمومو ومن مركز المنزل على الطريق التي تربط بسيدي حرازم بفاس أو المنزل وهرمومو بفاس عبر صفرو، وما زال أهلها يسمون بالإسم نفسه، إلا أنه من المرجح أن موطن هذه القبيلة وموقع هذه الزاوية كانا في القرن الحادي عشر الهجري بناحية ملوية العليا، وذلك قبل أن تنتقل أيت سادن إلى جهات أخرى. ففي النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري كانت فرقة منها، إن لم تكن القبيلة كلها، بناحية ووازغت (راجع : أ. الخليفي، «**الدرة الجليلة في مناقب الخليفة**»، تحقيق أحمد عمَّالك، رسالة جامعية لم تنشر، كلية الآداب، الرباط، 1986، =

وهي إذ ذاك [خالية، فذهبت][468] لأقف عليها [لعلني أشتريها منهم، فلما وقفت
345 عليها][469] وجدتها مرجا طويلا مستقبلا وهو في وسط القبائل كما قال*، فخطر
ببالي ـ وقد كنت نسيت إخباره للطول ـ أنها هي التي أخبر بها، وبإزائي رجل حضر
حين أخبرني بذلك الوصف، فخطر بباله أيضا أنها هي كما خطر لي، فقال ذلك
الرجل : لعل هذه البلدة هي التي أخبر السيد علي بن عبد الرحمن أنها لك، فقلت
له : إن يكن من عند الله يمضه، فكان الأمر كذلك، فيسر الله تعالى في شرائها
وأحوازها مع كثرة الراغبين فيها وفي أحوازها، وهي الآن ملك لله تعالى في الدنيا،
نسأل الله تعالى العافية فيها وفي غيرها وأن يجعلها بركة وعونا على الدين مع دوام
السلامة آمين يا رب العالمين.

ولما كنا بالزاوية البكرية، ذهبنا في بعض الأحيان لزيارته فقال لي الشيخ العلامة
346 أبو علي بن مسعود اليوسي* : أبلغ عني السلام للشيخ علي بن عبد الرحمن، واطلب
لي منه الدعاء. فلما أبلغته قال لي بديهة : اِقرأه السلام، وقل له إنه لن يموت حتى
ينتفع به بعض العباد في حال القلوب كما انتفع به بعضهم في العلم الظاهر. وكان
الأمر كما أخبر، لم يمت الشيخ ابن مسعود حتى كانت الفقراء وجماهير الناس يتبعونه
للاِنتفاع به كاتباع الغنم لقيمها[470].

ولم تزل الأركاب تترادف من كل فج على الشيخ علي بن عبد الرحمن إلى أن
وقعت له فتنة مع ملك من ملوك الوقت[471]، فانتقص تقصف[472] الناس عليه ثم

= ص. 366). كما توجد حاليا قبيلة باسم «غمرة»، قرب فاس عند حمة مولاي يعقوب. وشيخ زاوية «غمرة» هو عبد المالك بن محمد الغمري، صهر الشيخ الصوفي أحمد اليمني (انظر : م. القادري، **التقاط الدرر**، ص. 252).

(468) ما بين العلامتين أصابه الخرم في ك.

(469) ما بين العلامتين أصابه الخرم في ك.

(470) وردت في ق هكذا : قيمها.

(471) لا شك في أن العلاقة الوثيقة التي كانت لعلي بن عبد الرحمن الدرعي بالزاويتين الدلائية والناصرية وكذلك الشعبية التي كان يتمتع بها، كانتا وراء التوتر الذي حصل بين المولى الرشيد وهذا الشيخ. لكن ما أشار إليه حمودي في دراسته حول الاِنقسامية بكون الشيخ اعتقل وألقي به في سجن مراكش لا نجد له ذكرا عند الإخباريين الذين اعتمدهم مصدرا له. فالأمر إن وصل إلى نهب الزاوية من لدن القائد الخزني، فإنه لم يصل إلى حد سجن صاحبها (راجع : م. الزبادي، **دوحة البستان**، ص. 210 وما بعدها؛ ع. حمودي، «الاِنقسامية...»، **مجلة كلية الآداب**، عدد 11 (مترجم)).

(472) ك : تقصب. ولعله تصحيف.

أنجاه الله تعالى منه، فعاد الأمر كما كان أولا من ترادف الناس عليه للأخذ والزيارة إلى أن توفي رحمة الله تعالى عليه.

[أحمد بن محمد اليمني]

347 ومنهم الآية العظمى في زمانه*، والريحانة الفوحا[473] في زمانه، وهو الشيخ أحمد بن محمد اليمني[474] أصله ـ رضي الله تعالى عنه ـ من اليمن، وقومه صحح غير واحد أنهم من ذرية ولي الله الكبير الشيخ عبد القادر الجيلاني[475]، وكان لأهله ملك وإمارة في بلدهم، ففتح عليه بما رفض به أهله وما لهم في الوجاهة، وساح في الدنيا كما وقع لإبراهيم بن أدهم[476].

وقد أخبرني من خالطه أنه لقي الخَضِير في أول سياحته، وأخذ أولا عن الشيخ دفع الله اليمني[477]، ثم لقي رجالا عدة في سياحته. منهم رجل عظيم القدر تقدمت

---

(473) وردت في ك هكذا : الفيحاء.

(474) ولد حوالي 1040هـ/1830م. دخل مدينة فاس عام 1079هـ/1669م وبها تتلمذ عليه العديد من الطلبة وكثر الآخذون عنه. كانت طريقته قادرية. وبهذه المدينة كانت علاقته وثيقة برجال التصوف ونال عناية خاصة من لدن أفراد الأسرة القادرية والفاسية والمعانية. عرَّف به م. المسناوي في **التعريف بأبي العباس أحمد اليمني**، مخطوط خ ع، رقم 1419د. توفي بفاس عام 1113هـ/1701م (راجع أيضا : م. اليفراني، **صفوة**، ص. 219؛ م. القادري، **التقاط الدرر**، ص. 281، ترجمة 422؛ م. الفاسي، **سلوة**، ج 2، ص. 334).

(475) هو الشيخ عبد القادر بن أبي صالح الشريف الحسني المعروف بالجيلاني المتوفى ببغداد عام 561هـ/ 65ـ1166م، صاحب الطريقة الجيلانية المنتشرة في جميع البلاد الإسلامية إلى أن طغت عليها الطريقة الشاذلية في المغرب منذ القرن السابع الهجري. كان صوفيا وفقيها، ومذهبه الفقهي حنبليا، اشتهر في بغداد وفيها توفي (راجع : **«مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني»**، لمؤلف مجهول، مخطوط خ س، رقم 4354؛ والمسناوي، **نتيجة التحقيق في بعض أهل الشرف الوثيق**، طبعة حجرية؛ وانظر، خ. الزركلي، **الأعلام**، ج 4، ص. 47).

(476) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور، من كورة بلخ، والمتوفى عام 159هـ/775م بالشام. أخذ عن أبي عمران موسى بن عبد الله، ويقال عن ابن زيد الراعي عن أويس عن أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب وأبي الحسن علي بن أبي طالب، كما صاحب بمكة سفيان الثوري والفضيل بن عياض. وقد كان كبير الشأن في باب الورع (انظر ع. القشيري، **رسالة**، ص. 8؛ م. الفاسي، **تحفة أهل الصديقية**، ص. 136.

(477) هو دفع الله بن أبي عبد الله محمد العراكي. وحسب القادري (في **نشر المثاني**)، فيظهر أنه توفي عام 1090هـ/ 1680م (انظر: ع. القادري، **المقصد الأحمد**، 1932، ص. 132؛ م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 265؛ م. الكتاني، **سلوة**، ج 1، ص. 335).

الإشارة إليه، وهو الشيخ عبد الله البرنوي[478]، ببلد تسمى بُرْنُ[479]، من بلاد
السودان، ولقي* أولاده. وأخبرني أنه لما أتاه وجده في مكان لا يسكن فيه لقلة 348
[المعيشة فيه وعدم إمكان][480] أسباب الرزق، إلا رجل فائض التوكل، جبل اليقين،
ووجده تفيض على أقواله [وأفعاله أحوال][481] المعرفة والمحبة، ويخبر كل من أتاه من
غير رؤية لا تساع بصيرته بما يليق به. [وتاب][482] على يده خلق لا يحصرهم العدد،
وأسلم على يده من المجوس أقطار ومدن وقرى، وبلغ على [يده][483] مقام الرجال أفراد
كثيرون.

وأخبرني أنه لما نزل لديه أتاه ابن له صغير، فقال له : ما تقول في الشيخ عبد
الله، قدوة هو أم لا ؟ قال : فقلت هو قدوة، قال : فقال لي : فإذا كان في الاِعتقاد
قدوة وجب أن نفوض له ولا نختار عليه شيئاً. فنبهني ذلك الصبي على التفويض[484]
لذلك الشيخ، قال* : وفي أثناء خطابه خطر لي أن أذهب عنهم لزيارة رجل اسمه 349
يحيى، وبنفس ما خطر لي ذلك، قال : يحيى قد مات ! فقال له المترجم ـ بيني
وبينه ـ ما هذا خرجنا من حديث إلى آخر ؟ فقال له : إنه قال في نفسه : أذهب
لزيارة يحيى. وهذه مكاشفة بديهة.

(478) انظر الهامش 200.

(479) كلمة صادفنا غموضا في تحديد أصلها، وهي اسم يطلق على ناحية من إفريقيا الغربية (السودان) في الجنوب الغربي لبحيرة تشاد وتقع اليوم في نيجريا. سكنها منذ القديم عناصر بشرية متنوعة الأصول والسلالات، ولم تكن لها في الماضي حدود جغرافية وسياسية معينة. ارتبط تاريخها بتطور إمبراطورية «كانم» وبدخول الإسلام إلى المغرب والصحراء. فابن خلدون تكلم عن ملك «كانم» الذي كان سيد «بورنو» في القرن السابع الهجري. ويظهر أن «بورنو» صارت مركز هذه الإمبراطورية التي وصلت أوج ازدهارها في ما بين 1571م و1603م، فمدت نفوذها على كل من كاغو وتيبستي وياكَيرني وغيرها، وراقبت الطرق التجارية التقليدية التي كانت تمر عبر بحيرة تشاد. إلا أنه ابتداء من القرن الحادي عشر الهجري واجهت هذه الإمبراطورية صعوبات تمثلت في غارات الطوارق وموجات من المجاعة ولربما تأثير الغزو المغربي لإمبراطورية سونغاي، فبدأ التفكك يسري في كيانها، ومع ذلك لم تتصدع إلا في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي (راجع : **Encyclopédie de l'Islam**, Nouvelle Edition ; **Dictionnaire encyclopédique d'histoire**, Paris, 1978).

(480) ما بين العلامتين أصابه الخرم في ك.

(481) ما بين العلامتين أصابه الخرم في ك.

(482) ما بين العلامتين أصابه الخرم في ك.

(483) ما بين العلامتين أصابه الخرم في ك.

(484) ناقش كثير من المتكلمين في التصوف قضية التفويض أو عدم الاِعتراض على الشيخ، مستندهم في ذلك الآية الكريمة ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي**﴾، **سورة الحجرات**، الآية 2 (راجع : أ. ابن عطية، **سلسلة الأنوار**، ص. 21).

قال : ورأيت الشيخ عبد الله لا راحة له ولا سكون بوقت ولا مكان، ويتعاطى بعض العلوم الظاهرية، وكل من أتاه أخبره بنجاحه وبما هو أولى بحالِهِ بديهة، قال : ولم أسمع منه أنا إلا ثلاث كلمات، وذلك أنه قال لي : طالبنا لا يخاف، ثم قال لي : إقرأ العلم، توثر القراءة على الذكر. ولما ودعني زودني شيئاً من الزاد ثم قال [لي](485) : نزودك هذا، إذ طعام التوارك(486) كالدم. والتوارك قوم يغيرون على
350 الناس* وهم على طريق الشيخ أحمد اليمني، فكأنه أراد تنزهه عن طعامهم. قال : وكان تهدى له النساء فيتزوجهن لتكميل غرض المُهدي، وربما ولد معهن ثم يطلقهن ويزوجهن بعد العدة لصعالكة الفقراء، فيصير أولاده أرباء وربائب عند الفقراء. ومن طوع الأشياء له الدال على كمال حاله، أنه لا تأبى المرأة ما أمرها به من التزوج ولو كانت بنت ملك، كما لا يأباه(487) زوجها. قال : وهو في تلك البلدة لا يتسبب ولا يبيت على معلوم، وترى من معه من الفقراء منقطعين إلى الله تعالى كل الِانقطاع ولا يلتفتون إلى هم رزق ولا إلى خوف خلق، ومن عادتهم بعد فراغهم من أوراد الصبح أنهم يتفرقون [ويذهب كل واحد منهم إلى جهة من الغابة المحيطة بالبلد، سواء كان
351 الحر أو القر، فيتعبدون هنالك ولا يهمهم* ملبوس ولا مأكول إلى الزوال، فتراهم ينزلون من الغابة كالوحش، فتمتلئ بهم المسجد ليحافظوا(488) على الجماعة والصلاة مع الشيخ، وتهتز الأرض بأذكارهم، ولا يزالون كذلك بقية النهار والليل إلى الصباح فيفترقون. وهذا دأبهم ـ رضي الله تعالى عنهم ـ ونفعنا بهم.

ولم يزل الشيخ عبد الله البرنوي على هذه الحالة إلى أن غار التوارك على منزله، فقتلوه وقتلوا جمعا غفيراً ممن معه من الفقراء، فماتوا شهداء رحمة الله عليهم. ولم يعرف في الموتى حتى أخبر بمكانه ولده المسمى الشيخ عمر(489) بمكاشفة، فحمل ودفن. وولده المذكور إلى الآن قائم مقام أبيه على هذه الحالة، كما أخبر أبوه في حياته بحسن

(485) (هـ) سقط من ك.

(486) شعب صحراوي بربري عرف بحياة الترحال في الصحراء الكبرى. راقب الطوارق أو التوارق طرق القوافل التجارية التي كانت تمر عبر عدة مراكز تجارية في الصحراء مثل واحة الغات وكاغو وتاسيلي. وفي القرن التاسع عشر الميلادي، وقفوا في وجه البعثات الأوربية والتغلغل الأوربي بالصحراء. يوجدون الآن خاصة في الصحراء الوسطى والغربية وفي نيجريا ومالي (راجع : **Dictionnaire encylopédique d'histoire, Paris, 1978**).

(487) وردت في س : يبال، وفي ق : يباه.

(488) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : ليحافظون.

(489) انظر الهامش رقم 202.

352 حاله ورفعة قدره. وله ولد آخر اسمه عثمان(490) له مكاشفات وكلام رفيع في* طريق القوم.

ومن كلام الشيخ عمر المذكور : إن الشيخ على خمسة أقسام(491) شيخ التربية : وهو الذي له التصرف في المريد بواسطة علمه ما يصلحه به من حال وذكر وقتي ومعاملة عبادية معينة، فيراعيه بأمره بما يليق به إلى أن يتملك المريد أمر نفسه. وشيخ الحرفية](492) وهو الذي كوشف له عما يليق بالمريد من الأسماء والأذكار فيعلمها له، وهي المعبر عنها بالحرف. وشيخ الترقية : وهو المربي بالهمة، فيرتقي [المريد](493) بهمته وينفعل بإذن الله تعالى في ترقيه إلى أن يملك أمر نفسه. وشيخ الدلالة : وهو الذي ليس له قدرة على ترقي(494) المريد بوجه من الوجوه إلا أنه قاصد في أمره وعبادته لله تعالى، عالم بالعلم الظاهر، هو يدل المريد بلسانه، ويقتدي به المريد في أفعاله بحسب الإمكان، فيكون له منه انتفاع ما ولابد. وشيخ الصوفية : وهو
353 الجامع لهذه الأحوال* كلها.

ولقي أيضا في سياحته رجلا صالحا يسمى الشيخ الصادق(495)، وكان له خلق غريب في الدين، ورعاية عزيزة في الورع. ولقي أيضا رجلا قدوة رفيع القدر، يسمى فارس(496) السناسن(497) له بصيرة نافذة، وإحاطة رفيعة بأمور الغيب وأحوال

(490) لم أقف على ترجمة له.

(491) لا نجد عند المتكلمين في التصوف تصنيفا واحدا متفقا عليه، فهناك من يحصرهم في ثلاثة أقسام ومنهم من يزيد (راجع : أ. ابن عطية، **سلسلة الأنوار**، مخطوط خ ع، رقم 2458ك، ص. 4).

(492) ما بين العلامتين أصابه الخرم في ك.

(493) ما بين العلامتين أصابه الخرم في ك.

(494) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : ترق. ولعل الصواب كما أثبتناه.

(495) اسمه الكامل: أبو العباس أحمد بن الشيخ أويس بن عبد القادر التاركي اللمتوني. شيخ صوفي مالكي المذهب، وطريقته الصوفية ـ حسب الذين ترجموا له ـ سهروردية (نسبة إلى مؤسسها أبي النجيب السهروردي المتوفى عام 562هـ). كانت زاويته قائمة بمركز أكدز بالصحراء الإفريقية الكبرى، حيث كان شعب الطوارق منتشرا والذي يوجد الآن في النيجر. أشار صاحب «**نشر المثاني**» إلى القرابة الدموية التي كانت لهذا الشيخ بالأسرة الدلائية. توفي عام 1090هـ/1680م (راجع : ع. القادري، **المقصد الأحمد**، ص. 131؛ م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 265؛ **والتقاط الدرر**، ص. 213؛ م. الفاسي، **سلوة**، ج 2، ص. 265؛ أ. ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج 1، ص. 480).

(496) شيخ صوفي حنفي المذهب. كان نازلا بمدينة أريحي بأعالي النيل وسمي بالسناسن نسبة إلى اسم طعام هناك. كانت وفاته في حدود سنة 1090هـ/1680م (انظر: م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 266؛ ع. القادري، **المقصد الأحمد**، ص. 131؛ م. الفاسي، **سلوة**، ج 2، ص. 335).

(497) وردت في س هكذا : السلاس، وفي ق صححت بـ«السناسي». وبهذا الرسم الأخير وردت في ك. وقد أثبتناها اعتمادا على ما جاء في **نشر المثاني** من تأكيد على رسمها ومعناها (راجع : م. **القادري**، **نشر المثاني**، ج 2، ص. 266).

القوم، فكان لا يسأل عن شيء إلا أجاب عنه، ولقي غير هؤلاء مما لا يحصى.

ولم يزل يتقلب في سياحته إلى أن بلغ فاس المحروسة، ودخلها وهو خامل الذكر، وآوى فيها إلى بيت حذاء مسجد وسكن بها، ثم أطلعه الله تعالى بأن أظهره للخلق [إطلاع البدر فوق الأفق فضاءت به أركان ظلمة هذا المغرب، فلم يبق عالم ولا شريف ولا عامي إلا عرفه وتوسل به].

354 وله من أحوال التوكل وسقوط خوف الخلق وهم الرزق ما بهر العقول*، وله من الأخلاق السنية وحسن المعاملة ومعاشرة الخلق ما يشهد بسببه على صحة حاله المعقول والمنقول، وله دراية حسنة في علم الفقه، فكان يخالط «**خليل**»[498] و«**توضيحه**» و«**المدونة**»[499]. وله تصرف في أحوال الخلق تصرفا ظاهرا مع شدة تستره، وإشارات بادية في حال الكشف فتظهر كما أشار إليها، فترى الناس يشكون إليه أمر دينهم ودنياهم ولا ينفصل عنه أحد إلا وقد فرج عنه من بركته، إما بدفع ما خاف، وإما بتقوية على ما نزل، وترى أصحابه يزدادون في معاني اليقين والتقوى.

وأنا أشار لي إلى أمور فوقعت كما أخبر، وفرج الله تعالى عني أمورا بلقائه ـ رضي الله تعالى عنه ـ وأطال عمره للمسلمين. وقد جاء يوما رجل يشكو بعض
355 الولاة، وأنه كلفه أن يدخل في جملة الجيش* ويغزو مع الجيش بعض بلاد المسلمين، فلما رآه [ـ رضي الله تعالى عنه ـ][500] صادقا في الرغبة عما كلف به، قال له : لعلك لا تفعل ما أمرك به ! فقال [له : والله يا سيدي لأفعلنه][501]، فقال له : إن كنت تفعله فاذهب لمن أمرك بالدخول في الرماة[502] ليعطيك كل ما يحتاج إليه

---

(498) انظر الهامش 215.

(499) هو كتاب في الفقه لابن القاسم أبي عبد الله عبد الرحمن (ت 191هـ/807م) تلميذ الإمام مالك، وعنه أخذ سحنون (ت 240هـ/854م). وصارت روايته هي الأساس للـ«**مدونة**». وقد اختصرها ابن أبي زيد القيرواني في أواسط القرن الرابع الهجري كما اختصرها أبو سعيد البرادعي في كتابه المسمى بـ**التهذيب** (راجع : ع. ابن خلدون، **المقدمة**، ط. مصر، ص. 338).

(500) ما بين العلامتين أصابه البتر في ك.

(501) ما بين العلامتين أصابه البتر في ك.

(502) يسمى بالرماة أو كَيش فاس، وهو جهاز عسكري محلي يشارك في الحركات أو يقوم بالإدالة. يظهر أنه تأسس في القرن السادس عشر الميلادي وبقي مستمرا في الوجود تحت حكم العلويين. كان تمويله محليا، وكان كل من أدخل فيه يتوصل براتبه ولوازم الجندية، إلا أنه لم يكن يشارك فيه كل الناس، بل يعفى منه الشرفاء والعلماء والطلبة والمرابطون ومريدوهم. وعناصره تتكون من المقاتِلة خاصة. كان رؤساء أقسام مدينة فاس الثلاثة هم الذين يقومون بجمع المنخرطين في سلك هذا الجيش، كما كان رؤساؤه دائما من

الرماة ويكمل عليك ما كلفك به، فقال له : يا سيدي : ومن هذا أفر، فقال له : ألم تقل إنك تفعل ما أمرتك به ؟ فقال : نعم ! فقال له : لم أر ما يصلح بك إلا هذا. فأذعن ذلك الرجل وذهب ليدخل في الرماة الجيشية ويطلب كل ما يحتاج إليه، فلما تمثل بين يدي متولي أمر الجيش، قال له : ما تريد ؟ قال : أنا من جملة من قيدتم في الرماة فاعطوني راتبي ومكحلتي والبارود والرصاص لأتهيأ، فتأمل فيه ذلك
الوالي فأبدله الله تعالى بين* عينيه فرأى نفي الأهلية عنه، فسبه وسب من قيده في 356
الرماة، فقال : اذهب لسبيلك، فلست أهلا لهذا، فرجع ذلك الرجل فرحا فقال له : ـ يا سيدي ! عافاني الله من هذا الذي نزل، وقص عليه الخبر فقال الشيخ ـ رضي الله تعالى عنه ـ تسترا : أنا ما أمرتك إلا لتكمل لهم الغرض. فانظر هذا التصرف وهذا [التستر الغريب.

وأخبرني الثقات من علماء فاس، أنه عقد على امرأة ولم يكن عنده ما يقوم به في أمرها، فشكا(503) إليه ذلك ـ رضي الله تعالى عنه ـ فقال له : اذهب بين المغرب والعشاء إلى السيد إدريس وزره، قال : ففعلت ولم أشعر أن ألقى إلي رجل أربعين مثقالا حينئذ، فبقيت متعجبا في ذلك الأمر، وكفتني في مؤنة المرأة. وأخبرني
هذا البعض أيضا، أن عندهم امرأة* خطبها بعض الناس فأبوا أن يزوجوه فسحرت 357
فمرضت، وتقوى ظننا أن ذلك الخاطب هو الساحر، قال : فشكوت إلى الشيخ أحمد اليمني أمرها، فكأنه رأى أنه هو الساحر وأن مرضها من سحره، قال : فقال لي : وأين ذلك الرجل ؟ هذا زمان ما رأيته فيه ! فبقيت برهة من الزمان معه، فإذ ذلك الرجل داخل، فسلم عليه فقال له : يا سيدي ! أنا على الباب الفلاني من المدينة مريدا للخروج لحاجة، فإذا قلبي كأنه مجذوب لأراك، فلم أستطع أن أخطو خطوة حتى أراك فرجعت إليك. فلما فرغ من السلام على الشيخ، قال له الشيخ : ألا تتقي الله في هذه المسكينة ؟ قال : فتاب إلى الله تعالى في أمرها فعوفيت لحينها. ووقائعه في نحو هذا المعنى أكثر من أن تحصى.

= العائلات التي لها نفوذ في فرقها. إلا أن الناس لم يكونوا ينظرون إلى هذه العملية بإعجاب، إذ كان البعض يخرج هاربا من المدينة حتى لا يشارك فيها، كما لا يستبعد أن تكون النخبة قد استعملته في الصراعات السياسية في المدينة، وخاصة عندما يكون شغور في الحكم أو عندما يكون في أوقات ضعفه (راجع : N. Cigar, «Société et vie politique à Fès», H.T., vol. 18, pp. 115-116; J. Berque, Ulémas..., p. 236).

(503) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : فشكى. والصواب ما أثبتناه.

358 وأما أمر الإخبار*][504] بطريق الكشف فأجل من أن يخفى، ويكون ذلك منه
[تارة بإخبار صريح، وتارة بإشارة ظاهرة][505]. وقد مرض لي مريض يوما مرضا
شديدا، فلما رأى ما بي من شدة الاهتمام بأمره، رحمني فقال لي صراحة، ــ وأنا
حينئذ كالآيس من ذلك المريض ــ : لا تخف عليه، فإنه يبرأ بإذن الله تعالى، فكان
الأمر كذلك بحمد الله تعالى. وقد كنت خطبت بنت الشيخ العلامة ابن مسعود
اليوسي، وكانت بعض العوارض تعرض في تزوجها، فكنت أتردد هل يكمل أمرها أم
لا ؟ ثم توفي بعض أقاربها فأرسلت ولد أخينا لينوب عني في تعزيتهم، وأمرته أن يلقى
بعد التعزية الشيخ أحمد ــ رضي الله تعالى عنه ــ، فلما عزاهم لقيه فقال له متبسما :
359 قل لعمك لم لا يأتي لتعزية أصهاره ؟ فلما رجع ولد* أخي قلت له : وما قال لك
الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ ؟ فاستحيا مني فتبسم، ثم قلت له : تكلم ولا
تستحي، فأخبرني بأنه قال : لم لم يأتي لتعزية أصهاره ؟ فقلت : سيكونون أصهارا،
إذ قال الشيخ [أحمد ذلك. فكان الأمر كذلك بإذن الله تعالى. وأخبرني قبل ذلك
أني أسكن مكناسة على حال معين، وكان عندي ذلك كالمحال، فوقع كما أخبر. جعل
الله تعالى عاقبة ذلك خيرا. وبالجملة انك لا تلقى من عاشره إلا أخبرك بكرامة عنه
من مكاشفة أو كشف كرب أو جلب نفع. وقد أشار لي يوما إلى أنه ربما كوشف
له عن جميع ما يقع في الوجود ثم يستر ذلك عنه ــ رضي الله تعالى عنه ــ.

وأما أمره في علم القلوب فبحر لا تكدره الدلاء، فلا تتكلم معه في فن من
360 الفنون في ذلك العلم* إلا بهرك، وأراك[506] من نفسك ما عرفت به قدرك، بلا
مطالعة ولا ملازمة تدريس ولا كتاب بل بالبصيرة الواضحة والحالة الراجحة. وأما أمره
في الصبر فجبل لا تحركه الرياح، وطود لا توازنه الأشباح. وتصيبه الأمراض الشاقة فلا
تؤثر فيه جزعا، وكثيرا ما يوذى من قبل الخلق فيدفع بالتي هي أحسن مرأىً
ومسمعا، فلا يزداد مع الإذاية إلا صبرا، ولا مع الجفا إلا حلما، سرا وجهرا، وتراه
يتستر بمعاشرة الخلق وبالخوض معهم حيثما خاضوا طول نهارهم، لا يتخذ عنهم خلوة
ولا سترا، ولا يزيده ذلك إلا مهابة من بينهم، وإلا محبة فيه وطموحا لِأَعْيُنِهِمْ.
وبالجملة فآثار حال كمال العبودية فيه كالنار على علم، وعلامة الولاية الكبرى عليه

---

(504) ما بين العلامتين أصابه البتر في ک.

(505) ما بين معقفتين أصابه البتر في ک.

(506) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : وأرك. والصواب ما أثبتناه.

361 أظهر من ظهور الورد في تميزه* من السلم، نفعنا الله تعالى بمحبته][507] وأعطانا من نور ما أعطاه بلا محنة ولا وحلة بمنته.

[أحمد بن محمد بن عبد الله الأندلسي]

ومنهم محب الشيخ أحمد اليمني المذكور – رضي الله تعالى عنه – الأعظم، ورفيقه وحبيبه في الله الأفخم، وهو الشيخ أحمد بن محمد بن عبد الله الأندلسي[508] ثم الفاسي كان أبوه محمد بن عبد الله[509] ركنا من أركان العارفين، وطودا من أطواد المتقين. أخذ عن العارف الشيخ يوسف الفاسي[510]، وهو أخذ عن الشيخ عبد الرحمن المجذوب[511] العارف المشهور.

---

(507) ما بين معقفتين سقط بالخرم من ك.

(508) هو أحمد بن عبد الله مَعْنْ الأندلسي من كبار شيوخ التصوف بمدينة فاس وصاحب زاوية المخفية. لعب دورا سياسيا في هذه المدينة خلال عهد المولى إسماعيل، ألف فيه عبد السلام القادري (الجد) كتاب «**المقصد الأحمد في التعريف بسيدنا ابن عبد الله أحمد**»، طبع على الحجر بفاس عام 1351هـ؛ كما ألف فيه المهدي بن أحمد الفاسي «**الإلماع ببعض من لم يذكر في ممتع الأسماع**»، مخطوط مصور خ ع 1515. كانت وفاته عام 1120هـ/1708م (راجع ترجمته كذلك في : م. اليفراني، **صفوة**، ص. 220 ؛ م. القادري، **التقاط الدرر**، ص. 300؛ م. الفاسي، **سلوة**، ج 2، ص. 292؛ إ. الفضيلي، **الدرر البهية**، ج 2، ص. 336).

(509) هو محمد بن عبد الله مَعْنْ، مؤسس زاوية المخفية ومن أثرياء المدينة التي كان له فيها نفوذ روحي وزمني، إذ كان له اعتبار كبير عند رجال الحكم. توفي عام 1062هـ/1652م (راجع : م. الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص. 145؛ ع. القادري، **المقصد الأحمد**، ص. 8 وما بعدها؛ م. اليفراني، **صفوة**، ص. 115؛ م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 55؛ م. الفاسي، **سلوة**، ج 2، ص. 55).

(510) أحد كبار شيوخ التصوف بالمغرب في القرن العاشر الهجري، ولد في 19 ربيع الأول 937هـ/10 نونبر 1530 في القصر الكبير. وكانت وفاته عام 1013هـ/1604م. أخذ عن الشيخ المجذوب وأسس زاوية بالقصر الكبير ثم انتقل إلى فاس واستقر بها عام 988هـ/1580م وأسس بها الزاوية الفاسية. توجد أخباره ومناقبه في كتب عديدة ألفت في ترجمته خاصة، منها : **مرآة المحاسن** ؛ **وابتهاج القلوب بخبر الشيخ أبي المحاسن وشيخه المجذوب**، مخطوط خ ع، 3265ك؛ **وروضة المحاسن**، مخطوط خ ع 1025ق (راجع : م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 2، ص. 364؛ كما ترجم له م. الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص. 119 وما بعدها؛ م. اليفراني، **صفوة**، ص. 27؛ م. القادري، **نشر**، ج 1، ص. 119؛ **والإكليل والتاج**، ص. 86؛ م. الحضيكي، **طبقات**، ج 2، صص. 354–363؛ م. الفاسي، **سلوة**، ج 2، ص. 306).

(511) هو عبد الرحمن بن أبي السرور عياد بن يعقوب بن سلامة بن خشان الصنهاجي المعروف بالمجذوب دفين مكناس. كان جامعا بين الجذب والسلوك. نشأ بتيط ثم رحل مع والده إلى مكناس. أخذ عن أبي الحسن علي الصنهاجي المعروف بالدوار وعمر الخطاب. وعن عبد الرحمن المجذوب أخذ الكثيرون. توفي عام 976هـ/58–1159م (راجع : م. الفاسي، **ممتع الأسماع**، ص. 113؛ أ. الناصري، **الإستقصا**، ج 5، ص. 88؛ ع. ابن زيدان، **إتحاف**، ج 4، ص. 276).

وأخبرني ولده الشيخ أحمد المذكور ـ رضي الله تعالى عنه ـ، أنه كان مريضا فكان أبوه يدخل عليه لينفس عنه بعض ما يلقى من شدة المرض، قال : وكان
362 هنالك ديك يصيح بحذائي واستثقلت صوته وكرهته*، فقلت ـ وأنا مريض ـ آذاني هذا الديك [بصياحه، فقال : يا ولدي ! إنما يذكر الله تعالى ومن أحسن الأصوات صوته، وأول ما كوشف لي عنه من كلام الطيور كلام الديك، فإني كنت وراء الشيخ ـ يعني الشيخ يوسف الفاسي ـ ونحن ماشيان، فلما بلغنا «الرصيف»(512) (موضع معلوم بفاس)، سمعت الديك يقول : سبحان الله وبحمده. قال لي الشيخ أحمد المذكور، فقلت لأبي : وهل أخبرت بذلك شيخنا حينئذ ؟ قال : فانتهرني وزجرني منكرا أن يخبر الشيخ بمثل ذلك، ثم قال لي الشيخ أحمد المذكور : فنفعني الله تعالى بذلك الإنتهار بعد زمان، يعني في كتم مثل ذلك وفي ترك ذكره حيث لا يليق(513).

363 ولم يزل* أبوه الشيخ محمد، يواصل الشيخ يوسف الفاسي إلى أن ورث عنه ما ورث، فكان قدوة لأهل زمانه إلى أن توفي ـ رضي الله تعالى عنه ـ فورثه الشيخ أبو القاسم الخصاصي(514)، فخدمه الشيخ أحمد المذكور إلى أن ورث سره وظهر(515) عارفا من العارفين وذا محبة عظمى من جملة المحبين.

وكان له توقير عظيم للشيخ أحمد اليمني ـ رضي الله تعالى عنه ـ، وإخاء كبير ومحبة صادقة، آواه إليه وأكرمه بما لديه إلى أن أغناه الله تعالى، ولم يزالا على كمال الأخوة والمحبة إلى الآن.

---

(512) أحد أحياء مدينة فاس، يسمى بالرصيف أو القلقليين وبه تقع قنطرة الرصيف على وادي بوخراريب. التي تربط فاس العدوة بفاس الأندلس وتوصل بحي المخفية حيث توجد زاوية مَعْن في الجنوب الشرقي للعدوة (انظر: N. Cigar, «Société et vie politique à Fez», H.T., vol, 18, p. 93).

(513) وردت في ک هكذا : يبق.

(514) اسمه الكامل : أبو الفضل قاسم بن الحاج قاسم الخصاصي الأندلسي. شيخ صوفي بفاس. أخذ عن كثير من شيوخ التصوف وارتبط بشيخ الزاوية المخفية محمد مَعْنْ الأندلسي. وبعد وفاة هذا الأخير سنة 1066هـ، صار أبو القاسم شيخا لزاويته التي بها لقن عهد الشاذلية (ألف فيه محمد بن الطيب القادري تقييدا سماه «**الزهر الباسم في مناقب سيدي قاسم**»، مخطوط خ ع، 1778د (راجع : ع. القادري، **المقصد الأحمد**، ص. 266؛ م. اليفراني، **صفوة**، ص. 171؛ م القادري، **نشر**، ج 2، ص. 199؛ م. ابن عيشون، «**الروض العطر الأنفاس**»، مخطوط خ ع رقم 525د، ورقة 64 ؛ م. الفاسي، **سلوة**، ج 2، ص. 338).

(515) تآكلت في ک أطراف هذه الورقة، ولم يبق منها سوى كلمات في وسطها.

وانتفع على يد الشيخ أحمد بن عبد الله خلق كثير، وظهر له تصرف عظيم
364 ومهابة كبرى، فلا تراه إلا رأيت منه أسدا من أسد الله تعالى، قد عوفي* من خوف
الخلق، وكفي أمر هم الرزق، وأوتي من علم القلوب ما يشهد له بالذوق الواضح،
والحال الراجح، فلا تخوض معه في فن من فنون إلا أمتعك فيه، وفيه من الرحمة على
الخلق ما لا خفاء به، فتراه لا يقصر لأحد في نصح، ولا توانى في ما فيه تنفيس
لمسلم أو جلب مصلحة له. وله من قوة اليقين والدين ما لاحت ثمراته على كل من
عاشره أو آوى إلى زاويته.

وإذا حضرت زاويته رأيت فيها من العمارة ما يملأ السمع والبصر، فلا تخلو من
كثرة في علم وعمل دائما، وأصحابه مواظبون على أورادهم مشتغلون بما يعنيهم، ترد
عليهم أحوال سنية وأذواق [بهية](516) يظهر ذلك منهم لمعاشرهم. وقد قام بوظيف
الواردين، مع أنه لا يقبل من أحد هدية ولا إرفاقا، وإنما يطعم الناس مما رزقه الله تعالى
365 من غير أن يمن* على أحد، وكان يقول : من أراد هذا الطريق ـ يعني طريق القوم ـ
بإنفاق شيء من الدنيا [فلم يعرف قدرها. وكان يقول كثيرا «الخلق عيال الله وأحب
الناس إلى الله تعالى أنفعهم لعياله»(517) ويرويه حديثا. وكان طريقه المحبة، فتجده
دائما يشير إلى النعم ويذكر شعرا فيه آداب المحبة ويتلوه، ولا يخلو له وقت عن معاملة،
ويخبر بالغيوب كثيرا وتقع كما أخبر.

وكنت معه يوما والشيخ أحمد اليمني معنا في مكان، فدخل علينا رجل، فلما
رآه الشيخ أحمد اليمني ـ رضي الله تعالى عنه ـ قال : سبحان الله ! ماذا يبلغ
الإنسان بالصبر ! فأقبل ذلك الرجل فسلم عليهما وجلس، وكان من جملة من أدخل
366 الجند كرها ثم أطلق بإذن الله تعالى، فلما جلس قال له* الشيخ أحمد اليمني : كيف
حالك ؟ أطلقت مما ابتليت به ؟ قال : نعم يا سيدي ! ببركتكم، قال : كيف
ذلك ؟ فقال له ذلك الرجل : ما شفع في أحد، ولكن عرضنا يوما على السلطان
فأطلقني بلا شفاعة. ففهمت أن ذلك الرجل إنما عوفي من صبره على ما ابتلي به،
وهو معنى قول الشيخ : ماذا يبلغ الإنسان بالصبر ؟ ثم جعل ذلك الرجل يخبر
بأنه](518) رأى مجمع الصالحين وسمعهم يقولون : قد سقطت هذه الأعلام، ففهمها

(516) رسمها غير واضح في النسخ المعتمدة، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(517) أخرجه الطبري وغيره.
(518) ما بين العلامتين سقط من ك بفعل التآكل والخرم.

على أن المراد أعلام الأمير الذي هذا الرجل معه، فلما قال ذلك، انتهره الشيخ أحمد بن عبد الله، فقال له : أسكت ليس هنا كذابون على الله تعالى، فأطفأ ذلك الرجل ــ وقد كان* طافحا في الأخبار ــ كإطفاء الشهاب. 367

فلما قام، قال الشيخ أحمد اليمني للشيخ أحمد بن عبد الله : لم لم تدعه يتكلم ؟ فقال له : ظلمنا إذ نسب إلينا البركة في ذلك، ثم قلت له : وأنا كنت صدقته في ما قال إذ أقبلتم عليه، فقال لي الشيخ أحمد بن عبد الله : هو صادق، ولكنه فهم العكس، فإن الأعلام ساقطة، لكن من تلك الجهة لا من هذه، فكان الأمر كذلك، هلك ذلك السلطان المقابل للسلطان الموالي لنا، فتفرق الناس عنه وسقطت أعلامه، وكان ظالما يؤذينا(519)، فأخبرته يوما بأمره فقال لي : إنه لا يطول، فذل بالقرب وعزل وضرب الله تعالى على يده. وكنت يوما بائتا في بيت بزاويته، فرأيت 368 إناءين حسنين، فقلت لصاحبي : أريد أن أشتري* مثل هاذين [الإناءين لأشرب منهما، فلما أصبحنا ــ وكان هو بائتا بنحو مسافتين من البلد ــ ذهبنا إليه، فلما سلمنا عليه وودعنا، قال لصاحبي : قل لأهل دارنا يعطون الإناءين الفلانيين لفلان يشرب منهما، فعرفت أنه كوشف عما قلت، فأعطوني الإناءين أو ما هما مثلهما. ومرض بعض الشرفاء مرضا مخوفا، فعاده فرآه جزعا من الموت فرحمه، فلما خرج عنه قال لي : إن هذا المريض ضاق به الأمر، فأخبره أنه سالم، فأخبرته بقوله، فكان الأمر كذلك.

وبالجملة، الشيخ أحمد بن عبد الله جمع الله تعالى فيه المعرفة والمحبة وكثرة الإحسان والحسنات](520)، وشدة الرحمة للخلق وعدم الاكتراث بأهل الدنيا والولاة، 369 فلا يخاف منهم أمرا، ولا يتقيهم* في شيء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الهيبة العظيمة، والله تعالى يبقيه لنا ولجميع المسلمين، ويزيده على ما أعطاه وأولاه به، فإنه

(519) هذه إشارة إلى تمرد أحمد بن محرز بن أخي السلطان مولاي إسماعيل، وإلى موقف شيخ زاوية المخفية أحمد بن عبد الله معن الذي هو موقف مساند للسلطان مولاي إسماعيل، كما يترجم موقف مدينة فاس التي اتجهت بنظرها إلى أحمد بن محرز. ففي سنة 1083هـ/1672م، وبعد قتال دام شهرا بتازا، استغل ابن محرز خروج السلطان مولاي إسماعيل للتصدي إلى الخضر غيلان، فدخل مدينة فاس وبايعه أهلها وخطب له على منابرها. إلا أن مساندة فاس لم تكن عامة كما يظهر: فقد بقيت زاوية المخفية، بالإضافة إلى الزاوية الفاسية، متحالفة مع المولى إسماعيل الذي عاد إلى المدينة عام 1083هـ/1673م (راجع : م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 202 وص. 209؛ **والتقاط الدرر**، ص. 190).

(520) تآكلت في كـ أطراف هذه الورقة ولم يبق فيها سوى كلمات متناثرة.

مع الشيخ أحمد اليمني ـ رضي الله تعالى عنه ـ هما اليوم عمارة مغربنا، وأنس غريبنا، وكرامة قلوبنا، وركن استناد الضعفاء، وحرمة يأوي إليهما الضعفاء والشرفاء. بلغهما الله تعالى كل المأمول، وجعلهما لنا ولجميع المسلمين وسيلة إلى السول، آمين يا رب العالمين.

[عبد القادر الفاسي]

ومنهم العالم العلم، وركن الدين المستلم، الشيخ عبد القادر الفاسي(521) حفيد
الشيخ يوسف الفاسي(522) ـ رضي الله تعالى عنه ـ. أخذ عن عمه* الشيخ عبد 370
الرحمن الفاسي(523)، وصاحب الشيخ محمد بن عبد الله الأندلسي المذكور تلميذ جده زمانا طويلا إلى أن توفي. وكان رضي الله عنه عالم وقته، وبحر الفنون في أزمنته، وكان أزهد العلماء بوقته فيما في أيدي الناس، وكان مع اتساع علمه وعظمة جاهه

(521) عالم وصوفي كبير بمدينة فاس، ولد بالقصر الكبير عام 1007هـ/1598م، ثم ارتحل إلى فاس عام 1025هـ/ 1616م، وكان له وزن سياسي كبير في عصره. سلك طريق القوم على يد عمه أبي زيد عبد الرحمن الفاسي، وخالط عدة شيوخ أمثال : محمد بن عبد الله مَعْن، وأبي القاسم بن الزبير المصباحي، والشيخ محمد بن موسى الريفي، والصرصري، وعبد الله بن حسون. أما أساتذته في العلوم؛ فكثيرون أيضا، ومنهم : عبد الرحمن بن خجو، وأحمد المقري، وأبو الحسن السجلماسي، وأبو حامد الفاسي، وابن القاضي، وعلي بن الشريف التلمساني، وغيرهم من أعيان عصره. كانت تآليفه عبارة عن أجوبة صدرت عنه وهي كثيرة. توفي عام 1091هـ/1679-1680م. خصص له عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي تأليفا سماه : «**تحفة أهل الأكابر بمناقب الشيخ عبد القادر**». مخطوط خ ع رقم 1766د و2330ك. كما ترجم له الكثيرون (راجع : م. المحبي، **خلاصة الأثر**، ج 2، ص. 444؛ م. اليفراني، **صفوة**، ص. 181؛ م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 270؛ م. الفاسي، **سلوة**، ج 1، ص. 309؛ Le Tourneau, Fès..., p. 133 ; Berque, Ulémas..., p. 139).

(522) انظر الهامش 510.

(523) أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الفاسي المشهور بـ«ـالعارف الفاسي». من شيوخ التصوف والعلم بفاس. ازداد بالقصر الكبير عام 972هـ، ودخل فاس عام 986هـ. التقى بالشيخ المجذوب وهو صغير، ولازم أخاه أبا المحاسن الفاسي، وتصدر للمشيخة بعده بزاوية القلقليين. احتاج إليه رجال الحكم وانقاد له أصحاب الرأي بفاس. درس في فاس على أبي زكرياء السراج وعبد الواحد الحميدي والإمام المنجور والإمام القصار وغيرهم. له مصنفات وحواشٍ كثيرة. توفي في 22 ربيع الأول عام 1036هـ/16 فبراير 1627. خصص له عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي تأليفا سماه : «**أزهار البستان في مناقب الشيخ أبي محمد عبد الرحمن**»، مخطوط خ ع رقم 2074ك. وترجم له الكثيرون منهم : م. الفاسي، **مرآة**، صص. 147-150؛ **ممتع الأسماع**، ص. 159 وما بعدها؛ م. اليفراني، **صفوة**، ص. 34؛ م. القادري، **نشر**، ج 1، ص. 267؛ **والتقاط الدرر**، ص. 85، ترجمة 143؛ **والإكليل**، ص. 58/ب؛ م. الحضيكي، **طبقات**، ج 2، صص. 151-161.

يأكل من عمل يده، فكان ينسخ «**الجامع الصحيح**» للبخاري كثيرا ويبيعه ليتعيش به، وكان الناس يرغبون في النسخ التي تكون بخط يده للبركة والإتقان.

ولما تولى الشريف الرشيد ــ رحمه الله تعالى ــ وهو حينئذ كبير السن، أراد أن
371 يمده بشيء من الدنيا، فبلغه ذلك فقال : قولوا له يشغل نفسه بغيري، فالذي* رزقني من المهد إلى أن ابيضت لحيتي هو يرزقني. ثم جعل يحكي ما قاله الشيخ السنوسي لبعض ملوك وقته حين عرض عليه شيئاً من الدنيا، وهو أنه قال له : [أما نيتك فالله يجازيك عليها خيرا، وأما أنا فأخاف أن تفيض علي بحور الآخرة، فأردت أن تجدني خفيفا من الدنيا لعلني أقطعها بخفة(524).

وكان ملازما لما ينبغي له، لا يوجد له وقت إلا في مذاكرة علم أو توصية بعمل، وكل من عاشره يشهد له بقوة الإيمان، وهو مشارك في الفنون : فله حظ وافر في المعقول، وباع واسع في المنقول، وكان يدرس الحديث والتصوف دائما، وينتفع
372 الحاضرون بحاله* ومقاله. وأخذ عنه مشاهير العلماء الإجازة شرقا وغربا، ولم يكن يقبل تلقين الذكر على عادة مشايخ الفقراء إلا أن يكون ذلك على وجه الرواية. وأنت لا تتكلم معه في شيء من أمور العلم إلا وجدت له نورا قلبيا. وكان مقبولا عند العامة والخاصة(525)، لا يجد أحد من شدة تحافظه واشتغاله بما يعنيه وسعة علمه ما يقول فيه، وكان له صيت](526) ديني وعلمي في المغرب والمشرق، وله أخلاق شريفة، فلا يستدعيه أحد إلا خرج إليه ووقف معه وأوسع له فيما يريد، حتى يكون المستدعي هو الذي ينصرف عنه باختياره، ولا يشكل على أحد مع وجوده حديث ولا مسألة تصوفية.

ولما مرض مرضه الذي توفي فيه دخلت عليه أنا وواحد من أهل البيت لنعوده
373 فوجدناه في علية له، فسلمنا* عليه وقلنا له كيف تجدك ؟ فقال بخير والحمد لله. ثم

(524) تجد هذه القولة لدى محمد بن الطيب القادري في «نشر المثاني» ونسبها إلى الشيخ السنوسي (انظر: نشر، ج 2، ص. 275).

(525) سبق أن أشرنا إلى أن المعنى من «عامة» و«خاصة» غير مدقق. والعامة هنا تعني السواد الأعظم من الناس. أما الخاصة، فهي النخبة، أي «أصحاب الحل والعقد» المقربون من السلطة. ونشير إلى أن الذين استعملوا كلمة «العامة» كثيرا ما أضافوا إليها مجموعة من الصفات والمرادفات مثل الجهال والرعاع. ومهما كان الإتجاه الذي استعملت فيه هذه الثنائية، فهي دائما تعني أن هناك نوعين من الناس ومن المشاكل (راجع : **J. Berque, Al Youssi..., p. 50**).

(526) ك : تآكلت أطراف هذه الورقة فسقطت منها كثير من الكلمات.

قال : أنا لا أجد في نفسي وجعا، ومرضي هذا مرض الهرم، وهو لا يبرأ، ومع كوني لا أجد وجعا طال بي أمر الصلاة بالإيماء. ومسست يده فوجدت عليهما حمى قوية، ومع ذلك يقول لم أجد وجعا. ثم قال : لكنني أقول اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي وتوفني ما كانت الوفاة خيرا لي، مثلنا كما قال الثعالبي(527) وغيره كمثل عبيد أمرهم سيدهم بشغل على أنهم إن بعث إليهم وقد فرغوا منه فلهم من التكريم ما لا يحصى، ومن فرط في شغله حتى بعث إليه، فله في الانتقام ما لا طاقة له به،

374 فمنهم من خاف أن يبادره السيد بالإرسال قبل الفراغ فبادر إلى شغله، وبعد فراغه* أعد لسيده هدايا زيادة على شغله، فالشغل الفرائض والهدايا النوافل. فلما جاءه الرسول وجده كما يحب السيد فبشره بأن خبره عند السيد، وقد أعد له ما وعده، فذهب إلى الكرامة مع الرسول مسرورا، ومنهم من سوف العمل حتى جاءه الرسول فوجده على غير ما يحب السيد من التفريط فأغلظ له الرسول وأعلمه بأن السيد عالم بتفريطه فأخذه بعنف واستشفع إليه بالسيد في [التأخير فلم](528) يمهله، وذهب به إلى الانتقام(529) قال : هكذا نحن والله تعالى ينظر إلينا برحمته، فقلت له : [يا سيدي](530) أريد منك أن تقبل لي الصحبة لله تعالى. وأخذ بيدي وقال : تقبل الله منا جميعا.

ثم التفت إلى الذي [معه](531) من أهل البيت فقال له : هذا مولاي فلان ؟

375 قلنا* : نعم ! فقال : ما كنا نرجو إلا محبة أهل البيت، ثم قال : تشهدوا لنا بأننا ما ادعينا دعوى، وإنما كنا نتعاطى حروف العلم مع أصحابنا. فخرجنا عنه مودعين، وفي الغد توفي رحمة الله تعالى عليه. وسمعت بعض الناس رأى في المنام بعض أجداده مع الشيخ عبد الرحمن المجذوب الذي هو أصل كرامتهم يخوضون قبل موته في موضع دفنه، فقال لهم المجذوب : هنا يدفن في موضع تدريسه العلم، مشيرا إلى موضع من زاويته فدفن هنالك، وهو الآن مزارة لأهل فاس نفعنا الله تعالى بمحبته وأمثاله آمين.

(527) لعله أبو زيد عبد الرحمن بن مخلوف الثعالبي الجزائري، صوفي مشهور ومن أكابر فقهاء المالكية في عصره. وهو ممن التقى بهم الشيخ أحمد زروق. توفي عام 876هـ/1471م (انظر: ابن القاضي، **درة**، ج 3، صص. 64-65؛ م. الفاسي، **تحفة أهل الصديقية**، ص. 94 ؛ ع. الكتاني، **فهرس الفهارس**، ج 2، ص. 131؛ كحالة، **معجم**، ج 5، ص. 192).

(528) ما بين العلامتين أصابه الخرم في ك.

(529) نجد القول والمعنى نفسهما عند الغزالي (راجع : الغزالي، **ميزان العمل**، «باب : بيان نفي الخوف من الموت»).

(530) ما بين العلامتين أصابه الخرم في ك.

(531) ما بين العلامتين أصابه الخرم في ك.

[محمد بن عبد القادر الفاسي]

ومنهم ولده الشيخ محمد بن عبد القادر الفاسي(532) شيخ وقته، وعالم زمانه،
376 وسيد أقرانه إدراكا وعلما وورعا وزهدا*، لا يقول في العلم قولا إلا تسارع إلى صوب
الصواب، ولا يعاشره أحد إلا ازداد من أخلاقه المسكية، ولطائفه الروحانية، يقين
حسن الإعتقاد بلا ارتياب، قليل الكلام إلا فيما يعنيه، تظهر على دعواته لوائح
الإستجابة من تقواه وعمله، لا تجد له وقتا هو فيه فارغا، بل أوقاته كلها على عادة
أبيه معمورة بحمد الله تعالى بعمل أو مذاكرة علم، قد وضع له القبول في الأرض، فلا
تلقى عالما ولا عاميا ولا قريبا ولا بعيدا ولا وضيعاً ولا شريفا ولا ذا سلطان إلا وقبله
وأثنى عليه ثناء جميلا.

لم يزل منذ زمان يدرس في جميع العلوم المعتبرة في الوقت بغير أجر من الخلق
377 ولا مرتبا، رافضا لأسباب المعيشة جميعا، مقتصرا على ما يعنيه، يتواضع* للضعيف
ويسلم على الملوك كما يسلم على الرعية، ولا تجد له تصرفا إلا رأيت التحري يحيط به،
ويمرض أمراضا طويلا ولا يشكو العوادة ولا يظهر له جزع، وكل ذلك مما يدل على
صحة اليقين منه، ولا يظهر له اهتمام ما بأمر الرزق. زاده الله تعالى توفيقا وأحسن إليه
بالبركة في ما أولاه، ونفعنا بمحبته وأضرابه آمين.

[محمد بن ناصر الدرعي]

ومنهم إلا أني لم ألقه ولكن كاتبته فكتب إلي غير ما مرة، [شيخ علماء وقته](533) وقدوتهم في الدين، ورع الزمان وزاهد الأوان، الشيخ محمد بن ناصر الدرعي(534). كان ـ رضي الله تعالى عنه ـ أولا مشتغلا بالعلم ثم صاحب الشيخ

(532) من علماء فاس الكبار في عصره. أخذ العلم عن أبيه وعمه أحمد وولد عم أبيه محمد بن أحمد والزموري الأصغر، والأبار وغيرُهم من العلماء. كان مقربا ومعظما من لدن السلطان المولى إسماعيل، وجرت بينهما مراسلات في موضوع جيش العبيد. ألف في مختلف العلوم المتداولة في عصره. توفي عام 1116هـ/1704م. نجد ترجمته في كتب كثيرة منها : م. اليفراني، **صفوة**، ص. 215؛ م. القادري، **التقاط الدرر**، ص. 292؛ ع. الكتاني، **فهرس الفهارس**، ج 1، ص. 128؛ م. الحجوي، **الفكر السامي**، ط. الرباط، 1935، ج 4، ص. 118؛ م. الفاسي، **سلوة**، ج 1، ص. 316.

(533) ما بين العلامتين أصابه الخرم في ك.

(534) اسمه الكامل : أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الحسين بن ناصر الدرعي، اشتهر بابن ناصر نسبة إلى جده. عالم كبير وصوفي مشهور، يتصل سنده في الطريقة بالزروقية والشاذلية كما يتصل بالقادرية عن طريق أبي مدين الغوث. دخل الزاوية التمكروتية عام 1040هـ/30-1631م وغدا بها =

378 عبد الله بن الحسين الدرعي*[535]، ثم صاحب بعده تلميذه[536] الشيخ أحمد بن إبراهيم[537]. فروي أن الشيخ عبد الله بن الحسين[538] قال يوما في شأنه : هذا الرجل التجأ إلينا، ومن عادة الفقهاء الِالتجاء إلى الملوك وهذا عدل عن ذلك، فيحق لنا أن نجعل له ما يظهر به فوق أقرانه، فكان أمره كذلك.

كان يلقن الذكر ويتلمذ له كبراء العلماء، وعنه أخذ الشيخ أبو علي بن مسعود اليوسي[539]، والفقيه الشيخ علي المراكشي[540] وغير واحد. وهو أيضا ممن وقع عليه اتفاق أهل المغرب، فلا ينكر عليه إلا سخيف العقل لمتانة علمه وقوة ديانته. ومن طلب منه الصحبة لا يقر له بأنه شيخه بل يقول : أنا أخوك والشيخ هو السيد

379 الغازي[541] الذي هو أصل طريقة أشياخه. وكان كل ما يكتسب يضيفه إلى الزاوية*

= أستاذاً في العلم وشيخا للطريقة. فعليه درس الحسن اليوسي وإليه انتسبت الزاوية التمكَروتية بعد وفاة الشيخ عبد الله بن الحسين. وقد عرفت هذه الزاوية في عهده ازدهارا علميا كبيرا، وشدّ إليها ركائب العلماء والأساتذة من مختلف جهات بلاد المغرب في القرن الحادي عشر الهجري. توفي عام 1085هـ/1674م ودفن بضريحه المعروف بروضة الأشياخ (راجع : ح. اليوسي، **المحاضرات**، صص. 37–301؛ م. اليفراني، **صفوة**، صص. 173–177؛ م. الناصري، **الدرر المرصعة**، صص. 10–30؛ م. الحضيكي، **طبقات**، ج 2، ص. 74؛ م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 221 **والتقاط الدرر**، ص. 196، ترجمة 299؛ م. الناصري، **طلعة المشتري**، ط. فاس، ج 1، ص. 127؛ م. مخلوف، **شجرة النور الزكية**، ص. 313؛ م. حجي، **الحركة الفكرية**، ج 2، ص. 551).

(535) انظر الهامش 440.

(536) سقط بالخرم من ك.

(537) انظر الهامش 442.

(538) انظر الهامش 440.

(539) انظر الهامش 48.

(540) اسمه الكامل : علي بن محمد بن عبد الرحمن الأقاوي، المعروف بالمراكشي. عالم متصوف، أخذ العلم عن أحمد بن سعيد المجلدي وعن العلماء الدلائيين، وحضر مجالس عبد القادر الفاسي. كان قد تصدر للتدريس والِإفتاء بالزاوية الدلائية، ثم ولاه السلطان مولاي رشيد القضاء بتادلا. كانت وفاته بمكناس عام 1090هـ/1679م (انظر: م. اليفراني، **صفوة**، ص. 191؛ م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 264؛ ع. ابن إبراهيم، **إعلام**، ج 9، ص. 207، ترجمة 1429).

(541) اسمه الكامل : أبو القاسم بن محمد بن عمرو بن أحمد السوسي، الملقب بالغازي. شيخ صوفي مشهور يتصل سنده في الطريقة بأحمد زروق، وعنه أخذ شيوخ الناصريين. ازداد بدرعة واستقر بتبوبكرت من سجلماسة التي بها أسس زاويته حوالي 933هـ. كانت وفاته عام 981هـ/1573م، وما زال الناس يقصدون ضريحه بتافيلالت للتبرك (راجع : م. اليوسي، **المحاضرات**، ص. 43؛ م. الفاسي، **تحفة أهل الصديقية**، ص. 71؛ م. الفاسي، **سلوة**، ج 3، ص. 193؛ إ. الفاضلي، **الدرر البهية**، ج 1، ص. 63).

يجعله حبسا، بحيث يكون دلوه فيه ودلو أولاده كدلاء المسلمين. وكان مشاركا في العلوم، وله عناية بـ«**تسهيل**»[542] ابن مالك، أقرأه غير ما مرة، ويتمسك بالسنة في لباسه وسلامه وخطبه. وأموره، وكثر الآخذون عنه شرقا وغربا، وانتفع الناس بدعواته. أخبرني بعض من لقيه أنه كان يقول : أوتينا بحمد الله تعالى حظا من إجابة الدعوة. وحج حجتين، وأخبر أنه رأى النبي ـ ﷺ ـ وأخبره بأنه يطلع إلى الحرمين الشريفين ويعود معافىً[543].

وكان يواظب على قراءة الحديث، ولا تفوته ركعة من الصلوات الخمس في جماعة، وكان شديدا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يخاف في الله لومة لائم.
380 ولا* يرى واقفا بباب ملك من الملوك، ويتولى صلاة الجمعة بمسجده، ولم يخطب بملك قط، ووقع بينه وبين بعض الملوك شنآن على ذلك، حتى هم به ذلك الملك ثم عصم منه[544]. ونقل عنه حينئذ لما رأى تخوف أصحابه عليه أنه قال : رأيت كأن سورا من الحديد ضرب علينا من ستر الله تعالى، فلا تخافوا علينا.

وله كلام حقي موجز جامع في «**رسائلـ**»ـه[545] من غير تكلف ولا تعمل، وكل ذلك مما يدل على كمال إيمانه، وقوة إيقانه، ويستوي القريب عنده والبعيد في الحق وإن كان القريب ولدا. وكان يأذن في تلقين ذكره بالمراسلة لمن لم يتمكن من الوصول إليه بسهولة رغبة في نفع العباد ما استطاع. وقد كنت كتبت إليه رسالة مرتين،
381 وأبلغهما* له شيخنا العلامة أبو علي بن مسعود اليوسي، وطلبت منه الدعاء فيهما، فدعا لي في أحدهما بقوله : بلغك الله تعالى من خير الدنيا والآخرة فوق الوهم والظن،

---

(542) هو كتاب في النحو ألفه محمد بن عبد الله الأندلسي المعروف بابن مالك وعنوانه الكامل : «**تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد**». وقد عرف إقبالا كبيرا من لدن العلماء والطلبة. طبع محققا سنة 1968 (راجع : ح. خليفة، **كشف الظنون**، ج 1، ص. 504).

(543) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : معافا. والصواب ما أثبتناه.

(544) يروى أن الخلاف بين المولى الرشيد وشيخ الزاوية الناصرية كان سببه عدم ذكر محمد بن ناصر، اسم السلطان في خطبة الجمعة. وقد برر هذا الأخير موقفه بكون الدعاء للسلطان في خطبة الجمعة بدعة تجب محاربتها. إلا أن هناك من رأى في ذلك موقفا متحفظا وحذرا من الحكم الجديد ورغبة في حفاظ الناصري باستقلاله. تبودلت في هذا الموضوع رسائل بين السلطان مولاي الرشيد المشغول بالغزو والشيخ محمد بن ناصر؛ إلا أن الأمر لن يكون هو نفسه مع المولى إسماعيل الذي استقدم الشيخ أحمد بن ناصر إلى مدينة مكناس سنة 1107هـ/1696م. راجع في هذا الموضوع : مقدمة تحقيق **الدرة الجليلة**، رسالة جامعية لم تنشر بعد، قدمها أحمد عمَّالك، كلية الآداب بالرباط، 1986؛ وانظر مصادر ترجمة محمد بن ناصر المثبتة في الهامش رقم 534 من «**مباحث الأنوار**» هذا.

(545) تعرف بـ«**رسائل بن ناصر**»، توجد نسخة منها بزاوية تاغملت ضمن مجموع.

وفي الأخرى بقوله : جمع الله تعالى لك من خير الدارين ما هو أهله، وهذا من جوامع كلمه التي أوتيها من بركة ترك التكلف واتباع السنة. استجاب الله تعالى له فينا ولو لم نكن نحن أهلا.

وله «**تأليف في الصلاة على النبي**»(546) ـ ﷺ ـ، و«**قصيدة في التوسل**»(547)، و«**أبيات**»(548) جمع فيها ما تأكد من فرائض قواعد الإسلام بالإيجاز بلا تكلف. ومدحه أعلام العلماء بالمغرب الآخذون عنه بقصائد كثيرة، وممن مدحه العلامة أبو علي اليوسي في «**قصيدة**»(549) فيها خمس مائة بيت، مشتملة على
382 أساليب* من المعاني أبدع فيها وشرحها في مجلدة، ولم نر لها نظيرا. تقبل الله عمله، وشكر سعيه. ولم يزل رضوان الله تعالى عليه في الجد والمواظبة على شأنه، قائما ما استطاع بحق الله تعالى وحق العباد، رافضا لغير ذلك إلى أن توفي. نفعنا الله تعالى بمحبته ودعائه آمين آمين آمين.

[أحمد بن منديل السجلماسي]

ومنهم، الناسك الأرضى، والمنقطع لله المرتضى، الشيخ أحمد بن منديل السجلماسي(550). كان من الموالي الموالين للشرفاء، ثم إنه انقطع لعبادة الله تعالى، فكان له كلام في طريق القوم، وزاره العلماء والعامة والأشراف، وشدت إليه الرحال، وظهرت بركته لكل من خالطه. وكان في آخر أمره مقعدا منقطع الكلام إلا في ذكر،
383 وصار إذا تكلم بالإشارة وربما تكلف الكلام ولكن لا* يتبين كلامه إلا لمن خالطه

---

(546) يسمى هذا التأليف : «**غنيمة العبد المنيب في التوسل بالصلاة على النبي الحبيب**» وهي منظومة في الصلاة على النبي ﷺ رتبها على حروف المعجم وألفها تلبية لرغبة تلميذه محمد بن أبي القاسم الصنهاجي. منها نسخة خ ع رقم 406ج.

(547) تسمى «**الوسيلة الناصرية**»، وهي منظومة لامية من 81 بيتا، ومطلعها :

لك الشكر يا مولاي والحمد مسجلا تعالـيت غفـاراً لطيفـاً وموئـلا

(548) هي منظومة رائية سماها «**مساعدة الإخوان**» نظمها لأزواجه وبناته. وهي في الفرائض.

(549) هي القصيدة الدالية في مدح الشيخ محمد بن ناصر. وقد عارض اليوسي بها دالية البوصيري في مدح الشاذلي والمرسي. طبعت مع شرحها في مصر عام 1291هـ و1329هـ وتوجد منها نسخ خطية عديدة بخزانة القرويين والرباط والقاهرة وباريس (انظر: م. حجي، **الزاوية الدلائية**، ص. 105).

(550) ورد اسمه في كتاب «**الدرة الجليلة**» للخليفتي. وجعله ممن تخرج على يد سيدي أحمد الهزالي المعروف بسيدي أحمد «أوزال» الذي يوجد مشهده في بلاد هنتيفة (راجع أ. الخليفتي، **الدرة الجليلة في مناقب الخليفة**، ص. 271، تحقيق أحمد عمالك، كلية الآداب بالرباط، 1986، رسالة جامعية لم تنشر).

كثيرا، ومع ذلك يرى عليه أثر الفرح والسرور، إذ لم يتأثر بما ابتلي به. وتوجد رائحة المسك من حوائجه. ولما دخلت عليه أنا وجدته في حال الإقعاد وانقطاع تبين الكلام، ففرح بدخولي ـ رضي الله تعالى عنه ـ وأشار إلى أنه يعرفني وأنه يحبني وأني في قلبه غير منسي. ولم يزل في الاِنقطاع والتبتل إلى الله تعالى إلى أن توفي ـ رضي الله تعالى عنه ـ ونفعنا بمحبته.

[عبد الله قَلِّيزْ]

ومنهم الزاهد الأوفى، والمتعبد الأصفى، الفقير عبد الله يلقب قليز(551). وكان
زاهدا في الدنيا، ولا يلبس في الغالب إلا المصبوغ، ويخبر بالغيوب كثيرا. وكان أول
384 ملاقاتي له أني دخلت المسجد الأعظم بالزاوية البكرية في وقت خلوة، وذلك* بعد
صلاة العصر، فرأيته وحده وهو في ثياب رثة مستقبل القبلة ساكتا كالمتفكر، ثم
غلب عليه البكاء فبكى بكاء شديدا، فتقربت إليه لألتمس منه البركة، فلما زاحمته في
طلب الدعاء قال لي : إنك لا تدري ما أبكاني ؟ كأنه يقول : تستر العلة بكاء
دنيوي(552)، ثم رغبت في معاشرته، فلما خضت معه مرارا فتح الله تعالى قلبه لي، وقد
كان يتمنع متسترا، فأخبرني بغيوب قلبية ووصاني بوصايا، وأخبرني بغيوب تقع
ووقعت بعد إخباره بزمان.

وقلت له يوما : إني أحبك، فقال لي : عندي من يجازي في الدنيا بالإحسان
وفي الآخرة بالجنة. وكان لا يقبل الهدية من أحد، حتى إنه لما ظهر أمره، عند الناس
أعطاه إنسان شيئاً مستشفعا في قبوله بالنبي ﷺ فأبى، فأنكرت في نفسي
385 واستعظمت* أن لا يقبل بعد سؤال القبول بالنبي ـ ﷺ ـ، وقلت له : لم لا تقبل
وقد قدم إليك النبي ـ ﷺ ـ ؟ فقال لي : أسكت ! النبي ـ ﷺ ـ هو الذي
قال لي : لا تقبل.

ولقي الأجلة من صالحي فاس، مثل الزاهد الغريب في زهده، العالم الأشهر، الشيخ أحمد بن علي السوسي الهشتوكي(553) والعارف بالله الأعظم الشيخ محمد بن

(551) هو عبد الله بن إبراهيم بن هلال المعروف بالقليز، شيخ صوفي ينتسب في الطريقة إلى سيدي أحمد بن عمر دفين باب الجيسة بفاس. توفي عام 1093هـ/1682م (راجع : م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 304 **والتقاط**، ص. 225؛ م. الفاسي، **سلوة**، ج 1، ص. 107).

(552) وردت في ق هكذا : بكا دنيوي؛ وفي ك، ش : بكاء دنوري. ولعل الصواب ما أثبتناه.

(553) عالم صوفي ولد بسوس حوالي 990هـ/1582م، وبه كانت بداية تلقيه العلم وملازمة الشيخ عبد الله بن سعيد الحيحي. ثم انتقل للدراسة بمراكش وفاس حيث سكن المدرسة المصباحية. وكان مولاي عبد =

عبد الله الأندلسي[554] المتقدم ذكره، وغير واحد. ولم يزل على حاله من التقشف والاِنقطاع حتى مات ودفن بداره بفاس بوصية منه، إلا أنه اعتراه في آخر أمره ما هو كالغيبة عن المعاملة العقلية، فيحتمل ـ والله أعلم ـ أن يكون ذلك منه تحامقا للتستر على عادته في المبالغة في التستر.

386 هنا انتهى ما أردنا إيراده من صالحي زماننا المعاصرين*.

نفعنا الله تعالى بمحبتهم. وبذلك انتهى المبحث الثالث من مباحث الكتاب.

الخاتمة :

في ذكر المشاهير[555] من أهل البيت القاطنين ببلادنا المغربية، وإنما تعرضنا لذكرهم لأن لأهل البيت ولاية نسبية، ولأن محبتهم من أوجب الواجبات، وفي ذكرهم إثارة لها، ولأن محبتهم أيضا لا تصح بدونها محبة ولي من الأولياء، بل ولا ينتفع بمحبة إنسان بدون محبتهم من حيث أنهم من أهل البيت، وإنما قلنا من حيث أنهم من أهل البيت ليعلم أن محبتهم لا تنافي إنكار شخص معين منهم لفعله المعين[556]، لأنه في
387 الحقيقة إنما أنكر وكره* فعله لا نفسه، بدليل أنه إذا زال ذلك الفعل، عاد الحب إلى ما كان، ولكن يجب أن يكون المنكر عليهم لفعل من الأفعال رحيما بالمنكر عليه معظما له في قلبه [راغبا][557] إلى الله تعالى في تطهيره من ذلك الفعل والعفو عنه، ولا يكون المنكر متبجحا بإنكاره متعظما على المنكر عليه. وهذا المعنى، وإن كان هو الواجب في الإنكار على كل مسلم، لكن هو في أهل البيت أقوى، فيجب [أن][558] يكون الإنسان معهم في إنكاره كالعبد ينكر على أولاد سيده ما لا يرتضيه السيد.

واعلم أن من يجزم بأن مقتضى الشرع في أهل البيت أن لا يعاقب أحدهم بذنب أصلا متمذهب فيهم بمذهب إرجائي، لأنه يعتقد أن التكليف في حقهم

= الله بن طاهر الحسني من كبار شيوخه في العلم الذين أخذ عليهم بفاس. كانت وفاته بهذه المدينة عام 1046هـ/ 1637م (راجع : م. اليفراني، **صفوة**، ص. 68؛ م. القادري، ج 1، ص. 356 **والتقاط**، ص. 105؛ م. الفاسي، **سلوة**، ج 2، ص.5851؛ ع. ابن ابراهيم، **الإعلام**، ج 2، ص. 314 ؛ بروفنسال، **مؤرخو الشرفاء**، ص. 180).

(554) انظر الهامش 509.

(555) وردت وتكررت في النسخ المعتمدة هكذا : المشاهر. والصواب ما أثبتناه.

(556) وردت في س هكذا : المغين. ولعله تصحيف.

(557) خرم في س.

(558) خرم في ك.

388 والوعيد ليس على ظاهره، وهو مذهب* المرجئة القائلين : بأن العبد لا يعاقب بذنب أصلا، وما ورد من الوعيد لا ينفذ، وإنما هو تهديد لمجرد التخويف، كما يخوف الصبي لينزجر، لأنه يقع المخوف به، وهذا مذهب باطل باتفاق، فيجب إذا كان التكليف بالإجماع واحدا بالنسبة إلى أجناس الناس جميعا، أن يعتقد أنهم في الوعيد والتكليف كغيرهم، إلا أن الظن الجميل بالله تعالى أن يجعلهم من جملة المتجاوز عنهم بقرابتهم من رسول الله ــ ﷺ ــ.

وأما ما ورد عن الشيخ زروق[559] مما يقتضي : أنهم متجاوز عنهم ولا يعاقبون بذنب أصلا، فإما أنه حال حب من الشيخ ــ رضي الله تعالى عنه ــ اقتضى ذلك،
389 وإما أنه محمول على الظن الجميل كما ذكرنا. ثم إن مقتضى النصوص الشرعية* : أن محسنهم أعظم من محسن غيرهم لقرابتهم من النبي ــ ﷺ ــ، ومسيئهم أعظم خطرا من مسيء غيرهم، إلا أن الظن الجميل نجاته بفضل الله ورحمته[560]. وبالجملة، فتعظيم أهل البيت ومحبتهم عنوان الولاية، وعلامة السعادة، والتفاوت فيها تفاوت في كنز التقرب ومسابقة في سبب الفلاح والأمان، ولم ير إنسان مرمى بالتهاون بحقهم إلا كانت عاقبته سوءا، ولا إنسان معلوم بالقيام بحق تعظيمهم وودهم إلا نجح في مسعاه.
390 جعلنا الله تعالى من الموصوفين بحبهم، المعظمين لجانبهم*.

ومن أشهرهم شرفاء سجلماسة، وشرفاء العلَم[561] أعني ذرية الشيخ عبد السلام ــ رضي الله تعالى عنه ــ، ثم يليهم في الثبوت والشهرة الشرفاء الجوطيون[562]

(559) انظر الهامش 12.

(560) ورد في هذا الموضوع كثير من الأحاديث النبوية منها : «قال ﷺ : مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح : من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق». كما تفسر كثير من الآيات القرآنية في هذا المعنى، مثل قوله تعالى : **﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة﴾**.

(561) هم شرفاء أدارسة وأبناء القطب عبد السلام بن مشيش، كان جدهم الأول علي بن محمد بن إدريس الملقب بحيدرة، قد التجأ حوالي سنة 971هـ إلى «جبل العلم» الذي منه أتت كلمة «العلميين» والتي عرفوا بها، وهم ينقسمون إلى خمسة فروع رئيسة : العلميون أو بنو عبد الوهاب والشفشاونيون والرحمونيون والريسونيون واليملاحيون (راجع : أ. العلمي، **أنساب أهل العلم**، مخطوط خ ع، رقم 1453 ك؛ م. الفاسي، **مرآة المحاسن**، ص. 176 وما بعدها؛ ع. القادري، **الدر السني**، ص. 12).

(562) هم شرفاء أدارسة أولاد يحيى الجوطي بن محمد بن يحيى بن القاسم بن إدريس، وسموا بالجوطيين نسبة إلى قرية جوطة التي كانت تقع على نهر سبو والتي خربت وخرج شرفاؤها إلى جبل العلم وفاس ومكناس. وقد تفرعت عن الجوطيين فروع منها : الطاهريون، والشبيهيون، والثعالبيون (راجع : م. الفاسي، **مرآة المحاسن**، ص. 183؛ محمد الحسناوي، **«التعريف بالأشراف الأدارسة»**، مخطوط الخزانة العامة 337د؛ ع. القادري، **الدر السني**، ص. 12.

بفاس. وقد سئل بعض الثقات العلماء وحذاقهم بفاس عن شرفاء العلم والجوطيين، فقال : شرف العلميين ثبت بالشمس، وشرف الجوطيين ثبت بالعلم، وكم بينهما ! يعني : أن شرفاء العلم ثبتت [نسبتهم][563] ببنوتهم للقطب الشيخ عبد السلام بن مشيش[564] بالتواتر القطعي، وهو ثبت عنه ادعاؤه الشرف بما يشبه التواتر أيضا من
391 النقل، ومما يدل على* ذلك بحسب الظاهر، قوله في دعائه المشهور : اللهم حققني بحسبه وألحقني بنسبه[565]. وإذا ثبت ادعاؤه الشرف وجب اعتقاد حقيقته، لأنه قطب العلم والعمل، ينزه عن ادعائه هذا المنصب بلا تحقق... وأما الشرفاء الجوطيون، فشرفهم بشهادة[566] الشهود وإثبات العلماء، وذلك مبني على الأحكام الظاهرية.

وأما شرفاء سجلماسة، فشرفهم أظهر من نار على علم، ومن ظهوره لا يحتاجون فيه إلى شهادة شاهد ولا إلى حكم حاكم. ويحفظون نسبهم حفظهم [للفاتحة][567]، وذلك أن جدهم الأول كان بالينبوع[568] حيث تأصل الشرف وعلت
392 أعلامه، وكانت تمر به* ركاب سجلماسة[569] ويسمع منهم ـ كما قيل ـ مدحها، ورغبوه في الانتقال إليها بقصد التبرك، فانتقل معهم إليها وبقي بها إلى أن توفي رضوان الله تعالى عليه. فبقيت الشهادة بذلك من المعتبرين [بذلك][570] من سجلماسة،

(563) زيادة يقتضيها السياق.

(564) انظر الهامش 228.

(565) ورد هذا الدعاء بترتيب آخر: «اللهم ألحقني بنسبه، وحققني بحسبه، وعرفني إياه» (انظر: ح. الزياتي، **شرح الصلاة المشيشية**، مخطوط خ ع رقم 798 ك؛ م. الفاسي، **مرآة المحاسن**، ص. 63).

(566) ق : بشهدة.

(567) خرم في س.

(568) الينبوع أو ينبع كما ورد في كثير من المصادر، إذ ليس المقصود بها المدينة أو الميناء التي تقع على ساحل البحر الأحمر من المملكة السعودية، بل ينبع النخيل الذي وصفه العياشي في رحلته : «هو موضع له عيون ونخيل وزرع بطريق حاج مصر بأول بلاد الحجاز» (راجع : م. البكري، **معجم ما استعجم**، ج 4، ص. 1402؛ ع. العياشي، **الرحلة العياشية**، ج 1، ص. 78؛ ع. القادري، **الدر السني**، ص. 51، **دائرة المعارف الإسلامية** : مادة «ينبع»).

(569) الركب هو اجتماع قافلة الحجاج المغاربة القاصدين مكة. وقد تأسس الركب المغربي في أواسط العهد الموحدي على يد أبي محمد صالح الماجري المتوفي عام 631 هـ. والركب السجلماسي هو أحد الركاب المغربية الآتية : الركب السجلماسي والركب الفاسي والركب المراكشي والركب البحري. وقد كانت سجلماسة نقطة تجمع وانطلاق للركاب البرية الأربعة (راجع : م. المنوني، **ركب الحاج المغربي**، نشر معهد مولاي الحسن، تطوان، 1953).

(570) زيادة من ق وك.

وأنه من أهل النبوءة، وتواثرت في ذريته إلى الآن. وأما ما يذكر من أن أهل سجلماسة وزنوه لأبيه لينتقل إليهم فلا أصل له، وعرف أهل المغرب نداء الأشراف بلفظ المولى[571]، فلنجر على عرفهم في ذكر ما نذكر منهم. فنقول : جدهم المنتقل أولا، وهو مولانا الحسن[572]، كان في ما ثبت عنه رجلا صالحا في ديانته وأمانته مع ما له
من الشرف البين، واستمر على حاله إلى أن توفي، وقبره إلى الآن مزارة مشهورة* 393
بسجلماسة. وله من زمان الوفاة إلى الآن نحو ثلاثمائة سنة، وقد بارك الله تعالى في ذريته فأكثرهم ولله الحمد، فهم يبلغون ما ينيف على الألف من المقاتلة الذكور. وفيهم من [المعاني][573] القرشية ما يغني اللبيب عن الدليل على شرفهم، فلهم من الهمة الرفيعة [ما بهر][574] العقول، ومن همتهم الرفيعة أنهم لا يزوجون بنتهم سواهم حفظا على نسبهم وتكريما لمنصبهم، مع كثرتهم بحمد الله تعالى واتساعهم، ومن العادة أن الاِتساع مظنة المتمكن في المصاهرة، وهم لم تزدهم الكثرة إلا الصون، وتطابقت
عقول إناثهم وذكورهم على ذلك*. 394

ومن همتهم الرفيعة أنهم اختاروا للسكنى سجلماسة التي هي أحفظ البلاد محارم، وأعزها منعا لذوات الخدور، وأقواها سترا للعرض، وأكرمها طبعا للنساء، وأصونها لأعراض الإناث. فيغيب الرجل منهم لجهة السَّوادين أكثر من خمسة عشر عاما عن امرأته ولا تزن بإثره بريبة ولا تتهم بنكبة، ولا يفتقر معها إلى عذر، ولا يلقى معها بعد الإياب إلا ما يسره. فلم يخرج أحدهم من سجلماسة وأطرافها إلا النادر لعارض. ومن همتهم أنهم يترفعون عن مسألة الخلق في أمر معيشتهم، حتى حملهم

---

(571) لم يعرف المغاربة نداء الشرفاء بلفظة «مولاي» إلا مع الحكم الوطاسي وبزوغ السعديين على المسرح السياسي. أما قبل هذا العهد، فقد كانت أسماء الشرفاء على اختلاف شعبهم ترد مسبوقة بكلمة «سيدي». فهذه «الميزة» الأولى لم تكن واردة إطلاقا في النصوص المرينية ولا حتى في الكلام الدارج. ولعل السر في ذلك أنها كانت مقصورة على الملوك المرينيين. إن هذا التطور الذي طرأ على طريقة تسمية الشرفاء بالمغرب وبالخصوص الشرفاء العلويين لا يخلو في حد ذاته من أهمية لهذه الفئة ولتاريخ المغرب الاِجتماعي (راجع : م. القلبي، «مساهمة في تاريخ التمهيد لدولة السعديين»، **مجلة كلية الآداب بالرباط**، سنة 1978، عدد مزدوج، ص. 24).

(572) هو الحسن بن قاسم، دخل المغرب على عهد الدولة المرينية، وذلك سنة 664هـ/1265م. وقد خلف بسجلماسة ولدين هما : عبد الرحمن المكنى بأبي البركات وعلي المعروف بالشريف. كانت وفاته بسجلماسة عام 706 أو 707هـ (انظر: م. العلوي، **الأنوار الحسنية**، ص. 26؛ م. اليفراني، **نزاهة**، ص. 291؛ إ. الفضيلي، **الدرر البهية**، ج 1، ص. 52 وما بعدها).

(573) وردت هكذا : المعان. ولعل الصواب ما أثبتناه.

(574) خرم في س.

ذلك على مباشرتهم للتَجَر بأنفسهم على عادة قبيلتهم القرشية في القديم، فلا ترى
395 واحدا منهم يتكسب ولو من بيت المال إلا القليل* منهم لعارض وقتي. ولهم من
وجوههم سيمة هاشمية تدل على أنهم من بيت النبوءة، يشهد بسببها من لقيهم أنهم
أحق بقول الشاعر[575] في الأشراف :

جَعَلُوا لِأَبْنَاءِ ٱلرَّسُولِ عَلَامَةً ... وَأَرَى ٱلْعَلَامَةَ شَأْنَ مَنْ لَمْ يُشْتَهَرِ
نُورُ ٱلنُّبُوءَةِ مِنْ كَرِيمِ وُجُوهِهِمُ ... تُغْنِي ٱلشَّرِيفَ عَنِ ٱلطِّرَازِ ٱلْأَخْضَرِ[576]

ولهم من حماية الجار والدفع عمن آوى إليهم ما لا يباريهم أحد فيه، ولا ينازعون
في الإختصاص به. وأما الشجاعة فلا يمكن ادعاؤها لأحد من أهل زمانهم عند
وجودهم، وفيهم عدة من الرجال يقوم كل واحد منهم مقام الألف، وكل ذلك مما يدل
على العلوية ويفصح عن الشرف الهاشمي. ومن أخلاقهم أن أحدا منهم لا يشهد
396 بالزور وإن كان* مسرفا على نفسه من تقوى مولاه. وأنك لا تلقى أحدا منهم صغيرا
كان أو كبيرا، إلا وجدته عالما بما يلزمه في أمر التوحيد. ولهم عقول اختصوا بها عن
أجناس أهل زمانهم. وما منهم أحد إلا وهو مفت[577] في الآراء، ملجأً في الرشد
الدنيوي بلا امتراء. ومن أخلاقهم أن تائبهم[578] لا يتلبس بزي المرآين ولا يرضى أن
[يطلب الدنيا بالدين][579]، بل نفسه أرفع عن مظان النفاق في المعاملة الدينية،
وأكبر من أن ترضى برذيلة التختل بالمساعي[580] الدينية على الدنيوية. ومن أخلاقهم
حب أهل العلم، فلا يقبل عندهم من العالم إلا تعظيمه، ولا يصدر[581] من واحد
397 منهم له إلا تكريمه*.

---

(575) قائل هذين البيتين هو الشاعر أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسي، وقد قالهما في العلامة.

(576) ورد هذان البيتان في النسخ المعتمدة على النحو التالي :

جعلوا لهم علامة لباسية ... يتميزون بها عن غيرهم سيما
النبوة في كريم وجههم ... تغني اللبيب عن الطراز الأخضر

ولما كان وزنها لا يستقيم، قمنا بتصحيحهما اعتمادا على ما جاء في هامش نسخة ك، وعلى ما أثبته محمد الفزازي في كتابه **الأنوار في ذكر آل النبي المختار**، ط. دار الفرقان، الدار البيضاء.

(577) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : مفتي. والصواب ما أثبتناه.

(578) كذا وردت في النسخ المعتمدة.

(579) خرم في س.

(580) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : بالمساع. والصواب ما أثبتناه.

(581) ق : يصدق.

وفيهم جماعة وافرة في القديم والحادث من أهل الصلاح الطاهر وإن كان كلهم في الحقيقة صلحاء.

فمن أشهرهم في الصلاح والعلم، مولانا علي بن طاهر[582]، وورث عنه ذريته ذلك، ومن أعظم من ورث عنه ذلك مولاي عبد الله بن الطاهر[583] ثم ولده مولاي عبد الهادي[584]. ثم ولده مولاي محمد[585] الملقب بابن علي، ولم يزل الخير في ذريته إلى الآن.

ومن أشهر صلحائهم مولانا عربي من أهل المراني[586]، وولده مولاي عبد الواحد بن عربي[587]، وقد اشتهرت طائفة منهم يقال لهم : أولاد عبد الله[588].
بالصلاح والمسكنة وهم* على تلك الحال إلى الآن. ومن فخذ منهم يسمون أولاد علي 398
خلفاء زماننا، وفقهم الله تعالى وأدام هناءهم للمسلمين، قد وجدوا أهل المغرب[589] في افتراق فجمعوهم، ووجدوا أهل العلم في انخفاض فرفعوهم. وروي أن أم أجداد بعض قبائل الشرفاء كانت صالحة، وكانت ذات بصيرة، فجعلت تنادي كلا من

---

(582) هو الشريف علي بن طاهر بن الحسن، لم أقف على مكان وسنة وفاته (راجع : **الأنوار الحسنية**، ص. 26؛ **والشجرة الشماء**، ص. 220).

(583) انظر الهامش 387.

(584) انظر الهامش 388.

(585) إليه تنسب زاوية «ابن علي» بمدغرة سجلماسة. تولى القضاء، ومارس التدريس بزاويته التي قصده بها كثير من الناس للأخذ. ولربما كانت وفاته بسبب وباء عام 1089هـ/1678م، وبزاويته دفن (راجع : أ. العلوي، **الأنوار الحسنية**، ص. 67؛ ح. اليوسي، **المحاضرات**، صص. 39، 235—236؛ م. الفاسي، **ابتهاج القلوب**، ص. 298؛ م. اليفراني، **صفوة**، ص. 450؛ م. الحضيكي، **طبقات**، ج 2، ص. 60؛ م. القادري، **نشر**، ج 2، ص. 262؛ إ. الفضيلي، **الدرر البهية**، ج 2، صص. 267—268؛ م. الزكي، **الشجرة الشماء**، مخطوط خ س رقم 223).

(586) أهل المراني هم أبناء السيد محرز بن علي بن القطب السيد يوسف بن مولاي علي الشريف. ومن منازلهم زاوية الأمراني بوادي إفلي، ولم أقف على سنة وفاة مولاي عربي الذي عرف بصلاحه وولايته (راجع : م. الزكي، **الشجرة الشماء**، ص. 226).

(587) راجع أ. العلوي، **الأنوار الحسنية**، ص. 61؛ م. الزكي، **الشجرة الشماء**، ص. 216.

(588) هم الفرع الثالث من فروع القطب سيدي يوسف بن مولاي علي الشريف. وعبد الله بن يوسف بن علي الشريف هذا هو ممن عرف بخياره وعلمه في زمنه. قبره مزارة بسجلماسة، وقد خلف خمسة أولاد هم : السيد الحفيد والسيد قاسم والسيد محمد والسيد علي والسيد أحمد (انظر: إ. الفضيلي، **الدرر البهية**، ج 1، ص. 108 و209؛ م. الزكي، **الشجرة الشماء**، ص. 232).

(589) خرم في س.

أولادها بالوصف الذي يكون لذريته، فتنادي مولانا عليا[590] منهم بالملك، فتقول
مضيفة له إليه : تعال[591] أيها السلطان لي، وهو جد أولاد علي الذين هم خلفاء
399 وقتنا. وتنادي مولاي عبد الله* فتقول تعال[592] أيها العابد لي، فكان في ذريته نسك
وعبادة ومسكنة إلى الآن. وتنادي مولاي بلغيث[593]، فتقول : تعال أيها التاجر لي،
فكان في أولاد بلغيث إلى الآن تجار وأغنياء. وتنادي مولاي أحمد[594]، فتقول له :
تعال[595] أيها الشجاع لي، فكان في ذرية أولاد أحمد إلى الآن شجاعة مفرطة، وإن
كان الشرفاء كلهم شجعانا.

ولهم منازل معروفة مشهورة بسجلماسة، منها : موضوع يسمى أخنوس[596]، وهو لأولاد علي وأولاد بلغيث وأولاد عبد الله وأولاد أحمد. ومنها موضع يسمى بوحميد[597]، وهو [لأولاد][598] أبي القاسم[599] من أولاد الحسن، ومنهم القاطنون

---

(590) هو علي بن يوسف بن علي الشريف، وأمه هي السيدة الخلفية من ذرية بعض الصالحين بسجلماسة وعنه تفرع أولاد علي. توفي بمراكش. ولم نقف على تاريخ وفاته (انظر: اليفراني، **نزهة**، ص. 298؛ ع. القادري، **الدر السني**، ص. 53 وما بعدها؛ م. الزكي، **الشجرة الشماء**، ص. 248).

(591) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : تعلى. والصواب ما أثبتناه.

(592) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : تعلى.

(593) هو عبد الواحد المكنى بأبي الغيث بن يوسف بن علي الشريف، وقد وصف كذلك بالصلاح والنسك. خلّف ستة أولاد تفرع منهم أولاد أبي الغيث. دفن بمقبرة الولي سيدي بوزكري بسجلماسة، وقبره مزارة هناك، ولم أقف على سنة وفاته (انظر: م. القادري، **نزهة**، ص. 297؛ ع. القادري، **الدر السني**، ص. 53؛ إ. الفضيلي، **الدرر البهية**، ج 1، ص. 210؛ م. الزكي، **الشجرة الشماء**، ص. 275).

(594) هو أحمد بن يوسف بن علي الشريف، وصف عند من ترجم له بالشجاعة والحلم، وكذلك بالصلاح والعلم، وهو الذي أسس سور قصر أخنوس. خلف أربعة أولاد. لم أقف على سنة وفاته (انظر: إ. الفضيلي، **الدرر البهية**، ج 1، ص. 205؛ م. الزكي، **الشجرة الشماء**، ص. 282).

(595) وردت في النسخ المعتمدة هكذا : تعلى.

(596) قصر ما زال قائما الآن ويعرف بهذا الإسم. يوجد بجوار ضريح المولى علي الشريف بالريصاني. «وأخنوس» اسم علم يدل على عبد من عبيد مولاي علي الشريف وهو من البربرية، ومعناه : الفلاح (انظر : أ. العلوي، **الأنوار الحسنية**، ص. 59؛ م. القادري، **الدر السني**، ص. 53).

(597) يسمى بوحميد أو أبو حامد، وهو قصر من قصور أولاد الحسن. كان قائما بوادي إفلي. وفي القرن العاشر الهجري، انتقلت أسرة هذا القصر إلى مدغرة تافيلالت وشيدت بها قصرا عرف بالإسم نفسه هناك (انظر: أ. العلوي، **الأنوار الحسنية**، ص. 59؛ ع. القادري، **الدر السني**، ص. 53؛ إ. الفضيلي، **الدرر البهية**، ج 1، ص. 231).

(598) س : أصابها المحو.

(599) ينتسبون إلى الفرع السادس من فروع سيدي يوسف بن علي الشريف وهو السيد الحسن الذي خلف أربعة أبناء هم : السيد قاسم وعبد العزيز والطاهر وعمر. وكان لقاسم بن الحسن بن يوسف خمسة أولاد =

400 الآن* [بملوية][600] من أولاد مولاي السعيد بن عبد الرحمن[601] وبني إخوته. ومنهم القاطنون بمضغرة بموضع يسمى تزنفت[602]. ومنها موضع يسمى ثِعِرمْتْ[603]، وهو لبني عمر أولاد أبي القاسم من أولاد الحسن أيضا، وهم القاطنون الآن بمضغرة بمكان يسمى قصبة الشرفاء[604]. ومنها موضع يسمى حمودة[605]، وهو لأولاد علي بن طاهر وبني عمهم، وهم الآن متفرقون، منهم الساكنون بِتَوْرِرْتْ[606] موضع بمضغرة ومنهم متفرقون في أماكن أخرى بمضغرة والرتب[607]. ومنها موضع يسمى صص[608] وهو
401 لجماعة يدعون أهل صص، وهم إلى الآن فيه إلا قليلا* منهم ففي الرتب. [ومنها

---

(600) خرم في س.

(601) **هو مولاي السعيد بن عبد الرحمن بن يوسف بن علي الشريف، انتقل مع أهله من سجلماسة إلى** مدغرة، ومنها خرجوا إلى أعالي ملوية وسكنوا بوادي الأقصابي وبنوا بها قرية عرفت بهذا الإسم، وهي بالقرب من ميسور، وتبعد عن ميدلت بنحو خمسة وأربعين كلم (أ. العلوي، **الأنوار الحسنية**، ص. 63؛ م. الزكي، **الشجرة الشماء**، صص. 210–218).

(602) تزنقت أو تازنقت من قصور العلويين بمدغرة تقع على بعد 18 كلم تقريبا من الراشدية في اتجاه الرتب وأرفود، قريبة من عين مسكي.

(603) ثعرمت أو تعرمت أحد قصور وادي إفلي شرق الريصاني، وبالقرب من ضريح المولى علي الشريف. ولربما كان معناها : العذراء، وليس تحريفا لتغرمت، أي القصر (انظر: أ. العلوي، **الأنوار الحسنية**، ص. 56؛ ع. القادري، **الدرر البهية**، ص. 1 و63).

(604) قصر ما زال قائما الآن بين الريصاني وقصور الغرفة.

(605) قصر بوادي إفلي. وأصلها حمو بن داوود. وقد جاءت بهذا الأصل في نسخة ك.

(606) هي قصبة توريرت بمدغرة تافيلالت، تقع جنوب الراشدية وتبعد عنها بحوالي سبعة كلمترات وعلى يمين الطريق الرابطة بين الراشدية والريصاني وعلى الضفة اليسرى لوادي زيز (انظر : ع. القادري، **الدر السني**، ص. 54؛ إ. الفضيلي، **الدرر البهية**، ج 1، ص. 231).

(607) منطقة تقع على الضفة الغربية لوادي زيز وتبعد عن الراشدية بحوالي أربعين كلم في اتجاه أرفود، مركزها الإداري والاقتصادي هو «بافوس»، وبها تقع زاوية أحمد بن عبد الصادق الذي تنسب إليه الطريقة الصديقية.

(608) «صص» جمع «صوصو»، وهي قرية بوادي إفلي تقع بين الريصاني وضريح مولاي علي الشريف. وقيل إن «صوصو» اسم علم كان عبدا للمولى علي الشريف. ويقول ابن خلدون بأن «صوصو« اسمٌ لأمة من أمم السودان، فلا يستبعد أن يكون هذا العبد من أمة «صوصو» (راجع : ع. ابن خلدون، **العبر**، ج 6، ص. 412؛ ع. القادري، **الدر السني**، ص. 53).

موضع يسمى بوعلام(609) وهو لأولاد محمد(610) منهم من بقي فيه][(611) ومنهم من سكن من غيره متفرقين.

وكل هؤلاء يجتمعون في جدهم المنتقل من الينبع على القطع والتواتر وهو مولانا الحسن بن قاسم بن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن الحسن بن أحمد [بن إسماعيل بن القاسم بن محمد بن عبد الله](612) بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب(613)، رضي الله تعالى عنه.

فهذه سلسلة نسبهم محفوظة في صدورهم لا يتكلون(614) فيها على تقييد ولا
402 كتاب، بل يحفظون نسبهم على عادة الأوائل* من العرب، ويحفظون حيث افترقوا في الأجداد وحيث اجتمعوا فيما بينهم ومع غيرهم من الشرفاء. ومن الدلائل الدالة على شرفهم، ما ثبت لديهم من فشو رؤيتهم للنبي – ﷺ –، فغالبهم رآه – ﷺ –. وكثيرا ما ينادي الذكر منهم في الرؤيا : يا بني، والأنثى : يا بنتي. ومن الدلائل أيضا تبرك المسلمين بهم، وتوسلهم بهم في كثير من الأمور فيجابون في مطلوبهم وتقضي حوائجهم ببركتهم. ومن الدلائل الدالة أيضا شهادة أهل البصائر لهم بالشرف، وقد
403 ألفينا من شهد لهم بذلك، بنور البصيرة الذي هو أقطع من الأمارات*. وبالجملة فشرف أهل سجلماسة مما لا يتأتى فيه توهم الخلاف إلا من ذي ريبة في دينه، أو ذي شحناء في قلبه لتوفر الدلائل، وتكثر الوسائل مع النقل الفاشي الصحيح الذي كاد يكون كنقل وجوه(615) بغداد. حشرنا الله تعالى في زمرتهم مع أتقيائهم ومع

---

(609) بوعلام أو بوعام كما يعرف الآن وكما ذكرته بعض النصوص القديمة. وهو قصر مرتبط الآن بالريصاني وما زال محتفظا بطابعه القديم.

(610) هم أولاد محمد بن علي الشريف الذي خلف أربعة أبناء هم : الحسن وعبد الله وعلي والقاسم (انظر : ع. القادري، **الدر السني**، ص. 53 وما بعدها).

(611) سقط ما بين معقفتين، من ق، ك.

(612) ما بين معقفتين جاء مكررا في ك وبعيدا عن الصواب، وذلك بالمقارنة مع مصادر أخرى التي تحدثت عن نسب العلويين.

(613) قارنا هذه الشجرة بما جاء في مصادر أخرى فماثلتها مضمونا (راجع : «**مناقب**» الملياني والشبيهي، مخطوطة خ ع تحت رقم 1457د؛ وأ. العلمي، **أنساب أهل العلم**، مخطوط خ ع، تحت رقم 1453د).

(614) ق : يتكلمون.

(615) وردت في س، ك هكذا : وجود.

المنعم عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. آمين يا رب العالمين.

وكان الفراغ من تقييد هذا التأليف المبارك عند صلاة الظهر بفاس المحروسة يوم الأربعاء من أوائل ذي الحجة عام تسعة بعد المائة والألف. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيئين وإمام المرسلين والحمد لله رب العالمين.

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث

فهرس القوافي

الطويل

البسيط

الكامل

الرجز

الرمل

الوافر

فهرس الكتب الواردة في الكتاب

فهرس أعلام الأشخاص المذكورين في الكتاب[1]

(1) رتبنا الأعلام البشرية حسب الحرف الأول في الاسم الشخصي أو الاسم الذي اشتهرت به.

(2) تشير الأرقام البارزة إلى التراجم أو التعريف الذي خص به المؤلف عدداً من الشيوخ. أما الأرقام الأخرى، فتشير إلى باقي الصفحات.

فهرس الأجناس والمجموعات البشرية والفرق

فهرس الأماكن والقبائل والفرق

ف.أماكن

فهرس المحتويات

القسم الثاني : **التحقيق**